مملكة الجوارح

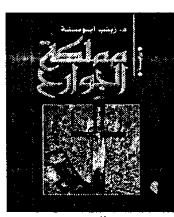
تأليف

د. زينب أبو سنة



مملكة الجوارح

رواية



مملكة الجوارح

EDITORIAL HISPANO-EGIPCIA
SANABEL

الإشراف العام
د. طلعت شاهين

المؤلف :
د. زينب أبوسنة
+2012 7958886
zrsena49@hotmail.com

الطبعة الأولى :
يناير 2006

مكتب القاهرة
(+20) 12 410 20 08
sanabook@maktoob.com
sanabook@hotmail.com

رقم الإيداع:
١١٩٢٠/ ٢٠٠٦

بالتعاون مع:

الترقيم الدولي : .I.S.B.N
84-931366-6-9

دار نارة للنشر والتوزيع
عمان - الاردن
ص ب : 950497
الرمز البريدى: 11195
ت : 079557119
فاكس : 5158438
nara_book@yahoo.com
www.samihakhrais.com

التنضيد: ابراهيم عبد الفتاح
المراجعة: احمد بخيت
لوحة الغلاف للفنان:
محمود محجوب
تصميم الغلاف: كامل جرافيك

حقوق الطبع محفوظة

تقديم

كعادتها د. "زينب أبو سنَّة" تفاجئنا بإحدى مفاجآتها المُدهشة فالكيميائية، الشاعرة، كاتبة الأطفال، الموسيقية، الفنانة التشكيلية، لم تكتفِ بذلك بل أصرت أن تهدينا زهرة جديدة من بستان عبقريتها المُتجددة، وتقتحم بشجاعتها حقلاً إبداعيًّا جديدًا عليها.

في هذا العمل الجديد روحًا ومضمونًا، تُقدم لنا سردًا ساحرًا رغم واقعيته التاريخية لحقبة من أكثر حقب التاريخ المصري اشتعالاً بالحيوية السياسية والعسكرية والإنسانية في نسيجٍ دراميٍّ بالغ التشابك والدقة، وبتعمق تاريخي يصل إلى حد استبصار أدق التفاصيل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإنسانية للحياة المصرية والعربية في واحدة من أكثر لحظات العصر المملوكي تألقًا وازدهارًا.

فـ"مملكة الجوارح" رواية تاريخية بالغة الدقة والجمال مُفعمة بالحيوية والحب والإثارة وتُكرِّس روائية مُقتدرة منذ خطوتها الأولى في فن الرواية، وتكاد تكون بهذه الرواية من نوادر الكُتَّاب الذين يجمعون بين الموهبة الإبداعية والدراسة المُتعمقة للحقبات التاريخية التي يتعرضون لها.

إنه عمل إبداعي رصين جدير بالقراءة ويستحق أن يلتفت له مخرجو الدراما التليفزيونية والمسرحية ليكتشفوا ما في هذا العمل من إمكاناتٍ إبداعيةٍ جديدة....تحية من القلب للروائية والرواية.

أحمد بخيت

القاهرة في

2005-10-28



الحياة

كانت "القاهرة" من أكثر المدن ازدحامًا في عصر "المماليك"، اتسمت بكثرة منازلها وضيق طرقاتها وازدحامها بالسوقة والدواب، وبانتشار الباعة المتجولين يصيحون صياحًا مستمرًا.

كان الشارع ضيقًا لتوفير الظل وحماية المارة من وهج الشمس ولاسيما في فصول الصيف يكتظ بالجمال التي تحمل القِرَبْ ويطوف بها السقاة على المنازل لإمداد الأهالي بروانبهم اليومية من المياه، أما الحمير فكانت تُستخدم كوسيلة نقلٍ، وقد شدد "المحتسب" على أصحاب الدواب أن يُعلقوا في أعناق دوابهم الأجراس حتى تعلو جلبة الدابة إذا عبرت السوق فيحتاط الناس منها.

كانت الأسواق عامرة في ذلك العصر بالبضائع المختلفة، وحركة البيع والشراء نشطة نشاطًا ملحوظًا، فالحوانيت حافلة بأنواع المأكولات والمشروبات وكافة الأمتعة، وفي الشوارع ترى من يُسَمُّون بالمجاذيب أو الدراويش يحملون مباخرهم ويطوفون بالأسواق فيتبرك بهم، والحلاقين يسعون في الشوارع ويطوفون بالبيوت ومراياهم معلقة في رقابهم، وقد اهتم الولاة بتجميل ونظافة "القاهرة" فأمروا بكنس الشوارع ورشها بالمياه كل يوم لعدم إثارة الأتربة، كما أمروا كل تاجر أن يضع أمام متجره أزيارًا مليئة بالماء كأسبلة ولإطفاء الحرائق، أما نظام الصرف الصحي فكان عبارة عن خزانات تتجمع فيها المياه القذرة المُنصرفة من البيوت والحمامات فيقوم المشاعلية بنزحها وتنظيفها من حينٍ لآخر مقابل أجر معين.

إن مهندس ذلك العصر أدرك حق الإدراك ما تقتضيه الحياة في بلدٍ حارٍ فصمم المنازل وجعل لكل منزل فناءً مُتسعًا تتوسطه حديقة تكسبه جمالاً بما ينمو فيه من أشجار، وفي أحد أركان هذا الفناء حفر بئرًا تستعمل مياهه في شتى الأغراض ماعدا الشرب، فقد كانت تُحمل من أجله مياه النيل على ظهور الدواب وظهور السقايين، وحول هذا الفناء تقوم غرف المنزل والغرف العليا تطل على الطريق بنوافذ تغطيها المشربيات تسمح للهواء بالنفاذ إلى داخل الحجرات فتوفر لها جوًّا مناسبًا ولا تسمح لأحد من الخارج برؤية ما يجري في الداخل، أما غرف المنزل فكانت فسيحةً وأجملها غرفة الاستقبال التي عادة

ما كانت تتوسطها نافورة تضفي على المكان سحرًا فضلاً عن ترطيب الجو، ولم يكن لكل غرفة غرض محدد بل جميع الغرف منفصلة عن بعضها تصلح في الليل للنوم، وفي النهار للجلوس وتناول الطعام، وأهم أثاث ذلك العصر الطنافس والزرابي والمساند لتوفر للجالس الراحة، وأوانٍ شتَّى من النحاس والخزف والزجاج وصناديق من خشبٍ تُحفظ فيها الملابس وما تحتاج لإخفائه من أقمشة ومصاغ وخلافه.

كانت "القاهرة" مليئة بالمؤسسات الاجتماعية، ما هو خاص بالمُسافرين والتجار كالفنادق والخانات والوكالات وماهو عام لأهل المدينة مثل: الأسبلة والحمامات.

أما قطاعات الشعب فمنهم أصحاب العمامة أي قطاع المثقفين بقضاته وفقهائه وكتابه وكان لهم نفوذٌ كبيرٌ على أفراد الشعب، كما كانوا محل تكريم وتقدير من السلاطين والحكام، كانوا هم الزُعماءَ والمُصلحين، يُساعدون الأهالي على فهم حقوقهم وواجباتهم، كما كانوا مبعثًا لإذكاء الروح المعنوية كلما هَدد الأعداء البلاد أو نزلت بالشعب كارثة كالفيضانات والأوبئة والزلازل وغيرها.

وقد أُنشئت أماكن مستقلة للدراسة عُرفت بالمدارس، ولم يقض ظهور المدارس على حلقات العلم في المساجد وبيوت العلماء بل ظلت جميعًا تؤدي وظيفتها جنبًا إلى جنب، فكانت الدراسات التي يتلقاها الطالب هي "القرآن الكريم"، والدين الإسلامي، واللغة العربية، والحساب، فإذا ما أتموا ذلك في الكتاتيب الملحقة بالمساجد انصرفوا إلى دراسة الفقه أو الطب أو الفلك أو التاريخ أو الهندسة أو الرياضة، وانصرف معظم الطلبة في ذلك العصر إلى الدراسات الدينية، فقد كانت الطريق إلى وظائف الوزارة والقضاء والإفتاء والحسبة وغيرها، وكانت تدر على من يشغلها الخير الوفير.

تعددت وسائل الترفيه والتسلية في عصر "المماليك"، وكَثُر خروج الناس إلى الحدائق والمُتنزهات والبِرك، مثل: "بِركة الأزبكية"، و"بِركة الحبش"، و"بِركة الرطلي"، و"جزيرة الروضة"، التي قصدها الناس للنزهة والتمتع بهوائها، فكانوا يلجأون في فصل الصيف إلى استئجار القوارب للتنزه بصحبة أصحاب المغاني وجوقات العوالم، كما شغفوا بسماع الموسيقى والغناء وكان لهما أهمية كبرى لدى السلاطين مما جعلهم يغدقون على المغنيين والمغنيات أمثال: "كُثيلة بن مُرافَعان" و"عبد العزيز الحفني" المتوفي عام 710 هـ والذي كان أعجوبة زمانه في فن الغناء، ولكن الدولة فرضت عليهم ضريبة تسمى "ضريبة ضمان المغاني"، أما الآلات الموسيقية فكثيرة منها: الطبول والزمور والقانون والعود والرباب والساجات والرِّق، وشاع في "القاهرة" "خيال الظل" الذي أصبح تسلية جميع

طبقات المجتمع، ومن أكبر الشخصيات التي أسهمت في تأليف تمثيليـات "خيـال الظـل" "محمد بن دانيال الموصلي" المتوفى عام 710 هـ، كما تلهى الناس بعدة ألعـاب اتخـذت طابع المُقامرة مثل: "مناطحة الكباش"، و"مناقرة الديوك"، و"تطيير الحمام"، كـذلك ألعـاب البهلوانات والحواة، أما الشطرنج فظلت لعبةً ذات شأن كبير في عصر "المماليك"، يختص بها السلاطين والأمراء والأثرياء.

وقد بلغ الاحتفال بالأعياد في عصر "الناصر محمد بـن قـلاوون" مبلغًـا عظيمًـا، فاشترك الأمراء والسلطان مع عامة الشعب في إحياء تلك الأعياد والاحتفال بها بتوزيـع الصدقات وإقامة الولائم كالاحتفال بعاشوراء في مُحرم، وكذلك المولد النبوي فـي ربيـع الأول وكان له أهمية خاصة تتناسب مع جلالة ذكراه، وكذلك الاحتفال بدوران المحمل.

أما شهر رمضان فكان له وضعٌ خاص يستوجب المبالغة في إحيائه، فيبـدأ برؤيـة الهلال من مكانٍ مرتفعٍ خارج "القاهرة"، ثم يعود الموكب بعد صلاة المغـرب وبأيـديهم المشاعل والفوانيس تعبيرًا عن ثبوت الرؤية، وينتهز السلاطين فرصة ذلك الشهر للتوسع في أعمال البِر والإحسان بتوزيع الصدقات على الفقراء وإعداد المطابخ لإطعـامهم، أمـا عيد الفطر في شوال وعيد الأضحى في العاشر من ذي الحجة، فيُستَعَدّ لعيد الفطر بعمـل الكعك والحلوى، وعيد الأضحى بإعداد الأضاحي.

في صباح كل عيد يجتمع أهالي كل حي أمام منزل الإمام يزفونه حتى المسجد وهُـم يُكَبِّرون طوال الطريق، وبعد أداء الصلاة ينتشر الناس إلى القرافة والنيل ولم تكن القرافة مكانًا لدفن الموتى فحسب بل كانت مدينة صغيرة بها جميع مرافق الحيـاة ومكانًـا للهـو والتفريج، يخرجون إليها في الأعياد ومعهم الرياحين والزهور بصحبة أولادهم ونسـائهم، فيكثر الغناء وأحيانًا يحدث ما يحدث من اختلاط النساء بالرجال.

أما الاحتفال بالأعياد الوطنية كوفاء النيل أو قيام سلطان جديد في الحكـم أو عـودة سلطان ظافرًا من الحرب فكانت البلاد تشهد احتفالات كثيرة تمثل للشعب المصري متنفسًا من معاناة الحياة.

البطل

ظهر "الصليبيون" بالشرق الأدنى في أواخر القرن الحادي عشر واجتاحوا العالم العربي بعد سقوط "الخلافة الفاطمية" وقيام "دولة الأيوبيين" سنة 1171م، وكان لها دورًا هامًا مما أدى إلى فرصة ظهور أبطال على مسرح التاريخ كـ"صلاح الدين الأيوبي" الذي سجل التاريخ بطولاته، وبعد "صلاح الدين" لم يستطع أحدٌ من الخلفاء أن يواصل سياسته بنفس القوة، بل انقسم "البيت الأيوبي" على نفسه بعد وفاته حتى اضطروا إلى الاعتماد على "المماليك" للدفاع عن مصالحهم ضد الخطر الخارجي من ناحية، وصراعات أهل البلاد من ناحيةٍ أخرى، وبالتالي ازداد نفوذ "المماليك" في "مصر" حتى انتهى الأمر بسقوط "دولة الأيوبيين" وقيام "دولة المماليك" سنة 1250م.

كان للمماليك طباعٌ خاصة فرضتها عليهم نشأتهم، وكان عصرهم عصرًا بارزًا بين عصور التاريخ العربي، إذ ظهروا في ظروفٍ قاسيةٍ في مواجهة خطر "الصليبيين" من ناحية وخطر "المغول" من ناحية أخرى.

وكان لانحلال القوى الإسلامية وتفككها تأثيرًا كبيرًا في انتصار "الصليبيين" بادئ الأمر، ولكن بعد أن تمكن "نور الدين محمود بن زنكي" من جمع وحدة شمال "العراق" و"الشام" و"مصر" سهّل لـ"صلاح الدين" انتصاره في "حطين" سنة 1187م، وانتزاع مُدن ومعاقل كثيرة للصليبيين في "الشام".

وسط هذه الصراعات وُلدت "دولة المماليك" ليجدوا أنفسهم أمام مسئولية تطهير البلاد من الغاصبين، وتأمين حدود "مصر" وطرد "الفرنجة" من "الشام" لتعود إلى أهلها، فواصلوا الجهاد وأظهر فرسان "المماليك" وسلاطينهم ألوانًا عديدةً من البطولات في مواجهة خطر "المغول" الذين ثبتت قواعدهم في "بلاد فارس"، فدان لهم بالطاعة "سلاجقة الروم"، ومن هنا كان الوطن العربي في محنة بعد أن طوقه "المغول" من الشرق و"الصليبيين" من الغرب.

غزا "المغول" "العراق" سنة 1257م، وسقطت "بغداد" سنة 1258م، وقُتل الخليفة، وكان "المماليك" بطبيعة ظروف نشأتهم طبقة عسكرية مُمتازة سيطرت على البلاد وأحكمت قبضتها على الفتن الداخلية.

كان "المماليك" ينتسبون إلى أساتذتهم أو ساداتهم الذين اشتروهم كـــــ"سـيف الـدين قلاوون الألفي" والد "الناصر محمد"، فـــ"قلاوون" الأب أصله من أتراك أواسط "آسيا" من جنس "القبجان" الذين استقروا حول حوض "نهر الفولجا" في جنوب "روسيا"، وقد اشـتراه الأمير "علاء الدين أيدكن البندقداري" أحد مماليك الملك "العادل الأيوبي" بألف دينار لمـا امتاز به من جمال ووجاهة، ولما مات أستاذه "علاء الدين" انتقل إلى خدمة الملك "الصالح نجم الدين أيوب" مع عدة مماليك آخرين، فعُرفوا بـــ"العلائية" نسبة إلـى "عـلاء الـدين"، وظل في خدمة "الصالح أيوب" حتى توفي، ثم انتقل إلى خدمـة غيـره مـن "المماليـك البحرية"، ثم في خدمة الجيش المصري أيام السلطان "الظاهر بيبرس"، وتزوج بابنة أحـد الأمراء، واحتفل السلطان "بيبرس" بهذا الزواج احتفالاً كبيرًا، وتسابق الأمراء فـي تقـديم الهدايا، وكانت أعظمها هدية السلطان التي كانت مكونة من الخيـل والأقمشـة وعشـرة مماليك، وقد قبل "قلاوون" الهدايا كلها ماعدا "المماليك"، واعتذر للسلطان قـائلاً: هـؤلاء زملائي "خوشداشتي" في خدمة السلطان، وقبل "بيبرس" اعتذاره، وأثنـى علـى رجاحـة عقله.

رُقيَ "قلاوون" إلى وظيفة "أتابك العساكر" عام 679 هـ، وصار اسمه يظهـر مـع السلطان "العادل سلاميش" على المنابر، وتصرف تصرف الملوك، وبعد ثلاثة أشهر اختير سلطانًا على البلاد في شهر رجب من العام نفسه، ووضع نصب عينيـه القضـاء علـى "المغول" الذين احتلوا "بلاد الشام"، فبعد أسبوع واحد عين ابنه "عليًا" وليًـا للعهـد حتـى يتفرغ هو للسفر إلى "الشام" لإخراج "المغول"، وركب ابنه بشعار السلطنة ولُقِّب بـــ"الملك الصالح"، وشقَّ موكبه "القاهرة" من "باب النصر" إلى "قلعة الجبل"، وخطب له على منابر "مصر" كلها بعد والده وكتب لــ"بلاد الشام" بذلك.

بعد اعتلائه عرش البلاد بعامين تزوج "قلاوون" بزوجة جديدة أميرة مغولية تسـمى "آشلون" كانت تعيش مع والدها الذي فَرَّ من بلاده من سخط ملوك "المغول" عليه، وعاش في كنف السلطان "الظاهر بيبرس" موفور الكرامة مُتمتعًا بكل ما كان يـنعم بـه أمـراء "المماليك".

كانت سياسة "قلاوون" مثل سياسة غيره من أمراء "المماليك" تقوم على الإكثار مـن شراء "المماليك"، إذ كان الاستقرار في الحكم يتوقف على كثرة الابتياع وكان العـرش لا يتربع عليه إلا أقوى الأمراء وأكثرهم شجاعة وأعظمهم مهارة في الحروب، وكثيرًا مـا كان القائد العام للجيش يَغتصب العرش بحكم ما كان له من نفوذ قوي إذا ما كان السلطان

صغيرًا أو ضعيفًا، ولم يشذ "قلاوون" عن هذه القاعدة فعندما وجد في نفسه القوة اغتصب العرش من "العادل سلاميش" ابن "الظاهر بيبرس".

كان لـــ"قلاوون" في نفس مماليكه قوة وهيبة، وما كان يستطيع واحدٌ منهم أن ينهـــر خادمه إذا أخطأ وهو في حضرته.

في السادس عشر من شوال عام 682 هـــ توفيت زوجة السلطان الأولى التـــي رُزق منها بولده "علي" (ولي العهد)، وكان لوفاتها حُزنًا في نفس "قلاوون"، وعاشـــت زوجتـــه الجديدة "آشلون" معه في "قلعة الجبل" عيشة هانئة، وفي منتصف المُحرم سنة 684 هـــ بزغت شمس "محمد بن قلاوون" في سماء "مصر" وسمَّاه "مُحمدًا" لتفـــيض عليـــه أنـــوار وبركة هذا الاسم الشريف ونُعت بـــ"الناصر"، ولقد وردت بُشـــرى مولـــده إلـــى والـــده "قلاوون" وهو يحارب "الصليبيين" في "خربة اللصوص" بالقرب من "دِمشـــق" فاستبشـــر الملك "المنصور قلاوون" بمولده، وتيمن به وبلغ مقصده من فتح "حصن المرقب".

ولقد عمت الأفراح "قلعة الجبل"، ولا ينسى للسلطان "المنصور قلاوون" تلك العبـــارة الشهيرة التي قالها حينما قام ببناء بيمارستانه الشهير إذ قال: "إني بنيته لوجه الله لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس، ممن هو مثلي أو دوني، للغنـــي والفقيـــر، للحـــر والعبد، للذكور والإناث" لقد قالها عندما كانت "أوربا" تسبح في ظلمات الجهالة وتفتك بهـــا الأمراض.

هذه نشأة "قلاوون الأب" الذي لم يسعفه العمر طويلاً فمات وابنه "الناصـــر محمـــد" مازال طفلاً صغيرًا لم يتجاوز الخمسة أعوام، ودُفن تحت تلك القبة العظيمة التي شـــيدها عام 689 هـــ.

برز "الناصر محمد" ليقوم هو الآخر بدوره العظيم في تلك الدولة بعد أن توالت عليه المؤامرات من مماليك الأمراء والتنافس فيما بينهم على اغتصاب مُلكه بتدبير المكائد لـــه، ورغم هذا فقد حكم "الناصر محمد" "مصر" ما يقرب من 46 عامًا.

قلاوون الأب

عزم السلطان "سيف الدين قلاوون الألفي" على السفر إلى "بلاد الشام، فخـرج وفـي صحبته ولداه "علي" و"خليل"، وبعد أن تناولوا طعامهم فاجأ المرض "عليًا" بالليل فاضطر السلطان إلى العودة إلى "قلعة الجبل".

اشتد المرض على "علي" وكثر إسهاله الدموي مما دفع السلطان إلى تأجيل سفره حتى يطمئن عليه، فقد كان يؤثره على أخيه "خليل" ويحبه حبًا عظيمًا، وأخذ "قلاوون" يكثر من الصدقات ومن التضرع إلى الله ليكتب له الشفاء، فبعث في استدعاء بعض رجال الصوفية المعروفين بالصلاح والتقوى ليلتمسوا لولده الشفاء من الله، وكان ممن استدعاهم الشيخ "المرجاني"، ولكنه رفض الحضور، فبعث السلطان إليه بمبلغٍ كبيرٍ من المال ليعمل "وقتًا" ثم يطلبون ولد السلطان من الله، فقال الشيخ "المرجاني" للرسول: سلم على السلطان وقل له "متى رأيت فقيرًا يطلب أحدًا من الله، فإن فرغ أجله فوالله ما ينفعه أحد، وإن كانت فيه بقية..فهو يعيش، ورد الشيخ المال إلى السلطان"، فبعث "قلاوون" إلى صوفي آخر يُدعى الشيخ "عمر أبي السعود"، فحضر إليه وطلب منه السلطان أن يدعو لولده "علي" فقال له "أبو السعود" بغير حرج: أنت يامولاي رجل بخيل، ولو خرجت للفقراء عن شئ لعملوا "وقتًا"، وتوسلوا إلى الله أن يهبهم ولدك لَتَعَافى، فأعطاه السلطان مبلغًا كبيرًا من المال ثم عاد الشيخ وقال له: طيب خاطرك فالفقراء كلهم سألوا الله ولدك وقد وهبه لهم، ولكن مات "علي" بعد أسبوعين وبضعة أيام، ورأى السلطان الشيخ بعد الوفاه فقال له: ياشيخ "عمر" أنت قلت أن الفقراء طلبوا ولدي من الله وقد وهبه لهم، فأجاب الشيخ "أبو السعود" من فَوْرِه: نعم يامولاي..الفقراء طلبوه ووهبهم إياه ألا يدخل جهنم ويدخله الجنة، فسكت السلطان.

حزن السلطان "قلاوون" على ولده "علي" وبكاه بكاءً مريرًا، ولاحظ الطفل الصغير "محمد" وقد بلغ الثالثة من عمره حركة غير عادية فإذا بآيات الحزن مرتسمة على وجوه كل من يصادفه، فأسرع الصغير إلى أبيه السلطان لعله يجد البشر عنده كما كانت عادته كلما لقيه، ولكنه رآه هو الآخر حزينًا تنحدر الدموع من مقلتيه في سكون، وكانت هذه أول مرة يرى فيها والده باكيًا، فأخذ يسأل عن السبب حتى عرف أن أخاه الأكبر "علي" قد مات.

كان لـ"علي" مكانة ممتازة في نفس أبيه، يعلق عليه الآمال ولكن هكذا شاءت الأقدار، وحضر الناس للصلاة عليه في القلعة، وكان السلطان وولده "خليل" من بين المقيمين لصلاة الجنازة، ثم حُمل الجثمان إلى خارج القلعة وصلى عليه السلطان للمرة الثانية، ثم دُفن بمقبرة أمه القريبة من مشهد السيدة "نفيسة"، وترك وراءه ولدًا واحدًا صغيرًا هو "موسى".

حزن الشعب حزنًا عميقًا على الأمير "علي" لما اتصف به من دماثة الخلق ورقة الحاشية، ولكن السلطان أرسل كتب العزاء إلى النواب بالممالك، ورسم فيها ألا يلبس أحد ثوب حداد ولايغير زيه، رغم علمه بمدى حب الرعية لولده.

بعد أسبوع من هذا الخطب العظيم فوض السلطان ولاية العهد لابنه الثاني "الأشرف خليل"، فركب بشعار السلطنة من "قلعة الجبل" إلى "باب النصر"، وعبر إلى "القاهرة" فخرج من "باب زويلة"، ثم صعد إلى القلعة والأمراء يسيرون في خدمته، وحلف القضاه والجند له وكتب ذلك إلى سائر البلاد.

لم يكد يمر على وفاة "علي" سنتان وبضعة أشهر حتى اهتزت أرجاء البلاد وارتبكت شؤون الدولة، فقد مات السلطان "قلاوون" الذي خرج منذ بضعة أيام إلى "بلاد الشام" لتأديب "الصليبيين" في "عكا" وعاد إلى القلعة محمولاً على الأكتاف، قبل أن يبرح حدود "مصر" في السادس من ذي القعدة عام 689 هـ، وأقيمت مراسم الحزن في القصر، وجُهز الفقيد للقاء ربه ثم حُمل في موكب حافل إلى مثواه الأخير، تلك تحت تلك القبة العظيمة التي شيدها، وهكذا حُرم "محمد" وهو لايزال صغيرًا من عطف الوالد ورعايته.

الأشرف والعرش

السوق مزدحم بالناس نساءً ورجالاً وأطفالاً وبالبائعين المتجولين ببضائعهم ساهمين في صمتٍ يلتفون حول المُنادي، و"السقا" يحمل قربته على ظهره، والمجذوب بملابسه الغريبة حاملاً مبخرته يصيح بين الناس ويهذي بكلمات، والجو يلف الجميع بالفرح الممزوج بالاندهاش، والتجار واقفون أمام متاجرهم فرحون مكبرون بينما المنادي ينادي مُكررًا "يا أهل "القاهرة".. يا أهل البلاد.. أصبح "الناصر محمد بن قلاوون" سُلطانًا للبلاد، يا أهل "القاهرة".. يا أهل البلاد.. عُين الأمير "سلار" نائبًا للسلطان".

وبعيدًا يجلس على حجرٍ أمام بيتٍ عتيق عجوز يدعى "زمزم" بجواره ابنته "سلسبيل"، الفتاة الجميلة البيضاء واسعة العينين "الكاعب ذات الأربعة عشر ربيعًا"، يتنهد العجوز ويهز رأسه مبتسمًا ومتمتمًا: نعم لابد وأن يرجع الحق لأصحابه مهما طال الزمن، لا يضيع حقٌ وراءه مطالب:

فالحق مرتجـعٌ إلـى أربابهِ   من كفِّ غاصبهِ وإنْ طـالَ المدى

فترد الفتاة متسائلة أتحدثني يا أبي.. لم أسمعك، فيقول العجوز رافعًا سبابته: يا "سلسبيل" يا ابنتي، لقد كنتُ صغيرًا وكما تعلمين، كان جدك هو المسؤول عن سقاية "قلعة الجبل" بما فيها من قصور، وكان دائمًا يصحبني معه لأساعده في عمله، وحينما توفاه اللهُ أبقاني السلطان "المنصور قلاوون" أبا "الناصر" على السقاية، كما كان أبي من قبل، فتسأله الفتاة أتقصد هذا الذي ينادون عليه الآن باعتلاء عرش البلاد، فيهز العجوز رأسه تأكيدًا لابنته ثم قال: نعم هو يا ابنتي... تعتذر الفتاة لمقاطعة أبيها، ويستكمل الرجل حديثه قائلاً: كان "الناصر" طفلاً صغيرًا لا يتجاوز عمره الخمسة أعوام حينما توفى أبوه السلطان "المنصور سيف الدين قلاوون" رحمه الله، وتوالت عليه المؤامرات، وبات كل أميرٍ يترصد الآخر، ويفتكُ بعضهم ببعض سعيًا للوصول إلى كرسي العرش، لم يسلم المسكين الطفل البرئ من غدرهم فقد خُلع ثلاث مرات على أيدي أمرائهِ بعد أن كشفوا عن طوايا أنفسهم، لهذا أقول: لقد رُدَّ الحق لأصحابه، أفهمت الآن ماذا أقصد؟ فقالت: ومن جاء سلطانًا على البلاد بعد موت السلطان "المنصور قلاوون" أبا "الناصر" هذا؟ رد "زمزم":

جاء "الأشرف خليل" أخو "الناصر"، ولكن سرعان ما انقلب عليه الأمراء وتـآمروا علـى قتله بعد ثلاثة أعوام من اعتلائه عرش البلاد رغم كل ما فعله من صالح للبلاد وانتصاره على "الفرنجة" وطردهم من "عكا" آخر معقل لهم، هذه هي الحكاية، فقالت الفتاة: أريـد أن أعرف الحكاية منذ أن اعتلى "الأشرف خليل" العرش ونادوا عليه سلطانًا للبلاد حتى وقتنا هذا، فمـاذا حـدث بعد ذلك؟ تنهد العجوز وأرجع رأسه للوراء عائدًا بالذاكرة.......ثـم قال: " آه... إنها حكاية طويلة يابنتي، مليئة بالغدر والمـؤامرات والعجائـب المثيـرة.. اتركي هذا لوقت آخر"، فقالت: أرجوك ياأبي شوقتني، أريـد أن أعـرف، رد العجـوز: صحوتُ ذات يوم على ضوضاء بالخارج، ونداء المُنادي وهو يقول مكـررًا: "يـا أهـل القاهرة... يا أهل البلاد... أصبح الأمير "خليل" سُلطانًا للبلاد"، خرجت مسرعًا على نـداء المنادي فإذا بالشوارع تموج بالبشر، من يتهامس، من يضرب كفًا بكف، من يـدعو لـه بدوام البقاء، والشيخ "نجم الدين" المجذوب يطوف كعادته بين الناس مُمسكًا بعصاه نـاظرًا لأعلى مكررًا ما يقوله:

هناك ولا هناك هناك الفرض الصمد حي لا ينساك

وبعض التجار يجلسون في متجر "زين الدين" يعلقون على نداء المنادي بـين مؤيـد ومعارض فيقول "زين الدين": رحم الله السلطان "المنصور قلاوون"، قد فوض ولاية العهد لابنه "الأشرف خليل"، واستحلف القضاة له والجند وكتب ذلك إلى سائر البلاد منذ عـامين قبل وفاته، خاصة بعد وفاة ابنه الأكبر وولي عهده الأمير "علي"، يرد عليه "عماد الـدين" مُستنكرًا: كيف وقد قيل أن السلطان "قلاوون" لم يوقع على مرسوم ولاية العهد حتى يـوم وفاته وقد قدمه له القاضي مرارًا وتكرارًا!، ولكنه في كل مرة كان يرفض التوقيع، يعضد "شهاب الدين" مؤكدًا صحة ما قاله "عماد الدين": أجل.. سمعنا ذلك، وقد قـال السـلطان للقاضي: والله ما أولي "خليل" على المسلمين أبدًا لما فيه من غلظة وعنف، وقـد كرهتـه الناس، وكان السلطان "قلاوون" رحمه الله أول من أدرك ذلك، فلم يشأ أن يوليه السـلطنة من بعده حبًا لشعبه فامتنع عن توقيع مرسوم ولاية العهد.

علق "زين الدين": ولكن شاءت الأقدار أن يولى "الأشرف خليل" السلطنة، سبحان الله يهب المُلكَ من يشاء وينزعه ممن يشاء، فأعطاه الله مامنعه "قلاوون"، فيرد "عماد الـدين" مستنكرًا: أعتقد أن "الأشرف خليل" كان يرتب لهذا اليوم من زمن بعيـد، فلقـد انتشـرت الإشاعات هنا وهناك حينما توفي ولي العهد الأمير "علي" أخوه الأكبر بأن "الأشرف" دس

السُّم لأخيه للخلاص منه لنقمته عليه لفرط حب السلطان "قلاوون" له، رد "شهاب الـــدين" مُستغربًا: سبحان الله..شتان بين الاثنين، فالأمير "علي" على شاكلة أبيه "المنصور قلاوون" وكان له في نفس السلطان مكانة عالية يُعلق عليه الآمال بأن يخلفه في الملك، أما "خليل".. أعوذ بالله، كان السلطان "قلاوون" يرى فيه كبرياءً وغرورًا يُنفران النـــاس منـــه، وبـــه غطرسةٌ في معاملة مماليكه، ومماليك أبيه، وكل من يتصلون به، قال "عماد الدين": رغـــم هذا الاختلاف فالحق يُقال أن "الأشرف خليل" يلتقي مع أبيه "المنصور قلاوون" في صـــفةٍ واحدة.. الإصرار على إخراج "الفرنجة" من "بلاد الشام"، هـــز "شـــهاب الـــدين" رأســـه استسلامًا وقال: لله الدوام..غدًا سنرى ما تخبئه لنا الأيام، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

أمام المتجر مرَّ المجذوب "نجم الدين" كعادته متوكئًا على عصاة، حـــاملاً مبخرتـــه، مُنصتًا لكلامهم، فصدحت في الأفق عبارته المضيئة...

هنــاك ولا هنــاك هنــاك   الفرض الصمد حي لا ينساك

قاعة المُلك

بات "الأشرف خليل" لا يفكر إلا في الخروج إلى "الفرنجة" لطردهم من "عكا" نهائيّــا حتى قيل أنه ذهب للكهنة والعرافين يستطلعهم الأمر، رغم أنه كــان شــجاعًا، مقــدامًا، جسورًا، لا يباريه أحدٌ، فتنبؤا له بالنصر على الأعداء.

جلس "الأشرف خليل" على كرسي العرش في زهوٍ وغرورٍ جامعًا أمــراءه ونائبــه ووزيره يُحدثهم بتشامخٍ وتحفزٍ وعجرفة: أيها الأمــراء.. تعلمــون جميعًــا أن الســلطان "قلاوون" والدنا الشهيد رحمه الله كان يستعد قبل رحيله للخروج إلى "الشام" لتطهير "عكا" من أيدي "الفرنجة" ولكن القدر لم يمهله، ولقد استعدنا من قبل "بيت المقــدس" وأخرجنــا "الفرنجة" منه صاغرين، وسبق أن استعدنا "دمياط" ولم يبقَ أمامنا غيــر اســتعادة "عكــا" وإخراجهم من آخر معقل لهم في "بلاد الشام"، ذلك الذي يستميتون عليه ويتحصــنون بــه ضد غزواتنا وهجماتنا، وقد حان الوقت للقضاء عليهم وكسر شوكتهم، فما رأيكــم أيهــا الأمراء فيما أقول؟ رد عليه الأمير "بدر الدين بيدرا": فلنتجهز للخروج إليهم إذًا.. لا بديل غير ذلك يا مولاي، اعتدل السلطان في جلسته رافعًا رأسه بزهوٍ لأعلى واضعًا يداه فــي جانبيه ثم قال: كم من الوقت تحتاجون للإعداد والتجهيز حتى نخرج بجيوشنا إلــى "بــلاد الشام" لتنضم جيوش "الشام" إلينا؟ نظر الأمراء بعضهم لبعض وقد طال انتظار الســلطان لسماع ردهم، فقال: أيخالفني أحد منكم الرأي أيها الأمراء ، فلم أسمع منكم ردًا غيــر مــا سمعته من الأمير "بيدرا"؟! فوقف الأمير "زين الدين كتبغا" مُعلنًا عن رأيه وقال: نوافــق على كل ما أمر به مولاي وعلى ما قاله الأمير "بيدرا"، وأعتقد أن أسبوعًا واحــدًا يكفــي كي نتجهز، فانبرى الأمير "حسام الدين لاجين" وقال: لا رأي لي بعد رأي مولاي، وخشى الأمير "بيبرس" أن يوجه له السلطان سؤالاً فتدارك الأمر وقال: نعم يامولاي.. فلنعد لهــم العدة ولنخرج إليهم ولندعو الله أن يمنحنا القدرة على تأديبهم ووضع خاتمةً لتلك الحروب التي استمرت قرابة قرنين من الزمان والتي أنهكت الأمة، هزَّ الســلطان رأســه قــائلاً: أجل..فقد حان الوقت يا "بيبرس" للقضاءعليهم نهائيًا بمشيئة الله، فلنستعد لهم وعلى بركــة الله.

خرجت الجيوش من "باب الفتوح" لتتوجه إلى "الشــام" والســلطان يتقــدم الصــفوف والجنود يرتدون ملابس الحرب يحملون عتادهم والناس يهتفون ويهللون ويكبرون داعــين لهم بالنصر.

إلى الشـام

وصل السلطان بجيوشه وجنده وأمرائه إلى "دمشق"، ووقف "الأشرف خليـــل" وســـط نوابه وقواده يستعرض خطته قائلاً: سأخرج أنا بجيشي مـــن "حمـــاه"، ويخـــرج الأميـــر "لاجين" نائب "الشام" بجيشه وقواده من "دمشق"، ويخرج الأمير "سيف الدين بلبان الأزرق" بجيشه من "طرابلس" بينما يخرج الأمير "بيبرس الدويدار" بجيشه من "الكرك"، ولتتجمـــع الجيوش عند أسوار "عكا"، ونكون متجهـــزين بالأســـلحة وآلات الحصـــار، فنضـــربهم بالماجنيق حتى نحدث ثقوبًا في أسوار المدينة فنثير فزعهم ويظلـــوا محاصـــرين حتـــى يعجزوا عن الاستمرار في المقاومة وتخور قواهم.

سأل "سيف الدين بلبان" السلطان: ومتى نبدأ في الخروج إليهم يا خوند؟ رد السلطان: تبدأ ساعة الحسم غدًا في منتصف الليل بتحريك الجيوش في وقتٍ واحد، فهتف "بيبـــرس الدويدار": خطةٌ رائعة ستمكننا من حصارهم وسحقهم والقضاء عليهم، أرعـــد الســـلطان متجاهلاً كلام "بيبرس": هل لأحدٍ منكم من رأي آخر؟ رد "لاجين": لا رأي بعد خطةِ قائدنا الحكيمة، وما علينا غير السمع والطاعة، وأن نعاهدك جميعًا على ذلك، وأقســـموا يمـــين الولاء، فاستفتح السلطان: إذن على بركة الله.

وصلت الجيوش إلى أسوار "عكا"، وبدأت المعركة، وأخذت أصوات المسلمين تُجلجل الله أكبر.. الله أكبر، والسلطان يقول: اضربوا الأسوار من كل جانب، فاشتعلت الحرائـــق، وتعالت الأصوات بالصراخ من داخل الأسوار، والدخان يملأ المكان، وبدا الفزع والرعب في صفوف "الفرنجة" داخل الحصون، والحرائق فـــي كـــل مكـــان، والهـــرج والمـــرج، والسلطان يتقدم الصفوف في شجاعةٍ وثبات ويأمر الجند بضرب الأسوار من كل جانـــب، ويصيح بهم: لا تأخذنكم بهم رحمة، *"الله أكبر.. الله أكبر، وما النصر إلا مـــن عنـــد الله، تقدموا أيها الجُند".*

وبعدها هدأت المعركة، واستمر حصار المسلمين لحصون "الصليبيين" أكثر من ثلاثة وأربعين يومًا لا تصلهم أية إمدادات، فخارت قواهم، ودب اليأس فـــي قلـــوبهم، وبـــدأت المعركة من جديد فأخذت قوات الصليبيين تطلق بعض القذائف حتى تستكشف قدرة قوات الملسمين على الرد فتحفز السلطان "الأشرف" وقال: ردوا عليهم وأطلقوا القـــذائف حتـــى

ترتجف قلوبهم فيفروا كالفئران من جحورهم إلى خارج الحصون فيُحصدوا حصدًا ويقـــع من يقع منهم في الأسر.

عادت الحرائق تشتعل من جديد في كل مكان، وجُند الأعداء يفرون خارج الحصون، والدخان يملأ سماء المدينة، وصيحات جنود المسلمين تزلزل المكان، والســـلطان يحمـــس الجند بأن يهاجموهم داخل الحصون.

تدافع "الفرنجة" خارجين تحت وطأة السيوف المُسلِمة، فصرخ أحد قواد "الصـــليبيين" وهو يرى جنوده يفرون من الحرائق متجهين إلى الشـــواطئ يتســـاقطون بـــين جـــريحٍ ومحترق: أيها البُلهاء.. لا تتدافعوا هكذا كالبهائم إلى القوارب طلبًا للنجاة فتغرق القوارب بكم وتموتوا غرقًا، تراجعوا حتى لا تهلكوا، فيصرخ أحد الجند: الموت غرقًا أفضل مـــن الموت حرقًا وكلاهما أشرف من الأسر.

هدأت المعركة بعد أن سقطت المدينة كلها في أيدي "الأشرف خليل" عام 690هـــــ، وهتف السلطان: ليتواصل الجهاد حتى نسترد بقية معاقل "الصليبيين" في "الشـــام".. فـــي "صور"..و"صيدا"..و"حيفا"..و"طرطوس".."عتاليت"، فلنستمر في الجهاد، فإلى الجهاد.. إلى الجهاد.. والله أكبر.

كان السلطان "الأشرف" يشجع جنده ويحمسهم، ويقف بين جنوده الأبطـــال وفرســـانه منتشيًا فوق جواده وبجواره أمراؤه ويقول: لقد قمنا بما أراده الشهيد والدنا قبـــل وفاتـــه، وحالت المنية دون إتمامه، وطردنا "الصليبيين" من "عكا" بلا رجعـــة، وحققنـــا للراحـــل العزيز ما كان يتمناه.

ظلت جيوش "المماليك" تجوب الساحل الشامي بعد جلاء "الصـــليبيين" مـــن أقصـــاه لأقصاه بضعة أشهر تدمر ما تجده صالحًا لنزول "الصليبيين" إلى السواحل مـــرة أخـــرى وبهذا وُضِعَت خاتمة "الصليبيين".

العـودة

نعود للعجوز "زمزم" مع ابنته "سلسبيل" وهو يسترسل في السرد: أين توقفنا أمس؟ ردت الفتاة: عندما انتصر المسلمون على جيوش "الفرنجة" وأخرجوهم من حصونهم صاغرين أذلاء، فيقول: تحركت الجيوش من "الشام" بعد أن ظفرت بالنصر والخلاص من "الفرنجة" وباستعادة "عكا"، فكانت فرحة جيوش المسلمين بالنصر لاحدَّ لها، واستقبلت جموع الشعب موكب السلطان "الأشرف" بالهتافات وهو يسوق أمامه أسرى "الفرنجة" مكبلين بالأغلال وفي إثرهم جنوده البواسل يحملون أعلام الأعداء مُنكسة كما يحملون رؤوس من قُتل منهم على أسنة الرماح، كانت يابنتي فرحة السلطان عظيمة.. فقد عاد يحمل أكاليل النصر ووضع بشجاعته خاتمةً لتلك الحروب، وما كاد يستريح حتى زُفت إليه بشرى جديدة وهي أن زوجته الأميرة "أردكين" توشك على الوضع، فاستجلب العرافين من كل مكان، وزادت فرحته بما تنبأ به بعض العرافين بأنه سيصبح له وريثًا للعرش، ثم توقف "زمزم" عن السرد فجأة بعد أن ظهرت عليه علامات الإجهاد، فأخذت الابنه تلح عليه ليكمل السرد، فقد كان مرهقًا من العمل طوال اليوم، فوعدها بأن يكمل القص بعد صلاة العشاء.

بعد أن صلى.. جلس بجوار ابنته يقول: ذكِّريني.. أين توقفت.. لقد نسيت؟ ردت الفتاة: توقفت عندما كان السلطان "الأشرف" يدعو الله بأن يعطيه وريثًا للمُلك كما أعطاه من قبل المُلك، فاسترسل "زمزم" وقال: وحينما اقترب موعد الوضع صدرت الأوامر بالاستعداد لإقامة حفل عظيم يلعب فيه الناس والأمراء "لعبة القبق"، فعاجلته "سلسبيل" مُتسائلة: وما هي "لعبة القبق" هذه يا أبي؟ رد: هي لعبة شائعة بين "المماليك" قوامها صارٍ طويلٌ يُنصب عادة خارج "باب النصر"، ويُجعل على رأسه قفصٌ يُسمى بالتزكية "القبق"، وهذا القفص عادةً ما يكون من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة يوضع في داخله طير الحمام، ثم يأتي اللاعب راكبًا فرسًا، فيُصوب قذيفته إلى القفص الموضوع فوق الصاري، فإذا أصابه وطير منه الحمام أعتُبر فائزًا واستحق المكافأة ويُصبح القفص من نصيبه، ويُنعم السلطان في هذه المسابقة بفرسٍ على الفارس إذا كان من أمراء "المماليك"، وبخلعة إذا كان من العامة.

استمر "زمزم" في السرد قائلاً: ظل السلطان "الأشرف" ينتظر مجئ المولود على أحر من الجمر، يَعد الأيام والليالي، وكنت أراه في القلعة من حينٍ لآخر في هذه الفترة ظــاهرًا عليه التوتر والقلق والعصبية الزائدة مع أمرائه وأمراء أبيه وكل من يتصل بــه، وبينمــا "زمزم" يتحدث دخلت أم "سلسبيل" وقطت حديثهما ثم قالت: هل أحضــر العشــاء الآن أم أنتظر حتى تفرغ من قصصك التي لا نهاية لها؟ فرد "زمزم" مُبتسمًا: نعــم .. أحضــريه الآن فأنا أكاد أموت من الجوع.

لـم يـتـحـقـق

نعود للسلطان "الأشرف" في جناحه الخاص ومعه أحد العـرافين فيسـألـه السـلطان: أنبئني أيها الكاهن.. أمولاتك تحملُ ولدًا أم بنتًا في أحشائها؟ فيردُّ عليه العراف: يا مولاي أطال الله بقاءك وأمد في سلطانك إنني أرى أن مولاتي سوف تنجب لـك ولـدًا سـيخلفك وسيكون له شأن عظيم في البلاد ويكون محبوبًا من الرعية، فنظر السلطان إليه قائلاً: وإن لم تلد ولدًا كما تزعم ماذا تعتقد أني فاعل بك؟ يرد العراف: لك ما شئت يا مولاي .. لـك ما شئت.. وإن كان بضرب عُنقي، فيضحك السلطان قائلاً: إذن أنت متأكدٌ ممـا تقولـه، فيهز العراف قائلاً نعم متأكدٌ مما أقول، وإن شاء الله سيأتي ولي العهد فاستبشر خيرًا يـا مولاي، فيمد السطان يده للعراف ويقول: إليك هذا.. وإن صدقت نبوءتك لأضاعفنه لـك عشرات المرات، وإن لم تصدقني.. فأنت الذي حكمت على نفسك وبنفسـك، وانصـرف العراف يمشي القهقرى وهو يدعو للسلطان بدوام الصحة وطول العمـر والنصـر علـى الأعداء.

خرج السلطان مغتبطًا إلى حديقة قصره يناجي نفسه: آه.. لئن صدقت نبوءةُ العراف هذا لأقيمن الاحتفالات في البلاد، ولأزينن المدينةَ كلها، ولآمرن بأن يُصنع للمولـود فـي "دمشق" مائة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة يُنقش عليها اسمه وألقابه، وليُصـنع لـه مائة شمعدان أخرى نصفها من الذهب الخالص ونصفها من الفضة، ولأولينَّه العهد بمجرد أن يخرج إلى الدنيا وتبزغ شمسه على البلاد.

ظل السلطان مستغرقًا في تفكيره، يتجول في أرجاء الحديقة حتى أتته إحدى جـواري "أردكين" مهرولة قاطعةً عليه تفكيره وهي تقول: مولاي السلطان... مولاي السـلطان... أبشر، فقال السلطان: أوضعت مولاتك يا "بردام"؟ فردت الجارية: نعم يا مولاي، فسـألها: ولداً أم بنتاً؟ ردت الجارية مُتلعثمة وقد ذهبت الابتسامة عنها وأخذت الكلمات تتقطع فـي فمها من فرط خوفها: وضعت.. لقد وضعت مولاتي "أردكين".. يا مولاي يا مولاي.. لقد وضعت.. لقد وضعت، فصاح السلطان غاضبًا: لقد وضعت.. لقـد وضـعت.. تكلمـي ياجارية ماذا وضعت؟! ردت مضطربة ومضطرة: لقد وضعت مولاتي بنتًا رائعة الجمال، فقال "الأشرف" مذهولاً من الخبر.. بنتًا! ثم تماسك أمام الجارية وقال: حسنًا.. اذهبي الآن لمولاتك وابقيَ بجوارها.

عادت الجارية تقول: ولكن مولاتي متعبة جدًا من أثر الوضع وتلح في طلب مولاي، ولذا أرسلتني، فقال لها: انصرفي الآن، ولكن الجارية أصرت أن تكرر بخبث ودهاء وتقول: ولكن يا مولاي المولودة باسم الله ما شاء الله آيةٌ في الجمال، فغضب السلطان وقال: كفي يا جارية عن الثرثرة وامضي إلى مولاتك وابقي بجوارها إلى أن أجئ إليها.

انصرفت "بردام"، واغتم "السلطان"، واسودت الدنيا في عينيه، وبدا عليه الحزن، وأخذ يحدث نفسه وهو يجرجر قدميه في أرجاء الحديقة وقد انقبض صدره وقال: لم تتحقق نبوءة العراف الكاذب، ولم تأتِ الرياح بما تشتهي السفن، لقد مات حُلمي الوحيد ولابد أن أتماسك وأن أخفي شعوري بالحزن والألم عن الأمراء و"المماليك" حتى لا أرى في أعينهم نظرات الشماتة.

تمالك "الأشرف" نفسه ودخل جناح "أردكين" ليطمئن عليها، فاقترب منها وهي راقدةٌ في فراشها مُتمتمًا: كيف حالك الآن يا "أردكين"؟ قد سمعت من جاريتك أنك مجهدة من أثر الوضع، فردت عليه "أردكين" بصوتٍ واهن: الحمد لله يا مولاي، أنا الآن أفضل بكثير مما كنت عليه من قبل وخاصة بعد أن شرفتني بالحضور للاطمئنان علي وعلى المولودة السعيدة، ولكن فرحتي كانت أعظم لو جئتك بولي العهد، فأدار السلطان وجهه وقال: حمدًا لله على سلامتك على أية حال، تطلعت "أردكين" إلى الصغيرة بجوارها وقالت: ماذا نسمي الأميرة الصغيرة؟ فالتفت السلطان ثم اتجه إلى المولودة ينظر إليها وقال: نسميها ... نسميها "مُلكان".. فالتفتت إليه قائلة: اسم جميل.. انظر إليها يا "خليل".. إنها تشبهك تمامًا فرد "الأشرف" غير مكترث: بارك الله لكِ فيها فردت عليه "أردكين" بانكسار: أشعر أنك غير سعيدٍ بقدومها وأعلم أنك كنت تتمناها ولدًا ولكن هذه مشيئة الله وربما في المرة القادمة يمن الله علينا ويخلف بالولد الصالح، فرد غير مُبالٍ: لا عليك .. لا تنشغلي بمثل هذه الأمور قدر الله وما شاء فعل، والحمد لله وانحنى وقَبَّلَ المولودة.

خرج السلطان متجهًا إلى جناح محظيته "نورزاد" وهو كاسفُ البال مهمومٌ حزينٌ فما أن رأته حتى استقبلته ببشاشةٍ وجلست بجواره تلاطفه وتقول: مالي أرى مولاي على غير عادته وكأنه لا يشعر بوجودي، ولم تثره رائحة عطري المفضل لديه، عطر البنفسج، أحزينًا مولاي إلى هذه الدرجة ؟ أجاب: لا عليك يا "نورزاد" .. لا عليك، فأنا مشغولٌ بأمورٍ شتى غير ما في رأسك من ظنونٍ وأوهامٍ كعادتك، فردت: أوتخفي على حبيبتك "نورزاد"؟ فزاده ردها غضبًا وقال: اتركيني الآن يا "نورزاد" أستحلفك بالله وإلا غادرت المكان كله، فردت عليه مُلحة: والله لن أترك مولاي حتى أعيد الابتسامة لوجهه، فقال

"الأشرف": لكني أحتاج لبعض الوقت للتفكير في أمورٍ كثيرة، وجئت إليك ليُتاح لي ذلك، فقالت بمكرٍ: أيةُ أمورٍ هذه التي تحتاج للتفكير فيها وقد عاد مولاي منتصرًا على الأعداء ولا يشغله الآن غير ولاية العهد، أليس هذا ما يشغلك ؟ رد "الأشرف" غاضبًا: كُفي عن هذا الحديث ولا تتدخلي فيما ليس لك به شأن .. لم أعد أهتم بذلك.. انصرفي من أماميَ الآن.

نهضت "نورزاد" وقد أحرجها السلطان وقالت: أغضبَ مولاي؟ .. سأخرج ولكن أُذَكِّرُ مولاي بأنه مازال يتفجر شبابًا وقوة، أطال الله عمرك ومتعك بالصحة والعافية ورزقك بالبنين والبنات رغم أنني كنت أوشك أن أخبر مولاي بما قد يسُره، فقال السلطان غاضبًا: انصرفي لا أريد أن أسمع منك شيئًا، فخرجت "نورزاد" ولم يسمع السلطان خبرًا سعيدًا.

نعود إلى "زمزم" جالسًا على الأريكة يُمازح ابنته "سلسبيل": أأُكمل لك الحكاية أم نُرجئها للغد؟ فأجابت متوسلة لا يا أبي .. أكملها الآن أستحلفك بالله، فقال "زمزم" مستجيبًا: ليكن.. شريطةَ أن تصنعي لي شيئًا من الحلوى، فردت عليه موافقة: سأفعل يا أبي أعدك، بذلك واسترسل "زمزم" قائلاً: ولم يحقق الله نبوءة العرافين ولا حلم السلطان الذي أسعده فترة من الزمن فجاء المولود بنتًا واغتم "الأشرف خليل" لكنه آثر أن يُخفي شعوره عن الرعية وعن أمرائه فأصدر الأوامر بالاستعداد لإقامة حفل كبير فقاطعته "سلسبيل" متأثرةً حزينة: إذًا ضاعت آماله كلها يا أبتاه.. مسكينٌ هو، فرد عليها: أجل يا ابنتي مسكينٌ فقد بدأت شماتة الأمراء فيه بالغمزُ واللمزُ وتدبير المكائد للغدر به والخلاص منه، قالت "سلسبيل" آسفة: ويحهم.. جُبناء لا رحمة في قلوبهم، كيف يتآمرون عليه وهو ابن "قلاوون" الذي عَمَّهَمْ خيره وأحاطهم فضله وعلاهم قدره.. ويحهم!، تنهد "زمزم" رافعًا كتفيه: هكذا حياة "المماليك"، يرون أن عرش البلاد إنما يتربع عليه أقوى الأمراء وأكثرهم شجاعة وأعظمهم مهارة في الحروب وأدهاهم كيدًا في السياسة، لذلك كثيرًا ما كان يَغْتَصِبْ العرش القائد العام للجيش "أتابك الجيش" بحكم ما كان له من نفوذ خاصةً إن كان السلطان صغيرًا أو ضعيفًا، ولم يشذ "قلاوون الأب" أو يخرج عن هذه القاعدة فقد سبق واغتصب عرش "العادل سلامش" (ابن الظاهر بيبرس) عندما آنس في نفسه القوة، غير أن "الأشرف خليل" كان أشجع الأمراء وأقواهم على الإطلاق، بل كان أشجع ملوك الترك غير مُدافَعْ، ولكن يؤتى من مأمنه الحَذِرْ.

الأميرُ الصغيرْ

أما الطفلان "الناصر محمد" أخو "الأشرف خليل" و"موسى ابن علي" ابن أخيه، فقد كانا الاثنان في رعاية السلطان "الأشرف" بعد موت أبويهما يحنو عليهما ويداعبهما، ويلعب الطفلان "محمد" و"موسى" في حديقة القصر يجريان ويمرحان، وعلى مقربةٍ منهما تجلس "آشلون خاتون" أم "الناصر محمد" تتابعهما وكذلك "مسكة" مربية "الناصر"، ويحاول الصغير "محمد" جذب "موسى" ابن عمه من الأرجوحة فيضربه ويطرحه أرضًا ليعتليها، ويبكي "موسى" وتسرع المربية لفض الاشتباك بين الأميرين الصغيرين غير أن "آشلون خاتون" أم "الناصر" أخذت تنهر ابنها وتقول: تعال هنا يا "محمد" واعتذر لـ"موسى" ابن عمك على ما فعلته وقَبّله على جبينه، ألم أقل لك من قبل أن "موسى" ابن عمك صغيرٌ ولابد أن تكون رقيقًا مُهذبًا معه، يقترب الطفل "محمد" في هدوءٍ وخوفٍ وطاعةٍ وهو ينظر إلى ابن عمه ويلتفت إلى أمه وهو يقول: معذرةً يا "موسى" لم أقصد ما فعلت، معذرةً يا أماه لن أكرر ذلك، لا تغضبي مني ولا تبلغي أخي "الأشرف".. أرجوكِ يا أماه، ولكن الطفل "موسى" ظل يبكي ويكفكف دموعه، فضمته "أشلون" لصدرها وقالت: ألم يعتذر "محمدٌ" لك .. انتهى الأمر.. لماذا البكاء إذن؟ الرجال لا يبكون، هيا اذهبا والعبا معًا.

كانت "أشلون" أم "الناصر" ترعاه وتهتم به لتصل به إلى بر الأمان، تبصره وتفتح ذهنه على ما في الدنيا من صعابٍ ومشكلاتٍ ليتغلبَ على حقد "المماليك" إذا ما أصبح أمر البلاد بين يديه كما كانت تهتم اهتمامًا بالغًا بتعليمه وتثقيفه فانصرف إلى دروسه وأقبل عليها بنهمٍ في سنٍ مبكرٍ فتعلم القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن وكذلك الكثير من الشعر، وكانت "أشلون" عادةً ما تجلس بعيدًا من وراء السُتُر تراه ولا يراها أثناء تحصيل دروسه، وفي إحدى المرات جلست "أشلون" تنصت إلى الدرس والمُعلم يقول لـ"الناصر": أسمعني يا "محمدًا" شيئًا مما تحفظه لـ"أبي الطيب المتنبي"، فسكت "محمدُ" هنيهة ثم أنشد:

لا يُدرك المجد إلا سيدٌ فطنٌ	لما يشقُّ على السَّاداتِ فعَّالُ
لا وارثٌ جَهِلت يُمناه ما وهَبت	ولا كسُّوبٌ بغير السيفِ سئالُ

قـــال الزمـــانُ لـــه قـــولاً فأفهمـــه	إن الزمـانَ علـى الإمسـاكِ عــذَّالُ
تـــدري القنـــاةُ إذا اهتـــزت براحتـــهِ	إن الشقـــيَّ بهـــا خيـــلٌ وأبطـــالُ
كفَّاتِـــكٍ ودخـــولُ الكـــافِ منقصـــةٌ	كالشمـسِ قلتُ وما للشمـسِ أمثـالُ

قال المُعلم: أحسنت يا "محمد"، لماذا اخترت هذه الأبيات لــ"أبي الطيب المتنبي" رغم أنني أعلم أنك تحفظ الكثير غيرها؟ رد "محمدٌ": لأني أشتمُ فيها رائحة أبي.. كان كريمًـا جوادًا وفارسًا مقدامًا كما سمعت من أمي وأخي "الأشرف"، قال المعلم: وهل لك من شرح مجمل ما تفهمه من هذه الأبيات العظيمة؟ سكت "الناصر" هنيهة وقال: أجـل ياسـيدي .. رصد "المتنبي" صورة الأبطال الأفذاذ فليس العظيم إلا من تجل فعاله عظمةً فلا يستطيعها ذوي العزائم الخائرة ممن ورثوا ولم يكتسبوا وممن أعزهم النسب ولم يعـز بهـم الفعـل ولكن العظيم هو من يربح غناه بالسيف ويُجيب عدوه بالسيف، ذلك الذي تُحنكــه الأيــام وتعركه التجارب وتُنضجه الشدائد فإن حاربَ أهلك الرجال، وإن ســالمَ أحســن الفعــال، وكان كالشمس بل تجاوزها شرفًا وعزة.

دُهش المعلم وقال: أحسنت يا "محمد" بارك الله فيك ولكن هل الكاف في البيت الأخير في كلمة كفاتكٍ زائدةٌ ؟ فقال "محمدٌ": الكافُ ليست بزائدة وإنما هي كاف الاستقصــاء، إن جميع البيت مبني على هذه الكاف، رد المعلمُ مبتهجًا: إنكَ يا ولدي تتوقد ذكاءً مع حافظـةٍ قويةٍ ولم يبقَ لك إلا أن تُجيد النظم وإن مكانك ينتظرك في "وادي عبقر" حيث يجول خيالُ الشعراء الكبار وتطوف قرائحهم بعد مداومتهم لحفظ الشعر، بارك الله فيـك يـا ولـدي سأستأذن الآن بالانصراف أراك بعد غدٍ إن شاء اللهُ.

خرجت "آشلون" بعد انصراف االمعلم من وراء الستر وقالت لابنها: حسنًا يا "محمـد" لقد سمعتك وسررت منك كثيرًا وضمته إلى صدرها وهي تقول: بارك الله فيك يا ولـدي وقبلته فقبل يديها، وابتسم لها قائلاً: و هل لي من مكافأة يـا أمـاه؟ فأجابـت "آشـلون": نعم..ستخرج مع "موسى" اليوم لتنعم بركوب الخيل ورمي النشاب فتهلل "محمـدٌ" فرحًـا: حقًا يا "محمدٌ".أجابته "آشلون": نعم هذه أقل مكافأة تستحقها ولك مني الكثير من المفاجآت، عاجلها "محمدٌ".. ألهبتِ فضولي يا أمي! اخبريني بالله عليكِ، فضمته "آشـلون" وقالـت: سنذهب أنا وأنت و"مسكة" لزيارة قبر أبيك يوم الجمعة القادم إن شاء الله.

نعود لإنجازات "الأشرف خليل" العظيمة حيث كانت "قلعة الروم" المُجـاورة "لقلعـة البِيرَة" التابعة "للأرمن" تحت سلطنة "المغول" وكانت مركزًا لهجماتهم على "نيابة حلـب"

فسببت قلقًا لـــ"بلاد الشام" فاستولى "الأشرف خليل" عليها وحَصَّـنها بالـذخائر والمُـؤن والسِّلاح حتى تصد الأعداء عن "نيابة حلب" وتوجه "الأشرف" بجيشٍ يضم معظم قـوات "نيابات الشام" واتجه من "نيابة حلب" إلى تلك القلعة وحاصرها من كل الجهـات وقـذفها بالمجانيق، فطلب الأهالي الأمان منه بعد قتل الكثير منهم ولكنه رفض تـأمينهم إلا علـى أرواحهم فقط على أن يصبحوا أسرى فرضخوا للأمر الواقع لأنهم لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم فبعد حصارٍ دام أكثر من شهر استسلموا للسلطان وأُخذوا أسـرى وكـان بيـنهم بطريرك الأرمن "الكاثاغيلوس" الذي أُرسل إلى "بيت المقدس" مع الرهبان، بعد ذلك عَـيَّنَ السلطان الأمير "علم الدين سنجر الشجاعي" وغيَّر "الأشرف" اسـمها فأصـبحت تُسـمى بـــ"قلعة المسلمين" بعد أن كانت تُسمى بـــ "قلعة الروم"، وبذلك تكون "نيابة حلب" بمنـأى عن هجمات وغارات الأعداء.

المُنادمة الأخيرة

نعود لـــ"الأشرف خليل" وقد قرر الذهاب إلى مقصورة الجواري وكان الجميع يستعد لاستقباله والخدم يتسارعون في نقل خبر وصول السلطان وأمرائه فلما أقبـــل "الســـلطان" وقف "الحجاب" احترامًا له لكنه لم يبالِ بأحد، فهُرع "زعفران" كبير الخصي والقيمُ علـــى جناح الجواري لاستقبالهم ومشى بين يديهم حتى أوصلهم إلى باب مقصورة النساء وأزاح الستارة الموشاة ودخل "السلطان" ومن معه من "الأمراء" في إثره إلى القاعة ومنهـــا إلـــى دهليز حتى وصلوا إلى المصطبة و"زعفران" يمشي مهرولاً بين أيديهم.

كان المكان مفروشًا بالطنافس وفي صدر القاعة سريرٌ من الأبانوس المطعم بالـــذهب بجانبه عدة مقاعد، ووسائد ملقاةً على الطنافس وفي وسط المصطبة نُصبت مائدة مستديرة نحاسية منقوشة بنقوشاتٍ بديعة تعلو عن الأرض شبرًا أو تزيد مليئةً بالأباريق والأقـــداح والأنبذة والأشربة الأخرى، وحول ذلك أطباق الفاكهة واللحوم والمزهريات، وقد تضوعت رائحةُ المكان بالطيوب وجلس السلطان مُتصدرًا المكان وحوله الأمراءُ، ثم صفق فـــدخل "زعفران" و انحنى قائلاً: أمر مولاي .. رد السلطان مغتبطًا: إلينا بالمغنيات يا "زعفران" فانحنى "زعفران" مشيرًا بيديه فوق رأسه إشارة الطاعة وقال: السمع والطاعة يا مـــولاي وهمَّ بالخروج ومشى القهقرى بين يدي السلطان، فاستوقفه السلطان وقال: أين الوصـــائف بمراوحهن يا "زعفران"؟ فرد "زعفران" مُرتبكًا: سيأتين على عجـــلٍ يـــامولاي، ووقـــف الغلمان بأباريق الشراب ودارت الكؤوس فتسائل السلطان: إليَّ بـــ"البُليبل" .. أين هو؟ رد "زعفران": إنه بالخارج ينتظر أمر مولاي، فقال السلطان: أسرع في استدعائه لحضـــرتنا، وهمَّ "زعفران" بالخروج فاسترجعه السلطان قائلاً: احذر أن يـــدخل علـــيَّ بغيـــر ثيـــاب المنادمة، رد "زعفران": السمع والطاعة يا مولاي وخرج مُسرعًا وعاد بـــ "البُليبل" ومـــا أن رأه السلطان حتى قال: أهلاً بسيد الطرب، فانحنى تحيةً للسلطان وقال: أشكر لمـــولاي هذا الكرم العظيم فقد غمرني بفضله وإحسانه، إن نِعَم مولاي فوق مـــا أســـتحق، فقـــال السلطان: أنت أهلٌ لما فوق ذلك وأشار السلطان له بالجلوس كما أشار إلى الســـاقي لكـــي يملأ له قدحًا فشربه دَفعةً واحدةً وأعاده إلى الساقي وأشار إليه بأن يزيده وكـــذلك شـــرب "الأشرف" حتى ثمل ودارت الخمر برأسه وبدأ "البُليبل" في الغناء فنـــزل الســـلطان مـــن

سريره أرضًا وظل يضحك واستلقى على ظهره وهو يقول: أطربنا فما أمتع طربك وزدني الليلة طربًا حتى انتهى "البليبل" من وصلته والجميع يضحك.

نظر السلطان إلى "زعفران" مُتسائلاً: أين المغنيات يا "زعفران"؟ ماذا بك الليلة لقد كبرت ولم تعد تصلح لشئ! رد "زعفران": المغنيات جئن يا مولاي منذ ساعة، قال "الأشرف" فرحًا: إليَّ بهن على الفور، وخرج "زعفران" ثم عاد بالمغنية "ياسمين" بيدها عودها .. وفي إثرها جاريتان بيد كل منهما عود، وكانت "ياسمين" طويلةً نافرة كالغزال مشرقة البياض رومية الجنس وقد أبدعت وتكلفت في زينتها وأرخت شعرها الأسود على كتفيها، فانحنين تحيةً للسلطان فأشار عليهن بالجلوس فغنت "ياسمين" وعزفت نغمًا بديعًا لم يسمع مثله "الأشرف خليل" من قبل، فمست كلماتها أوتار قلب "الأشرف":

بِحرِّيَّـــةٍ داعبتنـــي اليَـــدان	وأربـــك شـــهد الهـــوى شـــفتيا
قمـــيصي عـــلى ملمـــسٍ مخمـــليٍّ	خيـــوط الصـــباحِ عـــلى ناهـــديا
حبيبـــةُ قلـــبٍ ولحنـــا غنـــاءٍ	ومعزوفـــةٌ أســـعدتك مليـــا
ولـــو عـــادَ بالعاشـــقينِ الزمـــانُ	لرُحنـــا وجئنـــا وعُـــدنا ســـويا
ترشَّـــف مـــن الشـــهدِ مـــا تشـــتهي	وخـــذني إليـــكَ وعُـــدْ بي إليَّ

وظل "الأشرف" يضحك ويركل برجليه ثملاً وطربًا وهو يصيح للساقي أن يزيده شرابًا ويصيح بالمغنية كي تزيده طربًا، ثم التفت إلى الأمير "بيدرا" وقال له: مالي أراكَ لا تشرب يا "بيدرا"، أوتعشق الشراب منفردًا في غير جلسة المنادمة؟ رد عليه الأمير "بيدرا" معتذرًا بلباقة: لا يامولاي فليس لي رغبةٌ في الشراب الليلة، ردَّ السلطان: حتى لو أمرتك بمشاركتي الشراب والأنس، رد "بيدرا": رغبةُ مولاي تمحو كل تردد وطاعته واجبة، ضحك السلطان وأشار للساقي أن يصُب لـ"بيدرا" كأسًا، ورفع السلطانُ كأسه قائلاً: نخب أول كأسٍ مع الأمير "بيدرا" الليلة وظل السلطان يضحك وكذلك الأمراء "بيبرس"، "كتبغا"، "لاجين" و"علاء الطنبغا" مجاملةً للسلطان، ثم اعتدل "الأشرف" في جلسته واضعًا يده على جبهته وكأنما تذكر شيئًا وقال: آه .. لقد عربدت المدامة في رأسي ونسيت أنك لا تعاقر الخمر، بل تُجالس الحسان من النساء فقط، وها أنا ذا قد أهديتُ إليك "ياسمين"، ردَّ عليه "بيدرا" معتذرًا عن قبول الجارية: إنها هدية نفيسة ولكنها لا تليقُ بأحدٍ سوى مولاي لما عليها من حسنٍ وجمالٍ وصوتٍ عذبٍ رائع، فضحك السلطان وقال: صدقت يا "بيدرا" صدقت، ولكن هدية السلطان لا ترد.

في "نيابة السلطنة" يجلس "الأشرف خليل" ومعه الأمير "بيدرا" فيقول له: أريد أن

يكون الاحتفال عظيمًا لم تشهد له البلاد مثيلاً من قبل، وأمر الجند جميعًا والأمراء أن يرتدوا فيها ملابس الحرب كاملةً وأن يُلبسوا خيولَهم آلات السلاح الكامل حتى يبدو الحفل في أبهى مظهرٍ، أسمعت يا "بيدرا"؟ ليكن الاحتفال مَهيبًا في عيون الناظرين، هز "بيدرا" رأسه: سيكون عظيمًا إن شاء الله يا مولاي، وهل حدد مولاي موعدًا للاحتفال؟ رد السلطان: بعد أسبوعين من اليوم، أسمعت.. أريده حفلاً عظيمًا فلا تمنع أحدًا من الجند ولا من "المماليك" ولا من غيرهم من الاشتراك فيه وادعوا "البُلْيبل" ليقوم بالغناء في الحفل، رد "بيدرا" مُستجيبًا: السمع والطاعة يا مولاي.

نهض "الأشرف"، ثم أدار ظهره لـ"بيدرا" وسكن هنيهة ثم التفت له ثانية وقال: إن "محمدًا" أخي و"موسى" ابن أخي يستحقان هذا التكريم فلقد حان وقت ختانهما، ولتعلن في أرجاء البلاد للعامة والخاصة خبر ختان الطفلين، فرد "بيدرا" مُندهشًا وقد بدت في عينيه علامات الاستغراب: كنت أعتقد يا مولاي أن الاحتفال بمناسبة مولد الأميرة "ملكان" ولكن مولاي فاجأني بشئ آخر غير مُنتظر، رد "الأشرف" غاضبًا مُتجاهلاً: أسمعت ما قلت يا "بيدرا".. فلتستعد لمراسم الاحتفال وإعلان الخبر على العامة وعلى كافة الأمراء، أجاب "بيدرا": نعم سمعت.. السمع والطاعة.

في اليوم التالي اجتمع الأمراءُ وعلى رأسهم الأمير "بيدرا" مغتاظًا وقال: لم أعد أستطيع صبرًا على "الأشرف خليل"، لقد ضقت به ذرعًا كما تضيقون به أنتم بعد أن دان له الجميع وأصبح بعد انتصاره صاحب الكلمة النافذة لا يشارك أحدًا الرأي ولا يبالي بأحد، فأجابه الأمير "بيبرس الدويدار": هون عليك يا "بيدرا"، نحن نتحين له الفرصة لننقض عليه ونتخلص منه إلى الأبد، فاصبر وانتظر، فرد "كتبغا" حانقًا: ولكن متى؟ .. متى؟ وهو حريصٌ كل الحرص متيقظٌ لكل تحركاتنا، وله عشرات العيون المدسوسة علينا، إنني أخشى الآن أن يكون ما يدور بيننا على مسمعٍ من أحد جواسيسه، قال "بيدرا": قد احتطت لذلك فلا تخف، فجعلت الحراس متيقظين خارجَ القاعة، فرد الأمير "بيبرس الدويدار": من قال لكم أنه متيقظ، حريصٌ كما تدعون؟ إنه قوي البطش حقًا، ولكنه لا يعبأ بالتحرز على نفسه من فرط ثقته بنفسه وشجاعته، وقد علمت اليوم أنه عاقد العزم على الخروج للصيد بعد الاحتفال بختان أخيه "محمد" وابن أخيه "علي"، فانبرى الأمير "بيدرا" فرحًا وقال: هل أنت واثقٌ مما تقول يا "بيبرس"؟ فقال "بيبرس": نعم .. ومتأكدٌ تمامًا، وعما قريب سوف يخبركم بنفسه، فقاطعهما الأمير "حسام الدين لاجين" قائلاً: إذن.. هذه فرصتنا الذهبية للتخلص منه، لقد وجدناها بلا عناء، ونأمل ألا يتراجع عن هذه الرحلة فنصاب بخيبة أمل، لابد وأن نغتنم هذه الفرصة، ودعونا الآن نفض هذه الجلسة، فربما يدخل علينا فجأة ويستشعر ما يدور بيننا، فنهلك جميعًا فإنه ظالم، مطلق السلطة، منغمسٌ في ملذاته، متمتعٌ بما تشتهيه نفسه، لا يبالي سواه ولا شفقة عنده وغدًا أمر.

الهلاك

استجاب الجميع لتوجيهات السلطان، وتنافسوا في إظهار التجمل، ونـزل السـلطان بعساكره وأمرائه من "قلعة الجبل" وعليه لباس الحرب الكامل، وخرجت جموع الشعب من "مصر" و"القاهرة"، رجالاً وأطفالاً ونساءً في انتظار موكب السلطان حتى وصل الموكب "باب النصر" وبدأ لعب "القبق"، وتبارى الأمراء في الرمي، والسلطان معجبٌ بهم حتى انتهى اللعب وفاز من فاز وخسر من خسر وعاد السلطان مغتبطًا إلى خيمته، ودار السقاة على الأمراء بأواني الذهب والفضة والبللور يسقون الناس السكر المذاب وشراب اللوز المُحلى، وشرب الأجناد من أحواض مُلئت بالشراب وكان عدد هذه الأحواض يزيد على المائة للأهالي ولصغار "المماليك"، ولكن عند صفو الليالي يحدث الكدر، فثارت الطبيعة ثورة جامحة وأظلم الجو وقامت الريح، واقتلعت الخيام، وألقيت خيمة السلطان بعيدًا وجرى السلطان إلى القلعة يريد النجاة بنفسه فلحق به الأمراء والعسكر واختلط الحابل بالنابل، وظن الناس أن الساعة قد قامت.

ثم أصبح الصباح وسكنت الرياح وطلعت الشمس وصفا الجو، وكأن ما كان لم يكن، ودخل الأمير "بيدرا" على السلطان في جناحه الخاص فقال له السلطان: أرأيت ما حدث بالأمس يا "بيدرا"؟ والله لقد ظننت أن الساعة قد قامت، فأجاب "بيدرا": أمورٌ تحدث يامولاي .. وعند صفو الليالي دائمًا ما يحدث الكدر كما يقولون، رد السلطان: لقد بدأ الحفل جميلاً مهيبًا عظيمًا ثم ما لبث أن تغير كل شئ في لحظة، تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وقد تشاءمت، فرد "بيدرا": هون عليك يا مولاي، لقد هدأت الطبيعة وسكنت الرياح وبزغت الشمسُ وصفا الجو وكأن شيئًا لم يكن، فقال السلطان: إذن استدعِ الليلة إلى القلعة سائر أرباب الملاهي والمغاني وكذلك كل الأمراء لنواصل احتفالاتنا ولاتنسى أن تدعو "البُلبيل" للغناء وإحياء الحفل، فأجاب "بيدرا": السمع والطاعة.

وفي المساء جلس "الأشرف" منتشيًا فرحًا ومن حوله أمراؤه وبدأ الأمراء يتبارون في الرقص بالسيوف بينما في إحدى القاعات المُجاورة تجري عملية الختان للطفلين، ولما انتهت أخذ الأمراء يلقون بالذهب نقوطًا، وملأت النساء المكان بالزغاريد، وأنعم السلطان على كل أمير بخلعةٍ جميلةٍ كما أنعم على مُغني الحفل "البلبيل" بألف دينار ومُدت الأسمطة بما لذ وطاب مما لا يوصف.

نعود إلى العجوز "زمزم" وابنته تسأله: هل كان الحفل عظيمًا يا أبتِ؟ فرد: نعـم يـا ابنتي .. كان غاية في الفخامة، وكنت أنا ضمن السقاة القائمين على سقاية الأمراء بشراب اللوز المُحلى فقد استُخدم في هذا الحفل مئات القناطير من السكر برسم الشربات وبرسـم الحلوى، وكذلك مئات القناطير من الشمع ومئات من رؤوس الغنم ورؤوس البقـر ومـا تطلَّبه الحفل من نفقات في عمل الأسمطة والثياب والخُلَع المُقدمة هدايا للأمراء وغيـرهم، فقالت "سلسبيل": وماذا حدث بعد ذلك يا أبي؟ أجابها: لم تطل مدة حكم "الأشـرف خليـل" أكثر من ثلاث سنوات وشهرين وأربعة أيام، فقد كان بينه وبين أمراء "المماليـك" حـبٌ مفقودٌ بسبب غطرسته، فكانوا يتحينون الفرصة لكي يتخلصوا منه، فتساءلت: وماذا بعد يا أبي؟ أجاب: كان "الأشرف خليل" قد رتب رحلةً للصيد بعد الانتهاء من الاحتفالات ولكنـه عدل في آخر لحظة عن الخروج بعد أن استعد الأمراء للخروج معه، فتسـاءلت الابنـة: ولماذا عدل عن الخروج للصيد؟ أجاب "زمزم": قيل أدركته وعكةٌ خفيفةٌ ألزمته الفـراش، ولم يقوَ على الخروج للصيد، قالت "سلسبيل": وبالطبع كان الأمراء يُرتبون للخلاص منـه في تلك الرحلة، أليس كذلك؟ رد "زمزم": أجل هذا ما عرفناه فيما بعد، فقالت: ربما اشـتم "الأشرف" خيانتهم فتراجع عن الخروج للصيد وادعى المرض، لا أحد يعلم الحقيقـة يـا أبتِ، قال: ولكن يا ابنتي "الأشرف" كان قوي البطش لا يعبأ بمثل هذه الأمور ولا يـدعي المرض أبدًا لفرط ثقته بنفسه، فقالت: وماذا حدث بعد ذلك؟ رد "زمزم": الشيطان "حسـام الدين لاجين" الرأس المدبر للمؤامرة تآمر مع الأمير "بدر الدين بيدرا"، نسـيت أن أقـول لكي أن الأمير "حسام الدين لاجين" كان نائبًا لـ"دمشق"، فعزله "الأشـرف خليـل" عنهـا حينما تولى السلطنة، فأسرها في نفسه وتآمر عليه رغم أنه كان صهرًا له.

كانت تلك الجريمة البشعة بمشورة الأمراء جميعًا "الأمير عـلاء الـدين الطنبغـا"، والأمير "بيبرس الدويدار"، والأمير "كتبغا"، والأمير "حسـام الـدين لاجـين"، والأميـر "طشتمر"، وغيرهم .. وغيرهم.. وعلى رأسهم "بدر الدين بيدرا" الذي عندما سُئل فيما بعد عن سبب قتله للسلطان قال: إنما فعلت ذلك بمشورة الأمراء جميعًا، فقالت: وكيف تمـت هذه الجريمة البشعة يا أبتِ؟ رد العجوز: قرر السلطان الخروج للصـيد مجـددًا، وحـدد موعدًا له فتمت الجريمة على النحو الآتي: "في اليوم المحـدد للخـروج للصـيد خـرج السلطان مع أمرائه وحراسه ومماليكه وبطانته وكان سعيدًا وبدأ يتبارى مع الأمراء فـي رمي النشاب، وفيما هو يلهو وهو ممسكٌ بقوسه وسهمه متطلعٌ إلى الفضاء البعيـد ومـن حوله أمرائه في لحظة غدرٍ استغلوا انشغاله وانقضوا عليه من وراء ظهـره وأمطـروه

بوابلٍ من الطعنات بسيوفهم ولم يتركوه إلا جثةً هامدةً ملقاةً على الثرى في العراء، وكان له من العمر ثلاثون عامًا، مات البطل الهُمام، فقالت مندهشة: أو لم يدافع عنه أحـد مـن حراسه وأمرائه وجنده؟ رد العجوز: لا يا ابنتي لم يفعلوا، فالكل كان متآمرًا عليه إلا قليلاً من أمرائه ومماليكه المخلصين، فقالت: يا لها من جريمةٍ شنعاء وخيانة خسيسة أرجوك يا أبي لا تكمل .. كفى فلقد صدمت حقًا لما فعلوه به ولم أعد أقوَ على سماع المزيد الليلة.

بعد مقتل "الأشرف خليل" عاد الأمراء إلى الخيمة السلطانية وجلس "بدر الدين بيدرا" في صدر المجلس وقال: ارتاح وأراحنا وانتهينا منه ومن استهتاره بنا واحتقاره لنا، فـرد عليه "كتبغا": ليس لذلك فقط يا "بيدرا"، فما أكثر إهماله لأمور المسلمين، وما أقـل دينـه وورعه وما أقبح شربه الخمر حتى في شهر "رمضان"، أضاف "بيدرا" مستهزئًا: تخيلـوا لقد وصل به الأمر بأن يتعاظم وصار لا يكتب اسمه كاملاً وإنما يكتب حرف الخاء إشارة إلى أول حروف اسمه، فقال "علاء الدين الطنبغا" متجاهلاً الموقف برمته: دعونـا منـه.. فلقد انتهى أمره، والآن أيها الأمراء ماذا نحن فاعلون؟ أجاب "لاجين": أنـت يـا "بيـدرا" سلطاننا وسلطان البلاد وسيدنا بلا منازع، ولنقسم لك الآن يمـين الـولاء، وأشـار إلـى الأمراء فقام الأمراء الذين كانوا معه وقبلوا الأرض بين يديه وحلفوا له، فـانبرى "زيـن الدين كتبغا" مؤيدًا وقال: سنلقبك يا "بيدرا" بالملك المعظم، ما قولك في هـذا اللقـب؟ رد "علاء الدين الطنبغا" معترضًا على التسمية: أفضل أن نلقبه بالسلطان القاهر، فرد "بيـدرا" عليهما بشموخٍ وزهو: ولكني أفضل أن أُلقَّب بالسلطان الأوحد .. السلطان الأوحـد "بـدر الدين بيدرا"، فقال "علاء الدين الطنبغا" مؤيدًا ومستفسرًا: لك هذا، ولكن كيـف سـنخرج أنفسنا من هذا المأزق الذي أوقعنا أنفسنا فيه؟ وخاصة تورط "حسام الدين لاجـين" معنـا، فقال "كتبغا": أنا أوافقك الرأي ولابد أن نتفق على كل شئ حتى لا نهلك جميعًا ويفتضـح أمرنا ولا بد لـ "لاجين" من الهرب والاختفاء خارج "مصر" حتى تهدأ الأمـور وتسـتقر الأوضاع، أجاب "لاجين" مؤيدًا: سأفعل بطبيعة الحال، وسأغادر المكان هربًا إلى "الشام".

خارج الخيمة السلطانية كان فريقٌ كبيرٌ من الأمراء لم يقروا ما وقع بـداخلها، ولـم يوافقوا على سلطنة "بدر الدين بيدرا"، فقال الأمير "علم الدين سنجر الشجاعي": لن أقبـل أبدًا أن يكون "بيدرا" سلطانًا علينا، ولو كلفني هذا عمري، وقال "الأمير سيف الدين قنق": والله أن نهاية "الأشرف خليل" لمخزية تذكرني بنهاية "المظفر قطز" حين غدر به الأمـراء وعلى رأسهم "بيبرس البندقداري" .. أهذا هو الجزاء بعد أن عاد منتصرًا علـى الأعـداء حاملاً لنا أكاليل النصر والكرامة؟! رد عليه مملوك من مماليك "الأشـرف خليـل": والله

لأقتلن "بيدرا" بسيفي هذا، ولن يكون أبدًا سلطانًا علينا، ماذا لو اخترنا الأمير "علم الـــدين سنجر" فهو أقوانا وأشجعنا ويستحق أن يكون سلطانًا علينا وأجدر من هذا الوغد بالسلطنة.

اجتمع الأمراء وعلى رأسهم "سنجر الشجاعي" وبعض "المماليك الأشـــرفية" خـــارج الخيمة وعقدوا العزم على قتل "بيدرا"، ووقعت بين الأمراء الفتنة وقرروا الـــدخول عليـــه وقتله هو ومن معه من المتآمرين، وقال "سنجر الشجاعي": نحن جميعًا يدٌ واحدةٌ فلنـــدخل عليهم الخيمة، فقد حرَّض "حسام الدين لاجين" الداهية الأمير "بيـــدرا" واســـتغل ضـــعفه، وسرعة تقلبه، فكان يسوقه إلى طلب الانتقام من "الأشرف خليـــل"، ولـــم يعمـــل الجبـــان "لاجين" حسابًا لمنزلة المُصاهرة، ونسي أفضال "آل قلاوون" عليه.

دخل مماليك "الأشرف" المعارضين لما حدث ودارت المعارك بين الأمراء المؤيـــدين والمعارضين لـــ"بيدرا"، حتى قُتل "بيدرا" وبعض "المماليك" والجند، وهرب مـــن هـــرب منهم، كما هرب الأمير "حسام الدين لاجين"، ووقف الأمراء الأشرفية و"المماليـــك" علـــى جثة "بيدرا" وصاح "سنجر الشجاعي": فتشوا جيب هذا الخـــائن الجبـــان، فســـارع أحـــد "المماليك" واستخرج من جيبه ورقة مطوية، فأمره "علم الدين سنجر الشجاعي" بفضـــها وقراءة ما بها، ونفذ المملوك ما أُمر به وقال: إنها فتوى استند إليها في قتلـــه "الأشـــرف خليل" جاء فيها: "ما يقول الفقهاء في رجلٍ يشرب الخمر في رمضان ويفسق بالمردان ولا يُصلي، فهل على قاتله ذنب أم لا؟"، فقال "علم الدين سنجر البندقداري" أحد مماليك "سنجر الشجاعي": يا له من وغدٍ حقيرٍ يجد لنفسه المبرر والحجة في قتـــل الســـلطان "الأشـــرف خليل"، ولأنه متأكدٌ من أن الإجابة على هذه الفتوى معروفة للجميع.. وهي أن يُقتـــل ولا إثم على قاتله، فقال الأمير "سنجر الشجاعي": فلنحمل رأسه إلى "قلعة الجبل" حتى يكـــون عبرة لكل خائن أثيم، ولنتضافر جميعًا ونبذل قصارى جهدنا للنيل من باقي قتلة الســـلطان خليل ولن نيأس من تقفي أثرهم لننتقم له منهم جميعًا.

في الخلاء كان المُزارع "سعد الدين" وزوجته كل منهما يركب حمارًا، في طريقهمـــا للمنزل، قال سعد الدين لزوجته: هيا بنا نسلك طريقًا آخر غيـــر هـــذا الطريـــق المعتـــاد اختصارًا للوقت قبل أن تغرب الشمس علينا، قالت الزوجـــة: ولكنـــي أخـــاف أن نســـلك الطريق الآخر في مثل هذا الوقت وقد يخرج علينا قُطاع الطـــرق وذئـــاب الخـــلاء، رد المُزارع: سلمي أمرك لله.. فهو الحارس والصاحب في الطريق، قالت: صدقت يا"ســـعد" هو الصاحب والحارس لنا فلنتوكل على الله.

ومضيا في طريقهما وفجأة صاحت "فاطمة" مذعورة فتوقف "سـعد الـدين"، فقالـت الزوجة: يا إلهي ماذا أرى! أترى ما أراه يا "سعد"؟ رد المزارع: ما هذا الذي أراه، ونزلا يستكشفان الأمر وإذا بـ"سعد" يهتف قائلاً: إنها جثةُ قتيلٍ ملقاةٌ على الثرى لها أكثـر مـن يومٍ وبها عدة طعنات، ويبدو أنها لعظيم، لما عليها من فاخر الثياب، أستغفر الله العظـيم، لماذا قتلوه المسكين؟ قالت الزوجة: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فلنوارهِا الثرى ونأخذ الأجر، رد "سعد": نعم نأخذ الأجر والثواب مـن الله، وحتـى لا تلتهمـه النسـور والجوارح، هيا يا "فاطمة" نحفر له قبرًا ونضع عليه حجرًا كبيرًا فربما يظهر لـه أهـلٌ يبحثون عنه فيستدلون عليه، قالت الزوجة مستنكرة: ماذا فعـل المسـكين ليقتلـوه بهـذه الطريقة ويلقوا به في الخلاء هكذا، رد المزارع: هيا يا "فاطمة" أسرعي لنحفر لـه القبـر فإكرام الميت دفنه.

ذاع خبر مقتل "الأشرف خليل" في البلاد والشيخ "نجم الدين المجذوب" يطوف كعادته في السوق، مُمسكًا بعصاه، ناظرًا لأعلى، مكررًا لحنه الخالد.

هناك ولا هناك هناك الفرض الصمد حي لا ينساك

الناصر حزينًا

حزن "الناصر محمد" على موت أخيه "الأشرف خليل" وبكاه بُكاءً مَريرًا وحبس نفسه في جناحه لا يغادره وظل يُناجي نفسه: لم يبقَ لي أحد غير أمي التي تغمرني بالعطف والرعاية والحنان والحب لكن شتَّان أن يُعوضني هذا الحُب.. حُب أخي الأشرف المشوب بالنصح والتوجيه، لقد حُرمت من الناصح الأمين الذي كان يأخذ بيدي في مجاهل تلك الحياة ويحميني ليصل بي إلى بر الأمان.. مات أخي الأشرف .. مات من كان لي درعًا واقيًا يبصرني بطرق تلك الحياة المضطربة ويفتح ذهني ويسلحني بالخبرة التي اكتسبها من أبي رحمه الله لأتغلب على كراهية وحِقد "المماليك" وخداعهم، يا رباه.. لقد غدر به أُمراؤه ومماليكه، أين الشجاعة والإقدام إذن؟ لقد كان أخي أشجعهم وأقواهم جميعًا، إذن.. فالشجاعة وحدها لاتكفي لابد من توخي الحذر ولن أتركهم يفتكون بي ويستضعفونني مهما كُنت صغيرًا.. ويمسح المسكين دموعه وتدخل السيدة "مسكة" مربيته عليه وتقول: أمازلتَ ياولدي على حالك وحيدًا تبكي أخاك ولا تريد مغادرة المكان، لقد حدث ما حدث والأمر لله وحده، وبُكاؤك وحزنك لن يُغيرا من الأمر شيئًا، ما عليك غير الدعاء له بالرحمة والمغفرة وقراءة القرآن، لقد وهبنا الله سبحانه وتعالى نعمة النسيان، وحينما تقفز الذكريات أمام أعيننا كسُحبٍ من الأسى وتخيم علينا وتبعث الحزن بقلوبنا نذكر الله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه، قم يا ولدي واخرج من عُزلتك هذه واستعذ بالله واستعد لما هو آت، واعلم أنك سلطان البلاد بلا منازع، فاخرج مما أنت فيه.

تجلس "آشلون خاتون" أم "الناصر" مغتمة في جناحها ومعها السيدة "مسكة" فتقول لها: يا "مسكة" إن الأمراء جميعًا يرون في أنفسهم الحق في الجلوس على العرش وإنهم جميعًا أمامه سواء، لا يتربع منهم عليه إلا من هو أقواهم شخصية وأمهرهم في القتال، هذا هو مبدأهم ولا مبدأ لوراثة العرش عندهم، فترد "مسكة" مؤكدة كلامها: صحيحٌ ما تقولينه يا مولاتي، فـ "الأشرف خليل" رحمه الله لم يصل إلى السلطنة إلا بقوةِ شخصيته ونفوذه وشجاعته المعروفة لكن ولدنا "مُحمدًا" لم تتكون شخصيته بعد فهو لا يزال صغيرًا لا نفوذ له على الأمراء كنفوذ أخيه "الأشرف" إلا أن يكون هذا النفوذ أدبيًا بحكم أنه ابن سيدهم "قلاوون" نفوذًا يؤمن به البعض ويكفر به البعض، قالت "آشلون": هذه هي الكارثة يا

"مسكة".. هذه هي الكارثة.. ماذا نفعل؟ قالت "مسكة": هوني عليكِ يا مـــولاتي ولا داعٍ للقلق.. فإنني أدركت عدم وجود من له شخصية قوية بين هؤلاء الأمراء المُتنافسين علـــى كرسي العرش وعرفت أن المُناقشات بينهم طالت دون جدوى ولم يتفقوا حتى الآن علـــى اختيار من يعتلي عرش البلاد من بينهم، وقد أعياهم الأخذ والرد وأنا على يقينٍ يا مولاتي بأن الأمر سيُحسم في النهاية لصالح ولدنا "الناصر"، فأجابت "آشلون": أتمنـــى ذلـــك يـــا "مسكة".. أتمنى ذلك من الله، ردت "مسكة": لا تنزعجي يا مولاتي.. سأسعى جاهدة لأخذ البيعة له من الأمراء جميعًا وسأبدأ بالأمير "علم الدين ســـنجر الشـــجاعي" فهـــو أقـــواهم شخصيةً ونفوذًا على الإطلاق، قالت "آشلون": أبلغيه رغبتي في أخذ البيعة منه للصـــغير "محمد" على أن يتولى هو شئون الدولة، فمازال "الناصر" يافعًا ولن يكون له من الســـلطنة غير الاسم فقط، وما على الأمير "سنجر الشجاعي" سوى إقناع باقي الأمراء لأخذ البيعـــة منهم للأمير "محمد"، قالت "مسكة": حقًا يا مولاتي.. فلن يكون له من السلطنة غير الاســـم وهذا يكفي في الوقت الراهن.. اطمئني واستكيني يا مولاتي، كل شئٍ سيكون على خير ما يُرام، فقالت "آشلون": لكني أخشى أن يتآمروا على ولدي، فعاجلتها "مسكة": لن يحدث ذلك أبدًا فهم منشغلون الآن عنه بالتنافس فيما بينهم للوثوب على العرش ولا خطر عليه مـــنهم ويعلم الجميع علم اليقين أن الصغير لاحول له ولا قوة فلا تخافي يا مولاتي عليه واطمئني لذلك.

ذهبت "مسكة" إلى "علم الدين سنجر" وأخبرته برغبة "آشلون" في أخذ البيعة لولـــدها فأخذ "علم الدين سنجر" يسعى ويُدبِّر كيف يحصل على مُبايعة جميع الأمراء لـــ "الناصـــر محمد".

في نيابة السلطنة اجتمع "علم الدين سنجر" بـــ "كتبغا" وقال له: ألم تفكر كيف ستخرج نفسك من تورطك مع باقي الأمراء المتآمرين في مقتل "الأشرف خليل"؟ لابـــد وأن تبعـــد عنك هذه الشبهة بأيِ طريقةٍ كانت، فرد عليه "كتبغـــا": ومـــاذا تـــرى؟ فســـكت "ســـنجر الشجاعي" هُنيهة وقال: نرسلُ إلى نائب "الشام" تلافيًا لما قد يحدث من قلاقل كتابًـــا عـــن لِسان السلطان خليل يتضمن اختياره "الناصر" وليًا للعهد طالبًا منه أخذ البيعة لـــه وذِكـــر اسمه مع اسم "السلطان الأشرف" في الخطبة قبل أن يبلغه خبر مقتل "الأشـــرف خليـــل"، فراقت الفكرة لـــ"كتبغا" حتى يَنجي بنفسه من تهمة اشتراكه في ارتكـــاب جريمـــة قتـــل "الأشرف خليل" فقال لـــ "سنجر الشجاعي": إنها فكرة جُهَنَّميَّة يا"سنجر" ثم قام الإثنان بعد اتفاقهما على كتابة هذه الرسالة.. وجـــاء فيها:

"من السلطان "الأشرف خليل" إلى "نائب دمشق" قد استنبنا أخانـــا "الناصـــر محمـــد" وجعلناه ولي عهدنا حتى إذا ما توجهنا إلى لقاء عدوٍ يكون لنا من يخلفنا"، فقال سنجر لـــ "كتبغا": ثم نأخذ البيعة بعد ذلك لـــ"الناصر محمد" من باقي الأمراء، حلاً مؤقتًا سيرضـــى به الأمراء، لا لأحقية "الناصر" في عرش أبيه بل لإخراجهم من الأزمة التي أوقعهم فيهـــا مقتل "الأشرف خليل"، ثم نشكل حكومتنا الجديدة ويكون أول عملٍ لها القبض على كل من اتُهموا بالاشتراك في مقتل "الأشرف خليل" حتى لا يساور أحد الشك ويهدأ الجميع، قـــال "كتبغا": صحيحٌ ما تقوله يا "سنجر" وأوافقك على أي شئ، ففريـــقٌ كبيـــرٌ مـــن الأمـــراء الأشرفية لم يقروا ما وقع في خيمة "السلطان الأشرف" ولم يوافقوا على ســـلطنة "بيـــدرا" ووقعت الفتنة بين "المماليك" وقُتل فيها "بيدرا" كما رأيت، فليس غريبًا أن يبدأ التنافس بين أمراء "المماليك" من جديد وتقع الفتن ولا نقوى حينئذٍ على السيطرة عليهم، قال "ســـنجر": اهدأ ولا تنزعج سأرتب لك الأمر وستكون أنت نائبًا للسلطنة وأنا وزيرٌ لشـــئون الدولـــة و"بيبرس" استادارًا، قال كتبغا مؤيدًا: أُقر بكلِ ما تقوله دون تراجعٍ أو تردد فلنُســـارع إذن بإرسال الكتاب إلى نائب "دمشق" قبل أن يصله خبر مقتل "الأشرف خليل" فتقع الكارثة.

وبذلك تكون قد تمكنت السيدة "مسكة" بالفوز وأخذ بيعة الأمراء لـــ"الناصـــر محمـــد" بحسن تدبيرها وفرط ذكائها.

دخلت السيدة "مسكة" فرحة إلى جناح "آشلون" وهي تقول: أبشري يا مـــولاتي فلقـــد ظفرنا بما نريد ووافق الأمراء على مبايعة ولدنا "الناصر محمد" ليكـــون سُـــلطانًا للـــبلاد وبذلك يكون الأمير "سنجر" قد حقق رغبة مولاتي ووفَّى بعهده، ردت "آشلون": حمـــدًا لله يا "مسكة"، قالت "مسكة": علمت أيضًا من الأمير "سنجر" أنه تم القبض على كثيـــرٍ مـــن "المماليك" ممن تورطوا في ارتكاب جريمة مقتل "الأشرف" وساروا يا مولاتي بـــالمتهمين ومن بينهم الأمير "علاء الدين الطنبغا" بعد أن قطعوا أيديهم و سُمِّروا على الجِمال وأيديهم معلقة في أعناقهم، أما رأس الأمير "بيدرا" فقد حملوها على رمـــحٍ وطـــافوا بهـــا وســـط "القاهرة" ومرُّوا على أبواب الدور وخرجت جواري "الأشرف" وقد لبسن الحداد وطفن في الشوارع نائحات حاسرات الرؤوس يلطمن خدودهن، وقيل أن زوجة "علاء الدين الطنبغا" هَمَّت بإلقاء نفسها من أعلى الدار ولكن جواريها أمسكن بها، قالت "آشلون": هل تم القبض على الأمير "حسام الدين لاجين" رأس الفتنة يا "مسكة"؟ ردت "مسكة": لا يا مـــولاتي فقـــد استطاع الهرب ويُشاع أن الأمير "كتبغا" نائب السلطنة يتستر عليه بسبب ما كـــان بينهمـــا من صلات المحبة والصداقة، قالت "آشلون": ألم يخبرك الأمير "سنجر" متى سيتم جلـــوس

"الناصر" على العرش؟ أجابت "مسكة": أخبرني يا مولاتي، وقد حُدد يوم السادس عشر من المحرم عام 693 هـ موعدًا لجلوس "الناصر" على عرش البلاد ليحلف له الأمراء والعسكر يمين الولاء. بذلك يكون "الناصر" سلطانًا و"كتبغا" قائمًا بجميع أمور الدولة ونائبًا للسلطنة والأمير "سنجر الشجاعي" وزيرًا لشئون الدولة.

نعود إلى "زمزم" وهو يقص على ابنته ويقول: مضى وقت طويل لم أحدثك بما حدث بعد مقتل "الأشرف خليل"، فقد تمت مبايعة الأمراء والجند "للناصر محمد" بعد أن أعياهم الأخذ والرد وبعد أن تمكنت مربيته السيدة "مسكة" بحيلتها مغتنمة فرصة تنافس الأمراء على كرسي العرش واختلافهم فتدخلت وحسمت الأمر لصالح الطفل الصغير بذكاء ومكر شديدين مستخدمة الأمير "علم الدين سنجر الشجاعي" أقوى الأمراء في هذه الحيلة، قالت "سلسبيل": كم كان لـ"الناصر" من العمر في ذاك الوقت؟ رد عليها: كان له من العمر تسع سنوات فقط، بعد ذلك لم يدم الصفاء طويلاً بين "كتبغا" و"سنجر" فبدأت الدسائس والفتن والخلافات تدُب بينهما بعد ثلاثة أشهر بالتمام، وسعى أهل السوء بينهما بالوقيعة وعلى رأسهم الأمير "سيف الدين قنق" والأمير "سيف الدين بلبان" والأمير "بيبرس"، هكذا يابنتي ينقلبون بعضهم على البعض.

في جناح "آشلون" أم "الناصر" وكانت تجلس معها "مسكة" لتبلغها بما حدث فسألتها "آشلون" هل لديك أخبار جديدة يا "مسكة"؟ فأجابت: نعم.. إن الخلافات وصلت أوجها بين "كتبغا" و"سنجر" وأخشى يا مولاتي أن ينقلبا على السلطان ويفوز أحدهما بالسلطنة، فلقد أوقع الأمير "سيف الدين قنق" والأمير "بيبرس" بينهما وأشعلا نار الفتن بدس الوقيعة فقالت "آشلون": وماذا سنفعل لإخماد هذه الفتن؟ ردت "مسكة": أنا لم أقف مكتوفة الأيدي يا مولاتي أمام هذه الصراعات، بل ذهبت إلى الأمير "بيبرس" لأستطلع منه الأمر وأعلنت له عن رغبة مولاتي في التوصل إلى حل لفض هذا النزاع لكنه أبلغني أن "الشجاعي" يسعى إلى اغتصاب عرش "الناصر" وأنه يستخدم مقتل الأشرف وسيلة لإثارة الفتن وباتهامه لـ "كتبغا" بالتستر على "الأمير حسام الدين لاجين" ولم أنجح في محاولتي معه، فردت "آشلون": إذن لابد أن نُعلم "الناصر" بما حدث وبما يسعى إليه "بيبرس" وغيره من الأمراء فإن "بيبرس" داهية وكثيرًا ما أراه يتملق السلطان ويداهنه ويتقرب منه حتى يستميله إليه، لابد أن نبين لـ"الناصر" ونوضح له الأمور حتى لا يقع فريسة لأحدٍ منهم، فأشارت إليها "مسكة" باقتراحٍ وقالت: أُفضل يامولاتي أن تشيري على مولاي "الناصر" بأن يحاول التفاوض مع "علم الدين سنجر" مباشرة ويبين له أنه من الصالح العام ترك البلاد لهم ولو

مؤقتًا على أن يتعهد له مولاي بإعطائه "نيابة الشام" مثلاً، فيستريح منهم ويستريحوا منــه، ثم يتعهد له بإعادته بعد أن يستتب الأمر وتتحسن الظروف ويجعله نائبًا له واطلبــي يــا مولاتي من مولاي "الناصر" أن يتشفع له لدى "كتبغا" ورجاله، فردت "أشلون": إنها فكــرة عظيمة يا "مسكة" سأفعل ما في استطاعتي وسأذهب إلى مولاكي الآن أحدثه بهذا الأمــر حتى نجد حلاً لهذه المشكلة.

حدثت "آشلون" "الناصر محمد" بذلك فاستوعب نصيحتها في فض النزاع كي لا ينقلب الأمراء عليه، واجتمع السلطان بــ "كتبغا" في نيابة السلطنة وما أن رآه الأخير حتى قال: أما قد سبق وأن طلبت منك استدعاء "سنجر" يا "خوند" لانفراده برأيه في القــبض علــى الأمراء دون مشاورتي ولابد من محاسبته وقد بلغنا عنه ما أنكرناه، فقال "السلطان": لقــد بعثنا في استدعائه ولكنه لم يستجب لطلبنا وامتنع عن الحضور خوفًا على حياته منك و أنا لا أرى داعٍ لكل هذا يا "كتبغا" فأعطه الأمان، فقال "كتبغا": لقد طلب الأمان بعد أن ضعف موقفه وبعد أن انضم عددٌ من رجاله إلى رجالي، فالأمراء جميعًا أبوا عليه ذلــك، فقــال السلطان: ستعمل يا "كتبغا" على إثارة الفتن واندلاع حربًا أهليةً بين جنودك وجنود "سنجر" وستشتعل القلعة نارًا هذا ما أراه فرد "كتبغا": لابد من حفظ نظام الدولة، واتفاق الكلمــة، وإزالة الفساد يا "خوند"، فقال السلطان: ولكني ماجئتك إلا متشفعًا في "ســنجر الشــجاعي" فهل تقبل شفاعتي فيه وتفك عنه الحصار؟ فأجاب "كتبغــا": والله يــا "خونــد" أنــا لا أرد لمولاي شفاعة في أحدٍ إلا شفاعتك في "علم الدين سنجر"، فقال السلطان: أإلى هــذا الحــد بلغ ما بلغ بينكما من خصومة، قال "كتبغا": أجل يا "خوند"، فهو البادئ بإشعال نار الفتنة، فرد السلطان: كيف حدث ذلك؟ قال "كتبغا": لقد أبلغني الأمير "سيف الدين قنق الأشــرفي" ما دبره لي "الشجاعي" بالاتفاق مع مماليكه من البرجية والخاصكية بأن يقبضوا عليَّ يــوم الخميس المقبل وقت الموكب حين أطلع إلى القلعة وبعد أن تمد الأســمطة، وقــد أبلغنــي "سيف الدين قنق" أن "الشجاعي" أنفق في يومٍ واحد على مماليكه ومن انضــم إليــه مــن مماليك واحد وثمانين ألف دينار لينفذوا ما خططه معهم على أن يقبضوا عليَّ، وعلــى أن يجيئ كل واحد منهم برأس أمير على أن يكون له إقطاعه، فقال السلطان: هــل تُصــدق وشاية "سيف الدين قنق" يا "كتبغا"؟ فرد "كتبغا": إنها ليست وشاية يا "خوند"، فالأمير "سيف الدين قنق" أقرب ما يكون لــ"سنجر" من أي شخص آخر، وفــي خدمتــه منــذ أن قتــل "الأشرف خليل"، وكلمته مسموعة لدى "سنجر" وشفاعته مقبولة عنده، يطلعه علــى كــل أمور الدولة لثقته البالغة فيه، ولكني علمت مؤخرًا أن علاقتهما قد ساءت من فترةٍ لســبب

أجهله، فقال السلطان: هل من المعقول مهما بلغت ثقة "سنجر" بـ "سيف الدين قنق" أن يفصح له عما في طوايا نفسه نحوك؟ إنها الفتنه يا "كتبغا"، اسمع مني رغم صغر سني، قال "كتبغا": لقد تأكدت من صحة ما قاله "سيف الدين قنق"، فقد استعجل الأمير "علم الدين سنجر البندقداري" مملوكه ونزل إلى سوق الخيل بحثًا عني ليفتعل موقفًا بسؤاله لي عن مخبأ "حسام الدين لاجين المنصوري"، وما أن قلت له إنني لا أعلم مكانه حتى مد يده ليستل سيفه ويضربني فأخرج "سيف الدين بلبان الأزرق" مملوكي سيفه وقتله، فمن البادئ إذا بإشعال الفتن؟ أهو أم أنا؟ فقال السلطان: هون عليك يا "كتبغا" وفك عنه الحصار الذي دام سبعة أيام وأعدك بأن أبعده خارج البلاد لتستريحوا منه ويستريح منكم، قال "كتبغا": لا والله لن يكون هذا أبدًا فقد قام النزاع سافرًا بيننا ولن ينتهي إلا بموت واحدٍ منّا.

خرج السلطان من نيابة السلطنة متجهًا إلى قصره في حين أن أمه قد ضاقت بهذا الحصار وخرجت هي الأخرى إلى سور القلعة وسألت الأمير "سيف الدين بلبان": ما غرضكم من هذا الحصار الذي أراه وقد استمر سبعة أيام يتكرر فيها القتال بين أنصار "سنجر" وأنصار "كتبغا"؟ فرد الأمير "سيف الدين بلبان" ما لنا غرض إلا القبض على "سنجر الشجاعي" وإخماد الفتنة، فتسألت: أي فتنة تقصد أيها الأمير؟ فأجاب: إنها الفتنة التي دبرها الأمير "سنجر" للقضاء على "كتبغا" وأمرائه وخلع سيدنا وابن سيدنا من السلطنة، لقد تواطأ "سنجر" مع الأمراء الأشرفية والأمراء البرجية والخاصكية على ذلك، فدُهشت "آشلون" وقالت: والله أنا لا أصدق ما تقوله أيها الأمير، ألهذا تحاصرونه ومن معه؟ فقال "سيف الدين بلبان": أجل يا مولاتي.. إنه يحاول تقليب الأمور علينا بإشعال الفتنة بين الأمراء ودس الدسائس بينهم وإيهام "الملك الناصر" بأننا قد كان لنا يدًا في مقتل "الأشرف خليل" وإنه لكاذبٌ.. فنحن لا نخلع يدًا من طاعتكم "آل قلاوون" جميعًا حتى ولو بقي من بيت أستاذنا "قلاوون" بنتًا عمياء كنا مماليكها لا سيما وولده الملك "الناصر" حاضرٌ وفيه الكفاية.

احتال "سنجر" متخفيًا حتى دخل جناح السلطان فقال له السلطان: ما آخر هذا الحال الذي أنتم عليه؟ رد "سنجر": هذا كله من أجلك يا ابن أستاذنا فهم يقصدون أن يخلعوك من السلطنة ويقبضوا عليَّ ويتخلصوا مني، لكن إلى متى سنظل هكذا محاصَرين؟ فلقد أحكم "كتبغا" علينا الحصار في القلعة وقطع عنا الماء وأغلق أبواب "القاهرة" جميعًا، كما أمر بغلق الأسواق حتى لا يترك لأحد منا فرصة للخروج من القلعة ولا دخول أحدًا إليها، و كما ترى يا "خوند" لنا سبعة أيام على هذه الحالة، يتكرر فيها القتال بين أنصاري

وأنصاره يريد بذلك أن تخور قوانا وتضعف عزائمنا فنستسلم له، فوالله لن يكون هذا أبدًا، فقال السلطان: اتركني أعمل شيئًا يثق به الأمراء ويطمئنون إليه وأنا معكم، ورأيي أن تذهب وتُقيم في مكانٍ بالقلعة وأرسل في طلبهم ثم أحاول أن أوفّق بينكم على أن نعطيك "الشام" تذهب إليها وتستريح منهم، فهبَّ "سنجر" واقفًا غاضبًا وقال: مع كل وافر احترامي وتقديري لك يا "خوند" إلا وأنني لا أوافق مولاي الرأي فيما يقول، سأقاوم حتى الموت فأنا لستُ بالجبان ولا الضعيف، وليفعل الله ما يريد، فهل يأذن لي مولاي بالانصراف ؟.

نعود إلى "زمزم" الذي يستكمل القصة لابنته فيقول: خرج "سنجر" من حضرة السلطان يلتمس قصره فخرج عليه بعض رجال "كتبغا" وقتلوه، وحُملت رأسه على حربة فوق أسوار القلعة ثم نزلوا بها إلى الشوارع يطوف بها المشاعلية فحصلوا من وراء ذلك على مالٍ كثيرٍ من أولئك الذين كانوا يبغضون "سنجر" أشد البغض فكان النساء والرجال يتنافسون في ضرب الرأس بل وينزلون بها ما هو أقصى، ونوديَ بالأمان وأمر "كتبغا" بعد ذلك بفتح الأسواق وبفتح أبواب "القاهرة" وكانت جميعها مغلقة إلا "باب زويلة" منذ بدأت الفتنة بين "كتبغا" وبين الأمير "علم الدين سنجر" حتى لا يهرب الأمراء الأشرفية من قبضة يده وقد أُحكم عليهم الحصار، وأخذ المُنادي يُنادي بالأمان وهو يردد: ***"يأهل القاهرة يأهل البلاد، انتهت الفتنة وحرب الأوغاد لا تغلقوا المتاجر بغير داعٍ انتهت الحرب وقتل "سنجر الشجاعيّ"***، فقالت "سلسبيل": وبذلك تكون قد انتهت الفتنة يا أبي، فقال: نعم، غير أن "كتبغا" أخرج مماليك السلطان "خليل" من القلعة وأسكنهم "مناظر الكبش" لاعتقاده بأن لهم يدًا فيما وقع بينه وبين "سنجر الشجاعي"، فقالت: وماذا بعد يا أبي؟ فقال: حلف الأمراء للسلطان "الناصر" ولنائبه "كتبغا" ودُعي لهما في خطبة الجمعة، وبعد خمسةِ أيام ركب "الناصر" في أبَّهة الملك وشق "القاهرة" من "باب النصر" حتى خرج من "باب زويلة" عائدًا الى "القلعة" وهتف الناس لسلطانهم "الناصر" ودعوا له بتثبيت ملكه.

نعود إلى "أم "الناصر" "آشلون" وقد أخذت تدعو لولدها "الناصر" بتثبيت مُلكه بعد أن فرغت من صلاة العشاء، وتقول: ستُعاني الكثير يا ولدى من غدر أمرائك وجندك لكن الله سيرعاك ويحميك من غدرهم ومؤامراتهم عليك، ثم تذكرت زوجها "المنصور قلاوون" فترحمت عليه وقالت: تركته صغيرًا ولم يبقَ له غيري سندًا وعونًا في الدنيا ورفعت يديها بالدعاء: اللهم انصر ولديَ "الناصر" على أعدائه، وثبت له ملكه، واحفظه من كل سوء يا رب العالمين، حاولت بعد ذلك أن تسترخي في فراشها فانتابها قلق زلزل كيانها وحاولت من جديد أن تجذب أطراف النوم لكنه هرب منها فانتفضت جالسة على حافة السرير

وكان الصمت يحيط بها من كل جانب في تلك الحُجرة الواسعة المترامية الأطراف فأخذت تفكر في مصير ابنها "الناصر محمد" وما قد يتعرض له من مكائدٍ ومؤامرات، ثم عـــادت ثانية إلى فراشها وسحبت أغطيتها لتنام حتى لا تحمل نفسها ما لاطاقة لها به، وفيما هـــي بين صحوة مثقلة بالأفكار ونُعاس يغفو بعينها ما كادت تمُر بتلك اللحظة حتى اســـتغرقها حُلم يقظة مروع، رأت أنها واقفة بأعلى شرفات القصر وكلابٌ كثيرةٌ تلهـــث وراء ابنهـــا "الناصر" وهو يعدو بخطوات جريئة ولا يلتفت وراءه بل يجـــري ويجـــري ولا تســـتطع الكلاب اللحاق به، وفجأة يقع "الناصر"، فإذا به يتحول إلى ثعبانٍ ضـــخم فتـــراه الكـــلاب وتتسمر مكانها ويبدأ بالتهام الكلاب الواحد تلو الآخر، فأخذت "آشلون" تصرخ وأفاقت من حلمها المزعج فإذا بـــ"مسكة" واقفةً أمامها و"آشلون" تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اللهم اجعله خيرًا، فعاجلتها "مسكة": خير اللهم اجعله خير، أهناك شئٌ يُفزع مولاتي؟ قالت "آشلون": أجل .. وحدثتها بما رأت فقالت "مسكة": هذه بشارة خيرٍ يا مولاتي فإن مـــولاي سيظفر بالنصر على أعدائه واحدًا تلو الآخر، فابشري ولا تنزعجي فلن ينال منـــه أحـــدٌ مهما بلغت قوته، هذا هو تفسير رؤياك، واقرئي في مثل هذه الحالة بعد أن تستعيذي بـــالله من الشيطان الرجيم"*أعوذ بكلمات الله التامات اللاتي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر، وأعـــوذ بوجه الله الكريم*" فإنها مجرد طوارقٌ ليليةٌ وتلـــك الكلمـــات ســـتحفظك بـــإذن الله، ردت "آشلون": سأفعل .. سأفعل .. إذا ما عاودتني تلك الأحلام والكوابيس المفزعة، وخرجت "مسكة" من الغرفة وظلت "آشلون" وحدها شاردة البال تُفكر في مصير ابنها.

لاچيـــن

يدخل حاجب الحُجاب إلى "كتبغا" حاملاً رسالة من الأمير "حســـام الــدين لاجــين"، فيتسلمها "كتبغا" ويفضها ويقرأ ما بها ثم يعيد قراءتها على الأمراء ويقول: "مـــن الأميـــر "حسام الدين لاجين" إلى نائب السلطنة الأمير "زين الدين كتبغا".. علمت بما حــدث بعــد مقتل "السلطان خليل"، وعلمت بأحداث الفتنة التي قضيتم عليها ونجحتم في إخمادها وكذلك التخلص من أمراء "الأشرف خليل" المتمردين عليكم، ولِما كان بيننا من صداقة وود أرجو العمل جاهدًا للحصول لي على عفوٍ من السطان "الناصر" أعزك الله يا صـــديقي العزيـــز والسلام".

أخوك " حسام الدين لاجين" .

بعد أن انتهى "كتبغا" من قراءة الرسالة نظر إلى الأمراء وقال: مـــاذا تـــرون أيهـــا الأمراء في شأن صديقنا العزيز "لاجين" بعد أن سمعتم رسالته المرسلة من "دمشـــق"؟ رد عليه الأمير "سيف الدين بهادر": والله إن "لاجين" ما فعل غير الذي كنا نحن له فـــاعلين، وقال "سيف الدين بلبان": إننا جميعًا كنا نبغض السلطان "الأشرف خليل" ونكن له العــداء، أما "لاجين" فزاد كرهه للسلطان بعد أن عزله من "نيابة دمشق"، الأمر الذي دفعـــه إلـــى الاشتراك في قتله ثم هروبه واختفائه، رد "سيف الدين بهادر": والله إنـــي أرى أن نـــذهب جميعًا إلى السلطان "الناصر" متشفعين في "لاجين" ونلتمس منه الحصول على عفـــوٍ لـــه، فقال "كتبغا": أؤيدكم الرأي فيما تقولون، فلنذهب غدًا للسلطان "الناصر" فـــ"لاجين" مـــازال زوج أخته ولا ينسى السلطان له ضميره الحي ونفسه التي تميل بطبعها إلى الخير.

تقدم الأمراء مُتشفعين في "لاجين" حتى عفا عنه السلطان ومثل "لاجين" بعد ذلك بـــين يديه وخلع عليه ولم يُعاتبه بما فعل بأخيه "خليل"، وتسارع الأمراء في تقديم الهـــدايا إليـــه وفي مقدمتهم صديقه "كتبغا".

اندمج بعد ذلك الأمير "لاجين" مع باقي الأمراء البارزين في الدولـــة ممـــا أغضـــب مماليك السلطان الراحل الذين لم ينسوا له مشاركته في قتل سيدهم إضافة إلى سوء معاملة "كتبغا" لهم بإخراجهم من القلعة وإنزالهم "مناظر الكبش" مما جعل "المماليـــك الأشـــرفية" يقومون بثورةٍ كبيرةٍ "694 هـــ" خرجوا فيها من مساكنهم إلى القلعة ونهبوا ما نهبوا ثـــم

اتجهوا إلى "باب سعادة" وقصدوا "سوق السلاح" واستولوا على ما في الحوانيت من أسلحة لكن الحكومة قبضت عليهم وضربت أعناق بعضهم وأنزلت عقوبات على البعض الآخر بتقطيع أيديهم، وكان عددهم يزيد عن ثلاثمائة مملوك.

نهض الأهالي مساندين هؤلاء الثوار مؤمنين بثورتهم لنقمتهم على "كتبغا" لسوء أحوال البلاد ولارتفاع الأسعار وكثرة الشُح ونقص مياه النيل وضيق الأرزاق وتفشي الوباء.

كان الأهالي لا يثقون بالحكومة، ويسيئون الظن بها، لا يثقون بـ"كتبغا" ولا بالسلطان "الناصر"، فكانت هذه الثورة بمثابة انتفاضة لجموع الشعب ولم تكن فقط بسبب سوء الأحوال في البلاد فحسب، بل كانت بسبب عفو السلطان عن "لاجين" والذي كان من أهم أسباب اندلاعها ولأنهم يعلمون تمامًا ما يرمي إليه "لاجين" بهذا العفو.

عَظُم ضجيج الناس في الأسواق من شدة الغلاء فكان الناس يتظلمون للشيخ قاضي القضاة "ابن دقيق العيد" يستوقفونه ويشكون له حالهم.

وبعد أداء صلاة الجمعة خرج "ابن دقيق العيد" من الجامع فالتف من حوله الناس يستغيثون ويستنجدون به، فيقول أحدهم: يا "ابن دقيق العيد" أيُرضيك سوء أحوالنا وما يحدث لنا من غلاءٍ للمعيشة؟ أيُرضيك ضيق الأرزاق وشح الماء وتفشي الوباء، أنت صوت العدل فينا، لقد فاض بنا الكيل فارفع صوتك باسمنا نحن أهل "مصر" إلى حكام البلاد، وقال آخر: لقد عجزنا عن مواراة أمواتنا في القبور لكثرتهم ولانتشار الأوبئة ونُدرة القائمين على الحفر ولتزايد أعداد الموتى فصار الناس يدفنون موتاهم بغير غُسل أو كفن، وقال ثالث: لقد حَلّتْ علينا اللعنة والكوارث والنكبات مقترنة بهذا السلطان ونائبه، ونطلب من الله بقلوبٍ عامرةٍ بالإيمان أن يُخرجنا من هذا الضيق ويتيح لنا سلطانًا آخر يتبدّل على يديه الحال ليعود إلينا الرخاء، فرد عليهم "ابن دقيق العيد" يُهدئهم: اهدؤا واطمئنوا وادعوا الله أن تزول الغمة وتنفرج الكُربة وأكثروا من صلواتكم ومن الدعاء إلى الله وسيصل صوتكم للسلطان "الناصر" بإذن الله، فيقول أحد الرجال: ماذا سيفعل السلطان "الناصر" لنا؟ إنه مغلوبٌ على أمره مثلنا يترك كل الأمور يديرها نائبه، وأمراؤه، ويقف موقف المتفرج من هذه الأحداث التي تجري تحت سمعه وبصره ولا يملك أن يُغير من الأمر شيئًا لصغر سنه ولعدم خبرته ودرايته، فيرد "ابن دقيق العيد": صبرًا جميلاً أيها الناس، فقدر الصعود يكون الهبوط وعلى قدر الظلم سيأتي العدل يومًا ما، فتجلدوا واصبروا وسيجعل الله لكم مخرجا.

وعلى مقربةٍ من الجمع يظهر المجذوب طائفًا بينهم مُرددًا:

هناك ولا هناك هناك الفرض الصمد حي لا ينساك

أما "يعقوب" ذلك اليهودي العجوز اللئيم فقد اتخذ من النكبات والكوارث في البلاد مغنمًا له، فكان يُخزن البقول والسلع الغذائية في مخزن بيته مستغلاً تكاثر الناس وتوافدهم واندفاعهم عليه، ويجلس في فناء داره لا يُحرك ساكنًا لأيٍّ من المترددين المتوسلين إليه طلبًا للشراء بأي ثمن، فينهر كل من يحاول الاقتراب من باب الدار وينظر إلى الناس وعيناه يتطاير منهما الشرر لفرط ذكائه ومكره، لابسًا تلك الجُبّة القذرة والعمامة الصغيرة الصفراء وقد أرخى سالفيه على أذنيه غير مُكترثًا بأي أحد، فتشجع أحد الأهالي وسأله من بعيد صائحًا: يا "يعقوب".. هل أجد عندك ويبةً (16 قدحًا) من القمح؟ فنظر إليه "يعقوب" ثم قال: كم تدفع فيها يا رجل؟ رد الرجل: ما تطلبه يا "يعقوب"، فتردد "يعقوب" وقال: أنا لا آخذ مالاً إنما أُقايض على بضائعي، فرد الرجل: وبأي شئ تُقايض عليها؟ رد "يعقوب": بالذهبِ والجواهرِ الثمينة .. أمعك شيئًا منها؟ رد الرجل: لا يا "يعقوب".. معي دراهم ودنانير.. أينفعك ذلك؟ قال "يعقوب" وهو يرفع كتفيه مُستهزئًا غير مبال: كلا.. فما عادت تنفع دنانيرك ولا دراهمك ولا تساوي عندي شيئًا، فسخط الرجل وقال: اتقِ الله يا "يعقوب"، كُنت بالأمس القريب تغشنا في الكيل والوزن واليوم تحبس عنا الطعام مُستغلاً أحوال البلاد وما حل بها من نكبات، لقد صدق فيك المثل القائل: مصائبَ قومٍ عند قومٍ فوائد، وأغلظ له في القول وسفهه ومشى الرجل مُرددًا: حسبيَ الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل.. وأقسم بالله أن يذهب إلى الوالي يخبره بما لدى "يعقوب" من سلعٍ يحبسها عن الأهالي ويغالي في أثمانها بصورة لا يقدر عليها الناس، مُستغلاً حالة البلاد واحتياج العباد.

حصل "يعقوب" على مجوهراتٍ ومشغولاتٍ ذهبيةٍ كثيرة من المُحتاجين لبضائعه فكانوا يُضحُّون بالغالي والنفيس مُقابلَ القليل من الغلال ليسدوا جوعَ أبنائهم.

ومن شدة المجاعة، خرجت الأهالي في كل أنحاء البلاد تُعبر عن غضبها بإطلاق ألسنتها في سلطانهم لما حل على البلاد من كوارثٍ وفقرٍ وغلاءٍ ومرضٍ ووباءٍ ولغضبهم من اهتمام "كتبغا" بـ"الوفود المغولية" التي فرت من ملكهم "غازان" إلى "بلاد الشام" فقد تقدم أكثر من عشرة آلاف تتاري طالبين الدخول في الإسلام وعلى رأسهم الأمير "طرغاي" (زوج ابنة هولاكو)، فأمر "كتبغا" الأمير "علم الدين سنجر الدويداري" بأن

يخرج إليهم ليستقبلهم كما أخرج الأمير "سنقر الأعسر" وندب أيضًا "قراسنقر المنصوري" للخروج من "القاهرة" إلى "الشام" لاستقبالهم، وجاءوا إلى "مصر" عام (695) هـ فأكرم "كتبغا" وفادتهم لأنهم من بني جنسه، كما منح لقب الإمارة لعددٍ منهم، الأمر الذي أغضب "المماليك" والأهالي معًا لأنهم كانوا من عبدة الأوثان يأكلون لحم الخيل من غير ذبحِها، ومن شدة ما عانى الناس الجوع أكل بعضهم الميتة من الكلاب.

في يومٍ ما .. رأى أحد الأمراء وهو عائدًا إلى قصره امرأةً حسنةَ الهيئة تستجدي أمام باب قصره حاملةً على كتفها جرابًا، فرق لحالها وأدخلها حديقة قصره وأمر الخدم بإحضار الطعام والشراب لها، ثم أحضر لها الخدم ما لذ و طاب من الطعام والشراب فلم تشبع فكرروا ذلك مراتٍ ومرات حتى شبعت واسندت رأسها إلى الجدار فغفت عينيها ونامت، وظلت فترة طويلة على هذا الحال فأمر الأمير بألا يوقظها أحد حتى تفيق من نومها، ولما طال نومها وجاءوا لإيقاظها وجدوها قد ماتت، فرفعوها ورفعوا الجراب عن كتفها فوجدوا فيه يد إنسانٍ صغيرٍ ورجله، فأخذ الأمير الجراب وصعد به إلى القلعة وأراه للسلطان والأمراء، حتى يعلموا إلى أية حالٍ وصلَ الأهالي من شدة الجوع والفقر.

تآلفت الأهالي في شدة المجاعة ونقص المياه وتفشي الأوبئة في مشاركة المحن، وتبكي أم المعز حاملةً رضيعها بين يديها يئن تحت وطأةِ الجوع والعطش، تهرول المرأة وتستغيث بالجيران، تطرق الأبواب لتجد ما يبر رضيعها، فتفتح لها جارتها "تريزا" فتسارع أم "المعز" قائلةً: أغيثيني يا "تريزا" .. إليَّ برشفة ماءٍ "للمُعز" ولدي.. إنه يحتضر بين يدي وقد جف اللبن في صدري ولم يعد الرضيع يجد ما يسد رمقه، أدخلتها "تريزا" على عجلٍ وهدَّأت من روعها ومضت مسرعةً إلى داخل الدار وأتت بنصفِ كوبٍ من اللبن قدمته إليها وما كادت تسقي الأم الرضيع حتى رأت طفلي "تريزا" يخرجان من داخل الدار يقفان وعينهما شاخصتان إلى الرضيع وهو يلتهم اللبن بنهمٍ شديد، اقترب الطفلان من الرضيع ينظران إليه بحنوٍ وعطف ويربتان على صدره، فقبلتهما أم "المعز" وبعد أن انتهت من سقاية رضيعها نهضت شاكرةً "تريزا" على حسن كرمها وعطفها ونجدتها لها وقالت: أنا مدينةٌ لكِ بعمري يا أختاه وكذلك "المعز" ولدي ورفعت يدها تشكر الله وتحمده و"تريزا" تقول: لا شكر على واجب يا أم "المعز" فنحن معًا في السراء والضراء ونشكر الرب، هكذا كان الأهالي يتعاطفون مع بعضهم البعض في المحن.

نعود إلى "لاجين" و"كتبغا" بعد أن ظفر "لاجين" بالعفو من السلطان، جلس في "نيابة السلطنة" مع "كتبغا" وقال: أما قلت لك أن الأمراء الأشرفية سيظلون ناقمين علينا أبد

الدهر ولن ينسوا لك وقوفك جانبي والتستر عليَّ، ولن ينسوا لك إخراجهم من "قلعة الجبل" وإسكانهم "مناظر الكبش"، لقد أسروها في أنفسهم، رد "كتبغا": أعلم ذلك جيدًا وكان لابد من القضاء عليهم وسحقهم سحقًا حتى ننتهي من أمرهم، قال "لاجين": لا أظن أن شوكة هؤلاء "المماليك الأشرفية" ستنكسر طالما ظل "الناصر" مُتربعٌ على عرش البلاد رغم كل ما أنزلت بهم من عقاب، نظر إليه "كتبغا" باندهاش وقال: ماذا تقصد؟ رد "لاجين": لا أقصد شيئًا، ولكن لا أطمئن إليهم، والآن دعنا منهم فما رأيك في أن نخرج للصيد غدًا؟ فارتاب "كتبغا" وقال: وراءك أمرٌ لا أفهمه فأفصح عما في صدرك، ففاجأه "لاجين" بسؤال: أليس لديك الرغبة في الاستئثار بالحكم؟ اندهش "كتبغا" وقال: ماذا تقول؟!! أنا لا أسعى لذلك أبدا، فعاجله "لاجين": ولما لا تسعى إليه؟ قال "كتبغا": لقد تم اختيار "الناصر" لأحقيته في المُلك وأنا لا حاجة لي في المُلك ولا تنسى أنني المتصرف الفعلي في كل شئون الدولة بصفتي نائبًا للسلطان وما "الناصر" إلا رمزا .. مالي أنا والمُلك! قال "لاجين": لكني شرحت لك السبب في مدى خطورة "المماليك الأشرفية" عليك، وعلى أية حالٍ فكر جيدًا فيما قلته لك، وكن ثاقب النظر، واسع الأفق، فاستطرد "كتبغا" قائلاً: إلى ماذا ترمي؟ .. آتِ ما عندك يا "لاجين"، فقال: ما عندي هو أن تذهب إلى "الخليفة العباسي" الحاكم بأمر الله "أبو العباس أحمد الهاشمي" وتشرح له أن البلاد في حاجةٍ إلى رجلٍ يخافه الناس والجنود وتخشاه الرعية تحترم أوامره ونواهيه لا لغلامٍ صغيرٍ غير كاملٍ الأهلية، فرد عليه "كتبغا" وقد بدأ يفكر في الأمر: لكن "الخليفة العباسي" وحده لا يكفي للموافقة على هذا إلا بعد مشورة القضاه والأمراء وموافقتهم، فقال "لاجين": وما يمنعك في التحدث إلى القضاة والأمراء بشأن هذا الموضوع؟ لا أظن أنهم سيرفضون طلبك شرطًا أن يوليك الخليفة السلطنة، انتفض "كتبغا" واقفًا وقال: سأُفكر في الأمر، رد "لاجين": لا.. لا يا عزيزي لا تفكر ثانيةً حتى لا تتردد، فأجابه "كتبغا": سأُحاول عرض الأمر على الخليفة وبدوره سيعرضه على الأمراء والقضاة وسنرى إلى أي رأيٍ ينتهون.

تجلس "آشلون" أم "الناصر" في حديقة قصرها معها السيدة "مسكة" تبكي ابنها "الناصر" وما حل به وتقول: أرأيت يا "مسكة" ماذا حدث لمولاكِ "الناصر"؟ إنها مؤامرة من "كتبغا" وأعوانه .. أما سمعتِ ماذا قال "ابن السيسي" عن ساق ولدي؟ قال: أنها تُلفت ولن تصل من قدمه إلى الأرض إلا أطراف أصابعه فلن يسير بعد ذلك إلا مُتكئًا على أحد أو متوكئًا على عصا، قالت "مسكة" تواسيها: لا تحزني يا مولاتي سيحفظ الله مولايَ "الناصر" من كيد المُتآمرين، فردت "آشلون": إنني متأكدةٌ تمامًا بأن أحدًا من الأمراء قد

دبَّر هذه المكيدة لولدي ليتخلصوا منه فجعل ذلك الغلام الذي غسل وجه الجواد يضع في أنفه مادة مُثيرة مما جعل الجواد يعدو عدوًا سريعًا وكأنه وُخِزَ بحربةٍ في جنبه، قالت "مسكة": نعم يا مولاتي .. أعتقد ذلك ولم يستطع مولاي أن يوقفه ويكبح جماحه فقد ازداد الجواد عدوًا وكأنه أُصيب بجنةٍ وأخذت الحِجَارة تتطاير من تحت حوافره، قالت "آشلون": أما سمعتِ ماذا قال مولاكِ بعد أن عاد؟ قال: أن الجواد اصطدم بصخرةٍ فرماه عن ظهره بقوةِ الاستمرار وقذفه إلى مسافةٍ بعيدةٍ فوقع في حفرةٍ قليلةِ العمق وغاب عن الوعي وبعد أن أفاق لم يستطع النهوض وكرر المحاولة واستند على جدار الحفرة فسقط ثانيةً وفيما هو يحاول أن يهم بالنهوض سمع وقع حوافر ورأى أشباحًا كفرسان عددهم يزيد عن الخمسة يُسوقون أفراسهم فحدَّث نفسه أن يستغيث بهم ولم يكد يفعل حتى سمع صوتًا يقول: الجواد قد قُتل فأين "الناصر" إذن؟ رد عليه آخرٌ: لا يُعقل أن يبقى حيًا لقد نجحت حيلتنا، فكتم "الناصر" أنفاسه وأدرك أن "المماليك" قد دبَّروا له هذه المكيدة وتجلد فسمع صوت حوافر جوادٍ مسرعةٍ كالبرق فاعترضه الفرسان الخمس وأوقفوه وما لبثوا أن عرفوا أنه جاء سعيًا للبحث عن "الناصر" وإعادته فتدافع المجرمون عليه وضربوه بسيوفهم وتركوه جثةً هامدةً حتى لا يفتضح أمرهم وهربوا مسرعين.

بعد أن اختفوا.. تحامل "الناصر" على نفسه وركب جواد الفارس القتيل وامتطى صهوته، وكان الجواد يعرف طريقه إلى ساحة الميدان، فعاد مولاكِ كما رأيت، قالت "مسكة": هوني عليك يا مولاتي لقد اعتدنا هذا من "المماليك" ولقد دبروا وأحكموا تدبير قَتل أخيه "الأشرف" من قبل، والآن يُريدون أن يُعيدوا الكرة مرةً أخرى بطريقةٍ مختلفة، وسيحفظ الله مولاي "الناصر" بإذن الله وأُقسم بالله وأتعهد لكِ بأنني سأعرف من كان وراء هذه المَكيدة.

لم تجد "مسكة" أية مشقة في الوصول إلى حقيقة سر محاولة قتل السلطان "الناصر"، فقد خرجت لتوها من حضرة مولاتها "آشلون" تتجول في أرجاء حديقة القصر، حيث كان السكون يلف المكان والكل نيام، وفيما هي كذلك كانت الجارية "بلاريب" تنتظر لقاء حبيبها "بهادر" في الحديقة، تتلفت حولها في شئ من الخوف والحذر، وحينما جاء "بهادر" مضت به إلى أقصى مكان بعيدًا عن أنظار الرُقباء، وساقهما قدرهما السئ إلى مكانٍ قريبٍ حيث "تجلس "مسكة"، وقد أعماهما الارتباك عنها.

سأل "بهادر" "بلاريب": مالي أراكِ على غير عادتك.. ماذا بكِ؟ فأجابت: أعلمت بما حدث لمولاي "الناصر"؟ لقد كُسرت ساقه بعد أن رماه جواده عن ظهره، وقد سمعت أن

مؤامرة دُبرت للخلاص منه، ولكن الله حماه من هذه المكيدة، رد "بهادر": علمـت ذلـك.. ولكن عليكِ أن تسمعيني جيدًا.. فأنا لا أكتم عنكِ سرًا.. فأنت تعلمين مدى حبي لك وثقتي فيكِ، ثم تنحنح وكأنه يستنكف من التصريح بذلك الأمر، ثم قال: لقد دَبَّر "زين الدين كتبغا" هذه المكيدة حتى يتخلص من السلطان وذلك بالاتفاق مع "حسام الـدين لاجـين"، فقالـت: وكيف دُبرت هذه المكيدة ؟! أجاب: لقد كلفني نائب السلطان بـأن أجعـل أحـد الغلمـان الموكلين بخدمة الفرسان المتسابقين وأجذل له العطاء وأوصاني بأن أجعله يدس في أنـف جواد السلطان مادة تهيجه وتحمله على الركض بغير هدي فلا يستقر قراره حتى يصطدم ويتحطم هو وراكبه، وقد نفذ الغلام ما أُمر به، بعد ذلك قمنا بإرسال فرسانًا ليتحققوا مـن موته، فلما رأوا جثة الجواد مُلاقاة قرب الصخرة التي اصطدم بها تأكدوا مـن مصـرع السلطان، فقاطعته "بلاريب" قائلة: ما أظنك تفعل ذلك! فقال: هذا ما حدث، وليس بوسـعي أن أرفض لنائب السلطان طلبا.

أسترسل "بهادر" في حديثة قائلاً: إن "كتبغا" و"لاجين" يُخططان لما هو أبعد من ذلك، فاندهشت "بلاريب" وقد استبدت بها رغبة قوية في الوقوف على كل ما يمكن أن تعرفـه من حقيقة الأمر، وبعد إلحاح منها همس "بهادر" بما رتبه الأميران بشأن خلـع "الناصـر" وعزله عن السلطنة.

سمعت "مسكة" ما قاله "بهادر" وظلت صامتة لاتحرك ساكنًا حتى انصرفت "بلاريب" وفي إثرها "بهادر"، فسارعت "مسكة" بالعودة إلى جناح "آشلون" تخبرها بكل ما سمعته.

نعود لـ"زمزم" مع ابنته يقول: هكذا انضم أعوان الشر إلى بعضهم الـبعض وأخـذ "لاجين" يغري "كتبغا" بطريقة الحيلة والدَّس على الاستئثار بالحكم وزين له الملـك ومـا يتبعه من سلطةٍ وجاهٍ وأنَّ المصلحة تقتضي خلعَ "الناصر محمد" وجلوس "كتبغا" مكانه.

وقع "كتبغا" في الفخ الذي نصبه له "لاجين"، فقاطعت "سلسبيل" أباها وقالت: مسـكين "الناصر".. لقد عانى الكثير يا أبتاه، فأجابها العجوز: أجل يا ابنتي عانى الكثير والكثيـر جدًا، وسألت "سلسبيل" أباها: وماذا حدث بعد ذلك؟ رد العجوز: وافق الخليفة العباسي كما وافق القضاه والأمراء وحلفوا جميعًا لـ"كتبغا" فأصبح "كتبغا" سلطانًا على "مصر" و"الشام" ولُقب بالسلطان "العادل زين الدين كتبغا"، كان ذلك يوم الأربعاء الحادي عشر من المحرم عام أربعة وتسعين وستمائة، قالت "سلسبيل": وماذا فعل "الناصر" بعد ذلك؟ رد العجـوز: لم يفعل شيئًا، لقد كان يقف موقف المُتفرج من هذه الأحداث لا يملك من أمر نفسه شيئًا أو يستطع أن يُغير من الأمر شيئًا، قالت "سلسبيل": هل بقي "الناصر" مقيمًا في القلعـة هـو

وأمه؟ أجاب: لا.. لقد أمر "كتبغا" بنقل "الناصر" وأمه من قصرهما بالقلعة وأسكنهما في بعض قاعاتها.

انتهت بذلك السلطنة الأولى لـ"الناصر" بعد أن استمرت سنة إلا ثلاثة أيام، فتساءلت "سلسبيل": وما موقف "كتبغا" من صديقه "لاجين"؟ أجاب "زمزم": كان من الطبيعي أن يكون أول عملٍ لهذا السلطان الجديد أن يُكافئ صديقه الذي أوحى له بالفكرة، وخطط له طريقة الوصول إلى الحكم فعينه نائبًا له، كما عيَّن "الصاحب فخر الدين عمر" وزيرًا، و"عز الدين الأفرم" أمير جاندار، و"سيف الدين بهادر" حاجب الحُجاب، كما عيَّن "عز الدين أيبك الحموي المنصوري" نائبًا له في "دمشق"، و"شمس الدين قراسنقر المنصوري" نائبًا بـ"القاهرة"، لكن اقترنت سلطنة "كتبغا" بأحداثٍ أثارت الأهالي وكرَّهتهم فيه، فأطلقت العامة ألسنتها عليه بسبب ما حل عليهم من بلاءٍ وغلاءٍ ووباءٍ ونقص ماء.

في جناح "نوران" زوجة "لاجين" وكان يستعد للخروج بينما كانت زوجته راقدةً في فراشها، فسألته بتهكم: إلى أين يذهب نائب السلطنة في هذا الوقت المتأخر؟ رد: ذاهبٌ لزيارة أخيك "الناصر" وأمه "آشلون" فقالت: وما سر هذه الزيارة المفاجئة؟ فقال: مجرد زيارةً، فقد سمعت أن "آشلون" حزينة على عزل "الناصر" من السلطنة واعترتها وعكةٌ صحيةٌ ألزمتها الفراش، كذلك لأطمئن على سلامة أخيك "الناصر"، فقالت "نوران": آت ما عندك وافصح عن طوايا نفسك وقل لي صراحةً ما حقيقة سر هذه الزيارة؟ قال "لاجين": لقد قلت لكِ وانتهى الأمر، فردت "نوران": أنا على يقينٍ أن هناك سببًا لا أعلمه، وإني أرى الشماتة تُطل من عينيك وأشتم رائحة غدرٍ، فأنا أعرفك جيدًا لا تُشارك أحد المحن.. فعاجلها: أتُحبين أن تأتي معي؟ رفضت "نوران" وقالت: فلتذهب وحدك لقد قُمت بزيارتهما صباح اليوم، وعلى أيةِ حالٍ لا سر يُكتم في قصورِ "قلعة الجبل"، سأعرف مؤكدًا ما أنت مقدمٌ عليه، فقال: لا داعٍ للاجتهاد والتساؤلات وبث عيونٍ لك في كل مكان، فإذا كنتِ مُصرة على معرفة الحقيقة فسأوفر عليك جهدَ البحث من وراء ظهري، قالت "نوران": إذن تكلم واخبرني بالحقيقة، فرد عليها: لقد كلفني "كتبغا" أن أبلغ "آشلون" و"الناصر محمد" بمغادرةِ قصرهما وإنزالهما بعض قاعات القلعة.. هل استرحتِ الآن؟ شهقت "نوران" وقالت: هذا ظلمٌ بينٌ واعتقالٌ وحبسٌ وتحديدٌ لإقامتهما وتحقيرٌ من شأنهما، أو لا ينتظر "كتبغا" حتى يُشفى أخي "الناصر" ويستطيع الحركة فلقد قدر الله له النجاة من المكائد التي تُدبرونها له ولكن سنعرف من كان وراء هذه الجريمة، قال "لاجين": كفي عن الثرثرة، ردت "نوران" بعصبيةٍ: لن أكُف .. فإلى متى تنفرون الناس منكم؟ إلى متى تبقون على ما

أنتم عليه من ظلمٍ وفسادٍ وتآمرٍ وتناحرٍ على السلطة؟ فالملك لله وحده يا "لاجين" وسينصر الله أخي "الناصر" قريبًا بإذن الله، فقال: أمازلتِ واهمة؟ .. لقد انتهى ملك أبيك وأخويكِ ولم يبق منهم إلا الذكرى، قالت "نوران" بشموخٍ وعزة: حسبيَ أني ابنة السلطان "المنصور قلاوون" وأنا أفتخر به وبذكراه العطرة ما حييت فمن تكون أنت يا "لاجين" أنسيت فضل أبي عليك حينما اشتراك ورباك وأعتقك وأمَّرَكَ وعينك نائبًا له بـ"قلعة دمشق"، خسئت يا "لاجين" و ما أظن أنك وفيٌّ لصديقك "كتبغا"، فإن طموحاتك لا حدود لها وربما تكون مُتطلعًا إلى عرش السلطنة بالتآمر على "كتبغا" فأنت لا تعرف الوفاء ولا الإخلاص لأحد، استدار "لاجين" وقال: كُفي أيتها الحمقاء .. لا أريد أن أسمع هذيانك.. لقد سئِمَت أن أسمع ذلك منكِ، وخرج يُفكر فيما قالته بشأن تطلعه إلى السلطنة وطموحاته التي لا حدود لها بل وأخذ يفكر في طريقة ينتزع بها المُلك من صديقه وقَتَلَتْ رغبته كل المعاني الجميلة للصداقة والوفاء، وأصبح لا يُفكر إلا في الوسيلة التي يزيل بها "كتبغا" عن طريقه، ومشى يُناجي نفسه ويقول: لقد حان موعد سفر "كتبغا" لـ"دمشق" وهناك سأتحين الفرصة للخلاص منه فقد كرهته الناس لاقتران حكمه بما حل على البلاد من نكبات ومن الطبيعي أن يتمنوا زوال حكمه حتى يُتاح لهم سلطانٌ آخر يتبدل على يديه الحال و يعود للبلاد الرخاء.

مُؤامَرَة

سافر "كتبغا" إلى "دِمشق" ومنها إلى جهة قرية "جوسية" وهي ضيعةٌ آيةٌ في الجمال اشتراها له "الصاحب شهاب الدين الحنفي" حيث قضي بها وقتًا مُمتعًا، ثم سافر بعد ذلك إلى "حمص" ونزل عند البحر بالمرج بعدها أقام في البريَّة لأجل الصيد، وحضر إليه جميع "النواب الحلبية" ثم عاد إلى "دِمشق" فدخلها بمن معه من عسكرٍ ثم ركب بخواصه وأمرائه إلى الجامع لصلاة الجمعة فجلس على جانبه "الملك المظفر تقي الدين محمود" صاحب "حماه" وتحته نائب "دمشق" "سيف الدين أغزلو العادلي" وعن يساره الشيخ "حسن ابن الحريري" وأخواه ثم نائب السلطنة "حسام الدين لاجين المنصوري" ومن تحته نائبَ "دمشق" الأسبق "عز الدين أيبك الحموي" ثم الأمير "بدر الدين بيسري" فـ"قراسنقر المنصوري" نائب "حلب" ثم "الحاج بهادر" حاجب الحُجَّاب.

وبعد أن أدُّوا صلاة الجمعة غادر السلطان "دمشق" عائدًا إلى الديار المصرية وكان في وداعه جميع "النواب الحلبية" وعلى رأسهم والي "دمشق" "سيف الدين أغزلو" الذي هتف له: تصحبك السلامة يا سلطان البلاد، أطال الله عمرك وثبَّت عرشك، قال "كتبغا" للجميع من فوق جواده: والله لقد تجلت لي علامات الترحيب في كل مكان من هذا البلد واحتفلتم بقدومي يا أهل "دمشق" واحتفيتم بي خير احتفاء وسأعمل إن شاء الله جاهدًا إن كُتب ليّ العمر على راحتكم وعلى المَجئ إليكم كل عام.

تحرك موكب السلطان إلى الديار المصرية حتى نزل بـ"اللجون" بالقرب من "وادي فحمة" فنُصبت الخيام في إحدى القُرى وبدأ "لاجين" يُدبِّر للفتك به.

قال "لاجين" للأمير "سيف الدين كُجك": مازال لدينا الوقت لننتهي من مهمتنا ولابد من اتخاذ الحذر فإن جنوده منتشرين حول خيمته والحراسة عليها مُشددة، هيا نمضي إلى خيمتنا حتى لا يَشُك في أمرنا أحدٌ ويطمئن الجميع فيناموا، وهنا نضرب ضربتنا ونتخلص.

بعد أن نام الجميع أو هكذا بدا، تسلل "لاجين" ومن معه من "الأمراء" المتآمرين على قتل "كتبغا" إلى الخيمة السلطانية فشعر بهم الأميران "بكتوت الأزرق" و"بتخاص" العادليين ففتك بهما "لاجين" وقتلهما وكانا عزيزين على أستاذهما "زين الدين كتبغا" ثم قصد "لاجين"

بعد ذلك خيمة السلطان فتصدى له بعض "المماليك" وعاقوه عن الوصول إليـــه فاستشـــعر "كتبغا" فركب فرسه "حمامة" وفَرَّ عائدًا إلى "دمشق"، ولو أقام "كتبغا" بمخيمه ولم يَفر لـــم يقدر "لاجين" على قتله أبدًا.

اغتاظ "لاجين" من فشل المحاولة وقال: فضل الجبان الهرب ونزوله عـــن العـــرش طائعًا مختارًا، فرد "الأمير سيف الدين كجك": فر دون أي مقاومة تاركًـــا وراءه خزائنـــه وجنده وحراسه وأمراءه وكل شئ! قال أحد الأمراء: تُرى لماذا لـــم يُحـــاول الاســـتنجاد والاستغاثه بجنوده وحراسه؟ رد "لاجين": رُبما كان مُتصورًا أن أمراءه وجنده وحراسه قد انضموا إلينا ولذلك فضل الفرار والنجاة بحياته من مواجهة الموت المحتوم، فقال "ســـيف الدين كُجك": أعرف أن "كتبغا" رجل ذكي يعرف مصلحته جيدًا، فقاطعه "لاجين" قائلاً: لا أعتقد أن "كتبغا" الذي أعرفه يؤثر الحياة على الموت حتى ولو كانت هذه الحيـــاة مشـــوبة بالمهانة وربما يكون مبعث هذا الرضا هو إيمانه بفلسفة جديدة لا أعرفها ولا يعرفها غيره من الأمراء والسلاطين، رد الأمير "سيف الدين كُجك": ليس أمامنا الآن غيـــر اختيـــارك سُلطانًا علينا بشرط ألا تنفرد بآرائك دوننا، وقال أحد الأمراء: ولا تترك مماليكك يعبثـــون بمصالح الغير فلا تُقدمهم علينا، وقال آخر: هذه شروطنا للموافقة على اختيارك سُـــلطانًا للبلاد، قال "لاجين": قَبلت شروطكم وأقسم بالله على أن أقوم بتنفيـــذها، وشـــرع "لاجـــين" بالقسم فقاطعه أحد الأمراء وقال: قبل أن تقسم لنا بالولاء نخشى إذا جلست فـــي منصـــب السلطنة أن تنسى ما تقرر بيننا وبينك وتقدم علينا مماليكك وتحـــول مملوكـــك "مُنكتمـــر" فيصيبنا منه ما أصابنا من مماليك "كتبغا"، رد "لاجين": أقسم بالله ألا أفعل ما فعله غيـــرى من السلاطين ولن أخرج عما التزمت به معكم، فقال الأمراء: إذن فلنقسم لك يمين الطاعة والولاء.

طار الخبر إلى "الشام" وردَّده المؤذنون والخطباء في مآذن "دمشق" بعد أن ذكروا قول الله تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران: 26].

أبقى "لاجين" على "كتبغا" حاكمًا على "قلعة صرخد" بعد أن أخذ عليـــه التعهـــد بـــألا يُكاتب أحدًا ولا يُشاور أحدًا ولا يَستفسر من أحدٍ.

نذهب إلى جناح "لاجين" حيث تجلس زوجته "نوران" تُبادله الحـــديث وتقـــول: هـــل استرحت الآن بعدما وصلت إلى ما كنت ترمي إليه وغدرك بصديقك "كتبغا" الذي منحـــك

الثقة وعينك نائبًا له؟! فقال بعد أن أشاح بوجهه: لقد ضاقت الناس بـه واجتمعوا على كراهيته وتمنوا من أعماق قلوبهم زوال مُلكه بعدما عانوا ما عانوه من بلاءٍ ووباءٍ وفقرٍ وضيق أرزاق، فأرحتهم منه وليَ الأجر والثواب، قالت "نوران" ساخرة: أنتَ الذي سترفعُ عنهم البلاء ليحل محله الرخاء ويزيد النماء! فقال لها: أتسخرين مني! ردت عليـه: إنـك تهوى لعبة الغدر والخيانة ولا تفي بعهدٍ قط، تستهويك لُعبة التآمر ضد الغير، انظر إلـى يديك فمازالتا مُلطختين بدماء أخي "الأشرف" الذي غدرت به أنت ومماليكـك والأمـراء المتناحرون على المُلك أمثالك، فأقسم وقال: ما كانت لتؤرقني جريمة مثلما أرقتني جريمة قتل "الأشرف" وكثيرًا ما أشعر بعبءٍ ثقيلٍ على نفسي طوال السنوات الماضية فهي نقطة سوداء في سجل حياتي أسعى إلى محوها بالصلاة والصيام ولكنها لن تمحى "فإن من قتل يقتل، وكل قاتل مقتول" أنا لم أقل لكِ هذا من قبل، ولكن الكوابيس تفزعني في نومي ولـم أعد أحتمل هذا الشعور الذي يشقيني ويحرمني هدوء النفس، وكثيرًا ما كنت أسأل العلماء هل حديث من قتل يقتل صحيح؟ فقالت "نوران": لا أصدق ما أسمع فإني أشعر في حديثك بنبرةِ حزنٍ وأسى وإحساسٍ بالندم، أأنت حقًا نادمٌ على ما فعلت؟ قال: أشدُ النـدم، قالـت: الاعتراف بالذنب هو البداية الصحيحة، والتقرب إلى الله بالاستغفار ليقبل توبتك، فقال: ما أظن أن الله يقبل توبتي على ما فعلت، وكل لحظة أعيش فيها يحوم حولي شـبح المـوت حيثُما التفت ويهتف بي هاتف من قتل يقتل، أعيش حالة خوف دائم من القتل، فقالـت: ألا تثق بنائبك "مُنكتمر"؟ رد مُسرعًا: لا أثق بأحد .. لا أثق بأحد...، قالت: حتـى "منكتمـر"، فأجابها: حتى "مُنكتمر" الذي أحبه لا أثق به، ابتسمت "نوران" وقالت: هـون عليـك يـا "لاجين" لقد تغيرت كثيرًا بعد أن أصبحت سلطانًا، وقد لاحظت إعراضـك عـن شُـرب الخمر، وإحجامك عن مجالس اللهو وإقبالك على مجالس العلماء، وحرصك علـى نشـر العلم وأمرك بالإفراج عن المسجونين، لعل الله يقبل توبتك.

نعود لـ"زمزم" فيقول: قام "لاجين" بإصلاحاتٍ كثيرة في البلاد، واهتم بالعلماء وأعد صندوقًا لحفظ مال اليتامى وجدد "مسجد بن طولون" بعد أن كان مهجورًا، ويقال أنه اختبأ فيه عقب مقتل "الأشرف خليل بن قلاوون" فرتب فيه دروسًا للتفسير والحديث والفقه فـي المذاهب الأربعة ودروسًا في الوعظ والإرشاد وألحق به كُتّابًا لتعليم الأيتام، والغريب أنـه أصدر أوامره بتحريم لبس الكلفتاة المُزركشة ومنع لبس الأقبية الحريرية باهظـة الـثمن وجعل نفسه القدوة في ذلك فزادت محبة الأهالي له، فاستوقفت "سلسبيل" أباهـا تسـأله: وماذا فعل بـ"الناصر" وأمه؟ رد العجوز: أحب "لاجين" ألا يُشاركه أحد من ذوي النفـوذ في سكن "القلعة" فرسم بنزول الخليفة منها وأنزله "مناظر الكبش"، وأبعد "الناصر" وأمـه

إلى "قلعة الكرك" بعد أن استدعى "لاجين" "الناصر محمد" في حضرة قاضي القضاة "ابن دقيق العيد" الذي أصبح وصيًا عليه بعد خلعه من السلطنة وقال: "إنني أقوم بالسلطنة كنائب عن "الناصر" ابن أستاذي "قلاوون" وإني لأرى أن يتوجه "الناصر" إلى "الكرك" حتى يبلغ مبلغ الرجال، لأن الأمراء ما كانوا يتركونه جالسًا على العرش وهو في هذه السن الصغيرة، ثم التفت إلى الناصر" ووجه إليه الخطاب قائلاً: "إنني ما استأثرت بملكك دونك طمعًا فيه، ولكن آمل أن أحفظه لك من الطامعين حتى تصقلك التجارب وتجعلك أهلاً لأن تأوي إلى الملك، ويأوي الناس إلى طاعتك، وتدين لك رقاب "المماليك" والرعية بالطاعة"، ثم قال: " وكل ما أطمع فيه من وراء محافظتي على العرش هو أن تتعهد لي بأنك متى جلست على العرش أوليتني حكم دمشق"، صدق "الناصر" خدعة "لاجين" وطلب منه أن يقسم له على كل ما قال، فأقسم وخرج "الناصر" من عنده يستعد للسفر إلى "الكرك".

بدأ "لاجين" في تكوين حكومته وعين أحد مماليكه نائبًا للسلطنة فعارضه الأمراء جميعًا، لكنه لم يعبأ بذلك لعطفه وحبه لهذا الأمير، وكأن الأمراء كانوا يقرأون في صفحة الغيب عندما اشترطوا عليه ألا يُسلط مماليكه عليهم لاسيما "مُنكتمر".

ترك "لاجين" نائبه "مُنكتمر" يتصرف في أمور الدولة لا يشاركه أحد فكرهه الأمراء لأنه جادّ في عمله ولا يعرف المداهنة حازمٌ لا يعرف التراخي عنيفٌ لا يعرف اللين، وهذا النوع من البشر لا يتمتع عادة بحب الناس.

بعثَ يومًا "مُنكتمر" إلى قاضي القضاة "ابن دقيق العيد" يُعلمه أن تاجرًا مات تاركًا وراءه أخاه ولم يخلف غيره ممن يرثه وأراد "مُنكتمر" أن يثبت استحقاق الرجل للإرث بمجرد الإخبار عنه، لكن القاضي لم يوافق على الإسراع في إصدار حكمه دون أدلة، وترددت الرسل بين الأمير والشيخ، ولم يطق الأمير صبرًا على ذلك فبعث بأمير إلى "ابن دقيق العيد" يرجوه في هذا الأمر على وجه السرعة، ذهب الأمير وبدأ يتلطف في إثبات أخوة التاجر بشهادة "مُنكتمر" فقال له "ابن دقيق العيد":ماذا يُنبئنى على شهادة "مُنكتمر"؟ رد الأمير عليه: يا سيدي ما هو عندكم عدل، فتضايق الشيخ وقال: سبحان الله ثم أنشد:

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند

كرَّرَ ذلك ثلاث مرات وقال للرسول: والله إن لم تقم عندى بينة شرعية تثبت لدي فلا حكمت له بشئ، بسم الله، وانصرف الأمير وهو يردد: والله هذا هو الإسلام، وذهب

القاضي إلى "دار العدل" فسارع إليه الأمراء واحدًا تلو الآخر يقولون: يا شـيخنا.. ولـدك الأمير "مُنكتمر" يريد الاجتماع بك، فلم يلتفت إلى أحد منهم وقال: قولوا لـه مـا وجبـت طاعتك علي، والتفت إلى من معه من القضاة وقال: أُشهدكم أني عزلت نفسي، بسـم الله، وقولوا له أن يُولي غيري، وانصرف إلى داره وأغلق بابه عليه.

علم السلطان بما حدث وبعث إليه ليسترضيه، فذهب القاضي إلى السلطان بعد طـول إلحاحٍ من الأمراء، فاستقبله السلطان وعزم عليه أن يجلس على مرتبةٍ منه، فتقـدم "ابـن دقيق" وبَسَطَ خرقة بالية من الكتان فوق الحرير كراهة أن يجلس عليه، وأخـذ السـلطان يتلطف معه حتى يعدل عن استقالته إلى أن قَبِل، وأنكر على "مُنكتمر" تصرفه، وقبـل أن ينصرف القاضي قال له السلطان: يا سيدي هذا ولدك "مُنكتمر" خـاطرك معـه ادع لـه، فنظر له القاضي وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول: "مُنكتمر" لا يجئ منه شئ وكـرر ذلك ثلاث مرات، ثم قام مُتجهًا إلى منزله، وما كاد يخرج من حضرة السلطان حتى بادر الأمراء بأخذ الخرقة تبركًا بها فمزقوها قطعة قطعة ليدخروها عندهم رجاء بركتها.

ثقلَ "مُنكتمر" على الناس جميعًا إلا السلطان، كان مُحببًا إليه قريبًا لقلبه فسعى الأمراء إلى عزله من منصبه بالدس له عند السلطان، لكن مكانته في نفسه كانت أقوى مـن كـل دس، فلم يستمع إلى وشاية أحد فيه.

ظل "مُنكتمر" قائمًا في منصبه كالطود الشامخ بل ارتفعت منزلته عند السلطان إلـى درجة لم يتصورها أحد وأراد أن يجعله وليًا للعهد غير أن صديقًا من الأمراء نصحه بعدم الإقبال على ذلك لما فيه من خطرٍ عليه وعلى مُلكه.

يدخل السلطان "لاجين" إيوان قصره ومعه نائبه "مُنكتمر"، ويسأله السلطان: مـا هـو الشئ الهام الذي كُنت تريد أن تحدثني به؟ فيرد "مُنكتمر": والله يا "خونـد" لقـد لاح لـي اقتراح أريد أن أعرضه عليك فإن وافقت عليه أسارع بتنفيذه دون تردد، فأجاب "لاجـين": تفضل بعرض اقتراحك، فما أكثر اقتراحاتك يا "مُنكتمر"، فقال: إني أرى أن نقوم بـإجراء حركة تنقلات بين أمراء الدولة، فابتسم السلطان مستغربًا وقال: لا أفهم ما تعنيـه، فـرد "مُنكتمر": أعني أن الأمر يستلزم أن نقوم بعملية نقل أمراء "مصر" إلى "الشام" وأن يقُـوم غيرهم من أمراء "الشام" على "مصر"، قال "لاجين": لا أعارضك في ذلك الاقتراح ومـا عليك غير التنفيذ باتخاذ الخُطوات اللازمة نحو ذلك، وافعل ما تراه صـالحًا للـبلاد دون الرجوع إلي، لكني أتساءل.. ما دوافعك التي جعلتك تُفكر فـي هـذا الاقتـراح؟ أجـاب "مُنكتمر": لقد ضاقت الرعية بأمراء "المماليك" لإسرافهم وسوء معاملاتهم لهم، فلابد مـن

تأديبهم، لكني أعتب على مولاي إلغاء قراري بنقل الأمير "بهادر" إلى "طرابلس" وقبولك تشفع الأمراء فيه حتى أعفيته من التنفيذ وأبقيته في "مصر" مُتجاهلاً قراري، فطيب السلطان خاطره ولم يكتفِ "مُنكتمر" بذلك فانتفض واقفًا وقال: والله يا خوند إما أن يُنفذ هذا الأمير قرار النقل وإما أن أقدم أنا استقالتي كنائبٍ للسلطنة، فقال السلطان: أإلى هذا الحد أنت غاضبٌ؟ لا عليك، فلنلغي هذا العفو ونلزم الأمير بتنفيذ قرار النقل إلى "طرابلس".

يستكمل "زمزم" الحديث: هكذا ضعُفت هيبة السلطان أمام نائبه "مُنكتمر" وأحس "المماليك" بخطة "مُنكتمر" فأجمعوا على التخلص منه ولكنهم أدركوا ضرورة التخلص من السلطان أيضًا.

أوغل "لاجين" في الدين فقام الليل وصام رجب وشعبان ورمضان، ومع ذلك لم يحقق هدوء نفسه، وسألت "سلسبيل": هل تآمروا على قتله يا أبي؟ فأجابها: من تقصدين .. السلطان أم نائبه؟ فقالت: أقصد السلطان، فرد: نعم.. لقد قتلوه وقتلوا "مُنكتمر" بعده، أما قصة قتل السلطان "لاجين" فكانت غريبة ومفاجئة، فبعد أن أفطر السلطان وكان صائمًا وبينما كان يلعب الشطرنج مع أحد العُلماء، دخل عليه الأمير "كرجي" وكان من المقربين إليه وانحنى يُحدثه بصوتٍ خافتٍ: صلاة العشاء وَجَبَتْ يا مولاي، فرد السلطان: حقًا وجبت! جازاك الله خيرًا يا "كرجي"، لقد نَبَّهْتَنِي أيها الأمير العزيز، وترك السلطان لعبة الشطرنج واستأذن من ضيفه وقام على التو يستقبل القبلة ليُصلي صلاة العشاء، وما أن هَمَّ بالركوع حتى فاجأه ذلك الأمير بضربةِ سيفٍ وانقض عليه باقي الأُمراء المُتآمرين الذين حضروا في الحال وضربوه من كل جانبٍ حتى صار كومة لحم، وهكذا انتهت حياة "المنصور لاجين"، بعد أن حكم سنتين وشهرين وثلاثة عشر يومًا، وكان له حينئذٍ من العمر نحو الخمسين عامًا.

اتجه المُتآمرون بعد ذلك إلى "مُنكتمر" وقبضوا عليه وتخلصت البلاد في ساعاتٍ معدودةٍ من سلطانها ونائبه فخلى العرش من جديد.

مشى الناس في الأسواق يحدث بعضهم البعض عن مفاجأة مقتل السلطان "لاجين" ونائبه "مُنكتمر" وهتف الناس باسم "الناصر محمد بن قلاوون" حيث لم يكن من بين الأمراء من له شخصية قوية يستطيع أن يرغم زملاءه على اختياره سلطانًا عليهم، إضافة إلى أن الرعية أجمعوا على عودة "الناصر" من منفاه في "الكرك".

ومشى المجذوب "نجم الدين" كعادته مُردِدًا:

هناك ولا هناك هناك الفرض الصمد حي لا ينساك

انطلقت الوفود من "مصر" إلى "الكرك" لاستدعاء السلطان "الناصر" نزولاً على إرادة الشعب رغم محاولات "كرجي" و"طوغجي" المُشتركان في مقتل "المنصور لاجين" للاستيلاء على سلطنة البلاد، ولكن محاولتهما باءت بالفشل وقُتل الاثنان، ووصلت الوفود إلى "الكرك" لمقابلة "الناصر" وكان خارجًا للصيد فاستقبلتهم "مسكة" فطلبوا مُقابلة الخوندة "آشلون خاتون".

عادت "مسكة" مُسرعةً تُخبر الخوندة الكبيرة وتقول: لقد حضرت وفودٌ غفيرةٌ من "مصر" يريدون مُقابلة مولاتي بشأن مولاي "الناصر"، ردت "آشلون" مندهشة: وفودٌ من "مصر"! ماذا جاء بهم إلى هنا؟ أما كفانا منهم ما عانيناه، لقد تركنا لهم السلطنة والبلاد كلها فماذا يريدون الآن؟ اخرجي إليهم وأخبريهم بعدم رغبتي في مُقابلتهم.

هَمَّت "مسكة" بالخروج لإخبارهم ثم تراجعت وقالت: لكن يا مولاتي رُبما يُريدون شيئًا هامًا، فلتسمع منهم مولاتي لعله يكون خيرًا لولدنا "الناصر"، تنهدت "آشلون" وقالت: انتظري.. سأخرج إليهم، وخرجت "آشلون" على مضضٍ وقالت مُتسائلة بعد أن ألقت عليهم التحية: ماذا وراء مجيئكم إلينا أيها الأمراء؟ فأجابها الأمير "بيبرس": جئنا من "مصر" قاصدين مُقابلة "الناصر محمد" في أمرٍ هام، قالت: أي أمر تريدون "الناصر" من أجله؟ فأجاب الأمير "سيف الدين كُجك": نحن يا مولاتي لا نخلع يدًا من طاعتكم "آل قلاوون"، فلقد أجمع كل الأمراء في "مصر" و"الشام" وكل صفوف الشعب، صغاره وكباره، نساؤه وقضاته، على عودة مولانا "الناصر" للسلطنة، استخفت "آشلون" بحديثِ الأمير "سيف الدين كُجك" وقالت مُستنكرة: أهذه حيلةٌ جديدةٌ أم مؤامرةٌ تستخدمونها للتخلص من ولديَ "الناصر" إلى الأبد؟ أجابها الأمير "سيف الدين كُجك": "إنها الحقيقة عينها وستتأكد مولاتي فيما بعد بنفسها، نحن لا حاجةَ لنا بالحُكم، إن شعب "مصر" ثائر ثورة جامحة يُطالبون بعودة "الناصر محمد" إلى عرشه وإعادة الحق إلى أصحابه الشرعيين، أشاحت "آشلون" بوجهها وقالت: ليس عندى ما أقوله لكم فانتظروا حتى يعود "الناصر" من رحلة صيده اليوم، قال الأمير "سيف الدين كُجك": أجل.. فلننتظر عودته بسلامة الله، واستأذن الأُمراء وانصرفوا من حضرتها وعادت "آشلون" من جديد تُفكر فيما يخبئه القدر لـ"الناصر"، فقد استُبعد من قبل مرتين، مرة في إحدى قاعات "قلعة الجبل"

زمن "كتبغا" والأخرى إلى "قلعة الكرك"، وأخذت تراودها الشكوك ومشت تُناجي نفسها: ماذا يُخبئ القدر لنا، لقد عُزل "الناصر" ونُفيَ واستُبعد من "قلعة الجبل"، هل هي مكيدةٌ جديدة أم مؤامرة؟ فالرياح لا تأتي بما تشتهي السُفن، هل أُحَمِّسَ "الناصر" على العودة أم أنصحه بالابتعاد؟ أم أتجاهل الموضوع برُمَّته، ثم عادت تقول: لن أتجاهل موضوع كهذا، ربما يلعب القدر معنا لعبة جديدة، سأُخبر "الناصر" بكل تأكيد.

عاد "الناصر محمد" ودخل على أمه وهي على حالتها تُناجي نفسها وقَبَّل يدها، فاستقبلته بابتسامة وهي تقول: "كُنت قلقة ألا تعود اليوم من رحلتك"، فقال: لماذا القلق يا أُمَّاه؟ لقد كان مُقدرًا لي أن أجئ غدًا، ولم تُطل "آشلون" معه الحديث فبادرته قائلة: أُريدك في أمرٍ هام لا يقبل التأجيل قبل أن تستريح من رحلتك، فبدا القلق على "الناصر" وقال: أى أمر يا أُماه؟ والله إني لأرى في عينيك مُذ دخلت عليكِ كلامًا يُطل منهما، قالت "آشلون": أجل يا ولدي، لقد جاءتك وفودٌ من "مصر" يطالبونك بالعودة والجلوس على العرش نزولاً على إرادة الشعب لإعادتك إلى العرش الذي سُلب منك لكنى أخاف فربما يكيدون لك، فأجابها: لا تخافي يا أُماه، سأعود حتمًا مع الوفود إلى "مصر" الحبيبة تحقيقًا لرغبة شعبها والله هو المُوفِّق، إنني لأشعر بالسعادة من هذه البشرى التي زُفَّت إليَّ، فحمدًا لله، ردت عليه: إنهم ينتظرونك الآن بإحدى قاعات القلعة، فلتذهب إليهم ولتتفاوض معهم، أجابها: أجل .. سأذهب لمقابلتهم في الحال، فقالت: ألا تنتظر حتى تستريح بعض الوقت من عناءِ السفر، رد: لابد أن أذهب إليهم أولاً، فالأمر لا يتطلب التأخير وربما أخرج مع الوفود فورًا إلى "مصر".

خرج "الناصر" مُسرعًا إلى الوفود التي تنتظر عودته من البريةِ ليتفاوض معهم، وقد فرح فرحًا شديدًا وأخذ يستعد للعودة إلى "مصر"مع الوفود فخرج في موكبٍ مهيبٍ حافلٍ وكان له من العمر حينئذٍ أربعة عشر سنة، فسار الأمراء والأعيان بين يديه حتى دخل "قلعة الجبل" وجلس على العرش وجددت له البيعة وأصدر الخليفة التقليد بتعيينه.

نعود إلى "سلسبيل" تسأل أباها: من كان نائبًا له يا أبي؟ أجاب: أصدر السلطان "الناصر" أمره بتعيين "سلار" نائبًا له كما أنعم برُتبة الإمارة على ابن أخيه "موسى ابن علي" وعَيَّن "بيبرس الجاشنكير" استادارًا له فسألته "سلسبيل": وما هي وظيفة الاستادار؟ قال "زمزم": وظيفة الاستادار من الأعمال الهامة في القصر، ومن أهم أعمال هذه الوظيفة جَلب كل ما يحتاجه المطبخ السلطاني من لحومٍ ودجاجٍ ووقودٍ وزيوتٍ وخضرواتٍ وخبزٍ بعد استلامها ودفع ثمنها كذلك يقوم الاستادار بالإشراف على سير الطعام في المطبخ حتى

يوضع على المائدة السلطانية، سألته: ماذا فعل "الناصر" بعد أن جلس على عرش البلاد؟ هل غير ما أفسده "مُنكتمر" نائب "لاجين"؟ رد عليها: غَيَّر "الناصر" الكثير فيما بعد لكنه ما كاد يستريح من رحلته ومن متاعب الاحتفال بعودته إلى العرش حتى وردت إليه الأخبار بتهديد "المغول" لـ"بلاد الشام" فأمر في الحال بإعداد الجيش لتأديبهم.

أعد "الناصر" العُدَّة وتجهَّز للخروج لكسر شوكة "المغول"، وأمر في الحال نائبه "سلار" بإعداد القواد والأمراء للتأهب والاستعداد وأصر على الخروج معهم على رأس الجيش فخرج من "باب الفتوح" بجيشه مُتجهًا إلى "دمشق" وخرج الأهالي لوداعه، وبعد أن وصل إلى "دمشق" توافد الأهالي لاستقبال السلطان وحاشيته وجنوده ورحَّبوا بهم خير ترحيب، ثم سار بجيشه إلى "حِمص" وأقام بها ثلاثة أيام بملابسِ الحرب حتى كاد يستولى عليهم الضجر فقال السلطان للأمير "تِنكز": لنا ثلاثة أيامٍ بلياليها نمكث بأماكننا متربصين دون جدوى، ولم نسمع أخبارًا بانتصار أي فرقة من فرق جيشنا على العدو، وما كاد ينتهي من حديثه مع "تِنكز" حتى وصلت الأخبار إليه عن طريق أحد الرُسل بانتصار فرقة من فرق الجيش، وقرار "المغول" بالعودة إلى بلادهم لعدم قدرتهم على منازلة جيوش المسلمين، هذا ما قاله الرسول للسلطان كما أبلغه أن نائب "قلعة دمشق" لم يستجب للأمير "سيف الدين قبجق" حينما طلب منه تسليم القلعة لهم وصمَّمَ على عدم تركها وقال: كيف أُسلمها وفيها عينٌ تُطرف؟ فلقد نصحه الشيخ "تقي الدين ابن تيمية": بألا يُسلم القلعة أبدًا لـ"المغول" حتى ولو لم يبقَ فيها إلا حجرٌ واحدٌ إن استطاع.

انخدع السلطان والأمراء بهذه الأخبار التي لم تكن سوى مكيدة دبرها "المغول" وأحسنوا التدبير فَخَفَّت حمية الجنود وتهاونوا في واجباتهم وانتهز "المغول" ذلك فانقضوا عليهم وأنزلوا بالمسلمين هزيمة شنعاء.

فَرَّ الجُند إلى "دمشق" تاركين ورائهم أسلحتهم وعتادهم وانقلبت أفراح المسلمين إلى أحزان، وعادت فلول جيش "الناصر" تَجُر أذيال الهزيمةِ وأخذ السلطان يبكي وكاد يهم بالفرار لكن الأمراء كانوا يشجعونه على الثبات بقولهم: إنها ليست هزيمة ولكن المسلمين رأوا من الحكمة أن يتقهقروا، وما كاد الجيش السلطاني يعود إلى الوطن بعد هذه الهزيمة المُرة حتى أخذ أمراء "المماليك" في الاستعداد للعودة من جديد إلى "بلاد الشام" لإخراج "المغول" فاستدعى السلطان "سلار" وأمره بأن يكتب إلى سائر الجهات لإرسال الخيل والجِمال والهجن وما قد يوجد لديهم من رماحٍ وسيوف، قال "سلار" للسلطان: نجمع صُنَّاع الأسلحة ونكلفهم بالعمل ليلاً ونهارًا لإنتاج أكبر كمية من السلاح، فعاجله السلطان

قائلاً: ومن أين نأتي بكل هذه الأموال؟ فأجابه "سلار": نحصل على فتوى من الفقهاء تمكننا من أخذ المال من الرعية للإنفاق على الجند كما حدث وأفتى "العز بن عبد السلام" أيام المظفر "قُطز"، فقال السلطان: إذن فلنطلب من "ابن دقيق العيد" أن يُوافق على هذه الفتوى القديمة ليُعطيها قوة التنفيذ.

ذهب الأمير "بيبرس" إلى القاضي "ابن دقيق العيد" وعرض عليه الأمر لكن القاضي رفض اعتماد الفتوى القديمة، فرفع "بيبرس" الأمر إلى نائب السلطنة "سلار" فغضب لذلك وبعث في استدعاء القاضي "ابن دقيق العيد".

دخل "ابن دقيق العيد" على نائب السلطنة وألقى عليه التحية فردها "سلار" وأمره بالجلوس وقال: يا "ابن دقيق العيد" لقد قلَّ المال في الدولة ونحن نستعد مُجددًا لمحاربة "المغول" والضرورة هي التي تدعونا إلى الاستعانة بمال الرعية لأجل صَد العدو، ونحن لا نطلب غير أن تساعدنا بالموافقة على الفتوى القديمة التي أقرها الشيخ "العز بن عبد السلام" زمن "قُطز"، فرد عليه "ابن دقيق العيد" بغضب: لكن هذه الفتوى لم يصدرها "ابن عبد السلام" إلا بعد أن أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهبٍ وفضة حتى حُلي نسائهم، وبعد أن أقسم كل واحدٍ منهم أمامه أنه لا يملك سوى هذا القدر الذي أحضره، ولما كان هذا المال غير كافٍ أفتى "ابن عبد السلام" بأخذ دينارًا واحدًا من كل شخص.

خيم السكون على المجلس وقال "سلار": إذن.. فشيخنا الجليل يرفض طلبنا، فنظر "ابن دقيق العيد" إلى نائب السلطان ولم ينطق بكلمة واحدة، ثم استأذن بالانصراف قائلاً: باسم الله، فالتفت "سلار" إلى "بيبرس" مُتحيرًا وقال: ماذا نفعل يا "بيبرس"؟ لقد رفض "ابن دقيق" الموافقة على الفتوى القديمة، أجاب "بيبرس": ما علينا غير أن نقوم باستدعاء والي "القاهرة" ونأمره بأخذ ما يقدر عليه من أموال التجار حسب حالة كلٍ منهم، فقال "سلار": أرى في الوقت الراهن أن من الصالح العام للبلاد أن نصدر إنذارًا للعامة بألا يتعرضوا للجند ولا لـ"المماليك" وإلا كانت أموالهم وأرواحهم للسلطان حتى تهدأ الأمور وتستقر الأحوال في البلاد، فإن الأهالي يُضايقون الجند و"المماليك" بالسب وإلقاء الحجارة عليهم في ذهابهم وإيابهم منذ عودة الجيش منهزمًا من "الشام"، فقال "بيبرس": أحسنت يا "سلار".. أؤيدك فيما قلت.

نزل "والي القاهرة" بنفسه معه الجابي والجلادون إلى التجار يطلب منهم حسب حالة كل واحدٍ ما يقدر عليه من أموال، وكان الوالي يستخدم مع التجار أقصى وأعنف الطرق لإجبارهم على الدفع.

دخل الوالي إلى أحد المتاجر وكان صاحبها معروفٌ عنه الثراء، فقال له: مطلوبٌ منك أن تدفع يا "سيد عبد الكريم" 1500 دينارًا مساعدةً للحملة الذاهبة لنجدة "الشام" من "المغول"، فقال له "السيد عبد الكريم": وهل هذا المال مطلوبٌ دفعه الآن؟ فصاح الوالي واحتد عليه في القول وقال له بسخريةٍ شديدة اللهجة: ما شاء الله.. ما شاء الله.. أتريد أن تدفع ذلك بعد عودة الجيش؟ أم إنك تُماطل في الدفع؟ ومتى تظن أن تدفعه إذن؟ لعلك استكثرت أن تدفع ألفًا ونصف من الآلاف المُؤلفة التي تحصل عليها بلا تعبٍ من أموال الناس وأنت جالسٌ على وسادتك في أمان، بينما نحن نتجشَّم الأخطار والأسفار لحماية البلاد والدفاع عنها، ستدفع ألفين لا ألف ونصف الألف.. أفهمت، وخشي السيد "عبد الكريم" أن يُضاعف الوالي له المبلغ المطلوب فقال: العفو.. إني ليسرني أن أقوم بالواجب وزيادة، إنما أردت الاستفهام لأعرف هل هناك فرصة لتأجيل الدفع أم لا؟ فالحالة في هذه الأيام ليست على ما يرام، فازداد غضب الوالي وقال: أتشكو الفقر يا رجل وأنت تعيش في رغدٍ بينما نحن في شقاءٍ دائم ساهرون على راحتكم ونلقي بأنفسنا إلى الهلاك دفاعًا عنكم! فأخذ السيد "عبد الكريم" يستعطفه ويترجاه اتقاءً لشره وغضبه وقال له: السمع والطاعة، ومضى لتنفيذ ما أُمر به ثم عاد بالمبلغ وسلمه له فتناوله الوالي متظاهرًا بعدم المبالاة وانصرف الجميع غاضبين، فاستعاذ السيد "عبد الكريم" بالله من ذلك الظلم، وراح يندب حظه وجلس مطرق الفكر ومسح دموعه وعزى نفسه قائلاً: الحمد لله على أن الخسارة لم تتعد الأموال ولو ضربوني أو قتلوني ما طالبهم أحد بدمي، ثم نهض ومشى وتناول سجادة الصلاة فصلى في خشوع ودعا الله أن يقيه شر أولئك الطُغاة.

استمر "الوالي" ومن معه على هذا الحال يبتزون الناس بالقهر والإكراه والقوة، يضربونهم ويعذبونهم ويحبسونهم حتى بات كل تاجر يغلق متجره هربًا من ظلم "الوالي"، استغل الجند ذلك فراحوا يُجردون المتاجر ويَنهبون ما بها من ثيابٍ ونقودٍ وحليٍّ ولم يسع الناس إلا الامتثال للأمر.

وكعادته يسيح المجذوب "نجم الدين" حاملاً مبخرته في الأسواق مُرددًا:

هناك ولا هناك هناك   الفرض الصمد حي لا ينساك

تأديب الأعراب

بينما يستعد "الناصر" للحرب ضد "المغول" على قدمٍ وساق وردت إليه الأخبار بانتشار خطر "الأعراب" واستشراء شرَّهم وظلمهم للناس بفرض الأتاوات عليهم تحت التهديد والوعيد، كانوا يعيثون في البلاد فسادًا ينتهزون كل فرصة للنزول من الصحراء والجبال إلى القرى والمدن ينهبون ويقتلون ثم يهربون إلى شعب الصحاري ليختبئوا في كهوف التلال وقد عمَّ فسادهم فقرر "الناصر" القضاء عليهم وكسر شوكتهم.

اجتمع السلطان بنائبه "سلار" وقال: لم يعد الأهالي يتحملون هؤلاء الأشرار من "الأعراب"، لقد قطعوا الطريق على التجار والأغنياء بـ"أسيوط" و"منفلوط"، ولم يفلح الولاة في كبح جماحهم، إنهم يستهترون بالدولة، رد "سلار": هذا صحيحٌ يا مولاي حتى وصل استخفافهم برجال الدولة فتسمى زعماؤهم بأسماء أمراء "المماليك" وجعلوا لهم كبيرين سمي أحدهما "بيبرس" والآخر "سلار"، لكن ما يفزعني حقًا هجومهم على السجون وإخراجهم للمساجين وسيطرتهم على الطرق والمنافذ، قال السلطان: ماذا لو استصدرنا من القضاة والفقهاء فتوى تُجيز لنا قتالهم؟ رد "سلار": إنني بالفعل قد حصلت على فتوى من القضاة والفقهاء تجيز قتالهم، قال السلطان: فلماذا التأخير إذن؟! لابد من مهاجمتهم وتكثيف جهودنا للقضاء عليهم، قال "سلار": نعم.. لابد من وضع خطةٌ حكيمةٌ تُمكننا من القضاء عليهم، فما رأي مولاي في أن نأمر متولي "الجيزة" بمنع الناس من السفر إلى "الصعيد" بَرًا وبَحرًا، ثم نطلق الإشاعات أننا نحن الأمراء سنسافر جميعًا إلى "بلاد الشام" لأمرٍ هامٍ، ثم نقرر بعد ذلك خروج أربع فرق، واحدة تتوجه إلى البر الغربي وواحدة تتوجه إلى البر الشرقي وواحدة تسير في النيل، والرابعة تسلك الطريق المألوف الذي يسلكه الناس وتحمل هذه الفرق أوامرنا بقتل كل من تقع عليه العين من "العربان"، فقال السلطان: على أن يكون كل الأمراء مشتركين مع الفرق.. ولكن كيف سنميز بين الأعراب وغيرهم؟ إنه من الصعب التمييز بينهم وبين الحضر من الأهالي، ضحك "سلار" وقال: نُميِّز بينهم بطريقة النطق، فإذا ادعى واحد أنه ليس من "الأعراب" وإنه من الحضر طلبنا منه أن ينطق كلمة "دقيق" فإن قالها بالقاف أطلق سراحه أما إذا نطقها بالكاف عرفنا أنه من "الأعراب" فنقتله، وبذلك نسد عليهم المسالك والطرق ونخرجهم من مخابئهم في الجبال بإشعال النيران عليهم فيهلك من يهلك منهم ويفر من يفر فنقبض عليه.

راقت الفكرة للسلطان "الناصر" ونُفذ ما خطط له واستولت الحكومة على أملاك هؤلاء "الأعراب" وعلى أسلحتهم وأغنامهم وخيولهم وأموالهم ووزعت العطايا والغنائم على من اشترك في هذه الحملة ونال منها السلطان نصيبًا وفيرًا.

نعود لـ"آشلون خاتون" الخوندة الكبيرة، وهي مريضة في فراشها وتجلس معها السيدة "مسكة" فتسألها "آشلون": أين "الناصر"؟ لم أره منذ يومين، أجابت: إنه مشغولٌ يا مولاتي هو ونائبه وأمراؤه للاستعداد لمحاربة "الفرنجة"، فقالت "آشلون": ألم ننته من هؤلاء "الفرنجة" بعد؟ لقد أجهدونا وقد سبق وأن أخرجهم "الأشرف خليل" رحمه الله وطردهم من "عكا" قبل مقتله، فقالت "مسكة": لكنهم يامولاتي لم ينسوا هزيمتهم ونجحوا في الاستيلاء على جزيرة صغيرة واقعة أمام ساحل مدينة "طرابلس" تسمى بجزيرة "أرواد"، أخذوا يهددون سواحلنا في "بلاد الشام" بعد أن تحصنوا وغمروا الجزيرة بالآلات والعدد.

دخل السلطان في هذه اللحظة إلى جناح أمه وسمع ما سمع مما قالته "مسكة" فقال مُمازحًا: لا أُصدِّق ما سمعت يا "مسكة"، لقد أصبحتِ خبيرة في كل شئ حتى في الشئون العسكرية والسياسية للدولة، فما عاد يُخفى عليك شيئًا من أمر البلاد، ضحكت "آشلون" وضحكت "مسكة" على استحياء وتقدم "الناصر" نحو أمه وقبّل يداها وقال: كيف حالك اليوم يا أُماه؟ أجابته: حمدًا لله على أية حال، ردَّ "الناصر": لم يمنعني عنكِ غير انشغالي فيما قالته لكِ "مسكة"، قالت "آشلون": إنك يا ولدي ما كدت تستريح من مُحاربة "الأعراب" والقضاء عليهم حتى جاءتك أخبار "الفرنجة" ومحاولتهم الإغارة علينا مُجددًا، وستخرج بطبيعة الحال إليهم، قال "الناصر": إن مُحاربة "الفرنجة" هذه المرة لها استعدادات خاصة، وترتيبات معينة، إنها حرب بَحَريَّة لا بَرِّيَة، فلابد من بناء قوة بَحَريَّة جديدة، وقد أمرنا ببناء أربعة سفن حربية ليُستعان بها في القضاء على هذه القوة الأُوربية الناشئة في جزيرة "أرواد"، قالت "آشلون": معك الله يا ولدي، لكن ماذا عن خلافاتك مع "أردكين"؟ أجابها: أنت تعلمين سبب زواجي من "أردكين" فأنا لا أشعر نحوها بأي شعور غير شعور الواجب حفظًا لكيان الأسرة، زواجًا دُفعت إليه لأمورٍ غير الحب، وبدت عليه علامات الغضب، فقالت أمه: اهدأ يا "محمد"، فلا داع للتوتر، لقد جاءتني "أردكين" تبكي سوء معاملتك لها بإهمالك وإعراضك عنها وإظهار اهتمامك بجاريتك "هادنساد" مما يؤلمها ويجرح مشاعرها، وأخبرتني أنها حاملٌ فربما يكون المولود همزة وصلٍ بينكما يربطكما ببعضكما البعض، ولا تنسى أنها تُحبك فلا تتسرع في الحكم عليها وتسرحها، قال "الناصر": من قال

لك يا أمي أنني أريد تسريحها؟ إن أخباري لا تخفى عليك، أجابت "آشلون": نعــم .. لقــد أخبرتني "مسكة" منذ قليل بأنك على خلاف مع "أردكين" وأن جواريك كلهن يعلمــن هــذا الأمر مما يُسئ إليها أمام جواريها وخدامها، إنها تُحبك وتسهر علــى راحتــك، تتــدخل "مسكة" في الحديث قائلةً: إنها يا مولاي ليس لها أحد سواك، فأمسك عليك زوجــك كمــا قالت مولاتي، وإن أردت أن تتزوج بغيرها فليتزوج مولاي بمن تروق له مــن النســاء، نهض "الناصر" واقفًا وقال: لا وقت للحديث في هذا الأمر، وهَمَّ بالانصراف.

هناك في "بلاد المغول" .. يجتمع السلطان "غازان" بأُمرائه لــيُعلمهم باتخــاذ قــرار إرسال مكتوب للسلطان "الناصر"، فقال: "إني أجتمع بكم لأُعلمكم بأننــا نحــن ســلاطين الأرض قررنا إرسال مكتوب للسلطان "الناصر" مع وفد من قبلنــا يضــم ثلاثــة رجــال ليعرضوا عليه الصلح، ويتكوَّن هذا الوفد من قاضي قضاة مدينــة "الموصــل" وخطيبهــا وأمير تركي وآخر إيراني، فرد أحد المُقربين من "غازان": يا ســلطان الأرض.. أتــدعو للصلح حقًا أم هي خدعة تدخلها عليهم كالمرة السابقة؟ ضحك "غــازان" وقــال: اســتدع الكاتب أولاً لأملي عليه رسالتي، وحضر الكاتب وأخذ "غازان" يملي عليه رسالته فقــال: "من "غازان" سلطان "المغول" وسلطان الأرض إلى السلطان "الناصر محمد بن قــلاوون"، سلطان "مصر" و"الشام"، دخل جنودك أطراف البلاد العام الماضي وأفسدوا فيها وأنفنا من ذلك فحضرنا إلى "بلاد الشام" وهزمنا جيشكم ثم عُدنا مرة أخرى فلــم يخــرج لنــا أحــد فرجعنا إلى وطننا إبقاءً على البلاد لئلا تخرب، وإننا مستعدون للحرب ولكننا ندعو إلــى الصلح".

طارت رسالة "غازان" مع الوفد إلى السلطان "الناصر محمد" فقرأها ثم أعاد قراءتهــا على الأمراء واستقر الرأي بعد ذلك على استدعاء قاضي "الموصل" فحضر ومثــل بــين يدي السلطان، فقال له "الناصر": أنت من أكابر العلماء، والنصيحة للدين، نحن لا نُقاتل إلا لقيام الدين، فإن كانت الدعوة إلى الصلح من قبيل الحيلة والدهاء فنحن نحلف لــك أن مــا ستقوله لنا سيبقى سرًا بيننا لا يعلم به أحد سوانا، فرد القاضي: والله الذي لا إله إلا هــو، إنني لأرى أن "غازان" ورجاله يبغون الصُلح حقًا، حَقنًا للدماء ورغبة في رواج التجــارة ومجيئها وإصلاح حال الرعية، لكني أنصحكم بأن تستجيبوا لطلب الصلح، وأن تظلوا في نفس الوقت على أهبة الاستعداد، فأنتم لكم عادة كل عام تخرجون إلــى أطــراف بلادكــم لأجل الاستطلاع وحفظ الأمن، فإن كان الصلح من قبيل الخدعة فسيظهر لكــم فتكونــوا متيقظين، وإن كان الأمر صحيحًا فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح وتُحقن الدماء فيمــا

بينكم، رد السلطان: أفادك الله يا شيخنا.. فلندعو للصلح حقًا للدماء، هذا أفضل بكثير، ولتبقوا معنا لندعوكم إلى حفلةِ صيدٍ في الصحراء، بعدها نقوم بالرد على رسالة "غازان" فيما يتعلق بأمر الصلح قبل رحيلكم.

بعد عودة الوفد إلى "غازان" برسالة السلطان "الناصر"، وكان ضمن الوفد من قِبَله شخصٌ يُدعى "إسماعيل بن محمد" له شأن عند "المغول" حيث كان يذهب إلى "بلاد المغول" من حينٍ لآخر ويعود بالرقيق وغيرهم، وقد أرسله "الناصر" مع الوفد ليُساهم في إقرار الصلح.

قرأ "غازان" على أُمرائه رسالة "الناصر" وهذا نصها: "قرأنا مكتوبكم وعرفنا رغبتكم في الصلح، فإذا جنح الملك للسلم جنحنا وإذا دخل "المِلة المُحمدية" ممتثلاً ما أمر الله مجتنبًا ما عنه نهى وانضم في سلك الإيمان وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنان، وتجنب التشبه عمن قال الله في حقهم: ﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الحجرات:17]، وطابق فعله قوله، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله، وأرسل إلينا رسولاً من جهته يُرتل آيات الصلح ترتيلاً ويرينا خطابه وجوابه حتى يتلوا كل أحد ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾. [الفرقان: 25]، كانت حجتنا وحجته المركبة على ما خالف ذلك وكلمته قامعة أهل الشرك في سائر الممالك ومضافرتنا له تكسب الكافرين هوانًا والمشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:103]، وينتظم إن شاء الله شمل الصالح أحسن انتظام ويحصل التمسك في الموادعة والمصافاة، لا انفصال لها ولا انفصام وتستقر قواعد الصلح على ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام).

الله أملي

الناصر محمد بن قلاوون.

استشاط "غازان" غضبًا وقال لأمرائه: أسمعتم رسالة الملك "الناصر"؟! إنه يدعونا للدخول في "المِلة المُحمدية"، وقد دخلت عليه حيلتنا فصدَّق ما زعمناه بشأن الصلح وظن أننا مقدمون عليه، فقال أحد المقربين له: نحزم الأمر ونسير إليهم بغتة، فقاطعه "غازان"

قائلاً: نرسل أولاً إلى حُكام "الشام" نعلمهم بعزمنا على السير إليهم لمحـاربتهم، وضـحك قائلاً: خُدع "الناصر" بما جاءه في رسالتنا بشأن الدعوة إلى الصلح.

استعد "الناصر" لغزو جزيرة "أُرواد" بعد أن تم بناء السُّفن الأربعـة، واجتمـع هـو والأمراء لمشاهدة المناورات البحرية، فازدحم شاطئ النيل بالناس ولم يوجد موضعٌ خالٍ، ووقفت العسكر على "بربستان الخشاب" (جاردن سيتي حاليًا)، وركـب الأمـراء السـفن الصغيرة متجهين إلى الروضة، وبرزت قطع الأسطول الجديدة عند "مقيـاس الروضـة"، وأخذت تقوم بمناوراتها وكأنها حربٌ حقيقية بما أبدته السفن الأولى والثانية والثالثة مـن براعةٍ ومهارة، ثم تقدمت السفينة الرابعة وهي سفينة القائد البَحري وخرجت إلى عـرض النيل ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فإذا بريحٍ عاتيةٍ تهب فتميل السفينة حتى انقلبـت رأسًا على عقب، وتبدلت الأفراح أحزانًا وتكدَّر الصفو وأسرع البحارة إلى نجدة السـفينة ومن فيها، فنجوا جميعًا عدا القائد الذي مات فحزن عليه السلطان واغتم.

بعد ثلاثة أيام أُخرجت السفينة من قاع النيل وأُصلحت وخرجت تحت إمرة قائدٍ آخـر ثم توجهت بعد ذلك السفن الأربعة إلى "جزيرة أُرواد" لمحاربـة "الصـليبيين"، وانتصـر المسلمون عليهم، وزُفت البشائر بهذا النصر البحري بعد أن اسـتولى المسـلمون علـى "جزيرة أُرواد".

بعد النصر فوجئ السلطان بخبر وفاة الخليفة العباسي "أحمد ابن الحسن بن أبي بكـر الهاشمي" فاغتم لذلك، وحضر الجنازة وصلى عليه مع رجال الدين والمشـايخ والقضـاة والعلماء والأعيان والأمراء، في جامع "أحمد بن طولون".

موقعة شقحب
مرج الصُّفُرْ

قدم البريد من والي "حلب" يعلن عن عزم "غازان" على السير إلى "بلاد الشام" وأن الناس هناك في ذعر شديد، واضطربت أحوالهم وأخذ أهل "دمشق" يرحلون عنها تاركين وراءهم ما ينوء به كاهلهم فلجأوا إلى "المسجد الجامع" يُقيمون به وأخذوايضجُّون بالدعاء إلى الله تعالى لينقذهم من هذا الكرب العظيم.

لم يجد الناس ملاذًا إلا الشيخ "تقي الدين بن تيمية" وطلب منه "نواب الشام" أن يركب على البريد إلى "مصر" يستحث السلطان "الناصر" أن يجئ بالجيش مسرعًا لإنقاذ الشام فسافر "ابن تيمية" وقابل "الناصر" وقال له ولأمرائه: إن كنتم أعرضتم عن "الشام" وحمايته أقمنا له سلطانًا يحوطه ويحميه، ويستقله في زمن الأمن، ولو قُدِّرَ أنكم لستم حكام "الشام" ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم نصرته، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهُم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم؟ فإن تخليتم عن "الشام" ونصرة أهله فإن الله تعالى يقيم لهم من ينصرهم غيركم ويستبدل بكم سواكم.

كان قاضي القضاة "ابن دقيق العيد" جالسًا وسط الجمع فأعجبه هذا الاستنباط فاستحسن ذلك وتعجب من مواجهة الشيخ للسلطان بمثل هذا الكلام، وهَزَّ السلطان "الناصر" رأسه تصديقًا وإيمانًا بما قاله "ابن تيمية" وقال:صدقت يا "تقي الدين"، فإلى الجهاد بإذن الله ولن نخذل أهل "الشام" ممن استأمنونا على أنفسهم وديارهم، فانبرى "ابن دقيق العيد" قائلاً: صدقت يا "ابن تيمية".. قولك حق، فإلى الجهاد بإذن الله، وقال السلطان للشيخ "تقي الدين": هل تقف معنا في المعركة يا "ابن تيمية" لنتبرك بك؟ أجاب الشيخ: السُنَّة يا مولاي أن يقف الرجل تحت راية قومه ونحن من جيش "الشام" لا نقف إلا معهم، وإننا لمنتصرون عليهم، فقال له "سلار": قل إن شاء الله يا "ابن تيمية"، قال "ابن تيمية": إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا.

كان الخليفة "المُستكفي بالله" و"الناصر" مقيمين في "مصر" كما هو معلوم، فأرسل السلطان "الناصر" طائفة كبيرة من جيش المصريين فيهم كبار الأمراء أمثال: "رُكن الدين بيبرس الجاشنكير"، و"حسام الدين لاجين الرومي"، و"سيف الدين كراي"، ثم عززها

بإرسال طائفة أخرى فيهم "بدر الدين" أمير السلاح و"أيبك الخازندار"، فقويت القلوب في "دمشق" واطمأن الكثير من الخلق، لكن الناس في الشمال سيطر عليهم الذعر واستبد بهم الفزع، فنزح عددٌ عظيم منهم من بلاد "حلب" و"حماة" و"حمص" خوفًا من مداهمة التتار لهم إلى المرج ووصل التتار إلى "حمص" و"بعلبك" وعاثوا في تلك البلاد فسادًا وقلق الناس قلقًا عظيمًا لتأخر قدوم السلطان وبقية الجيش وبدأت الشائعات تنتشر ومشى المثبطون للعزائم من اليهود والحرافيش من المسلمين يقولون للناس: لا طاقة لجيش "الشام" مع هؤلاء المصريين بلقاء "التتار" لقلة المسلمين وكثرة التتار، وزينوا للناس التراجع، ولكن تأثير العلماء في رفع الروح المعنوية كان له دورًا هامًا ولا سيما الشيخ "ابن تيمية" فكان يَتَصدى لهؤلاء المثبطين حتى استطاع أن يقنع الأمراء بالتصدي للتتار مهما كان الحال، وكان يحلف للأمراء وللناس ويقول: إنكم في هذه الكرة منصورون فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله يا "ابن تيمية" فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا.

في يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان وصل أحد أمراء "دمشق" وبَشَّر الناس بأن السلطان قد وصل وقت اجتماع العساكر المصرية والشامية، ووقفت العساكر قريبة من "قرية الكسوة" فجاء العسكر الشامي وطلب من الشيخ "ابن تيمية" أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى "دمشق"، فسار إليه وحثه على الذهاب إلى "دمشق" وسأل السلطان "ابن تيمية" أن يقف معه في المعركة، فقال له "ابن تيمية": أما قُلت لك أن السنة وقوف الرجل تحت راية قومه ونحن من جيش "الشام" لا نقف إلا معهم، وظل "ابن تيمية" يحلف بالله الذي لا إله إلا هو "إنكم منصورون عليهم هذه المرة".

نظم المسلمون جيشهم يوم السبت 2 رمضان سنة 702 هـ في سهل" **شقحب**" الذي يشرف على "جبل غباغب"، وكان السلطان "الناصر" في القلب ومعه "الخليفة المُستكفي بالله" والقضاة والأمراء، وقبل بدء القتال اتخذت الاحتياطات اللازمة فَمَرَّ السلطان ومعه الخليفة والقراء بين صفوف جيشه بقصد تشجيعهم على القتال وبث روح الحماسة فيهم، فكانوا يقرأون آيات القرآن التي تحض على الجهاد والاستشهاد وكان الخليفة يقول لهم: لا تنظروا إلى سُلطانكم، دافعوا عن دينكم وعن حريمكم.

وُضعت الأحمال وراء الصفوف وأمر السلطان الغلمان بقتل من يحاول الهرب من المعركة، ولما اصطفت العساكر واحتد القتال ثبت السلطان ثباتًا عظيمًا وقيَّد فرسه حتى لايهرب وبايع الله تعالى في ذلك الموقف يريد إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة في سبيل الله، وجرت خطوب عظيمة وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذٍ منهم "الأمير حسام الدين لاجين الرومي" وثمانية من الأمراء المقدمين معه.

حمي وطيس المعركة واستطاع "المغول" في بادئ الأمر أن ينزلوا بالمسلمين خسائر فادحة فقُتل من قُتل من الأمراء، وأبلى "سلار" و"بيبرس" بلاءًا حسنًا، وأبدى الأمير "تنكز" من البسالة ما يذكر له بالفخر.

نما إلى مسامع الجند والأمراء إشاعة كاذبة أن "المغول" قد انتصـــروا فهـــاج أهـــل "دمشق" وظل السلطان وعساكره على ظهور الخيل والطبول تضرب من حولهم و"ســـلار" و"بيبرس" يُرتبون ما تشعث من صفوفهم بعد أن دَبَّت الفوضى في صـــفوف الجنـــد بعـــد سماع هذه الإشاعة.

أخذ "بيبرس" يقول: تيقظوا أيها الجند.. إنها إشاعة كاذبة أشاعها العدو لنتفرق وقـــال "سلار": من خرج منكم عن الصف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه.

بعد أن شجعهم "بيبرس" و"سلار" على المُضي بثباتِ جأش أخذوا يحصـــدون العـــدو حصدًا وأسروا منهم عددًا كبيرًا.

تحولت المعركة بفضل الله فأصبحت الغلبة للمسلمين حتى أقبل الليل فتوقـــف القتـــال وطلع "المغول" إلى أعلى "جبل غَبَاغِب" ولما طلع النهار نزلوا يبغون الفرار بعد أن تـــرك لهم المسلمين ثغرة في الميسرة ليمروا منها، وقد حدث، فتتبعهم جنود المســـلمين وقتلـــوا منهم أعدادًا كبيرةً وهَلَكَ الكثيرون منهم وقبض على بعضهم.

في يوم الاثنين الرابع من رمضان رجع الناس من "الكسوة" إلى "دمشـــق" وبشـــروا الناس بالنصر، ودخل "ابن تيمية" البلد ومعه أصحابه من المجاهدين، ففـــرح النـــاس بـــه ودعوا له، ودخل السلطان "الناصر" "دمشق" وبين يديه الخليفة وبقي فيها إلى الثالث مـــن شوال، عاد بعد ذلك إلى الديار المصرية فدخلها دخول الظافر المنتصـــر يتقـــدم موكبـــه الأسرى "المغول" يحملون في أعناقهم رؤوس زملائهم القتلى واستُقبِل "الناصر" اســـتقبال الفاتحين، وسُرِّحَ الحمام الزاجل بهذا "النصر" إلى سائر البلاد، ودخل السلطان علـــى رأس جنوده وقواده وأمرائه من "باب النصر" إلى "باب السِلْسِلَة" بـــ"قلعة الجبل" وعُلقت الزينات في أنحاء البلاد وكان موكب السلطان مهيبًا كما أن والي "القاهرة" قد نصب عنـــد "بـــاب النصر" أقواس النصر "القلاع" وزينها بالحرير واللآلئ والجـــواهر ومُلئـــت الأحـــواض بالسكر والليمون، وأوقف مماليكه لكي يسقوا العسكر عند مرورهم وترجل الأمراء بـــين يدي السلطان وحُملت على رأسه القبة والطير، وحَمَل "الجمدار" بين يديه العصا والدَبُّوس، وفرش كل أمير الشقق الحريرية من قلعته إلى القلعة التي تليها، فكان السلطان يمشى على هذه الشقق الحريرية بفرسه بسكونٍ ووقار وكلما رأى قلعة أمسك عـــن المشـــي ووقـــف

يتأملها يعاين ما اشتملت عليه حتى وصل إلى "باب البيمارستان المنصـــوري" "مستشـــفى قلاوون"، فدخل وزار قبر والده وقرأ الفاتحة وقرأ القراء أمامه ثم ركب إلى "باب زويلـــة" "المتولي" حتى دخل القلعة، وكان أمراء "المغول" الذين أسروا يسيرون مُقيدين بـــالأغلال ووراءهم جنودهم الذين أسروا أحياء وقد علقت في رقابهم رؤوس من قتلوا، وألـــف رأس أخرى محمولة على ألف رمح ونحو ألف وستمائة أسير معهم طبول مخرقة حتى وصـــل "الناصر" إلى "قلعة الجبل" وعبارات التهنئة والهتافات تملأ المكان، لقد كان يومًا لم تشـــهد "مصر" في تاريخها مثيلاً له.

غضب الطبيعة

بعد هذه الانتصارات التي حققها الملك "الناصر"، فاجأت البلاد كارثة طبيعية فضرب البلاد زلزالاً عاتيًا بعد صلاة الفجر، وسمعت قعقعة الحيطان، وسار الماشي يميل والراكب يسقط من ظهر ركوبته، وهرع الناس إلى الطرقات رجالاً ونساءً وأطفالاً من هول الفزع حتى أن النساء لم تستر وجهها، وانتهز اللصوص هذه الفرصة فاقتحموا المنازل ونهبوا ما نهبوا وتهدمت المآذن وتشققت الدور وعظم العويل والصراخ ووضعت كثيرًا من الحوامل ما في بطونهن وكأنه يوم الحشر فانشق "منار الإسكندرية" وسقط من أعمدته العديد من الشرفات، وظلت الأرض ترتجف في البلاد ما يقرب من عشرين يومًا وكأن عدوًا أغار على البلاد، كان هذا الزلزال درسًا لـ"المماليك" تجلى في غضب الطبيعة لما ارتكبه الناس من مفاسد في أعياد النصر، فأسرفوا في لهوهم، وخرجوا عن حدود الشرع الحنيف فاستحقوا بذلك لعنة الله وغضبه، جزاءً وفاقًا للشرور التي ارتكبوها والحُرمات التي انتهكوها والآثام التي وقعوا فيها.

كان هذا الزلزال لُطف من الله بعباده رغم ما أَلَمَّ بالبلاد من كوارث فقد رجعوا عن بعض ما كانوا عليه من اللهو والفساد أيام الزينة، والتزموا بالاعتدال في الحياة والتمسك بالفضائل حتى يكونوا في مأمنٍ من الكوارث وكأنه درس لهم.

خرجت السيدة "مسكة" تُشارك الناس محنهم، فبات أكثرهم في الخيام التي نصبوها على ضفاف النيل من "جزيرة الروضة" حتى "الجزيرة الوسطى"، ومما زاد الحال سوء هبوب رياحٌ عاصفةٌ بعد الزلازل اقتلعت المراكب السائرة وسط الماء وألقت بها على الشاطئ فتقطعت مراسيها وأخذت السيدة "مسكة" على عاتقها مسئولية نزولها إلى تلك الخيام والمُسارعة هي ومن معها من النساء بتطبيب المصابين وإغاثتهم وإعانتهم بتقديم المساعدات وتوزيع الطعام عليهم، والأغطية والملابس.

أخرجت الخوندة الكبيرة "آشلون" الكثير من الإعانات لهؤلاء المضارين من الزلازل، لكنها لم تستطع الذهاب إليهم لتفقد أحوالهم بسبب مرضها وملازمتها الفراش، فاكتفت بتكليف السيدة "مسكة" ومن معها من نساء القصر.

دخلت "مسكة" إحدى الخيام فوجدت ثلاثة أطفال يبكون وسألت عنهم امرأة تجلس في الخيمة فأجابتها: بأنها لا تعرف أحدًا من ذويهم، وقد سَمِعت أن أبواهم ماتوا تحت أنقاض

المنزل عندما كان الأطفال يلعبون خارجه، فرَقَّت السيدة "مسكة" لحالهم وأخـذتهم معهـا لتودعهم أحد دور رعاية الأطفال اليتامى وأعطتهم الحلوى كما قامت بتوزيعها على سائر أطفال الخيام.

رجعت "مسكة" تقص على أم "الناصر" مارأته من بؤسٍ ومعاناةٍ لهـؤلاء المُضـارين من كوارث الزلزال وأخذت "مسكة" لنفسها أحدِ الأطفال اليتامى لتقوم برعايتـه وتربيتـه وكفالته.

لم تدم فرحة "الناصر" كثيرًا بانتصاراته على "العربان" و"الصـليبيين" فـي "جزيـرة أُوراد" و"المغول" في "موقعة شقحب" في "الشام" فقد ماتت فجأة الخوندة الكبيرة في هـذه الفترة، فأمر "الناصر" أن تُدفن مؤقتًا في تُربةٍ مُجاورةٍ لمشهد "السيدة نفيسة" ريثما يتم بناء قبر فخم لها يتناسب مع مكانتها، فأنشأ لها تربة عظيمـة تغطيهـا قبـة جليلـة ألحقهـا بـ"المدرسة الناصرية" والتي ما كاد يُكمل بناؤها حتى نقل رفاة أمه إليها.

حزن "الناصر" عليها حُزنًا كبيرًا وأَحَسَّ بمرارة الذل بعد موتها فهو لا يملك من أمر نفسه شيئًا، ورغم أنه السلطان الشرعي للبلاد فلم يكن المُرتب المُخصص له كافيًـا لـولا ماكان يصل إليه من أملاكه الخاصة ومن أوقاف أبيه.

ظل "الناصر" على هذه الحالة من معاملة "بيبرس" و"سلار" السيئة له يشـعر وكأنـه مازال قاصرٌ مغلوبٌ على أمره لكن الله أراد أن يُبدِّل أحزانه أفراحًا فمن الله عليه وأنجبت له زوجته "أردكين" "عليًا" سنة ثلاث وسبعمائة من الهجرة، فأراد أن يحتفل بمولده سـبعة أيام لكن الأميرين "بيبرس" و"سلار" لم يوافقا على ذلك واكتفيا بيومٍ واحد.

عنيت "أردكين" بولدها عليًا عناية فائقة معتقدة أنه الرباط الوحيد الذي يشـدها إلـى "الناصر" فربما تفوز بقلبه أو تحظى بقليل من الحب والاهتمام.

احتفل "الناصر" بقدوم "عليًا" فأُقيمت الاحتفالات واجتمع عددٌ كبيرٌ من الأمراء أخـذوا يتبارون في الرقص ويلقون الذهب من أجل النقوط، واستدعى السـلطان سـائر أربـاب المغاني ودار السقاة على الأمراء بشراب السكر المُذاب... إلخ. أحبه السلطان حُبًا عظيمًا وسماه "عليًا" تخليدًا لذكرى أخاه الملك "الصالح علي بن المنصور سيف الدين قلاوون".

أما "ابن تيمية" صاحب الدور الفعال في "موقعة شقحب" فكان على خلافٍ مع فُقهـاء عصره في أمورٍ كثيرة، وقد سُجن بسجن الجُب بالقلعة بعد أن عُقدت محاكمـة لـه فـي مجلسٍ وادُّعيَ عليه فيه لتقام عليه الشهادات، وكان هذا المجلس يضم "بيبرس الجاشـنكير" والشيخ "نصر الدين المنبجي" وكان خِصمًا للشيخ، والشـيخ القاضـي "ابـن مخلـوف"،

وآخرين، قال الشيخ "نصر الدين المنبجي" لـ"ابن تيمية" بعد أن عُقد المجلس: يا "ابن تيمية" .. يقولون أنك تعتقد أن الله على العرش حقيقةً، وأنه يُشار إليه بالإشارة الحسية، وأنه يتكلم بحرفٍ وصوتٍ، اطلب التعذير على ذلك التعذير البليغ، ويشير إلى القتل على "مذهب مالك"، ردَ القاضي "ابن مخلوف" بسخرية: ما قولك يا فقيه؟ رد "ابن تيمية": الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد، فقاطعه الشيخ "ابن مخلوف" قائلاً: أسرع .. ما جئت لتخطب، رد "ابن تيمية" أأُمنع من الثناء على الله ورسوله! قال الشيخ "ابن مخلوف": أجب .. فقد حمدت الله تعالى، فسكت الشيخ "ابن تيمية" هُنيهة ثم قال للقاضي: من هو الحاكم فيَ؟ فأشار الأمير "بيبرس" وقال: القاضي "ابن مخلوف" هو الحاكم، فقال "ابن تيمية": أنت خصمي فكيف تحكم فيَ؟ وقام الشيخ "ابن تيمية" على الفور ومعه أخواه وخرج من المجلس ثم تراجع وعاد للمجلس قائلاً: رضيت أن تحكم في .. فلم يُمكِّنوه من الجلوس وأقاموا عليه الحُجَّة والبيِّنة فدعا أخوه "شرف الدين" عليهم فمنعه "ابن تيمية" وقال: اللهم هَب لي نورًا يهتدون به في الحق، وصُدر الحكم عليه وسُجن بسجن الجُب في "قلعة الجبل"، ثم أمر "بيبرس" بعد ذلك بأن يُقبض على كل من يتبع عقيدته في "مصر" و"الشام".

تمرد الناصر

نعود للسلطان "الناصر" فنجده مريضًا في فراشه يعاني من وعكة صحية أدركته إلى جانب ما يُعانيه من نائبه "سلار" ووزيره "بيبرس"، وتدخل عليه جاريته "هادنساد" قائلة: حمدًا لله على سلامة مولاي "الناصر" لقد مَنَّ الله عليك بالشفاء وإني لأرى مولاي اليوم أفضل بكثيرٍ من أمس، قال السلطان: حمدًا لله.. ولكني من حين لآخر أتذكر مولاتك "آشلون" رحمها الله، فأدعو لها بالرحمة والمغفرة، لقد كانت سَنَدًا وعونًا لي في هذه الدُّنيا، ومازلت أشعر بالوهن بعد وفاتها، فردت "هادنساد": رحم الله مولاتي، ولكن الموت علينا حقٌّ، فقال: صدقتِ.. الموت حقٌّ علينا، لكني أحس بمرارة الذل ولا أملك من أمر نفسي شيئًا، قالت: كيف يا مولاي تقول ذلك وأنت شمس البلاد ومالك كل أمور الرعية أيعقل هذا؟ أجابها: نعم .. لا أملك من أمر نفسي شيئًا .. فإن "بيبرس" و"سلار" يُضَيِّقَان عليَّ في كل شيءٍ حتى أنهما لم يوافقا على إقامة الاحتفالات بالمولود "علي" لسبعة أيام كما كُنت أوَد، وقررا الاكتفاء بيومٍ واحدٍ مما أشعرني بأني مغلوبٌ على أمري، لقد ضقت بهما ذرعًا، قالت "هادينساد": هَوِّن عليك يا مولاي.. فالأمر لن يستمر طويلاً، وسوف يأتي اليوم الذي تنفرد فيه بكامل السلطة، فعاجلها "الناصر" قائلاً: متى؟ .. متى سيأتي هذا اليوم؟ لقد مللت الانتظار بعد أن وصل بيَ الحال أن أستدنت حينما خرجت لرحلة الصيد بـ"إقليم البحيرة" مبلغ ألفي دينارًا من "ابن الشيخي" لأشترى هدايا للنساء والجواري وذلك قبل عودتي إلى "القاهرة"، فقالت "هادنساد": ولماذا يستدين مولاي من أحد رعاياه؟ أجابها: لأنني طلبت من المسؤول المُشرف على أموالي أن يُدبر لي هذا المبلغ لكنه اعتذر لعدم توافر المال المطلوب لديه ..هكذا زعم لي.. أهذا يعقل! أم أن "بيبرس" و"سلار" وراء تجاهل طلبي؟ قالت "هادنساد": هَوِّن عليك يا مولاي واهدأ حتى لا يعاودك المرض، أما قلت لك أنه سيأتي اليوم الذي ستنفرد فيه بكامل السلطة وتستخلص حقوقك من الأمراء ولو أدى ذلك إلى استعمال القوة، فقال السلطان: هذا ما قاله لي تمامًا "ابن الشيخي" بعد أن انطلق لساني بالشكوى له من سوء معاملة "سلار" و"بيبرس" لي بتضييقهما علي في كل شيء، قالت "هادنساد" وهي تُهدئ من روعه: لا عليك يا مولاي .. لا عليك.. فلتقم من فراشك لتنعم بحمامٍ دافئٍ يزيل عنك عَرَقَ المَرَض فتنتعش ويتجدد نشاطك، هيا انهض يامولاي، فقال: أجل.. إنكِ على حقٍ، فماعاد الكلام يُجدي بل يزيد من هَمِّي، لكن رغبتي

في الانتقام منهما تُقوي عزيمتي فقالت "هادنساد": سأذهب الآن لأعد لـك الحمـام، هيـا انهض يا مولاي ولا تتكاسل.

بعد أن أخذ السلطان حمامه، دخل جناحه وطلب في استدعاء السيدة "مسـكة" فأتـت مهرولة فوجدته مُتوترًا يُخطر ذهابًا وإيابًا، وما أن رآها حتى قال: أين أنت يـا "مسـك" الختام؟ أُريدك في أمرٍ هام، قالت: الأمر والطاعة يا مولاي، فقال: اجلسي .. واسـمعيني جيدًا ونفِّذي ما سأقوله لكِ بحذافيره، فجلست "مسكة" وأبدت اهتمامها وهي مُصـغية إليـه فقال: أريد منك دون أن يشعر بك أحدًا.. وعاد يُكرر.. دون أن يشعر بك أحدًا أن تقـومي بإبلاغ الأمير "بُكتمر الجوكندار" بالحضور لمُقابلتي غدًا في تمام التاسعة صباحًا لأمرٍ هامٍ ولكن حذاري أن يراكِ أحدٌ من مماليك "بيبرس" و"سلار"، أسمعت مـا قلتـه يـا "مسـك الختام"؟ فقالت: السمع والطاعة يا مولاي سأفعل ما أُمرت به واطمئن فلن يراني أحد.

تسللت "مسكة" إلى حيث إقامة الأمير "بُكتمر الجوكندار" في جـنح الليـل وأخبرتـه برسالة السلطان وانصرفت عائدةً إلى "الناصر" تخبره بانتهاء المهمة على أكمل وجه.

حضر "بُكتمر" حسب الموعد والمكان المحدد إلى السلطان، وما أن رآه "الناصر" حتى قال: أين أنت يا "بُكتمر"؟ أنا في أشد الحاجة إليك، فقال الأخير: خيرًا يا مولاي .. أبلغتني السيدة "مسكة" وأكدت بألا أتأخر عن الموعد مهما كانت الظروف فأقلقتني، فما الخطب يا مولاي، قال السلطان: اهدأ ولا تنزعج واجلس واسمعني جيدًا، فأنا أتوسم فيك الإخلاص، وأحس بأنك من الذين يشعرون بما أعانيه من ألم الحجر على حريتي، فقال "بُكتمر": نعم.. أعلم ذلك، فقال "الناصر": إنني أفتح لك قلبي بغير تحفظ وأعلم مدى حبك وولائـك لـي، فأجابه "بُكتمر": هذا صحيحٌ بغير شك يا مولاي والله وحده يعلم ذلك، فقال السـلطان: إذن فنحن متفقان ولذلك فلن أكتم عنك سرًا أحتفظ به لنفسي، قال "بُكتمر": تفضل يـا مـولاي بالحديث ولن يخرج هذا السر مهما بلغ أمره فيما بيننا، فقال السلطان: لقد سـئمت الحيـاة من "بيبرس" و"سلار" وأريد الخلاص منهما مهما كلفني أمرهما، أجابه "بُكتمـر": أوافقـك الرأي وإني لأشعر مثلك بذلك الشعور الذي يتملكك، فقال "الناصر": بما أننا متفقان فلتضع لي خطة للخلاص منهما ولنأخذ حذرنا فإن "بيبرس" و"سلار" لهما عيونٌ في كـل مكـان، قال "بُكتمر": اتركني للغد لأتدبر الأمر ثم أحيطك علمًا بما سوف نفعله، فعاجله السـلطان قائلاً: لا .. لا يا "بُكتمر" فلنضع خطتنا الآن فأنا لا أستطيع صبرًا للغد، وإن حـدث مـا تمنيته فسأكافئك بما لا تحلم به، فانبرى "بُكتمر" وقال: لاحت لي الآن خُطـة يـا خونـد، فقاطعه السلطان قائلاً: آت بها، قال "بُكتمر": إذا ما أُغلقت القلعة ليلاً وحُملت مفاتيحها من

واليها "سيف الدين بُلبان الدمشقي" إليك -على ماجرت العادة- ولبست مماليكك السلاح وركبت الخيول من الإسطبل إلى إسطبلات الأمراء، ودقت كوسات السلطان دقًا حربيًا ليجتمع "المماليك" تحت القلعة ممن هُم في طاعة مولاي، أهجم أنا على قصري "سلار" و"بيبرس" وأقبض عليهما قبضًا باليد، فقال السلطان: أهنئك بذكاء خطتك يا "بُكتمر"، لكن هل تظن أنها ستنجح ولن ينكشف أمرنا؟ أجاب "بُكتمر": "إن شاء الله ستنجح وستتبدل الأمور كما يريد مولاي".

يستكمل "زمزم" لابنته قصة مؤامرة السلطان و"بُكتمر" فيقول: وصلت أخبار الخطة إلى "بيبرس" و"سلار" فاحتاطا من السلطان، ولم يشعر السلطان "الناصر" بهذه الحيطة، وفي اليوم المُحدد لتنفيذ الخطة حدث ما لم يكن متوقعًا، قالت "سلسبيل": ماذا حدث يا أبي شوقتني أن أعرف؟ أجابها: أمَرَ الأميران "بيبرس" و"سلار" بعد أن علما بأمر الخطة "سيف الدين بُلبان الدمشقي" والي القلعة وكان خصيصًا بهما بأن يُوهم الجميع بغلق باب القلعة ويطرف أقفالها ثم يعبر بالمفاتيح إلى السلطان، فيظن السلطان ومماليكه أنهم قد حصلوا على غرضهم، وانتظر السلطان "بُكتمر" كي يحضر إليه فلم يحضر فبعث إليه فإذا بهم يجدونه مع "بيبرس" و"سلار" وقد حلف لهما على القيام معهما فظن السلطان مُخطئًا أن "بُكتمر" غدر به ولم يكن الأمر كذلك، غير أن الحقيقة هي أنه لما بلغ "بيبرس" و"سلار" الخبر خرجا إلى دار النيابة بالقلعة وعزم "بيبرس" أن يهجم على "بُكتمر" ويقتله غير أن "سلار" ثبَّته ومنعه وأشار إليه بالإرسال في حضوره، حتى تُبطل حركة السلطان، فلما رأى رسول السلطان "بُكتمر" مع "بيبرس" و"سلار" تَحيَّر في أمره ورجع إلى السلطان وأخبره بموقف "بُكتمر"، عَنَّفَ "سلار" "بُكتمر" ولامه ولكن الأخير حلف لهما على أنه معهما لن يُغادر المكان حتى الصباح.

دخل "بُكتمر" مع الأمراءُ في الخدمةِ فوقف "بيبرس" و"سلار" على خيولهم بباب الإسطبل السلطاني حتى يتبيَّن خروج "المماليك السلطانية"، فلم يخرج أحدًا من الأمراء ممن هُم في خدمة السلطان، وأُشيع في البلاد أن الأمراء يُريدون قتل السلطان، غير أن الأمراء بقوا نهارهم مجتمعين متيقظين خوفًا من أن يهرب السلطان أو ينزل من باب السر، فوقف مماليك "سلار" و"بيبرس" على هذا الأمر وعلى رأسهم الأمير "سيف الدين سَمك" أخو "سلار" على باب الإسطبل، وفي منتصف الليل وقعت حركة داخل الإسطبل السلطاني وذلك من قيام "المماليك السلطانية" ولبسهم السلاح حتى ينزلوا إلى السلطان، لكن السلطان "الناصر" منعهم على حينِ أن الأمير "سيف الدين سمك" أراد إقامة الحرب، فرمى

بالنشاب ودَقَّ الطبل فوقع سهمًا من النشاب بالرفوف السلطانية، واستمر الحال على ذلك حتى آذان عصر اليوم التالي.

بعث السلطان إلى الأمراء وقال لهم: ما سبب هذه الركوب على باب إسطبلي؟! وما سبب هذا الحصار؟ إن كان غرضكم في المُلك فما أنا متطلعٌ إليه، خذوه وابعثوني إلى أى موضع أردتم، فرد عليه الأمير "عز الدين أيبيك الخازندار" وقال: سبب الحصار يعرفه مولاي ، ويعرفه "المماليك" الذين يُحرِّضونه على الأميرين "بيبرس" و"سلار"، أنكر السلطان وقال: لا يجرؤ أحدٌ من مماليكي على الوشاية بينى وبين الأميرين "بيبرس" و"سلار"، فانبرى الأمير "بُرلغي الأشرفي" وقال له: نحن متأكدون تمامًا مما نقول، فرد السلطان: أنا لا أعرف عَمَّا تتحدثون، وليس لي علمٌ بأي شئ، قال له "بيبرس الدويدار": إنهم يقلبونك ويحرضونك علينا.

اشتد هياج وصياح العامة خارج القلعة حينما رأوا رجال "سلار" و"بيبرس" يُحاصرون القلعة والسلطان واقفًا بأعلى الأسوار فآمنوا بصدقِ الإشاعة، وأخذوا يصرخون على الأمراء ويقولون: "يا ناصر يا منصور"، وشَقَّ الهتاف أرجاء الفضاء، وتشجع السلطان بهذه القوة الشعبية، ووصلت الأخبار إلى "بيبرس" و"سلار" واستقرا على أن يبعثا بأميرٍ وبعض "المماليك" ممن يحملون الدبابيس لتفرقة العامة، لكن الموقف ازداد اشتعالاً وسوءًا، فأخذوا الأهالي يقذفون "المماليك" بالحجارة، وأفحش العامة في سبهم، فرجع الأمير ليُبلغ "بيبرس" و"سلار" بما حدث، فقال الأمير "بيبرس": ابعثوا لهم بالأمير "بتخاص المنصوري" لتهدئة الحالة فيلين لهم في القول، ويُهدئ من ثورتهم زاعمًا لهم أن السلطان قد رضي على أمرائه ولم يَعُد هناك أي خلافٍ بينهم، فقال "سلار" لـ"بيبرس": من الحكمة الآن أن نسترضي السلطان أولاً بأن نبعث إليه رسولاً يطلب منه العفو عما وقع ثم نخرج إليه ونقر له بالطاعة والولاء شرط أن نلتمس منه أن يُخرج من كانوا سببًا في هذه الفتنة من مماليكه.

تقدم الأمير "بتخاص المنصوري" وخرج للعامة لتهدئة الحالة وأخذ يقول: أيها الناس.. طيِّبوا خاطركم، فإن السلطان قد طاب خاطره على أمرائه ورضي عنهم، فاطئمنوا واصدقوني القول وانصرفوا الآن آمنين مطمئنين.

في الوقت نفسه ذهب الأمراء "عز الدين أيبك الخازندار" و"بيبرس الدويدار" و"سيف الدين برلغي الأشرفي" إلى السلطان يسترضونه ويطلبون منه العفو عَمَّا حدث نيابةً عن الأميرين "بيبرس" و"سلار"، فعفى السلطان عنهما ثم جاء كلٍ من "بيبرس" و"سلار" وتقدما

إلى السلطان وطلبا العفو منه، فقال لهما: لقد أبلغت أمرائكم بالعفو عنكما، فَـرَد "سـلار": لكننا نلتمس من مولانا أن يُخرج لنا من كانوا سببًا في هذه الفتنة مـن "مماليكـك"، فقـال السلطان: إنما سبب الفتنة هو الأمير "بكُتمر الجوكندار"، وإني أطلب منكما إبعـاده عـن "مصر"، فوالله ما بقيت لي عين أنظر إليه، ومتى أقام في "مصر" فلا جلسـت أنـا علـى كرسي الملك أبدًا، فرد "بيبرس": إذن فلنبعده ولنعينه نائبًا لنا في "صفد"، فقـال السـلطان: أوافقكما الرأي، فعاجله "بيبرس" قائلاً: على أن يكون في مقابل ذلك نفي بعـض مماليـك مولاي ممن نظن فيهم أن لهم يدٌ في إثارة مولانا علينا، وقد عرفناهم جميعًا وهم الأمراء: "يلبغا التركماني"، و"إيدمر المرقبي"، و"خاص ترك" وغيرهم.. قال السلطان: لكني أطلب الشفاعة فيهم، فقال "بيبرس": لا شفاعة فيمن يقلبونك علينا ياخوند، وفشلت خطة السـلطان و"بُكتمر" وظل الحال كما هو عليه.

نعود ثانيةً إلى "زمزم" يقول لابنته: كبرت "مُلكان" .. أتذكرينها يا "سلسبيل"؟ فأجابته: نعم يا أبتِ .. إنها ابنة السلطان "الأشرف خليل" الذي قتله أمراءه والذي حـرر "عكـا".. أليس كذلك؟ أجابها: نعم هو.. إنكِ تتمتعين بذاكرة قوية مثل أبيك، واسترسل يقول: كبُرت "مُلكان" وكبر "موسى بن علي" ابن أخو السلطان "الناصر" وتقدم "موسى" بطلـب خطبـة "مُلكان" ابنة عمه من عمه السلطان وقد سبق أن قام الأخير بترقية "موسى" أميرًا فـي أول سلطنته الثانية، لكن السلطان أرجأ فكرة الخطبة لوقت لاحق، فقالت "سلسبيل": لماذا رفض خطبة الأمير "موسى" لابنة عمه الأميرة "مُلكان"؟! أجاب "زمزم": لا أعرف علـى وجـه التحديد، لكن السلطان كان يتمتع بنظرة بعيدة وبفراسة منقطعة النظير، وكنت دائمًـا أرى الأميرة "مُلكان" والأمير "موسى" في حديقة القصر يتسـامران وتبـدو عليهمـا علامـات السعادة، قالت "سلسبيل": إذن فهُما يعيشان حالة حب، أجاب "زمزم": أجل.. وقد سـمعتهما في يومٍ من الأيام يتحدثان وكُنت على مقربة منهما، فسمعت الأمير "موسى" يقول للأميرة "مُلكان" بصوتٍ خافت: اسمعي يا "مُلكان".. لا أحد في الدنيا يستطيع أن يبعـدني عنـك، فقالت "مُلكان": حتى عمنا الناصر! أجاب "موسى": حتى عَمُّك "الناصر"، فقالت "مُلكان" ألا تخشاه؟ أجابها: أنا لا أخشى أحد، ومن يكون عميَ "الناصر" حتى أخشاه؟ فـردت عليـه "مُلكان": خسئت يا "موسى".. إنه عمك وسلطان البلاد، فقال لها: إنك تُحبينـه لأنـه زوجٌ لأمك الخوندة "أردكين"، فأجابته: لا .. ولكن لأنه اهتم برعايتي هو وكل من في القصـر وخاصة "مسك الختام"، واهتم بك أنت أيضًا، فلا تكنْ ناكرًا للجميـل، لقـد أنعـم عليـك بالإمارة، فقال "موسى": لو لم يَقتل أبوكِ "الأشرف" أبي بدس السم له لكنت أنا الآن سلطان

البلاد كلها، فقالت غاضبة: ويحك أمازلت تتوهم بأن أبي "الأشرف" قتل أخاه عليّا، إنها إشاعات يروجها "المماليك" لتدب الخلافات في بيت "آل قلاوون" لينقلب بعضهم على بعض، فكيف تريد الزواج مني إذا كان أبي قاتل أبيك وقلبك يملأه الحقد والغل من أبي "الأشرف" رحمه الله؟ وما دخل عَمك "الناصر" في ذلك كله؟ فقد كان طفلاً صغيرًا في ذلك الوقت، فلا تكن جاحدًا وتنسى عطفه علينا وحنانه، قال "موسى": إذن .. لماذا يُرجئ فكرة خِطبتنا بدون إبداء سبب وجيه؟ أجابته: لا أعرف لماذا على وجهِ التحديد ولكن لابد من احترام رأيه مهما كان الأمر.

أما الشيخ "تقي الدين بن تيمية"، فبعد أن لبث في سجن الجُب لعامٍ ونصف العام رفض "بيبرس" و"سلار" الإفراج عنه حتى يرجع عن بعض عقيدته، فحضر الأمير "حسام الدين مهنا بن عيسى" أمير العرب إلى "مصر" طالبًا التدخل وإخراج الشيخ "تقي الدين" من سجنه في "ربيع الأول عام 707هـ"، فذهب إلى الأمير "بيبرس" وقال له: ما جئتك إلا مُلتمسًا منك العفو والسماح للشيخ الجليل "ابن تيمية"، فلا تردني ولا تنسى له مواقفه النبيلة وجهاده ضد "المغول" في "موقعة شقحب"، فإن أعداء الشيخ يقلبونك عليه، وجئت لأستأذنك في أن أذهب بنفسي لإخراجه من سجن الجُب بالقلعة، فأجاب "بيبرس": والله لا أستطيع أن أرُد لك طلبًا، فلك هذا يا "حسام الدين" رغم أنني أتحيَّر في أمر هذا الشيخ، فإنه عنيدٌ.. لا يكاد يخرج من السجن حتى يعود إليه في العام نفسه بسبب شكاية الناس والفقهاء منه، فقال "حسام الدين": إنه يحاربُ البدع وأصحابها والظلم ومقترفيه والمنكر على كافة دروبه لكن خصومه أجمعوا أمرهم على عدائه، فهو صراعٌ لن يُخمد إلا بوفاة الشيخ ولحاقه بربه الذي يعرف السر وأخفى، لقد خلق الشيخ خصومه بصراحته وجرأته وذهابه إلى آراء لم تؤثر عن الفقهاء السابقين، وبكلماتٍ أحجم عن التصريح بمثلها الأولون والآخرون، وهذه الأشياء جلبت على "ابن تيمية" خصوماتٍ كثيرةٍ من معاصريه من الفقهاء وأصحاب الحديث، فقال له "بيبرس": لا أخالفك الرأي فيما تقول، لكن الأمور لم تعد تحتمل تقليب الناس علينا وخاصةً القضاة والفقهاء ممن يعارضونه ويتصدون له ولمعتقداته، ورغم ذلك فلن أرد شفاعتك فيه فلتخرجه من سجنهِ على أن تُحدَدْ إقامته في دارِ "ابن شقير" بـ"القاهرة"، فشكره "حسام الدين" وقال: جزاك الله خيرًا يا "بيبرس".

المُتآمران

كان "الناصر" يُحاول دائمًا استغلال أي موقف خلاف يقع بين "بيبرس" و"سلار" فيجد طريقًا لإشعال الفتنة بينهما، وكان كلاهما يعلم حقيقة ذلك فكان كلاً منهما يراعي الآخر أمامه، فقد اقتسما معًا مملكة "مصر" ولم يبقى لـ"الناصر" معهما إلا مجرد الاسم في السلطنة.

وفي إحدى المرات وقع خلاف بين الأميرين "علم الدين سنجر البرواني" و"سيف الدين الطشلاقي" على باب "قلعة الجبل" بحضرة الأمراء ذلك لأجل استحقاقهما في الإقطاعات، نزل "الطشلاقي" على إقطاع "البرواني" وكان كل منهما في ظلم، كان "البرواني" من خواص الأمير "بيبرس" و"الطشلاقي" من خواص الأمير "سلار" وكان خشداشه وكلاهما كانا من مماليك الملك "الصالح علي" ابن الملك "المنصور قلاوون"، سفَّه "الطشلاقي" "البرواني" بعد أن سطا على إقطاعه أمام الأمراء، فقام "البرواني" إلى "بيبرس" واشتكى له، فطلب "بيبرس" استدعائه وعنفه، فأساء "الطشلاقي" في رد الجواب وأفحش في حق "البرواني" وقال له: أنت واحدٌ منفي .. فكيف تجعل نفسك مثل مماليك السلطان؟ فاستشاط "بيبرس" وهَمَّ ليضربه، فجرد "الطشلاقي" سيفه يُريد ضرب "بيبرس"، فقامت قيامة "بيبرس" واستل سيفه ليضربه فترامى عليه من كان حضورٍ من الأمراء فأمسكوه وأخرجوا "الطشلاقي" من أمام وجهه بعد أن كاد "بيبرس" يقتله.

طلب "بيبرس" الأمير "سُنقر الكمالي" حاجبه وأمره بنفي "الطشلاقي" إلى "دمشق" فخشى "سنقر الكمالي" غضب "سلار" فدخل عليه وأخبره بما حدث وأرسل "سلار" جماعة من أعيان الأمراء وأمرهم بملاطفة "بيبرس" حتى يعفو عن "الطشلاقي"، فأمره "سلار" بأن يلزم بيته، وعندما سمع "بيبرس" ذلك صرخ بأعلى صوته قائلاً: إن بات "الطشلاقي" الليلة في "القاهرة" عَمَّت فتنةٌ كبرى.

عاد الحاجب "سُنقر الكمالي" وأبلغ "سلار" فلم يسع "سلار" إلا السكوت، وأخرج "الطشلاقي" في وقته، وأمر "سلار" الحاجب بتأخيره في "بلبيس" حتى يتراجع "بيبرس" في أمره، وعندما اجتمع الاثنان في الديوان السلطاني بدأ "بيبرس" في الحديث عما كان من "الطشلاقي" من الإساءة في حقه و"سلار" يُسكنه لكن "بيبرس" لا يَسكن، ولا يَهدأ، بل يشتد

في حديثه، فأمسك "سلار" عن الكلام على حقدٍ وكرهٍ وكان السلطان "الناصر" حاضرًا يريد إثارة الفتنة بينهما، فلم يتم له ذلك، وامتثل "سلار" لزوبعة "بيبرس" مخافةَ وقوع الفتنة بينهما، وأمر "الطشلاقي" بالاتجاه إلى "الشام".

استمر "زمزم" في سرد واستكمال الرواية فقال: عاد من جديد إحساس الضيق يُسيطر على كيان "الناصر" ففكر في الخروج من "مصر" والابتعاد عن "سلار" و"بيبرس" بادعائه الرغبة في أداء فريضة الحج، ووافقا له على الخروج، وبدأ الأمراء في تقديم الهدايا بهذه المناسبة من خيلٍ وجمالٍ وهجنٍ حتى حان موعد السفر، ونزل السلطان من "قلعة الجبل" في موكبٍ حافلٍ، وخرج الشعب لوداعه منهم من يبكي ومنهم من يتأسف لفراقه ومنهم من يدعو له بطول العمر والعودة الحميدة بإذن الله.

خرج الأمراء لوداعه وعلى رأسهم الأميران "بيبرس" و"سلار"، وظلا على ظهور خيولهما ولم يترجلا في حضرته كما كانت العادة مما أكد أن تصالحهما مع السلطان كان ظاهريًا فقط وأن الغلِ مازال موجودًا في نفسيهما.

بعد أن وصل السلطان وحاشيته ومماليكه إلى "قلعة الكرك" واحتفل الناس بقدومه أبرز الأمير "الطنبغا المارداني" لنائب "الكرك" الأمير "جمال الدين آقوش" كِتابًا مُزوَّرًا على "بيبرس" بطلوع السلطان إلى "قلعة الكرك" حتى لايمنعه نائبها من دخولها، فاستقبل الأمير "آقوش" "الناصر" خير استقبال، وأمر بمد الجسر على الخندق المحيط بالقلعة لتعبر خيول حاشية "الناصر"، وعندما جاء دور "الناصر" وتوسط بفرسه الجسر بدأت أجزاءه تتفكك وكاد "الناصر" يقع في الخندق لولا أن شَدَّ الجنود عنان جيادهم فقفز "الناصر" ولم يصب بسوءٍ، لكن بعض الأمراء سقطوا في الخندق وبعضهم مات.

تعالت الصيحات كما تعالت الأتربة وغطت المكان وحدث هرج ومرج وفُزع نائب "الكرك" ومن معه، وسارعوا للاطمئنان على سلامة السلطان وهُم واجفون يرتعدون مما حدث.

اطمأن نائب "الكرك" على السلطان وأخذ يقول: أخشى أن يظن مولاي أنها مكيدة دُبرت له، فوالله هذه الكارثة لم تحدث من قبل، وأن الجسرَ له عدة سنين لم يُمد وأخشابه قد تسوست فأصبح قديمًا لا يقوى على حمل رجال مولاي بعتادهم، وأخذ يُكرر اعتذاره، فقال له السلطان: لا عليك.. إنني لا أشك فيما تقول.. هَوِّن عليك يا رجل ولا تُكرر اعتذارك.. قدَّر الله وما شاء فعل.

ركب السلطان جواده بعد أن أثنى على نائب "الكرك" بخِلعة إثباتًا لرضائه عنه ودفعًا لكل شك حَلَّ في صدره، واستقر المقام للسلطان فأمر الأمير "آقوش" بأن يُنادى في سكان القلعة بألا يبقى أحدٌ فيها، كما طلب إلى الرجال أن يخرجوا جميعًا إلى خارج المدينة ثـم يعودون ومع كلٍ منهم ثلاثة أحجار، وما كادوا يفعلون ذلك تلبيةً لرغبة السـلطان حتـى صدرت الأوامر بإغلاق باب القلعة، وعندما عاد الرجال ومعهم الأحجار وجدوا الأبـواب موصدة، وقيل لهم: كل من له ولدٌ أو حريمٌ عليه أن يستدعيه، فخرج الجميع مـن القلعـة بمتاعهم وأولادهم وأموالهم وما أمسى الليل حتى لم يبقَ في "قلعـة الكـرك" أحـد غيـر "الناصر" ومماليكه.

يُحَدِّث مملوك زميلاً له وهو مُندهش مما حدث فيقول: إن السلطان ما فعل ذلـك إلا ليأمن على نفسه، فأجاب الآخر: أظن أنه خشي أن يتآمر عليه أهالي "الكـرك" فيسـلمونه إلى "سلار" و"بيبرس"، فرد عليه: ورُبما فعل ذلك بعدما انهار به الجسر وظن أنها مكيـدةٌ دُبرت للخلاص منه، فرد عليه زميله خائفًا: فليلزم كل مِنّا الصمت ونكف عن مـا نظنـه وما نعرفه ومالا نعرفه، يرحمك الله.

بعد ذلك جمع "الناصر" أمراءه وكل من كان معه، وأعلمهم باتخـاذ قـرار الإقامـة الدائمة في "الكرك"، وترك السلطنة وخلْع نفسه منها حتى يستريح مـن متاعبهـا ويـريح غيره، وما أن أخبرهم بما قد غاب عنهم جميعًا بعدم ذهابه إلى الحج هذا العـام والإقامـة الدائمة بـ"الكرك" حتى أخذوا يتصايحون وبكى من بكى منهم واعترض مـن اعتـرض برجاء العدول عن هذا القرار، وعلى رأسهم الأمير "تنكز" الذي قرر أن يتـزعم حركـة إرجاع "الناصر" إلى عرشه، لكن السلطان "الناصر" أكد لهم عدم عدوله عن رأيه، وأمرهم جميعًا بالعودة إلى "مصر" وبأن يأخذوا الهجن التي كانت معهم برسم الحج، كذلك الجِمـال والمَال الذي أهداه له الأمراء عند خروجه من "مصر" وأوصاهم بـأن يُعلمـوا "سـلار" و"بيبرس" بعدوله عن الحج هذا العام، وبرغبته في الإقامة الدائمة بـ"الكرك" وبنزوله عن السلطنة على أن ينعما عليه بولاية "الكرك" و"الشوبك"، ثم استدعى "الناصر" كاتب السـر ليكتب خطابًا إلى "سلار" و"بيبرس" مضمونه الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم: حرس الله تعالى نعمة الجانبين العاليين الكبيـرين الغـازيين المجاهدين وفقهما الله تعالى توفيق العارفين، أما بعد.. فقد طلعت إلى "قلعة الكرك" وهـي من بعض قلاعي وملكي، وقد عولت على الإقامة فيها فإن كنتم مماليكي ومماليـك أبـي فأطيعوا نائبي "سلار" ولا تخالفوه في أمرٍ من الأمور، ولا تعملوا شيئًا حتى تشاوروه، فأنا

ما أريد لكم إلا الخير، وما طلعت إلى هذا المكان إلا لأنه أروح لي وأقل كلفة، وإن كنــتم ما تسمعون مني فأنا متوكلٌ على الله والسلام".

الله أملي

الناصر محمد بن قلاوون

وصلت رسالة "الناصر" إلى أمراء "المماليك"، فجاء الرد عليها من "بيبرس" و"سلار" بما هو آت:

"ماعلمنا ما عولت عليه، وطلوعك إلى "قلعة الكرك" وإخراج أهلها، وتشييعك نائبها، وهذا أملٌ بعيد، فخل عنك شغل الصبي، وقم واحضر إلينا، وإلا بعد ذلك تطلب الحضــور ولا يصح لك، وتندم ولا ينفعك الندم، فياليت لو علمنا ما كان وقع فــي خــاطرك، ومــا عولت عليه غير أن لكل مُلك انصرام، ولانقضاء الدولة أحكام، ولحلول الأقــدار ســهام، ولأجل هذا آمرك غيك بالتطويل، وحسن لك زخرف الأقاويل .. فالله الله حال وقوفك على هذا الكتاب يكون الجواب حضورك بنفسك ومعك مماليكك وإلا فأنت تعلم أنني ما أبقيــك في "الكرك"، ولو كثر شاكروك ويخرج الملك من يدك والسلام".

عندما قرأ "الناصر" رد الأمراء قال: لا إله إلا الله .. كيف أظهروا ما في صدورهم، ثم أمر بإحضار آلة المُلْكْ من عصائب وسناجق وما كان معه من شعارات للملك فأرسلها إلى "مصر" مع الرسول الذي جاء برد الأمراء مــن "القــاهرة"، وقــال للرســول: قــل لــ"سلار".. أنا ما أخذت لكم شيئًا من بيت المال، وهذا الذي أخذتــه قــد ســيرته إلــيكم وانظروا في حالكم فأنا ما بقيت أعمل سلطانًا وأنتم على هذه الصورة، فدعوني أنا في هذه القلعة مُنعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى، إما بالموت أو بغيره.

نترك "الناصر" في "قلعة الكرك"، ونعود مع الرسول إلى "قلعة الجبــل" حيــث قابــل الأميرين "سلار" و"بيبرس"، وسلمهما رد "الناصر"، فعلقا قائلين: إن "الناصر" ماعاد يصلح للعرش، وقال "بيبرس": ماذا يفعله هذا الأحمق .. لم أعد أفهمه؟ وقال "سلار": حقيقة لــم يعد "الناصر" يصلح للعرش يا "بيبرس"، وإنما إذا أعادته الظروف إلى حكم "مصر" فلــن نأمن غدره، أجاب "بيبرس": أجل.. أعلم ذلك جيدًا فدعني أتشاور مع باقي الأمراء بشــأن هذا الأمر وكذلك مع القضاة والخليفة العباسي ونقرأ عليهم كتاب "الناصر" لنا ونُشهد عليه الجميع بنزوله عن العرش وتركه السلطنة ثم يستقر الرأي بعد ذلك إلى من نعهد بولايــة السلطنة.

اجتمع القضاة والأمراء والخليفة في مجلسٍ بنيابة السلطنة وقرأ عليهم "بيبرس" كتاب "الناصر" بنزوله عن العرش، وكان حاضرًا من الأمراء الأمير "آقوش" نائب "الكرك" والأمير "أيبك الخازندار" و"الأمير بيبرس الدويدار" وقاضي القضاة "زين الدين بن مخلوف" والخليفة "أبو ربيع سليمان العباسي" والرسولان اللذان توجها إلى "الكرك" لمقابلة "الناصر" وهما "عز الدين إيدمر الخطيري" والأمير "الحاج آل ملك".

بعد أن قرأ "بيبرس" على الجمع كتاب "الناصر" بنزوله على العرش، استأنف قائلاً: وها هُما الشاهدان على ما كتبه "الناصر" أمامهما بخط يديه حينما بعثنا بهما إليه في "الكرك"، فقال "سلار": ما رأي قاضي القضاة بعد أن سمع ما جاء في هذا الكتاب؟ أجاب القاضي "زين الدين بن مخلوف": بكتابه هذا أشهد بنزوله عن العرش وترك سلطنة "مصر" و"الشام"، فأجاب الخليفة العباسي: وأنا أؤيد قاضي القضاة فيما قاله بشأن نزول الملك "الناصر" عن العرش، فقال قاضي القضاة: ولمن نعهد بالملك من بعد "الناصر"؟! أنعهد به إلى الأمير "سلار" فقال "سلار": إن المُلك لا يصلح لي، بل يصلح للأمير "بيبرس"، ونهض من مجلسه واتجه إلى حيث كان يجلس "بيبرس" ووضع يده على كتفه وقال: أُبايع "بيبرس"، فهو يصلح للمُلك، فسارع الأمراء من بعده إلى "بيبرس" يبايعونه ويقولون: لقد صدق الأمير "سلار" فيما قال، فرد "بيبرس": لكني لا أقبل المُلك إلا ويكون "سلار" نائبًا للسلطنة، فتقدم الأمير "أيبك الخازندار" إلى "سلار" يرجوه قبول هذه الوظيفة وقال: ما رأيك يا "سلار" فيما قاله "بيبرس" الآن؟ فرد "سلار": أشكر الأمير "بيبرس" لاختياره لي نائبًا للسلطنة، لكني أرى من هو أنفع وأصلح مني لهذه الوظيفة، وأنا لستُ في حاجةٍ إليها، فقال الأمير "آقوش": والله لن نقبل غيرك نائبًا للسلطنة، وقال الأمير "بيبرس الدويدار": حقًا.. صدق الأمير "آقوش" فيما قاله، فلن نقبل غيرك نائبًا للسلطنة.

إلى هنا وانتهى "زمزم" من سرد ما حدث في "قلعة الكرك" بـ"الشام" وما حدث في "قلعة الجبل" بـ"مصر" وقال لابنته: بهذا تكون سلطنة "الناصر" الثانية قد انتهت بعد أن حكم عشر سنوات وخمسة أشهر وسبعة عشر يومًا.

طارت الأخبار باختيار "بيبرس" سُلطانًا للبلاد إلى أمراء الأقاليم ومعه مقاليد جديدة بتعيينهم صادرة من السلطان "المظفر بيبرس"، قالت "سلسبيل": هذا ما كان يريده الأمراء، لقد أراحهم "الناصر" واستراح منهم، أجابها "زمزم": أجل يا ابنتي.. هذا ما حدث.

حمل الرسول "أيبك البغدادي" مقاليد جديدة بتعيين نواب "الشام" في وظائفهم صادرة من السلطان الجديد، ومن بينها تقليد للملك "الناصر" بنيابة "الكرك".

دخل رسول السلطان "بيبرس" حاملاً معه تقليد الملك "الناصر" وفيه منشور بإقطاعه مائة فارس وكتاب من السلطان "المظفر بيبرس" يقول فيه: "لقد أجبت سؤلك فيما اخترته وقد حكم الأمراء عليَّ .. فلم أتمكن مخالفتهم"، وعندما استلم "الناصر" هذا الكتاب وما معه من تقليد أظهر البِشر على وجه وأمر الحُرَّاس بأن يصيحوا باسم "الملك المظفر بيبرس"، وخطب له في يوم الجمعة على منبر "الكرك"، بينما لم يرحب بعض الأمراء الآخرين بسلطنة "بيبرس" كنائب "دمشق" "الأفرم"، فعندما حضر إليه رسول السلطان وفتح الرسالة قال: بئس ما فعل الملك "الناصر" بنفسه، وبئس ما فعله "بيبرس"، وأنا لا أحلف لـ"بيبرس" وقد حلفت للملك "الناصر" من قبل حتى أبعث إلى "الناصر" وأستكشف منه الأمر.

بعث الأفرم إلى "الناصر" في "الكرك" يسأله في هذا الأمر فرد "الناصر" عليه بالشكر والثناء وبأنه ترك المُلك، فليحلف لمن يولونه.

تكرر ذهاب الرسول إلى باقي النواب بالرسائل والمقاليد، ودخل الأمير "أيبك البغدادي" إلى نائب "حلب" "شمس الدين قراسنقر" فقرأ الكتاب وقال للرسول: أعتذر عن مبايعة "بيبرس" فلقد أقسمت للملك "الناصر" ألاَّ أخونه أو أتحالف مع غيره، فكيف أقسم لـ"بيبرس" بيمين الولاء؟! والله ما يكون هذا أبدًا، ودعوا ما يجري يجري، وكل شئ ينزل من السماء تحمله الأرض ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم ذهب الرسول إلى نائب "حماه" الأمير "سيف الدين قبجق"، وما أن مثل أمامه حتى قال له: أين كتاب تنازل "الناصر" عن عرشه؟ فأعطاه الأمير "أيبك البغدادي" الكتاب، فقرأه نائب "حماه" وقال: إن هذا الكتاب ليس بخط "الناصر"، وإن الإنسان حتى ولو كان قليلاً في قرية لا يعزل نفسه بطيبة خاطر، فلابد من سبب لهذا، سأكتب لـ"الناصر" وأسأله في هذا الأمر، ولن أُبايع الأمير "بيبرس" حتى أتاكد من صحة ما جاء في الكتاب.

ذهب الأمير "أيبك" رسول "بيبرس" إلى نائب "طرابلس" "إسندمر كرجي" فقال له نائب "طرابلس": أنا لا أُبايع الأمير "بيبرس" وقد حلفت للملك "الناصر" من قبل.

كتب أمراء "الشام" ممن لم يوافقوا على سلطنة "بيبرس" خطابات إلى "الناصر" يوجهون فيها اللوم إليه لتنازله عن العرش دون مشاورة أحدٍ منهم، ووعدوه بأن يعيدوه إلى مُلكه أو يموتون دون ذلك.

عندما قرأ "الناصر" خطابات هؤلاء الأمراء قال لمن حوله وكان من بينهم الأمير "سيف الدين تِنكز": هؤلاء الأمراء لا يمكنهم إرجاعي إلى العرش لأن الأغلبية أصبحت

مع "بيبرس"، وأنا وافقت على تعيينه سلطانًا على "مصر" و"الشام"، فاعترض الأمير "تِنكز" على ذلك وقال: بل هؤلاء الأمراء قادرين على إرجاعك إلى العرش، فتبسم "الناصر" وتمثل بقول الشاعر:

كن جَريًا إذا رأيت جَبانا ... وجبانًا إذا رأيت جريا

لا تقاتل بواحد أهل بيتٍ ... فضعيفان يغلبان قويا

وأردف بعد إنشاده قائلاً: إن الأمر لا يتم إلا بحسن التدبير، وبالمدارة، وبالصبر على الأمور، ثم بعث إلى هؤلاء الأمراء الموالين له بخطابات يشكرهم فيها على ولائهم ويطلب منهم التَّأنِّي والصبر، وهذا نص كتابه للأمير "شمس الدين قراسنقر" نائب "حلب":

بسم الله الرحمن الرحيم:

"حرس الله تعالى نعمة المُعز العالي الأبوي الشمسي، ومتعنا بطول حياته، فقد علمنا ما أشار به وما عول عليه، وقد علمنا قديمًا وحديثًا أنه لم يزل على هذه الصورة وأريد منك أن تطول روحك علي، فهذا الأمر ما ينال بالعجلة لأنك قد علمت انتظام أمراء "مصر" و"الشام" في سلكٍ واحدٍ، ولا سيما "الأفرم" ومن معه من اللئام، فهذه عقدةٌ لا تنحل إلا بالصبر، وإن حضر إليك أحد من جهة "المظفر بيبرس" وطلب منك اليمين له فقدم النية، إنك مقهورٌ ومغصوب، واحلف ولا تَقطَع كتبك عني في كل وقت، وعرفني بجميع ما يجري من الأمور قليلها وكثيرها".

يكشف هذا الخطاب عن سياسة "الناصر" وبُعد نظره فهو من غير شكٍ لم يكن زاهدًا في الحكم كما كان يظن الأمراء بل كان يريده خالصًا له.

من هنا دَبَّر حيلة الخروج إلى الحج، ولم يستخفه كلام الأمراء بمعاونته على استرداد عرشه لأنه كان يرى ضعفهم أمام قوة "بيبرس".

كان "الناصر" يطمع في أن تخدمه الظروف فيقع الشقاق بين "سلار" و"بيبرس" وتكثر المشاكل وتتعقد الأمور أمام السلطان، ويضيق الشعب بحكمه، ويستاء الأمراء من تصرفاته، فرأى أن يصبر بعض الوقت حتى تتكشف الحقيقة، وحينئذٍ يسهل له القضاء على "بيبرس" واسترداد العرش الذي اغتُصب منه.

في "قلعة الجبل".. ضاق "بيبرس" بأمر هؤلاء الأمراء الذين عارضوا في بيعته، ولم يوافقوا على سلطنته، فشاور "سلار" في أمرهم، وما ينبغي عمله حيال أولئك الخارجين

عليه، فأشار "سلار" بأن يكتب لهم كُتبًا رقيقةً يقرهم فيها على ولاياتهم، ويعفيهم من دفـع أي شئ، فعارض "بيبرس" "سلار" وقال: إذا فرقت البلاد عليهم ما يساوي مُلكـي شـيئًا، فقال "سلار": وكم من يد تُقَبِّل عند الضرورة يا "بيبرس" وهي تستحق القطع، فاسمع منـي وأرضهم في هذا الوقت فإذا قدرت عليهم بعد ذلك افعل بهم ما شئت.

اقتنع "بيبرس" بهذه النصيحة، ووافق على اقتراح "سلار"، وبعث إلـى ولاة الأقـاليم المعارضين له بالتقاليد ومعها الخلع والهدايا وخطاب رقيق يبرز فيه تربعه علـى عـرش السلطنة ويقول: "أنه لم يقبلها إلا بعد تنازل "الناصر" عنها"، ثم يرجوهم أن يكونوا عونًـا، له فكتب إلى نائب "حلب" "شمس الدين قراسنقر" الذي كان من أشد المعارضين لـه كتابًـا جاء فيه: تعلم أن البلاد لا تكون بلا سلطان، فلو لم أقبل أنا كان غيري يتقـدم، فـاجعلني واحدًا منهم، ودبِّرني برأيك، وهذه "حلب" وبلادها لك ولمماليكك".

ثم كتب إلى "الناصر" يطلب منه ما عنده من خيلٍ، وما لديه مـن مماليـكٍ، ويهـدده بالنفي إن لم يكُف عن الاتصال بالأمراء، وكان كتاب التهديد لـ"الناصر" بمثابة الشـرارة التي أشعلت الحرب على "بيبرس"، وبداية العمل الثوري الذي بدأه "الناصـر" لاسـترداد مُلكه.

كتب "الناصر" إلى نواب "الشام" يستنجز وعدهم بمعاونته على استرداد عرشه، وجاء في هذا الكتاب ما يلي: ".... ، خرجت من "مصر" وتركت لهم المُلك ورضيت من الـدنيا بأحقر المساكن، وأضيق الأماكن، ليستريح خاطري من النكد، فما تراجعوا عني، وأرسـل "المُظفر بيبرس" يُهددني بالنفي إلى "القسطنطينة" مثل أولاد "الظـاهر بيبـرس"، وأرسـل يطلب مني ما لا أقدر عليه، وأنتم تعلمون ما لوالدي المَلك "المنصور" علـيكم مـن حـقِ التربية، والعتق، وما أظنكم ترضون لي بهذا الحال، فإما أن تكفوا أذى هـؤلاء الأمـراء عني، وإما إني أتوجه إلى بعض بلاد "التتار" وألتجئ إليهم قبل أن يرسلني الملك "المظفر" إلى الكفار.

كان لهذه الرسالة أبلغ الأثر في نفوس بعض الأمراء، فكتبوا إليه يقولون: أنهم مماليك أبيه، وطوع يديه متى أراد أن يتحرك بالتوجه إلى الديار المصرية.

أخذ "الناصر" يستعد لاسترداد عرشه وعلم "بيبرس" بذلك، كما علم الشعب الذي أخـذ يترقب عودة السلطان الشرعي للبلاد، واشتـد غَمَّ "بيبرس"، وضاقت عليـه الأرض بمـا رحبت، ولم يجد طريقة إلا أن يبعث إلى "الناصر" برسولٍ لكي يأخذ ما عنده من مماليـكٍ ومن خيل، وحينما وَصَلَ الرسول وأخذ في طلب "المماليك" والخيل من "الناصر" لم يكـن

لبقًا في إبلاغ الرسالة بل كان فظًا في مخاطبة "الناصر"، شرسًا في معاملته، فقابل "الناصر" هذه الفظاظة بما هو أشد منها وأنكى، وأمر أن يجر هذا الرسول من حضرته وأن يلقى من فوق أسوار القلعة، فأشبعه "المماليك" ضربًا، وسبًا، وتجريحًا، ثم أخذوا يجُرونه تنفيذًا لأمر "الناصر" إلى السور، لكن "الناصر" تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة وامتص غضبه، فاستدعى الرسول وقال له: لقد تركت لـ"بيبرس" مُلك "مصر" و"الشام" أما كفاه هذا حتى بعثك لتأخذ فرسًا عندي أو مملوكًا لي! قُل له إن لم يتركني ذهبت إلى "بلاد المغول"، وأعلمتهم أني تركت مُلك أبي وأخي ومُلكي لمملوكي ومع ذلك يُتابعني ويطلب مني ما أخذته ثم أمر الرسول أن يعود إلى "مصر" ماشيًا على قدميه.

وصل الرسول إلى "مصر" ومثل بين يدي "بيبرس" ووصف كل ما وقع له، وأخبره بكل ما قاله "الناصر"، فبعث "بيبرس" في استدعاء "سلار" ليستشيره في الأمر، وبينما هما يتشاوران وصلت إليهما إشاعة تقول: أن "الناصر" خرج من "قلعة الكرك" ولم تُعرف وجهته، فأصدرا أمرهما بالاستعداد للحرب والتحفظ على جميع الطُرق المؤدية إلى "مصر"، وزاد الطين بلة حينما عرف "بيبرس" أن جماعة من أمراء "المماليك" في "مصر" يُدبرون مؤامرة لقتله، فكشف أمرهم، فخاف الأمراء على أنفسهم، وهربوا إلى "الكرك"، فبعث وراءهم خمسمائة جندي بغية القبض عليهم قبل وصولهم إلى "الكرك"، ولكن كانت قلوب الجنود مع المتآمرين، فتباطأوا في سيرهم حتى يتركوا الفرصة للهاربين ليختفوا عن الأنظار، فأقام الجند في غزة أيامًا، ثم رجعوا إلى "مصر"، ودخل كبيرهم إلى "بيبرس"، وأخبره بأنهم لم يستطيعوا اللحاق بالمتآمرين وأعلمه أنه سمع بانضمامهم إلى "الناصر" في "الكرك".

حنق "بيبرس"، وكاد يقتل الرسول، وكتب إلى "الناصر" بإعادة هؤلاء الأمراء الفارين، وخَتَمَ كتابه بهذا التهديد: "إن لم تسيرهم سرت إليك وأخذتك معهم وأنفك راغم".

أما الأمراء الهاربون فقد وصلوا إلى "الكرك" ومثلوا بين يدي "الناصر" وأنشد الأمير "مغلطاي" هذه الأبيات:

أنت المليكَ وهذه أعناقنا   خضعت لعز علاك يا سلطاني

أنت المرجى ياملِيكَ فمن لنا   أسدًا سِواك ومالك البلدان

لم يسكت "الناصر" على هذا التهديد بل بعث إلى "بيبرس" بكتابِ انخدع به وظن أن "الناصر" قد خضع له وخاف منه ومن تهديده، وبعد أن قرأ الكتاب عرضه على نائبه

"سلار" فقال الأخير: ألم أقل لك إن الملك "الناصر" ما بقيت له قدرة على المعاندة وقد أصبح مُلْك "الشام" و"مصر" طوع يديك.

وهذه أجزاء من كتاب "الناصر" الذي بعث به إلى "المظفر بيبرس":

"المملوك "محمد بن قلاوون" يُقبل اليد العالية المولوية السلطانية المظفرية، أسبغ الله ظلها.. ورفع قدرها ومحلها..، ....، وصل المملوك "نوعيه" و"مغلطاي" وجماعة من "المماليك"، فلما علم المملوك بوصولهم أغلق باب القلعة ولم يمكن أحد منهم يعبر إليه، وسرت إليهم ألومهم لما فعلوه، وقد دخلوا على المملوك بأن يبعث ويشفع فيهم، وقد استجاروا بالمملوك، والمملوك يستجير بظلِ الدولةِ المظفرية والمأمول ألا يخيب سؤله ولا يكسر قلبه ولا يرده فيما قصد، ... وإن رسم مولانا مالك الرق أن يسير نائبًا له بـ"الكرك" ينزل المملوك بـ"مصر" ويلتجئ بالدولة المظفرية ويحلق رأسه ويقعد في تربة "الملك المنصور"، ... وقد قال أمير المؤمنين على بن أبي طالب: ما أقرب الراحة من التعب، والبؤس من السقم، والموت من الحياة، وقال بعضهم: إياك وما يسخط سلطانك، ويوحش إخوانك، فمن أسخط سلطانه فقد تعرض للمنية، ومن أوحش إخوانه فقد تبرأ من الحرية، والمملوك يسأل كريم العفو، والصفح الجميل، والله تعالي قال في كتابه الكريم وهو أصدق القائلين: ﴿الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: 134] ، والمملوك ينتظر الأمان والجواب.

دخلت السيدة "مسكة" باستدعاءٍ من "الناصر" ليأخذ رأيها في أمرٍ من الأمور، فهو يعرف عنها فراستها وبُعد نظرها وموهبتي الشفافية والاستشعار عن بعد اللتين تمتلكهما، وما أن رآها تدخل مهرولةً عليه حتى قال: أين أنت يا "مسك الختام"؟ أريدك في أمرٍ هام، قالت: أقلقتني يا مولاي.. فما الخطب؟ قال: لا تنزعجي واجلسي هادئةً واسمعيني جيدًا فأنا أريد مشاورتك في أمرِ خروجي إلى "دمشق"، فهل أخرج إليها دون أن يعلم أحدًا من نواب "الشام"؟ أم أرسل إليهم مكاتيب مع أحد الرسل لأعرف مواقفهم قبل إقدامي على الخروج إلى "دمشق"، فسكتت "مسكة" هُنيهة ثم قالت: لا تخرج إلى "الشام" يا مولاي قبل أن تكتب إليهم جميعًا، وقبل أن تتأكد من موافقتهم وتأييدهم لك.. وأرسل جواسيسًا لنا إلى "دمشق" يستطلعون الأمر، ويتلمسون ممن يحيطون بنائب "دمشق" "الأفرم" ما ينوي عليه، فهو كالحرباء يتلون على كل لونٍ حسب ما تتطلب منه الظروف، فلا عهد له ولا ميثاق، وأنا لا أطمئن إليه، وقد علمت من إحدى القادمات من "مصر" أن أحوال البلاد مضطربة والأهالي يتذمرون من كثرة المصائب التي تنهال عليهم، ولقد اصطلحت على "بيبرس" كما

اصطلحت على "كتبغا" من قبل، فجاء النيل مُنخفضًا، وارتفعت أسعار القمح، وتفشت الأمراض، وعز الحصول على الدواء، ويدعو الأهالي بزوال حكم "بيبرس"، هذه الظروف كلها تُمهد لمولاي الطريق إلى استرجاع عرشه من أيدي غاصبيه، فأومأ "الناصر" برأسه إعجابًا وتقديرًا برأي السيدة "مسكة" وقال: أنتِ على حقٍ يا "مسكة" في كل ما تقولين، سأعمل بمشورتك، وسأرسل إلى نواب "الشام" برسولٍ يحمل رسائلي إليهم، وعلى الله التوفيق.

يقول "زمزم" لابنته: أخذ "الناصر" يستعد ليوم الفصل، وقبل أن يخرج قاصدًا "دمشق" كتب للنواب في "صفد" و"حلب" وغيرها ليعرف مواقف أمراء "الشام" من حركته قبل أن يقدم عليها، فاستوقفته "سلسبيل" وقالت: إذن.. فقد بدأ "الناصر" يسعى لاستعادة عرشه، أجابها: أجل يا "سلسبيل"، فقد حان له الوقت، قالت: هل وافقه نواب "الشام" على خطته لاستعادة عرشه؟ أجاب: لا تتعجلي يا ابنتي ستعرفين كل شئ، واسترسل يقول: دخل رسول "الناصر" حاملاً رسالته إلى أمير "صفد" "بُكتمر الجوكندار" وسلمه الرسالة فقرأها "بُكتمر"، وما أن انتهى منها حتى قال للرسول: اذهب إلى مولاك "الناصر" وقل له: "بُكتمر" لن يضع يده بيدك، ولن ينسى إساءتك له بنقله من "مصر"، والوشاية به لدى "بيبرس" و"سلار"، وعنف "بُكتمر" الرسول، أما نائب "حلب" "شمس الدين قراسنقر"، فقد أحسن استقبال الرسول، وأكرم وفادته بعد أن قرأ الرسالة وقال له: بلغ "الناصر" أننا وافقنا على أن يقوم بحركته في سبيل استرداد عرشه، وأبلغه أن نائب "حماه" يوافق معنا على ذلك، أما نائب "دمشق" "الأفرم" فقد قرأ الرسالة وكان نصها: "السلطان "الناصر" يُسلم عليكم ويقول: ما فيكم أحد إلا وأكل خبز الشهيد والدي وخبزي، وما معكم إلا من أنعامي، وأنتم تربية الشهيد والدي، وإنني قاصدٌ الدخول إلى "دمشق" والإقامة فيها".

علَّق "الأفرم" وقال: كيف يجئ "الناصر" إلى "الشام" أو إلى غير "الشام"؟ وكأن "مصر" و"الشام" تحت إمرته، فحينما أرسل إليَّ "المظفر بيبرس" لأحلف له ما حلفت حتى بعثت أقول له: كيف يكون ذلك وابن أستاذنا باقٍ؟ فأرسل "بيبرس" يقول: أنا ما تقدمت عليه حتى خلع نفسه، وأشهدت بنزوله عن الملك القضاة والأمراء والخليفة فعند ذلك حلفت له وبعد ذلك يقول "الناصر":

"من يردني عن الشام؟"، بلِّغ "الناصر" بأنني سأكتب لـ"بيبرس" لأرجعه عن طلب الخيل و"المماليك"، وبأن يكُف عن مضايقة "الناصر"، وأن يرضى "الناصر" بما هو فيه من ولاية "الكرك".

في قلعة الجبل

نعود إلى "قلعة الجبل" فيقول "زمزم" لابنته: رغم هذه الأحداث واضطراب أحوال البلاد بدأ "المظفر بيبرس" يستعد بالإنعام على تأمير سبعة وعشرين مملوكًا، وأُعدت العدة للاحتفال بهذه المناسبة، وذهب "المماليك" إلى "المدرسة المنصورية" ليلبسوا خُلع الإمارة كما جرت العادة، واجتمعت العامة لمشاهدة الاحتفال، ولكن فوجئ الجميع بصدور الأوامر بتأجيل الاحتفال، فانفض العامة وهُم يرددون: "يافرحة ما تمت"، فقالت "سلسبيل": وهل أقدم "الناصر" على الدخول إلى "دمشق" بعدما وصلته رسالة "الأفرم"؟ قال "زمزم": أجل .. لقد تحرك "الناصر" نحو "دمشق"، وما أن علم "الأفرم" بذلك حتى دَبَّ الرُعب في نفسه، فأرسل إلى "بيبرس" يشرح له الموقف، ويطلب أن يبعث إليه بجيشٍ يشترك مع عسكر "دمشق" في إيقاف "الناصر" عند حده، ونادى "الأفرم" على الأمراء والقضاة واجتمع بهم، ثم أخذ يهتف قائلاً: يامعشر أهل "الشام" مالكم سلطان إلا الملك "المظفر بيبرس" فصرخ الناس وقالوا: لا..لا..ما لنا إلا "الملك الناصر"...فاندهش "الأفرم"، وشعر أن الأمر قد خرج من يده، فاقترب منه أحد الأمراء وأشار عليه أن يكتب لـ"الناصر" ويعتذر إليه عمَّا بدر منه، وما أن قدم "الناصر" إلى "دمشق" وسط مماليكه وحشدٌ كبير من الناس، نزل عن فرسه وتقدم إلى "الأفرم"، فما أن رآه "الأفرم" حتى ارتجف من الخوف، وبدا ذلك أمام الجميع، فقبل الأرض بين يديه، وكان يحمل كفنه تحت إبطه، وقال لـ"الناصر": ها هو كفني أُقدمه إليك، فافعل بي ماشئت، فتصايح العامة وأخذتهم الشفقه عليه وصاحوا: "يا مولانا السلطان.. بتربة والدك الشهيد لاتؤذه واعف عنه"، وبكى الحاضرون وبكى "الأفرم" ونظر "الناصر" إلى القوم وقال: عفوت عنه لندائكم الكريم، وسأبقيه على نيابة "دمشق" كما كان عليها، فهم "الأفرم" بتقبيل يديه، وضج الناس بالدعاء لـ"الناصر"، وبهذا استولى "الناصر" على "دمشق" بغير قتال.

نترك "الناصر" في "دمشق"، ونعود إلى "مصر" وقد ازدادت كراهية الناس للسلطان الذي اقترن اسمه بنكبات البلاد.

قرر "بيبرس" إبطال الخمور مما زاد الطين بلة، فندب أحد الأمراء لتنفيذ ذلك على ألاَّ يُراعي في التنفيذ أحدًا، وأن يستوي لديه الأمير والحقير، وبألا يدع أي بيتٍ سواء كان لأعلى الناس أو أدناهم دون أن يكبسه متى علم أن فيه خمرًا فيريق تلك الخمور ويكسر

أوانيها مما جعل الناس ينتهزون هذه الفرصة ويكيدون لبعضهم البعض عن طريق الإرشاد عن وجود خمر في البيوت كذبًا، وانتهز الجنود والعامة فرصة تفتيش المنازل بحثًا عن الخمر فنهبوا وسلبوا وحصلوا من ذلك على ما أغناهم، فانتشرت الفوضى في أنحاء البلاد، ومشت الناس تتذمر من كثرة مُداهمة العسكر لبيوتهم دون أدنى اعتبار لحرمات البيوت، فكره الناس "بيبرس"، وأخذوا يدعون بزوال حكمه، حتى الأمراء ماعادت تهابه، وأخذ بعض مماليكه يوسوسون له بأن "سلار" سيقوم بمحاولة انقلاب عليه بالتواطؤ مع "الناصر"، إضافةً إلى وصول أخبارٍ إليه بدخول "الناصر" "دمشق" مما زاد اضطرابه، فصار لا يهنأ له نوم، ولا يطيب له عيش، لكنه ركب رأسه وأصدر أوامره بتجهيز الجيش للسفر إلى "بلاد الشام" للتصدي لـ"الناصر"، واعتذر عن الخروج مع الجيش مُدَّعيًا أنه يكره الفتنة وسفك الدماء، بينما خرج المُنادون في أرجاء "مصر" ينادون: "سلطانكم هو "الملك المظفر"، وطيبوا قلوبكم ومن تكلم فيما لايعنيه قُتل".

ازداد تذمر الناس في الشوارع، وازدادت الحالة سوءًا، وقبضت الحكومة على جماعةٍ من الناس اتُّهموا بِسَب السلطان وحُكم عليهم بالجلد أمام العامة والتشهير بهم حتى يكونوا عبرة، فزاد ذلك الناس كرهًا للسلطان "بيبرس" وحكومته، وتهجم العامة بالسب على مقامه، فلجأ "بيبرس" إلى الخليفة العباسي "أبي الربيع سليمان ابن أحمد العباسي" ليُعاونه في محنته، ويُثبت له قواعد عرشه الذي بدأ يهتز تحت قدميه، وطمأن الخليفة "بيبرس" ووعده بتجديد البيعةِ له أمام الأمراء والأعيان والقضاة والفقهاء، كما أكد له الخليفة أن الجميع مازالوا على طاعته يلتفون حول عرشه، فأصدر تقليدًا جديدًا كتبه القاضي "ابن عبد الظاهر" بعهدٍ جديدٍ لـ"بيبرس"، وصدرت الأوامر إلى خطباء المساجد بأن يقرأوا هذا التقليد يوم الجمعة في المساجد وقد استقبله العامه بفتورٍ شديد، وهذا نصه..
"إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبد الله وخليفه رسول الله ﷺ على المسلمين "أبي الربيع سليمان ابن أحمد العباسي" لأمراء المسلمين وجيوشهم:بسم الله الرحمن الرحيم يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ. آية 59 النساء، وأني رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك "المظفر ركن الدين بيبرس" نائبًا عني لمُلك "الديار المصرية" و"البلاد الشامية"، وأقمته مقام نفسي لدينه وكفايته وأهليته ورضيت للمؤمنين، وعزلت من كان قبله بعد علمي بنزوله عن المُلك، ورأيت ذلك مُتعينًا عليَّ، وكلمت بذلك الحُكام الأربعة، واعلموا رحمكم الله إن المُلك عقيم، وليس بالوراثة لأحد خلفٍ عن سلفٍ وكابرٍ عن كابر، وقد استخرت الله تعالى ووليت عليكم الملك "المظفر

بيبرس"، فمن أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصا "أبا القاسم" ابن عمي ﷺ، وقد بلغني أن الملك "الناصر" ابن الملك "المنصور قلاوون" شق العصا على المسلمين، وفرق كلمتهم، وشتت شملهم، وأطمع عدوهم فيهم، وعرض "البلاد الشامية" و"المصرية" إلى سبي الحريم، والأولاد، وسفك الدماء، وتلك دماء قد صانها الله، وأنا خارجٌ إليه ومحاربه إن استمر على ذلك، ولأدفع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولادهم هذا الأمر العظيم وأقاتله حتى يفئ إلى أمر الله تعالى، وقد أوجبت عليكم يا معشر المسلمين كافة الخروج تحت لوائي اللواء الشريف، فقد اجتمعت الحكام الأربعة على وجوب دفعه وقتاله إن استمر على ذلك، وأنا مصطحبٌ معي لذلك السلطان "المظفر" فجهزوا أرواحكم والسلام".

عندما ذُكر اسم "المظفر بيبرس" في الخطبة تعالت الصيحات: "لا.. ما نريده لا.. ما نريده"، وما أن سمعوا ذكر اسم "الناصر" حتى هتفوا من أعماق قلوبهم قائلين: "نصره الله.. نصره الله"، وبعد هذه الحادثة أعلن المُنادي بطلب وقف خطبة الجمعة بسبب ما أظهره العامة من صياحٍ وعدم إنصات، وبناءً على ماتقدم استدعى "بيبرس" نائبه "سلار" ليشاوره فيما ينبغي عمله إزاء ما تُعانيه البلاد من فوضى، فاقترح "سلار" عليه: بأن يتنازل عنَ عرش البلاد ثم قال له: "تبعث لـ"الناصر" كتابًا ترجوه الصفح وتلتمس منه تعيينك في مكانٍ تتوجه إليه أنت وعيالك، وليس من المُستبعد أن يستجيب "الناصر" لهذا الرجاء، فقال "بيبرس": على أي أساسٍ كونت هذا الرأي؟ أجاب "سلار": على ما رأيته من انصراف بعض أمراء "المماليك" إلى "الناصر" وانضمامهم إليه، ومن عزم "الناصر" على استرداد عرشه، ومن هتافات الأهالي في الجوامع باسمه، فأمَّن الحاضرون على ما قاله "سلار"، وفكر "بيبرس" قليلاً ثم انضم إليهم في الرأي بعد أن قال له "سلار": أخشى عليك إن لم تُنفذ ما قلته وما اقترحته عليك أن يفوت الوقت وتقع الكارثة، فقام "بيبرس" لساعته وكتب إلى "الناصر" خطابًا يتضمن ما أشار به "سلار"، وقد ختمه بهذه العبارة: "فإن حبستني عَددت ذلك خُلوة، وإن نفيتني عَددت ذلك سياحة، وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة"، وعلى أثر ذلك أعلن "بيبرس" خَلع نفسه من السلطنة، وأصدر "سلار" أمرًا بإسقاط اسمه من خطبة الجمعة وإعادة اسم "الناصر".

أخذ "بيبرس" يستعد للرحيل، فَنَهَبَ ما نهب من خزائن الدولة من ذهبٍ، ومالٍ، وما استطاع حمله، وخرج مع مماليكه من القلعة، وسرعان ما أُذيع خبر نزوله عن العرش وخروجه من القلعة فأسرع العامة إلى القلعة واجتمعوا له متربصين خروجه، وما كاد

يبرز لهم حتى صاحوا عليه بأفظع أنواع السباب، وأخذوا يـرددون الهتافـات العدائيـة، ويلقون عليه الحجارة، فشق ذلك على مماليك "بيبرس"، وهموا بوضع السيوف في رقابهم، لكن "بيبرس" منعهم، وأمر بأن ينثروا عليهم المال حتى ينشغلوا بجمعه عنه ، فأخرج كـل واحدٍ من "المماليك" حفنة من الذهب ونثرها، فلم يلتفت العامة لـذلك، وتركـوا الـذهب، وواصلوا جريهم وراء "بيبرس"، واضطر "المماليك" إلى تجريد سيوفهم، والهجوم علـيهم، فهربوا، وسافر "بيبرس" ومماليكه إلى الصعيد، وقال أحد الشعراء تعبيرًا عن كره الشعب لـ"بيبرس" وتعلقهم بـ"الناصر":

ولـى المظفـرُ لما فاتـه الظفـر	وناصـر الحـقِ وافـى وهـو منتصـرُ
وقد طوى اللهُ من بـين الـورى فِتنًا	كانت علـى عُصبـةِ الإسـلامِ تنتشـرُ
فقُـل لبيبـرس: إن الدهـرَ ألبسـه	أثـوابَ عاريـةٍ فـي طولهـا قِصـرُ
لما تولـى تولـى الخيـرُ مـن أمَـمٍ	لم يَحمـدوا أمـره فيهـا ولا شـكروا
وكيـف تمشي بـه الأحـوالُ في زمـنٍ	لا النيـلُ أوفى ولا وافاهـمُ مطـرُ؟

ويقول "زمزم": انتهى عهد "بيبرس"، وهتف الناس في أرجاء "القاهرة" مؤيدين الملـك "الناصر".

نعود إلى "دمشق" و"الناصر" حيث تلقاه الأمراء الذين وقفوا بجانبـه ضـد "بيبـرس" بالترحاب، وخرج العامة مهللين مكبرين قائلين: ينصر الله الملك "الناصر"، ورَدَّدَ الخطباءُ في المساجد اسمه على المنابر بعد أن أسقطوا اسم "بيبرس"، ولبست "دمشق" أبهى حللهـا، وتزينت للسلطان الجديد بأجمل زينة، وهرع الناس على اختلاف طبقاتهم إلـى السـلطان مُهنئين مُقدِّمين له الهدايا المختلفة، وبعد ذلك سار "الناصر" ومن معه إلى عاصمة مُلكـه، وعندما وصل إلى مدينة "غزة" استقبله الناس أحسن استقبال، وواصل سيره حتى وصـل إلى "القاهرة"، فتلقاه الشعب بالبشر، كما رأيت يومها يا"سلسبيل" أتذكرين هتـاف المنـادي وهو يُنادي باعتلاء "الناصر" عرش البلاد؟ من أجل ذلك قلت لكِ: "لابد أن يرجـع الحـق لأصحابه مهما طال الزمن"، وقد رجع.

بعدها بدأت الاحتفالات في "قلعة الجبل" بتلاوة القرآن كما هي العادة، وبترتيل الآيـة الكريمة: [قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. [آل عمران: 26]

ثم تبارى الشعراء في إنشاد قصائدهم مُعبرين عن فرحتهم بعودة سلطانهم الحبيب، وبدأ أحد الشعراء في إنشاد قصيدته:

وحين آل إليك الملك وامتثلت ... منه المراسيم في ودٍ وفي صدرِ
أعرضت عنه لأسباب علمت بها ... وخبر شهرتها يغني عن الخبرِ
وعدت ثانية يقظان محترسًا ... وبت من كيد من تخشى على حذرِ
وهذه العودة الغراءِ ثالثة ... يقضي لك الحق في أيامك الأخرِ
فارقت ملكك مختارًا لفرقته ... بنية العود تسليمًا إلى القدرِ
وبعدما سرت عن مصر وساكنها ... وغبت عنها وعنهم غيبة القمرِ
لاموك في كل ما دبرت من حيلٍ ... أليفة وصفوها منك بالضجرِ
فالشمس أحسن ما تجلى إذا بزغت ... من بعد غيبتها ليلاً عن النظرِ

وكان في الحفل الشاعر "ابن المُرحّل"، وقد أقبل على السلطان وقبل يده، فالتفت إليه السلطان وسأله.. "ألم تقل في قصيدة لك":

ما للصبي وما للمُلك يكفله ... شأن الصبي بغير المُلك مألوف

فارتبك الشاعر وقال: إنما هُم الأعداء الذين أرادوا إتلاف شعري فزادوا هذا البيت، فقال السلطان ساخرًا: ألم تمتدح "بيبرس" الذي اغتصب مُلكي وأنشدت فيه قصيدة منها هذا البيت الذي ذكرته الآن؟ رد "ابن المرحل" بخجلٍ: نعم يامولاي، وأخذ يقدم اعتذاراته، فأمره "الناصر" بالانصراف، وبعده تقدم "ابن عدلان" بالدخول على السلطان ليهنئه، فلم يأذن له السلطان بالدخول، وأرسل إليه من يذكره بأنه قد سبق وأن قال: "إن السلطان "الناصر" "خارجي" وإن قتاله جائز، فهل يصح له بعد ذلك أن يمثل بين يدي السلطان؟! ثم جاء بعد ذلك دور الخليفة "أبو الربيع سليمان" ليهنئه، فالتفت السلطان وسأله: كيف تحضر وتسلم على "خارجي"؟ هل كنت أنا "خارجياً" و"بيبرس" من سلالة "بني العباس"؟ فلم ينطق الخليفة ببنت شفة، وظل شاخصًا إلى الأرض ببصره، ولم يلتفت إليه السلطان، وأعرض عنه كل الإعراض ثم عاد يقول: ألم تقل هذا في حقي؟ ألم تعلم أنني أعرف كل شئ عنك؟ فلا شئ يخفى في هذه البلاد عن "الناصر"، اذهب الآن لا سامحك الله.

انصرف الخليفة وهو يرتعد، ثم تقدم بعد ذلك القاضي "ابن عبد الظاهر" للسلطان مُتبسمًا، وما أن رآه السلطان حتى قال: "تقدم يا أسود الوجه"، فقال "ابن عبد الظاهر": ياخوند.. "أبلق خيرٌ من أسود"، فقال "الناصر": "ويلك ألا تترك رنكه أيضًا؟ ألم تكتب التقليد الثاني لـ"بيبرس" وأنت تعلم أنه مُغتصبٌ ملكي؟"، وانصرف عنه السلطان ثم نظر مُستعجبًا وقال: مَنْ.. "عز الدين بن عبد العزيز بن جماعة" هنا معنا! .. لقد اجتمع الأحبة، فتقدم "ابن جماعة" ليُهنئ السلطان، فاستوقفه السلطان قائلاً: "ألم تكن يا قاضي تُفتي المسلمين بقتالي؟ فرد "ابن جماعة": معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك، إنما الفتوى على مقتضى كلام المستفتي.

انتهت الاحتفالات، وهدأت أحوال البلاد، ولم تدم فرحة "الناصر" كثيرًا، فإذا بهرجٍ ومرجٍ في جناح "أردكين" زوجة "الناصر"، وقد مرض "علي" ولدها الوحيد، وصرخت "أردكين" تستغيث بـ"بردام"، فقد عاودته الحُمى من جديد بعد أن استقرت ليلة أمس، وانخفضت وظلت تقول: ماذا أفعل؟ اذهبي فورًا إلى مولاكِ "الناصر" حتى يقوم باستدعاء الطبيب له، وانكبت "أردكين" على ولدها تبكي وتقول: رُدَّ يا ولدي على أُمك، بينما انطلقت "بردام" تستدعي "الناصر" من جناحه، وما أن أخبرته حتى جاء من فوره بعد أن أمر باستدعاء الطبيب.

دخل "الناصر" على "أردكين" وكانت السيدة "مسكة" قد حضرت هي الأخرى، فأخذت تقرأ له بعض الآيات القرآنية، وتدعو له بالشفاء، ونظر "الناصر" إلى "أردكين" وقال لها: كُفِّي عن البكاء، وادعي له بالشفاء، سيحضر الطبيب الآن، ثم التفت إلى "بردام"، وأمرها بإحضار وعاء ماءٍ، وبإحضار قطعة نسيج ليِّنة، فأسرعت "بردام" تُلبي طلبه، وأتت على عجلٍ، فقال للسيدة "مسكة": اغمسي قطعة النسيج في الماء واعصريها جيدًا وضعيها على جبينه واستمري في تكرار العملية حتى تزول عنه الحمى، ونَفَّذَت "مسكة" ما أُمرت به، ثم التفت إلى "أردكين" وقال لها: قومي توضئي، وصلي ركعتين لله ، وادعي ربك أن يشفيه.

بعد قليل دخل الطبيب، وألقى السلام على الحاضرين، فرد السلطان عليه التحية وقال: تفضل يا "أبا يوسف"، فدخل الرجل، وقام بفحص "عليا"، لكنه نَكَّسَ رأسه وقال: لقد تأخرتم عليه، وتأخرتم كثيرًا، منذ متى وهو مصابٌ بهذه الحمى؟ ردت "أردكين": منذ أمس الأول، وقد انخفضت الحمى ليلة أمس، ثم عاودته في الصباح مبكرًا من جديد، قال "الناصر" للطبيب: ماذا به، أخبرني يا "أبا يوسف"، وانتحى الطبيب جانبًا وقال

لـ"الناصر": إنها حُمى أصابت الأمير الصغير نتيجةَ إصابته بمرضٍ في أمعائه، ولو كانت مولاتي فطنت لذلك وداومت على إعطائه سوائل كثيرة من الليمون المُحلى لطهرت أمعائه، وذهبت عنه الحمى، ولكن الأمل ضعيفٌ في شفائه الآن، فلقد أثرت الحمى على مراكزِ كثيرةٍ في رأسه، وليس أمامنا غير التضرع إلى الله بالدعاء ليكتب له الشفاء، وخرج الطبيب مُستأذنًا يتأسف على ما أصاب الصغير، ورفع السلطان يديه مُتضرعًا بالدعاء إلى الله ليشفي ولده "عليًا"، ثم قال للسيدة "مسكة": استدعي الشيخ "المرجاني" ليعمل "وقتًا" له يقرأ القرآن ويطلب "عليًا" من الله، اذهبي يا "مسكة" إلى المشايخ كلهم يتوسلوا إلى الله أن يهبهم "عليًا" ليتعافى، ولكن مات "عليًا" بعد أسبوعين، بعد أن أقام له الشيوخ أوقاتًا، لكن إرادة الله فوق كل إرادة.

حزنت عليه "أردكين" حُزنًا عميقًا، وحزنت على مصيرها بعده، وتوقعت ما كانت تخشاه وهو انصراف "الناصر" عنها بعد أن انقطعت الصلة التي كانت تربط بينهما، وهجرها "الناصر" وأنزلها من "قلعة الجبل"، وانصرفت "أردكين" للبكاء على حظها"، وأوقفت على قبر ولدها في "القُبة الناصرية" ما خصها من ميراث زوجها الأول "السلطان خليل"، فرتبت عنده القراء لا ينقطعون عن قراءة القرآن.

سلسبيل والنبع

نعود ثانية لـ"زمزم" وابنته تقول: لقد شوقتني يا أبي .. كما بعثت في نفسي الرغبة لرؤية ما يجري داخل قصور "قلعة الجبل"، فقاطعها قائلاً: لا أحد يستطيع أن يدخل "قلعة الجبل" إلا بتصريح، فقالت: لكنك تدخلها بسهولة ويسر، فخذني معك أستحلفك بالله، قال العجوز: إنكِ تطلبين المُستحيل، ردت عليه: كيف لا أستطيع وتدخلها أنت كل يوم مع أعدادٍ من صبيانك ورجالك لإمداد القصور برواتبهم اليومية من أجل مياه الشرب؟ اعتبرني واحدًا منهم وخذني معك، وسأتخفى في ملابس رجلٍ من أتباعك، فقال الأب: لكنهم يعرفون كل رجالي وصبياني شكلاً واسمًا ويقومون بتفتيشنا كل مرة، فقالت متوسلة: أزعم لهم أنني غلامٌ جديد التحقت بالخدمة معك، فقال الرجل: وماذا لو اكتُشف أمرنا؟ أجابت: لن يُكتشف أمرنا بإذن الله، قال "زمزم": أنا لا أفعل ذلك أبدًا، ولا أستجيب لرغبتك الحمقاء، ولا أعرض نفسي للمهانة، وربما للسجن أيضًا، وأقضي ما بقي لي من العمر سجينًا لمجرد تحقيق نزوة لكِ، أترضين هذا لأبيك وأنا في هذا العمر المتأخر؟ وربما يأخذونكِ وتصبحين جاريةً رغم أنفك لدى أحد الأمراء، فسكتت "سلسبيل"، وأدركت خطورة الموقف، لكنها عادت تقول: هل هناك حلاً آخر يُمكنني من دخول "قلعة الجبل"؟ أجاب الرجل: اتركي لي هذا الأمر، فربما أجد لكِ طريقة أدخلكِ بها القلعة .. ولكن بتصريح.

في هذه الأثناء دخل عليهما "صلاح الدين" ابن عمها، فقد مات أبواه في زمن "كتبغا" وهو صغير، وتركاه يتيمًا، فتولى أمر رعايته وتربيته عمه "زمزم"، فكان يُعامله معاملة الأب لابنه، وعلمه، فدرس الفقه، وكان "صلاح الدين" يُساعد عمه إلى جانب دراسته.

كان "صلاح الدين" من المُترددين على "قلعة الجبل" وقصورها، وما أن رأته "سلسبيل" حتى قالت له: كيف حالك يا "صلاح الدين"؟ ولم تنتظر رده فعاجلته بسؤال: ما رأيك أن أقوم بزيارة "قلعة الجبل"، وأدخل قصورها قصرًا قصرًا؟ ضحك "صلاح الدين" ساخرًا وقال: أتمزحين .. كيف يكون هذا؟! أتنوين أن تنقلبي قطةً أو طائرًا فتتمكني من دخولها، ولكن لماذا تتمنين ذلك؟ أجابت: لأرى كيف يعيش "المماليك"، وكيف يتمتعون بحياتهم الرغدة؟ لقد حدثني أبي عنهم كثيرًا، والسماع غير الرؤية، فقاطعها والدها ونهرها

قائلاً: أما قلت سوف أجد طريقة تسمح لكِ بدخول "قلعة الجبل"، اسكتي وانهضي لتعدي لنا العَشاء مع أمك .. هيا انهضي.

قامت "سلسبيل"، وجلس "صلاح الدين" مع عمه وقال له: ماذا دَهى "سلسبيل" يا عماه؟ فلم يُجاوبه "زمزم"، وأخذ يُتمتم ببعض التسابيح والأدعية حتى جاء الطَعام.

بعد الانتهاء من الطعام قام "زمزم" ليُصلي العشاء، وما كاد يفرغ من الصلاة حتى نادى على ابنته ليُطيب خاطرها بعد أن أحرجها أمام "صلاح الدين"، فجاءته مهرولة، فقال لها: سأُحدث السيدة "مسكة" عن رغبتك في زيارة القلعة، فهي كما ذكرت لكِ ذات شأنٌ عظيمٌ، وكلمتها مسموعة للجميع، لكن لابد وأن أجد لها المُبرر لذلك، فقالت "سلسبيل": قل لها... قل لها.. أن ابنتي تود أن تراكِ، وقد سمعت عنك الكثير من أفعال الخير، وحب مساعدة الناس، و... و... وليس لها أمنية غير أن ترى تلك السيدة العظيمة التي يحبها الناس ويمتدحونها في كل مكان، ويكثرون لها الدعاء، فقال لها: سأفعل إن شاء الله، قومي الآن لمساعدة أمك في غسل الأواني.

انتهز "زمزم" الفرصة عندما رأى السيدة "مسكة" في أحد دهاليز القصر وهو حاملاً قربته ليفرغها في مكانها المخصص ويتبعه أحد الجند، وما أن رآها حتى تَسَمَّر في مكانه ونظر إليها مُتبسمًا، فلمحته السيدة "مسكة" وأدركت بذكائها أنه يريد أن يقول لها شيئًا ما أو ربما يطلب منها خدمة تُسديها إليه، فوقفت وأمرتْ من معها من الجواري بالانصراف، كما أمرت الحارس بالابتعاد عنهما وقالت للرجل: كيف حالك يا "زمزم"؟ فقال: حمدًا لله، قالت: رأيتك تنظر لي فأدركت أنك تريد أن تحدثني فهل صدق ظني؟ رد: نعم يا سيدتي.. أريد أن أحدثك بشأن ابنتي، قالت باندهاش: ابنتك!.. وما شأني بابنتك، قال: لا شيئ.. ولكنها تمنت أن تراكِ لما سمعته عنكِ من حب الناس، فقالت: وما اسم ابنتك؟ أجابها: "سلسبيل" يا سيدتي، قالت: تريد أن تراني!! فرد "زمزم" قائلاً: أجل يا سيدتي مجرد أن ترى تلك السيدة العظيمة التي يتندر بها الناس لحسن سيرتها ولطيبة قلبها، قالت باستحياء: لا تُبالغ يا "زمزم"، فأنا لا أفعل غير الواجب وما يمليه عليَّ ضميري، سأستخرج تصريحًا لها لأمكنها من دخول القلعة لزيارتي، فابتسم العجوز وشكر السيدة "مسكة"، ودعا لها ومشى مُغتبطًا بما انتهى إليه ومن قبول السيدة "مسكة" لرؤية ابنته واستخراج تصريحًا لها.

عاد "زمزم" مسرورًا إلى بيته ليبلغ ابنته بما وصل إليه، وفرحتٍ "سلسبيل"، وأخذت تعد نفسها لذلك اليوم، واستخرجت السيدة "مسكة" التصريح الذي يُمَكِّن ابنة "زمزم" السقا من دخول "قلعة الجبل" في زيارة شخصية لها بعد أن استأذنت "الناصر" في ذلك.

انتظرت "مسكة" حضور "زمزم" كعادته إلى القلعة، وما أن رأتــه حتـــى اســتوقفته، وأعطته التصريح، وعاد "زمزم" فرحًا يُخبر ابنته وزوجته و"صلاح الدين" بمـــا حصـــل عليه، ولم تُصَدِّق "سلسبيل" نفسها، فأمسكت التصريح وناولته لـــ"صـــلاح الـــدين" وهـــي تقول: انظر يا "صلاح" إنه التصريح الذي يُمكنني من دخول "قلعة الجبل" مثلك أنت وأبي.

كان "صلاح الدين" وأمها لا يؤيدان فكرة "زمزم"، فســكت "صـــلاح الـــدين" علـــى مضض، وكذلك أمها بعد أن قالت: ما لنا و"قلعة الجبل" ومن فيها، لقد تركت لابنتك عنان الخيال بما تقصه عليها كل ليلة، فأنا لا ألومها بل ألومك أنت، ســكت "زمـــزم" ونهـــض يستقبل القبلة ليُصلي.

أخذت "سلسبيل" تعد أجمل ما عندها من ثياب لهذه الزيارة، وذهبت مع أبيها في اليوم المُحدد، واستقبلتها السيدة "مسكة" بالبشر والترحاب، واستأنست "مسكة" بحديث "سلســـبيل" وارتاحت لرؤيتها، فكانت "سلسبيل" طويلة القامة، بيضاء البشرة، واسعة العينين، متناســقة الملامح، ترتدي على رأسها عصابة تدلت منها خيوط الحرير من أطرافها، وترتدي فـــي عنقها قلادة من عنبر.

أكرمت السيدة "مسكة" وفادة "سلسبيل"، وأمضت معظم اليـــوم بصـــحبتها، وشـــعرت "مسكة" بجمال وكمال أخلاق تلك الفتاة، فأُعجبت بها، وشعرت "سلسبيل" وكأنهـــا تعرفهـــا وتألفها منذ أعوام، شكرتها الفتاة على تلطفها معها، ولكن لاحظت "مسكة" تلفت الفتاة فـــي أرجاء المكان فقالت لها: أيُعجبك المكان؟ أجابت "سلسبيل": نعم .. إنه رائع، قالت "مسكة": لعل في المستقبل القريب يا بنتي تنعمين ويكون لكِ قصرٌ مثل هذا القصر تعيشـــين فيـــه آمرة ناهية، لأنه ينبغي لمن مثلك من الفتيات أن يكون لها أحسن نصيب من كبار الدولة، فأطرقت "سلسبيل" حيناً وهي غارقة في التفكير، وأخذت تُناجي نفسها.. أين أنت الآن يـــا "صلاح الدين"، وفيما هي كذلك سمعت حركة وضوضاء بالخارج، فتوقعت الفتاة أن ترى أحدًا، فاعتدلت في جلستها، وسحبت خمارها لتلتف به، وأمسكت به، ثم ســـمعت نعـــالهم تقترب من المكان، فانتفضت "مسكة" من مكانها، فأدركت الفتاة أن القادم شـــخصٌ عظـــيمٌ تعرفه السيدة "مسكة" من وقع قدميه.

دخل أحدهما المكان، وما أن رأته "مسكة" حتى هرولت إليه قائلة: مـــولاي!! أهـــلاً ومرحبًا بمولاي السلطان، فقامت الفتاة هي الأخرى ووقفت تأدبًا وهـــي مازالـــت تمســـك بخمارها، ولم تنطق بكلمة واحدة، فقال السلطان للسيدة "مسكة": من معـــكِ يـــا "مســـكة"، أجابت: إنها ضيفتي التي استأذنت مولاي باستخراج تصريحًا لها لزيارتي، قال الســـلطان:

ابنة "زمزم"، ما شاء الله، كيف حالك يا ابنتي؟ قالت الفتاة وهي شاخصةٌ بنظرها للأرض: أحمد الله يا مولاي.

تأمل السلطان ملامح الفتاة وما يبدو على وجهها من اضطراب، واستدناها وهش لها تلطفًا وقال: ما اسمك يا فتاة؟ أجابت: "سلسبيل" يا مولاي، وصعد الدم إلى وجنتيها، وهنا أدركت "مسكة" أن مجئ السلطان لم يكن عرضًا ولكنه عمدًا ليرى الفتاة التي حدثته عنها والتي أمر باستخراج تصريحٍ لها.

خرج السلطان "الناصر"، وهرولت "مسكة" مسرعة وراءه، فقال لها: جميلةٌ هذه الفتاة يا "مسكة"، ألا ترين ذلك؟ ولا أعتقد أنها ابنة "زمزم"، فإنها تبدو كأميرة، سكتت "مسكة"، ولم تنطق، فعاد يقول: يبدو أنها صغيرة السن، قالت "مسكة": لها من العمر أربعة عشر عامًا يا مولاي، فقال: أبلغي أباها برغبتي في اتخاذها ابنة لي على أن تهتمي أنت بها، قالت "مسكة": أجل.. سأبلغه رغبة مولاي.

عادت "مسكة" إلى الفتاة وقالت: لقد أُعجب مولاي "الناصر" بكِ، فظهرت الدهشة على "سلسبيل"، وأطرقت حياءً، فابتدرتها "مسكة" قائلة: أعني ابنة له، فقالت "سلسبيل" وعيناها تلمعان: أشكر مولاي هذا الإحسان، فعادت "مسكة" تذكر لها: أما قلت لي أنكِ يتيمة الأم، أجابت الفتاة: نعم.. ولكني أحب زوجة أبي لما أولته لي من رعاية، فعادت "مسكة" تقول: ولكنني أنا أيضًا معجبةٌ بك، وأود أن اتخذك ابنة لي، فازدادت "سلسبيل" خجلاً من هذا التصريح، وقالت: أشكرك يا سيدتي، وأُدْرِك مقدار فضلك فيما تعرضين علي، قالت "مسكة": إن مولاي "الناصر" يريد أن يتخذك ابنة له، ولا يعني هذا أن تصيري ابنة له دون أبيكِ .. لا يا ابنتي، فلقد رأى فيكِ مهابةً وجمالاً وحسن أخلاق، ويريد أن تكوني في قصره كإحدى بناته، وأوصاني بكِ خيرًا، وبأن أحسن معاملتك، وأرجو أن أكون عند حسن ظنك بي، فقالت "سلسبيل": هذا شرفٌ لا أستحقه، وبان الخجل في محياها، وسكتت، فعادت "مسكة" تقول: سأحدث أباكِ في هذا الأمر بعد أن ألقى منك القبول أولاً، فقالت "سلسبيل": هذه حظوةٌ شرفت بها وهذا يتمناه الكثيرون، فقاطعتها "مسكة": يا "سلسبيل" يبدو من كلامك أنك طيبة السريرة، ولكن من كان مثلك لا يعيش إلا في القصور، فاسمحي لي برجاء أتقدم به إليكِ..أن توافقيني على أن تبقي معنا، وأن تقبلي مودتي ومودة السلطان حتى لا يُكره أباكِ على ما يريد، فاجعلي الأمور تسير هادئة لينة، ولا ترفضي طلب السلطان فيغضب عليكِ وعلى أبيكِ، وإنني يا ابنتي أدعوكِ إلى السعادة والهناء، فرفعت "سلسبيل" عينيها وقالت: كثيرات من أمثالي يتمنين الحصول على هذه

الدعوة وهذه السعادة، ولكنى أخشى أن تحرمونى من رؤية أمي وأبـــي وأهلـــي، فقالـــت "مسكة": لا يا ابنتي .. لن نحرمك زيارة أهلك أبدًا، اطمئني لذلك، وإذا لم تعجبـــك هـــذه الحياة فإني أعفيك منها.

وافقت "سلسبيل" مبدئيًا حتى تحدث "مسكة" أباها في هذا الأمر، وعادت "سلسبيل" مع أبيها إلى البيت وهي شاردة الذهن بما سمعته وماشاهدته، وقص أبوها على أمهـــا وابـــن عمها "صلاح الدين" ما قالته "مسكة" له بشأن "سلسبيل"، فصرخت الأم وقالت وهي تلطـــم خدها وتضرب على صدرها: تريد يا "زمزم" أن تبيعها لهم؟ والله لا يكون ذلك أبدًا، وقال "صلاح الدين": كيف يا عمي تقبل ذلك؟ صحيحٌ أننا فقراء، لكننا شرفاء، والشريف لا يبيع نفسه أبدًا، فنهره "زمزم" وقال: إنها ستعيش موفورة الكرامة، وسيتخذها السلطان ابنة له لا جارية ياغبي، فقال "صلاح الدين": ولكنها ستستطيب هذه الحياة، ولن تصـــلح أن تعـــيش بيننا فيما بعد، فقال "زمزم": لا .. أنا أعرف ابنتي جيدًا، ألديكما رأيٌ آخر؟ أم تريدان مني أن أذهب إلى الملك "الناصر" وأقول له: لقد رفضت طلبك بإنعامك علينا باتخاذ ابنتي ابنـــة لك! أنا لا أملك أن أرفض طلبًا كهذا، طلبًا يتمناه علية القوم، فما بالكما وأنا "زمزم" السقاء، من أكون أنا لأرفض طلب السلطان؟! لقد وعدت السيدة "مسكة" بإحضار "سلســـبيل" إلـــى القلعة الأسبوع القادم، وحسمت الأمر معها.

نظرت "سلسبيل" إلى ابن عمها، ودنت منه وقالت: مالي أراك حزينًـــا يـــا "صـــلاح الدين"، لا تخف علي، إنك تعلم أنني أحبك، فلن يُغيِّر ذهابي إلى القلعة من حُبي لك شـــيئًا، فلا تخف، فقال: كانت تطاردني الأحلام كل ليلة بشئ كهذا، ولكنني لم أشك لحظة واحـــدة أن هذه الأحلام ستتحقق يومًا ما، فقالت: أحقًا كُنت تحلم بهذا؟ ولما لم تذكر لي شيئًا عنها؟ فقال: حتى لا تشطحي بخيالك بعيدًا، وتتمني أن يتحقق حُلمي، فقالت: لكنه تحقق بالفعـــل دون أن تحدثني عنه، يالها من مصادفة غريبة، فأنا أيضًا كنت أحلم بأنني أعيش في "قلعة الجبل" من كثرة ما كان يَقُصه علي أبي، ولم أخبرك أنا الأخرى حتى لا تغضب، وكأنـــه كان مُقدَّرًا لي، يا للعجب ويالسخرية القدر، إن الله سبحانه وتعالى يسيرنا كيفما يشـــاء، لا إرادة لنا فيما كتبه الله علينا، ولكنني لست حزينة مثلك، فأنا سعيدة وأحمد الله علـــى كـــل شئ.

عاد "الناصر" بعد أن استقرت له الأمـــور، وانتهـــت الاحتفـــالات، فعـــين "بُكتمـــر الجوكندار" نائبًا له، وبدأ يفكر في الانتقام من "بيبرس" و"سلار"، فأرسل الأمير "إســـندمر كرجي" ليقبض على "بيبرس"، فذهب وأتى به للسلطان مُقيدًا بالحديـــد، وقبَّـــل "بيبـــرس"

الأرض بين يديه، فأمره "الناصر" بالجلوس، ثم أخذ يؤنبه ويعدد له الذنوب التي فعلها ويقول له: أتذكر يا"بيبرس" يوم صحت في، ورددت شفاعتي في حق بعض مماليكي ممن ظننت أن لهم يدًا في إثارتي عليك أنت و"سلار"؟ ثم أخذ يعدد عليه أخطاءه وتعنته على السلطان الشرعي وظلمه له، وهنا سكت "بيبرس" عن الرد، فصاح السلطان آمرًا بخنقه وتعليقه على "باب زويلة" ليكون عبرة لغيره، وهذه هي النهاية الطبيعية لـ"بيبرس" ومن هم على شاكلته.

أما "سلسبيل".. تلك الفتاة الجميلة التي أحبها كل من السيدة "مسكة"، و"الناصر" لما يبدو عليها من رقة وجمال وحسن خلق فجاء اليوم المحدد، وطلعت "سلسبيل" بصحبة أبيها إلى "قلعة الجبل"، واستقبلتها السيدة "مسكة" بالترحاب والسرور، وبقيت عين "زمزم" متعلقة بابنته، لا تفارقها، واختلطت مشاعر الحزن بالفرح، ولكن قد سلمها إلى السيدة "مسكة" وانتهى الأمر، ولم يعد للتراجع فيما اتُّخذ مكان، قالت "مسكة" لـ"سلسبيل": لا شك أن السلطان يحب أن يراكِ، فهل تذهبين إليه؟ ولم تنتظر "مسكة" الجواب منها فنهضت وأمسكت بيدها ومشت بها وهي تقول: السلطان وحده في قاعته، وقد آثر عدم رؤية أحد اليوم من الأمراء، فقالت "سلسبيل": إذا كان السلطان راغبًا في الخلوة فلماذا نزعجه؟ قالت "مسكة": لا يا "سلسبيل"، فالسلطان لا يزعجه حضوري أو حضورك، فلقد أراد الراحة من عناء ما لاقاه أمس من لقاءاتٍ واجتماعاتٍ بالأمراء والوفود، هيا بنا إليه، ولا تتكلفي يا ابنتي بعد أن دعاك السلطان بابنته، وأنت نعم الابنة حقًا.

وصلت "مسكة و"سلسبيل" إلى باب القاعة، فبادرت بإلقاء التحية على الحاجب وقالت: لعل السلطان وحده؟ فأجاب: إنه في خلوةٍ مع نائبه، وهَمَّت "مسكة" بالرجوع، وإذا بالسلطان يُناديها من الداخل ويقول: إذا كانت "سلسبيل" معك فادخلي يا "مسك الختام"، فخجلت "سلسبيل" عند سماع اسمها، وتصاعد الدم في وجنتيها، فقالت لها "مسكة": ألم أقل لكِ أنه سيفرح كثيرًا لرؤيتك، ها هو لم يأذن لي بالدخول إلا وأنت معي، وضحكت ووسع لهما الحاجب فدخلتا، وكان السلطان ونائبه تبدو عليهما علامات الاهتمام والحزم، فلما دخلت "مسكة" أرادت أن تتراجع لوجود النائب، فعاجلها السلطان قائلاً: تعاليا .. إنه واحدٌ منا، وأنت ابنتنا يا "سلسبيل"، ونائبنا في منزلة أبيكِ، وأشار السلطان إليهما بالجلوس، وكان النائب قد وقف عند دخولهما، فأشار إليه السلطان أن يجلس، لكن النائب آثر الاستئذان بالانصراف من القاعة.

جلست "سلسبيل" مطرقة حياءً، فقال لها السلطان: لا ينبغي لكِ أن تتهيبي بين يدي وقد أصبحتِ واحدة منا، ثم قال: ألم تطلعك "مسكة" على المكان المُخصص لإقامتك؟ ردت "مسكة": لم أطلعها بعد، لقد جئت بها لتوها إلى هنا، قال السلطان: اسمعي يا "مسكة"، خُذي "سلسبيل" معكِ إلى السوق لتبتاعي لها ما تشاء مما تحتاجه، قالت: أجل .. إن شاء الله سأفعل ذلك غدًا، ثم قال: اجعلي خمسة من خيرة الجواري يقمن بخدمتها، أسمعتِ يا "مسكة"؟ أجابت: السمع والطاعة يا مولاي، ودخل الحاجب إلى القاعة ليستأذن السلطان بدخول أحد عليه، ونهضت "مسكة"، وكذلك الفتاة، واستأذنتا السلطان بالانصراف وخرجتا.

الآمر بالمعروف

كان الشيخ "تقي الدين" هو من يُريد مقابلة السلطان في أمرٍ هام، فأمر السلطان حاجبه بدخوله على الفور، فألقى الشيخ السلام على السلطان، فتحرك "الناصر" كأنه يتحفز للقيام إجلالاً للشيخ مُبتسمًا وقال: وعليك السلام يا "ابن تيمية"، فدخل الشيخ مُسرعًا في خطوته ليمنع "الناصر" من الوقوف له، ومد يده، وصافح السلطان، فقال السلطان: لقد أتيت أهلاً يا "ابن تيمية".. أمثلك يستأذن في الدخول؟! وأشار إليه بالجلوس، وهو يبتسم ترحابًا واستئناسًا، ودعا الشيخ لـ"الناصر"، ثم لبث "ابن تيمية" ساكتًا على عادة مجالس الملوك، فإنهم لا يبدؤون السلطان بالكلام، فقال "الناصر": لقد أتيتنا لخير -إن شاء الله- فإنك منقطع عنا منذ فترة، لا تأتينا إلا لنصيحة أو مهمة، فقال "ابن تيمية" بعد أن أثنى وصلى على سيدنا محمد ﷺ: والله يا مولاي لو رأيت في دخولي عليك نفعًا لقضيت باقي عمري بين يديك، فأما الآن فقد أتيت لخير إن شاء الله لنصيحة ألتمس منك فضلاً تضمه إلى أفضالك المتوالية، قال "الناصر": تفضل يا شيخنا الجليل، تفضل بنصيحتك فإنك صاحب الأمر، قال "ابن تيمية": إن الأمر لمولاي جعله الله له وحده، لا ينازعه فيه أحد، وهو ينعم بما يشاء من فضله، فإذا سمح لي مولاي بكلمة أقولها، قال "الناصر": تكلم واطلب ما تشاء، فتنحنح الشيخ واعتدل في جلسته ونظر إلى "الناصر" وقال: أنا ما جئت إلا لأبلغ أمين هذه الأمة وحارسها وأعلمه عن خروج بعض أمراء "المماليك" عن جادة الصواب في سلوكهم بسبب سكرهم ولعبهم وفعل كل فاحشة أمام أعين الرعية بلا حياء، ناهيك عن ذلك يا مولاي حتى أبناء القضاة.. أبناء القضاة الذين هُم موضع الإجلال والتعظيم، لم يتورعوا عن ارتكاب المعاصي، متخذين مراكز آبائهم سُلمًا إلى بلوغ شهواتهم، وإلى جمع الثروة عن طريق الرشوة، فنظر إليه السلطان مُندهشًا وقال: عمن تتحدث بالتحديد يا "ابن تيمية"؟ أجاب "ابن تيمية": عن أبناء قاضي القضاة "جلال الدين القزويني"، وخاصة ابنه "جمال الدين"، رد السلطان مُستغربًا: أبناء "جلال الدين القزويني"!! ماذا تقول يا "ابن تيمية"؟ رد "ابن تيمية": أقول ما سمعته يا مولاي، ولك أن ترسل بعيون تستطلع وتتأكد مما جئتك به، قال السلطان: هل إلى هذا الحد بلغت المعاصي .. ماذا أسمع؟! لقد فسدت أحوال الناس، رد الشيخ: أجل بل أكثر من ذلك بكثيرٍ يا مولاي، لقد أسرفت نساء هذا العصر في التبرج إسرافًا شديدًا، كما أسرفن في التردد

على المُنجمين، والسحرة، لإيمانهن الشديد بقوة الأحجبة والسحر، وتسخير الجان "حاشا لله"، ويعتقدن أن المنجمين هم القادرون على تحقيق رغباتهن بأن يقلبوا الكُره حُبًا والحُب كُرهًا، وبجلب المرض للأعداء، والصحة للأحباب "أستغفر الله"، كما تتردد النساء على الكتاب الذين يكتبون لهن الرسائل والشكاوى، فيذهب الشباب إلى الكتاب والمنجمين ولا قصد لهم إلا أن يلتمسوا الوسيلة للتحدث مع امرأة حضرت لكشف نجم أو لكتابة رسالة فيشاغلها شاب ويتمكن من الحديث معها بسبب جلوسه وجلوسها في انتظار دورهم لمقابلة الكاتب أو المنجم، هذا يا مولاي بخلاف تفشي شرب الأمراء للخمر ولعب الميسر.

غضب السلطان وقال للشيخ: كفى.. كفى يا "ابن تيمية"، لقد أحزنتني، ولن أترك الأمور كما هي عليها بعد أن بَصَّرتني بما لا علم لي به، سأبعث باستدعاء هؤلاء الأمراء، وكذلك في طلب ابن قاضي القضاة "جمال الدين القزويني"، وسأنزل بهم أشد العقاب، ولن تأخذني بهم رحمة، يُجلدون ويُتفَّهون على مسمعٍ ومرأى من العامة، حتى يكونوا عبرة، ولن أنسى لك يا شيخ "تقي الدين" فضلك هذا، وما أسديته لي من نصيحة ومعروف، وما أطلعتني عليه من سوء أحوال الرعية، حتى أعرف ما يدور في البلاد من فساد، جزاك الله خيرًا يا "ابن تيمية"، ونفعك الله بما ينفع به المسلمين.

تعالوا بنا نرى ماذا تفعل السيدة "مسكة" في "قلعة الجبل"؟! فقد كانت فريدة عصرها بما تتمتع به من فراسة وذكاء وتقوى وورع، فكانت تبتكر الوسائل الغير مسبوقة، تتفنن في استخدامها لشدة حرصها على "الناصر"، إذ كانت لها عجائز من النساء يتجسسن لحسابها في البيوت يُطلِعْنها على أسرارها وعلى ما يتردد بين جدرانها من تعليقاتٍ على سياسة الدولة، فكانت "مسكة" بدورها تنقل لـ"الناصر" ما يدور وراء ظهره، وقد أشارت عليه يومًا بإهداء بعض جواريه لمن يُشتبه فيهم ليتجسسن لحسابه، ونجحت هذه الحيلة مع كثيرٍ من الأمراء في كشف طوايا أنفسهم، وما يكنُّونه نحو سلطانهم.

أبلغت السيدة "مسكة" السلطان ذات مرة ما رأته في أحد الأسواق من تعذيب جند الوالي المُكلفين بالجلد والضرب لواحدٍ من الأهالي على مسمعٍ ومرأى من الناس من غير رحمة، بعد أن جرَّدوه من ملابسه فيما عدا ما يستُر عورته، وسألت السيدة "مسكة" أحد المارة عمَّا اقترفه ذلك المسكين من ذنب، فأجابها: يضربوه لأنه يتسوَّل ويسأل الناس الإحسان، وما أن عرف "الناصر" بذلك حتى حزن حزنًا عميقًا، وبعث في طلب والي "القاهرة" وأنَّبه، وأغلظ له في القول، وقال له: أتضربونه لأنه يسأل الناس، فما أثقل على النفس ولا أذل لها من سؤال الناس، فكيف تزيدونه إهانةً وذلاً أمام الخلق؟ فأقسم الوالي

بأنه لا يعلم بما حدث، وبأنه سيُعاقب من قام بتعذيب الرجل، فوقف "الناصر" غاضبًا وقال: يُعاقب بمثل ما عوقب به الرجل المسكين، فيُجرد من ملابسه، ويُضرب، ويُسب أمام العامة في السوق، ويَقتص الرجل لنفسه، هذا هو العدل الذي نعرفه في الإسلام.

وجاءت إحدى عجائز السيدة "مسكة" ممن يترددن على الأسواق كعيونٍ لها لاكتشاف تصرفات النساء، وأخبرتها عن بعض نساء زوجات "المماليك" من ذوي النفوذ والمراتب الهامة في الدولة، وكذلك بعض زوجات أثرياء التجار، وقد أسرفن في التبرج إسرافًا كبيرًا، وأبلغت السيدة "مسكة" بدورها "الناصر"، فأرسلها إلى هؤلاء النساء تحذرهن من العبث والاستهتار بعدم الالتزام بما جاء في القرآن والسنة، وهددتهن "مسكة" بالجلد، وأغلظت لهن في القول عن لسان مولاها "الناصر"، ثم عادت تخبره بما تم وتشير عليه بفرض الضرائب الفادحة على من يسرفن في التبرج، شرطًا أن تُدفع هذه الغرامة حين تلبس المرأة المتبرجة في ساعتها وإلا تُساق إلى الوالي فيستدعي زوجها يؤنبه ويؤنبها، إضافةً إلى تجريس هذه المرأة في الأسواق، وقد استجاب "الناصر" لهذه المشورة النافعة، وطبقتها الدولة، ونجحت وأتت ثمارها.

الحنين إلى الماضي

تمضي الأيام هنيئة بـ"سلسبيل" رغدة لينة، لكن هناك ثمة شئ تفتقده الفتاة، إنه دفء الحياة النابض بالمشاعر والأحاسيس، لا حياة الخداع والنفاق، فيُظهر المرء بغير ما يُبطن، ويقول بلسانه ما يخالف تفكيره وضميره، غير أن النفوس هناك في بيت "زمزم" مفتوحة نقية على سريرتها لا تتظاهر بغير حقيقتها.

ظلت "سلسبيل" تتذكر مُداعبة "صلاح الدين" لها وتلطفه معها، وما أكثر استفزازها له كنوعٍ من المشاكسة البريئة.

أدركت الفتاة أنها أخطأت يوم أن جاءت "قلعة الجبل"، فالحياة ثقيلة برتابتها المتكررة، لا شئ تفعله غير أن تقوم صباحًا من نومها فتسرع الجواري بتجهيز الحمام لها، ثم يقمن بتصفيف شعرها، وإعداد كامل زينتها، بعد ذلك تجلس وحيدة لا شئ تفعله غير التجول في أرجاء حديقة القصر التي تتخللها تلك الفسقية الجميلة وحيث تتطاير العصافير وتغني البلابل، تلك المناظر البديعة التي تخالطها ألوان الفاكهة والرياحين والأزهار.

كما أدركت "سلسبيل" أن السعادة ليست في المال ولا الجاه، إنما في الحب، فلن تغيرها صروف الدهر أبدًا عن "صلاح الدين"، ويكفيها أنها تشعر براحة حينما تتذكره فتسيل دموعها حارة على وجنتيها، وهنا تتنهد الفتاة ثم تسرع إلى غرفتها توصد بابها وتستسلم للنوم هربًا من التفكير في "صلاح الدين"، وقد لاحظت السيدة "مسكة" بذكائها أن "سلسبيل" غير متآلفة مع هذا النمط من الحياة، فأحبت أن تُدخل على الفتاة ما يشغلها عن التفكير والشرود، فاستأذنت "الناصر" في أن يستدعي لها أحد أساتذة اللغة والفقه ليعلماها، كما رغَّبتها في الانخراط معها في الحياة اليومية، فالسيدة "مسكة" امرأة نشيطة لا تكل ولا تمل العمل والحركة، فبدأت بتكليف الفتاة ببعض الأعمال البسيطة حتى لايتسرب إليها الملل.

في أحد الأيام أصرت الفتاة أن ترى "صلاح الدين" وهي تعلم أنه يأتي القلعة مع أبيها مرتين في الأسبوع على الأقل، ظلت تنتظر مجيئه حتى لمحت أباها من إحدى شرفات القاعة، فنزلت مسرعة، لكنها لم تدركه، فظنت أنه انصرف إلى مكانٍ آخر في القلعة، فعادت حزينة، وما أن دخلت بهو القاعة حتى رأت أباها وجهًا لوجه، وقد أفرغ ما معه

من ماء، فضمته إليها، وقبلت يديه، وتماسك الرجل، وسألها: كيف حالك يا ابنتي؟ قالت: أنا بخير، وكيف حال أمي، وحال "صلاح الدين"؟ قال: إنهما بخير، فابتدرته قائلة: أوليس "صلاح الدين" معك اليوم؟ قال: نعم، ولكنه مسؤولٌ عن سقاية قصور الجهة الأخرى، قالت له: دعه المرة القادمة يقوم بسقاية هذه القاعات حتى أتمكن من رؤيته والتحدث معه.

لمحت السيدة "مسكة" من شرفتها الفتاة وهي تودع أباها، وانصرف الرجل والدموع تترقرق في عينيه، كذلك الفتاة، فقد شدها الحنين إلى أبويها، وسارعت "مسكة" إلى الفتاة تبتسم وتقول: كيف حال أباكِ .. أليس بخير؟ ردت الفتاة: نعم .. بخير، وقد طمأنني على أمي، فعاجلتها "مسكة" وقالت: ما رأيك أن نذهب لزيارة أمك الجمعة القادمة بعد الصلاة، ففرحت الفتاة وقالت: حقًا يا ست "مسكة"، أجابت "مسكة": نعم .. فقد استأذنت مولاي "الناصر" لأصحبك إلى أسرتك لتقضي معهم اليوم كله، فشكرتها الفتاة وقالت: أنت حقًا عظيمة يا ست "مسكة"، لقد شعرتِ بما أشعر به دون أن أحدثك بما في نفسي، لكنكِ أدركتِ ما كُنت أتلمس أن أبوح لكِ به، وتحقق لي ما كنت أرغب فيه، جزاك الله خيرًا.

في يوم الجمعة أقبلت "مسكة"، واصطحبت الفتاة وذهبتا إلى دار العجوز "زمزم"، وما أن رأت زوجة "زمزم" "سلسبيل" حتى تهللت لرؤيتها، وكذلك "صلاح الدين"، واستأذنت "مسكة" بالانصراف متعللة بالذهاب إلى السوق لشراء بعض الحاجيات على أن تعود قبل غروب الشمس لتأخذ الفتاة وتعود بها إلى القلعة.

أخذت "سلسبيل" تخرج ما أحضرته لأمها من هدايا ثمينة كالأقمشة الغالية المُطرزة، والقباقيب المُرصعة، وأطواق منزلة بالآلئ والأحجار الكريمة، وشاشات من الأنواع الفاخرة، ومصوغات متنوعة من الدمالج والأساور، وقلادة كبيرة من العنبر محبسة بكرات الذهب، وقرط على شكل هلال تتدلى منه حبات صغيرة من الذهب والأحجار الكريمة بالتبادل، كما أهدت أباها قباءً وعدة عمائم ناصرية وبعض الشرابش.

أمضت الفتاة اليوم كله مع أهلها، ثم انتحت مكانًا في ركنٍ بعيدٍ من الدار، وأخذت تحدث "صلاح الدين" الذي رفض قبول الهدية متعللاً أنه لا يليق أن يقبل هدية غالية الثمن فلا يستطيع أن يردها يومًا أو يهاديها بمثلها، وقبلت "سلسبيل" تعلله، واحترمت رغبته، ولم تلح عليه بأخذها، فأخذ يسألها عن أحوالها، وهل مازالت تحفظ عهدها معه؟ فطمأنته، وقامت الأم وهي سعيدة بابنتها تعد لها الغذاء، وتدعو لها بالتوفيق والسعادة في حياتها، ثم عادت تسألها عن أحوالها فابتسمت "سلسبيل" قائلة: "الحمد لله أنا بخير، ولن أتأخر ثانية عنكم بعد ذلك، ولسوف أستأذن مولاي "الناصر" في الحضور إليكم كل جمعة إن شاء الله".

عادت السيدة "مسكة"، وقطعت لقاء الأحبة، وجلست معهم قليلاً ثم استأذنتهم في الانصراف، وقامت الفتاة تقبل أمها، ثم انحنت على يد أبيها تقبلها، وصافحت "صلاح الدين"، ونظرت في عينيه والعيون تتفاهم وتتحدث بما لا يفصح عنه اللسان، ثم سحبت يدها من يده وقالت: أراك على خير يا "صلاح الدين"، وانصرفت الاثنتان إلى القلعة، ولكن "مسكة" بفراستها أدركت أن هناك ثمة شئ بين "سلسبيل" وابن عمها "صلاح الدين"، فلم تفاتح الفتاة، وتركت الأمور حتى تصارحها "سلسلبيل" يوم ما بما يجول في خاطرها وما تخبئه في صدرها، وشق على الفتاة أن تُفاتح "مسكة" بأحاديث الغرام، فالحياء يمنعها عن التصريح والتحدث في مثل هذه الأمور وخاصة مع الأكبر سنًا.

تعرفت "سلسبيل" على الأميرة "مُلكان" "ابنة "الأشرف" خليل" فأصبحتا لا تفترقان، تمضيان الوقت في لهوٍ وسعادةٍ وسرور، تتحدثان مع بعضهما وكأنهما شقيقتان لا صديقتان، فأفصحت كلٌ منهما للأخرى عن حال نفسها، فصارحت "مُلكان" "سلسبيل" بحبها لابن عمها الأمير "موسى بن علي"، وصارحت "سلسبيل" "مُلكان" بحبها لابن عمها "صلاح الدين"، وشعرت "سلسبيل" وكأن "مُلكان" أختٌ لها، وقد ألفت كل منهما الأخرى، لا يفترقان إلا عند النوم، واستغرب السلطان لذلك وأثار انتباهه ذلك التشابه الكبير بينهما في الشكل والطباع والأخلاق، وأحس أن "سلسبيل" قد تعودت على الحياة في القلعة ولم يعد هناك ما يدفعها للضجر والملل وخاصة بعد أن أحبت الأميرة "مُلكان"، فبدت السعادة تشرق على وجهها، وصرَّحت كل منهما بحقيقة حالها للأخرى، وسألت "مُلكان" "سلسبيل": هل ابن عمك ثابت على حبك لا يلتفت لسواك؟ أجابت الفتاة: أجل .. إنه متدينٌ لا يغضب الله، ولا يعرف فتاة سواي، فسكتت "مُلكان" وتنهدت وقالت: يا لكِ من فتاة محظوظة، أما أنا فأُحب "موسى" حبًا عظيمًا، وما أن أذكره حتى يخفق قلبي وتنحل عزائمي، وسحبت "مُلكان" يد "سلسبيل" ووضعتها على موطن قلبها وهي تقول: أشَعَرتِ يا "سلسبيل" بدقات قلبي وهي تضرب كالمطرقة بينما أنت تذكرين حال ابن عمك عن صدق إخلاصه في حبك، أتعذب أنا في حبي لـ"موسى"، فأراه يضمر غير ما يقوله لي، أشعر بذلك كثيرًا، وأحاول أن أُكذِّب نفسي في كل مرة نلتقي فيها، ونظرت "سلسبيل" إلى "مُلكان" نظرة عطف، والفتيات تتفاهمن بلغة القلوب، ولكن "مُلكان" جاشت عواطفها، فأخذت تبكي، ومدت "سلسبيل" يدها تربت على كتفها بحنوٍ بالغٍ وهي تقول: هوني عليكِ يا حبيبتي، ثم سألتها: متى ستلتقيان يا "مُلكان"؟ أجابت: غدًا إن شاء الله، فهو يريدنى في أمرٍ هام لا أعلمه، قالت "سلسبيل": رُبما يبشرك ببشرى خير، قالت "مُلكان": لا أعتقد.. فعمي "الناصر" قد أرجأ فكرة زواجنا ولا أعلم لماذا ؟!.

نهاية سلار

نعود إلى "الناصر محمد" وقد جاء دور "سلار" الذي طلب عقب عودة السلطان من "الكرك" إعفاءه من وظيفته كنائب للسلطان، وبأن يعينه "الناصر" حاكمًا على منطقة "الشوبك"، فأجاب سؤله وعين بدلاً منه الأمير "بُكتمر الجوكندار" نائبًا للسلطنة، فأمر باستدعاء "سلار" من "الشام" ليحضر إلى "القاهرة" على عجل، فتردد في الذهاب إليه لأنه أحس أن ساعة القصاص قد دنت، فخطرت له أفكار شتى ليتفادى هذا اللقاء، ففكر في الالتجاء إلى "المغول"، وفكر في الهرب إلى "برقة" أو "اليمن"، ولكنه خرج من حيرته بقرار وهو السفر إلى السلطان والله يفعل ما يشاء.

كان "الناصر" يعلم ما يُشاع عن "سلار" من غنى فاحش حتى أن الناس قالوا: لقد وقع "سلار" على كنز من كنوز القدماء، لكن "الناصر" كان يعلم جيدًا حقيقة الأمر، فتلك الثروة العظيمة هي من خزائن بيت المال عندما خرج "الناصر" إلى "الكرك"، وترك الأمر له ولـ"بيبرس" بعد أن أصبحت مفاتيح بيت المال بيده.

لما تأخر "سلار" في الحضور أرسل السلطان "الناصر" الأميرين "بيبرس الدويدار" والأمير "سنجر الجاولي" إلى "الشام"، فقبضا عليه، وحُمِل مُقيدًا إلى "مصر"، وأُودع بسجن القلعة، ثم بعث السلطان في طلبه للمثول بين يديه ليؤنبه ويعاقبه على ما فعل، أما "علم الدين سنجر الجاولي" فكان مملوكًا للأمير "جاولي" أحد أمراء "الظاهر بيبرس"، وبعد موت سيده، انتقل إلى بيت "قلاوون"، وظل يترقى في الخدمة حتى صار من أمراء المشورة، وكان من أعز أصدقاء "سلار" "مملوك المنصور قلاوون" كما كانا كالأخوين في صداقتهما.

دخل "سلار" على السلطان، وما أن رآه "الناصر" حتى قال: أخيرًا جئت، أكنت تريد الفرار إلى اليمن؟ لم ينطق "سلار"، وظل واجمًا شاخصًا ببصره إلى الأرض، فقال له السلطان: أين تُخبئ أموالك الطائلة؟ ومن أين لك بكل هذه الأموال؟ أجابه "سلار": لا مال عندي، ولو كنت أريد المال لما رفضت التربع على العرش، وتركته لـ"بيبرس"، قال السلطان: لقد اغتصبته من دماء الرعية، واستوليت على أموال بيت المال، وانتهزتها فرصةً للنهب والسرقة حينما تركت لكما "مصر" وتوجهت إلى "قلعة الكرك"، سكت "سلار"، وعاد السلطان يقول: أعندك ما يُخالف قولي؟.

ظل "سلار" يتنصّل من كل تهمةٍ توجه إليه، فأصدر السلطان أوامره بأن يَرُد "سلار" إلى بيت المال جميع الأموال التي اغتصبها، وأمر بتكليف الأمير "بيبرس الدويدار" بأخذه والذهاب إلى قصره ليدله على موضع الأموال، وإن لم يدله يُضرب حتى يقر ويعترف بمكانها، ثم بعد ذلك يُحبس على أن يُحرم من الطعام والشراب حتى يشتد عليه الجوع والعطش ولا يجاب إلى طلبه.

ساق "بيبرس الدويدار" "سلار" إلى قصره فدله على سردابٍ في القصر تحت الأرض، وما أن دخله الأمير "بيبرس الدويدار" حتى فوجئ بآلاف الحياص من الذهب، ومشغولات ذهبية تفوق الوصف، لا تُعد ولا تُحصي، وقطع من الزمرد، والأحجار الكريمة، وآلاف من حبات اللؤلؤ، وأعدادًا لا حصر لها من الخواتم الذهبية، وآلاف القطع من الأقمشة المُزركشة والمُوشّاة بالذهب والفضة، ومئات من اللجم المُفضضة، وما يزيد عن عشر قناطير من الفضة، فبعث الأمير "بيبرس الدويدار" إلى خزانة الدولة أكثر من خمسين حملاً من الذهب والفضة والدنانير وما خالف ذلك، بينما ظل الأمير "سلار" في محبسه دون طعام أو شراب حتى ينظر "الناصر" في أمره.

دخل "بيبرس الدويدار" على السلطان "الناصر" يخبره بما اكتشفه فقال: لقد دلنا "سلار" على سردابٍ في القصر مليئًا بالمجوهرات والذهب، وقد بعثنا به إلى خزانة الدولة بعد أن قُمنا بجرده، قال السلطان: ويقول لي: "أنا ما عندي مال، ولو كنت أريد المال ما تركت العرش لـ"بيبرس"، فيرد نائبه "بُكتمر": إن "سلار" له أكثر من سبعة أيام بلا طعام ولا شراب يا مولاي، وقد أخذ في طلب الطعام والشراب، فقال السلطان: لا تجيبوا طلبه، قال "بُكتمر": السمع والطاعة، ثم أردف قائلاً: هل هناك ما يأمر به مولاي؟

أجاب السلطان: لا.

انصرف "بُكتمر" وهو يُفكر في مصير "سلار"، فـ"الناصر" لا يُريد قتله، ولا إطعامه، ولا سقايته، فماذا يريد منه إذن؟!.

بعد أن أعيا "سلار" الجوع والعطش، وأشرف على الموت والهلاك، أمر السلطان بتقديم ثلاثة أطباق له، الطبق الأول مليئًا بالذهب، والثاني بالفضة، والثالث بالمجوهرات واللآلئ، وما كاد السَّجَّان يدخل على "سلار" حاملاً له الأطباق الثلاث حتى سُر "سلار"، وبُعث فيه الأمل، وما أن قدمت له تلك الأطباق وبدأ في إزاحة أول غطاء فوجد به ذهبًا، ففتح الثاني فوجد به فضة، ففتح الثالث فوجد به المجوهرات واللآلئ، فأصيب بصدمةٍ عصبيةٍ وأخذ يبكي، وفي تلك اللحظة دخل عليه "بيبرس الدويدار" وقال له: قُم يا "سلار"..

لقد عفا عنك السلطان، وما كاد يقوم من مكانه حتى سقط ميتًا، وهكذا كانت نهاية "سلار"، حرب نفسية قاسية وموت بطئ سبب له الانهيار التام والموت المحتوم، وبهذا يكون "الناصر" قد انتهى من "سلار" إلى الأبد.

أما الأمير "إسندمر كرجي" نائب "حماه" فقد طمع في الاستئثار بـ"نيابة حلب"، فعين نفسه واليًا عليها دون موافقة السلطان، وانتقل من "نيابة حماه" مُنتهزًا فرصة شغور "نيابة حلب" بعد موت نائبها الأمير "سيف الدين قبجق"، ثم أرسل إلى "الناصر" يسأله التعيين في "نيابة حلب"، فوافق "الناصر"، وأسرها في نفسه إلى أن أرسل تجريدة من "القاهرة" تحت ستار أنها متوجهة إلى "سيس"، فأحكم الخدعة وكتب إلى "إسندمر كرجي" يطلب منه تجهيز الآلات للحرب، ثم أمر "الناصر" نائب "حماه" بالتوجه مع تلك التجريدة، وكان السلطان "الناصر" في حقيقة الأمر يُريد القبض على "إسندمر كرجي"، فنسج خيوط هذه الخطة بالاتفاق مع نائب "حماه"، حتى تم القبض على "إسندمر كرجي"، وأُرسل إلى السلطان مُقيدًا.

الأميرُ الغادرْ

نعود إلى الأميرة "مُلكان" ابنة "الأشرف خليل" والأمير "موسى بن علي" في حديقة القصر يتسامران، فإذا بـ"موسى" يقول: إن عمك "الناصر" لا يستحق المُلك، أرأيت ماذا فعل بـ"بيبرس" و"سلار"، كما فعل بأمك بعد أن هجرها وسرحها بعد موت أخيكِ "عليًا"، فلم يكرم إقامتها، بل أنزلها من القلعة، وها هي الآن قد انصرفت للبكاء على حظها التعس في الحياة، قالت "مُلكان": نعم .. إنها حزينة على أخي "علي"، وعلى حظها العاثر ومصيرها بعده، فقد كانت تتوقع انصراف عميَ "الناصر" عنها بعد أن انقطعت الصلة التي كانت تربطهما وهو أخي رحمه الله، قال "موسى": لقد علمت أنها أوقفت على قبر أخيكِ ما خصها من ميراث أبيكِ، قالت: أجل.. أعلم يا "موسى"، بل إنها رتبت عنده قُرَّاء لا ينقطعون عن تلاوة القرآن، فاعتدل "موسى"، واقترب من "مُلكان"، وأخفض صوته هامسًا ثم قال: اسمعي يا "مُلكان".. لقد حان الوقت لكي أبوح لكِ بسرٍ لا يؤتمن عليه أحدٌ سواك، قالت "مُلكان" باندهاش: أي سرٌ؟! أهناك أسرار تخفيها عني؟ أجابها: نعم.. ولكن هذا يخص عمك "الناصر"، فقالت منزعجة: ماذا تقول؟ عمي "الناصر"! أي سرٌ هذا؟! أجابها: لقد اتفق معي الأمراء على أن يولوني السلطنة، انزعجت "مُلكان" وقالت غاضبة: أتتآمر على عمك "الناصر" لتنتزع منه المُلك؟ .. والله لو علم عمك بذلك فإن لحمك يتناثر نتفًا بين السماء والأرض، قال "موسى": أجل .. أعرف ذلك، فعاجلته قائلة: ومن أشار عليك بهذا؟ أجابها: لقد وضعنا خطة للقضاء عليه، فقالت "مُلكان": للقضاء على من.. على عمّك "الناصر"؟! خسئت أيها الجبان، فقال "موسى": لا تنفعلي، واخفضي صوتك، فربما يسمعنا أحد، فينكشف الأمر، ونقتل جميعًا، فسألته "مُلكان": بصوتٍ خافت: ومن هم هؤلاء الذين يريدون قتل عمك "الناصر" الذي رعاك وربَّاك وأمَّرك؟ قال: بعض الأمراء، قالت: من هم؟ أجابها: الأمير "بتخاص" والأمير "كراي المنصوري"، والأمير "بيبرس الجندار" والأمير "قطلوبك المنصوري"، وكثير غيرهم، فقالت: ومن المخطط لهذه المؤامرة؟ أجاب: نائب عمك "بُكتمر الجوكندار"، فهو لا ينسى غدر "الناصر" به، وفضح أمره، وإغراء الأميرين "سلار" و"بيبرس" بطلبهِ إبعاده عن "مصر" وتعيينه نائبًا لـ"صفد"، فقالت "مُلكان": ولكن سيفتضح أمركم وأتورط معكم، وأنا لا ناقة لي في هذا ولا جمل، قال "موسى": لا تخافي واكتمي هذا السر ولا تبوحين به لأحد، وتماسكي حتى لا يشك أحد

فيكِ وخاصة "مسك الختام" التي لا يفوتها شئ في قصور القلعة كلها، قالت: إنني خائفةٌ عليك إذا ما ركبت رأسك وأقدمت على ما أنت مقدمٌ عليه، وكذلك خائفةٌ على عمي "الناصر"، فلو انكشف أمركم لقتلكم جميعًا وأنت على رأسهم، وإن حرصي على عمي يبعثني على التضحية بك، اتق الله يا "موسى"، أهذا هو جزاء عَمِّك الذي يُحبك؟ فانتفض "موسى" غاضبًا وقال: كُفي عن الثرثرة .. إنه لا يريد أن يزوجنا حتى لا نكون جبهة ضده، قالت: ولماذا نكون جبهة ضده؟ أجابها: سأمضي الآن، وفكري جيدًا فيما قلته لكِ.

انصرف الأمير "موسى" فأخذت "مُلكان" تتجول في أرجاء حديقة القصر وهي حائرة، تُناجي نفسها: ماذا أفعل؟ أرشدني يا ربي إلى ما فيه الصواب، واتجهت إلى جناحها وهي مُنهارةٌ تبكي، فإذا بها تجد أمامها السيدة "مسكة"، وما أن رأتها "مسكة" حتى سألتها: ماذا بكِ يا "مُلكان"؟ أراكِ تبكين، أجابتها الفتاة: لا شئ .. لا شئ، قالت "مسكة" تتساءل: ألنت على خلافٍ مع الأمير "موسى"، أجابتها "مُلكان": نعم.. نعم يا "مسك الختام"، وهي تمضي في طريقها و"مسك الختام" تلاحقها بالأسئلة وتقول: حدثيني يا "مُلكان"، فأنا كاتمة أسرارك، ولا أبوح بها لأحد، فقالت "مُلكان": لا عليك يا "مسك الختام"، سأكون بخيرٍ بعد قليل، وألحت "مسكة" عليها فقالت: أرأيته مع إحدى الجواري؟ فأجابتها: لا.. لا لم يحدث هذا، فقالت "مسكة": إذن ماذا بكِ يا ابنتي؟ أمكروه ألم بكِ، قالت "مُلكان": لا والله يا "مسك الختام"، لا شئ لا شئ، فعادت تلح وتقول: بدأت أقلق عليكِ أهناك شئ تخفينه عني، افصحي لي عنه يا حبيبتي، وسأجد لكِ الحل، فكل عقدة ولها حل، قالت "مُلكان": سأحدثك غدًا إن شاء الله، فأنا مُجهدة، دعيني أنام، فتركتها "مسكة" على وعدٍ منها.

دخلت "مُلكان" غرفة نومها، وأغلقت الباب وراءها وكأنها تفر من شبحٍ يُطاردها، ولكن هواجسها حدثتها، فأرادت الفرار من شعورٍ داخلها لا يحجبه الظلام، ولا تمنعه الأقفال، بل وجدت ظلام غرفتها يُضاعف هواجسها، ويُجسِّم مخاوفها لأنها لم تكد تنام على وسادتها حتى بدا لها "موسى" بأقبح الصور، رأته خسيسًا، خائنًا، جبانًا، بينما رأت عمها شهمًا كريم النفس، فارتعدت من الخوف، وكأنها ارتكبت ذنبًا، فكيف تشاركه على التواطؤ لقتل أعظم الناس قدرًا وأفضلهم مروءة؟ لكنها صبَّرت نفسها إلى الغد لترى ما يكون، ولكن كيف تنام وهي في تلك الحال وقد تراكمت عليها الهواجس والمخاوف، وأحست بأن فكرها قد تشوش، وفي النهاية لم تجد راحة من عناء التفكير إلا في النوم لعلها إذا أفاقت في الصباح وجدت ما مر بها كابوسًا مُزعجًا، وأخيرًا استسلمت للنوم.

وما أن أفاقت من نومها حتى سعت لاهثة إلى "سلسبيل" لتساعدها وتشاركها في إيجاد الحل المناسب لهذه المشكلة، وقصَّت على "سلسبيل" ما سمعته من "موسى"، سكتت "سلسبيل" هُنيهة، وعادت بعدها تقول لـ"مُلكان": لابد أن يعلم عمك "الناصر" بتلك المؤامرة الخسيسة، وإن لم تحدثيه أنتِ فسأحدثه أنا، لا تجعلي ضميرك يموت، فإن مثل هذه الأمور لا تُحل إلا بالمواجهة، ولا تكوني كالشيطان الأخرس، تداركي الموقف سريعًا قبل أن تَحل الكارثة، ويُقتل عمك وتكوني بذلك من المشاركين في مقتله، لا تجعلي الحب يسيطر على ضميرك فيُقتل فيكِ الشموخ والعزة والحق والنبل والكرامة، إنه عمك الذي ربَّاكِ يا "مُلكان"، انهضي، واسعي إليه، وانبئيه بما سمعت، حتى يتوخى الحذر، ويأمن غدر المُتآمرين.

وما أن غادرت "مُلكان" "سلسبيل" وعادت إلى جناحها حتى دخلت عليها السيدة "مسكة" قائلة: صباح الخير يا أميرتنا الجميلة، كيف أصبحت اليوم؟ أجابتها الفتاة: مازلت أعاني، وقد أفزعتني الكوابيس، فلم أستطع النوم، قالت "مسكة": أية كوابيس هذه التي أفزعتكِ يا "مُلكان"؟ إنها أضغاث أحلام، فلا تُبالي، فقالت "مُلكان": إنها ليست بأضغاث أحلام، فلقد رأيت المُتآمرين ينالون من عمي "الناصر" ويقتلونه، وما أن سمعت "مسكة" بخبر التآمر والمتآمرين حتى تبدل وجهها، وزالت الابتسامة عنها، وقالت: متآمرين .. على عمكِ في المنام! أجابت "مُلكان": أجل يا "مسك الختام"، قالت "مسكة": ومن هم؟ هل تعرفينهم؟ أجابت الفتاة: نعم.. أعرفهم، قالت مسكة: من هم؟ أأحدٌ من "آل قلاوون" أم آخرون؟ أجابتها الفتاة: من هؤلاء وهؤلاء، فركزت "مسكة" اهتمامها وقالت: ومن كان بالتحديد من بيت "آل قلاوون"، أهو الأمير "موسى"؟ فاندهشت "مُلكان" ونظرت إليها وقالت: نعم.. نعم هو "موسى" بعينه، كيف عرفت يا "مسك الختام"؟ نهضت "مسكة" من مجلسها ثم قالت: إنها ليست برُؤيا يا عزيزتي، إنما هي الحقيقة بعينها، فارتعدت "مُلكان" من الخوف، فطمأنتها السيدة "مسكة" قائلة: لا تخافي، ولا تخشي لومة لائم في الحق، فسارعت "مُلكان" وقد انهارت أمام ذكاء "مسكة" وقالت: سأحكي لكِ كل شئ قاله "موسى"، فإنه يضمر لعمي الكراهية والعداء، قالت "مسكة": أجل.. أعرف ذلك، فماذا قال عن عمه "الناصر"؟ لقد رأيتكما معًا بالأمس في حديقة القصر تتهامسان وقد لاحظت عليكما الارتباك والقلق.

بدأت "مُلكان" تروي لـ"مسكة" الحديث الذي دار بينها وبين "موسى"، وما أن انتهت منه حتى قالت "مسكة": سأُبلغ عمك "الناصر" حتى يتوخى الحذر، ولا تخافي يا عزيزتي، فلن يعلم "موسى" بأي حالٍ من الأحوال، مهما بلغ الأمر، اطمئني.. فعمك "الناصر" كريم النفس، وأنا على ثقةٍ بأنه لن يمس "موسى" بسوءٍ حسب ما أعهده فيه من تسامح.

خرجت "مسكة" تفكر في الطريقة التي تخبر بها "الناصر" بشأن المؤامرة التي تُدبَّر من وراء ظهره.

كان السلطان "الناصر" بقدر اهتمامه بمطاردة أعدائه يهتم اهتمامًا بالغًا بأحوال البلاد والرعية، وقد خصص السلطان يومًا ليُعرض عليه كل ما توصل إليه صاحب الشرطة، بشأن الأمير المُستهتر، وبشأن ابن قاضي القضاة "جمال الدين بن جلال الدين القزويني"، وبشأن من باع من "المماليك" إقطاعه، ومشى يسأل الناس، ودخل صاحب الشرطة إلى مجلس السلطان، وبعد أن ألقى التحية وقبل الأرض بين يدي السلطان قال له "الناصر": هل جئتنا بأخبار "المماليك" الذين باعوا إقطاعاتهم، وبأخبار الأمير المُستهتر يا صاحب الشرطة؟ رد صاحب الشرطة: قمنا بالقبض على كل "المماليك" الذين باعوا إقطاعاتهم، وهذه قائمة بأسمائهم، كما قُمنا باستدعاء الشيخ "جلال الدين القزويني" وولده للحضور والمثول بين يدي مولانا، وها هما بالخارج الآن ينتظران أمر مولاي ليمثلا بين يديه، أما فيما يخُص الأمير المُستهتر فقد قُمنا بالتحري عنه، وثبت صحة ما جاء بشأنه، فقال السلطان: حسنًا ياصاحب الشرطة، فأما "المماليك" الذين باعوا إقطاعاتهم فأمرنا بنفيهم جميعًا خارج "مصر" إلى "الكرك"، وأما الأمير الذي قمت بالتحري عنه وثُبت صحة ما قيل فيه فيُنفى خارج "مصر" في "قلعة الكرك"، وأما خازنداره فَيُعاقب بالمثل، وتقطع ألسنة أصحاب السوء ممن كانوا يُجالسونه، وابعث في طلب هذا الأمير قبل أن ينفذ فيه الحكم للمثول بين يدي لتأنيبه، أما "جمال الدين بن جلال الدين القزويني" وأبوه فأدخلهما على الفور.

استأذن صاحب الشرطة من السلطان للخروج لإحضارهما، وما لبثَ أن عاد بهما، فصاح الحاجب وقال: قاضي القضاة الشيخ "جلال الدين القزوينى" وولده، فدخل الشيخ "جلال الدين" وفي إثره ولده "جمال"، فألقى التحية على السلطان ووقف صامتًا، فقال له السلطان: لقد بعثنا في طلبك للحضور فهل تعرف لماذا؟ فأجاب الشيخ: لا يا مولاي لا أعرف، قال له السلطان: كيف لا تعرف والرعية كلها تعرف ما يفعله ولدك "جمال الدين" هذا! لقد فاحت رائحته حتى أزكمت أنوف الرعية، وباتوا يتظلمون بالشكوى منه، ومن سوء ما يفعل بهم من ظلم وجمع ثروة عن طريق الرشوة، ومن ارتكاب المعاصي وخدش الحياء العام دون مراعاة لمركز أبيه الذي هو موضع إجلال وتعظيم وتبجيل من الرعية، لقد اتخذ من مركزك سُلمًا لبلوغ شهواته، أيرضيك هذا يا شيخ "جلال الدين"؟ أجاب الشيخ: لا والله.. لا يرضينى.. فليفعل به مولاي ما يراه، فقال السلطان: لا يا شيخ "جلال

الدين"، أنا لا أفعل به وحده ما أراه، ولكني سأفعل بك أنت ما أراه، لأنك لم تكن حازمًا معه، ولم تربه على لسلوك الحميد ليكون قدوةً ومثلاً يُحتذى به بين الناس، لقد أمرنا بعزلك من منصبك، وبنقلك إلى "بلاد الشام"، أما ولدك "جمال الدين" فليُضرب أمام العامة، ثم يُنفى في "قلعة الكرك"، وتصادر جميع أمواله.

ترى ماذا حدث بعد أن انسحبت "مسكة" من أمام "مُلكان"؟ أسرعت "مسكة" إلى الملك "الناصر"، فدخلت وألقت عليه السلام، ثم قالت: هل صدر مولاي "الناصر" يرحُبْ لما جئت به؟ فقال: كلي آذانٌ صاغيةٌ.. تفضلي، وأشار إليها بالجلوس ثم قال: ماذا وراءك يا "مسك الختام"؟ ردت: والله يا مولاي لست أدري من أين أبدأ حديثي معك؟ قال "الناصر": ابدئيه من حيث تريدين، قالت: لكنه حديثٌ قد يُكدر صفو مولاي، فاعتدل السلطان في جلسته وقال: تكلمي يا "مسكة"، ما وراءك؟ لقد ضاق صدري، قالت: سأتحدث والأمر لله من قبل ومن بعد، قال لها وقد بدت على وجهه علامات الدهشة: ماذا بكِ يا"مسكة"؟! أهو أمرٌ خطير؟ قالت: أجل.. خطيرٌ يا مولاي، قال: إذن تكلمي مهما بلغت خطورته، وبدت على "الناصر" علامات الترقب، فأدركت "مسكة" ضرورة الإفضاء بما لديها، فقالت: تعلم يا مولاي شدة غيرتي على سلامة هذه الدولة، وصدق رغبتي في بقائك عليها كما تعلم ما قد يجول في خاطر ابن أخيك "موسى"، وأنا أعلم قِصر باعه عن نيله، ولكن حُسن السياسة تقتضي ملافاة أسباب الفتن، والحكمة تستدعي التكاتف وجمع الكلمة، وهذا يسير على مولاي "الناصر" إذا استخدم ما عهدته فيه من ذكاء، فيشغل أهل المطامع من أهله بخدمة دولته بدلاً من أن يتفرغوا لإقلاق راحته، فبادرها قائلاً: ماذا تقصدين؟! ونهض فجأة وجعل يخطر في الجناح، فرأت "مسكة" في نهوضه سببًا لخروجها من حضرته لأن ذلك من علامات الغضب والصرف عند الملوك والسلاطين، فقالت "مسكة": إنني تطاولت إلى أبعد مما ينبغي وتدخلت فيما لا يعنيني، فتمالك "الناصر" غضبه، وتكلف ابتسامة لم تخفِ غضبه وقال: أكملي حديثك، وأظهر الاستخفاف بالقصة ثم قال: أهذا ما قاله "موسى"؟ فقالت "مسكة": لا والله يا مولاي، فالأمر أخطر من ذلك، فقال: ماذا تقصدين إذن؟ .. أبلغك شيئًا عن "موسى"؟ قالت: نعم.. لقد أبلغتنى الأميرة "مُلكان" بما لا يُصدّقه عقل، فأرجو من مولاي أن يتماسك ولا يفقد صبره، فرد قائلاً: ماذا أبلغتك؟ أجابت: أبلغتنى بعزم الأمير "موسى بن علي" وبعض الأمراء بالتآمر على مولاي، وعلى رأس هؤلاء نائبك "بُكتمر"، فقد اتفقوا جميعًا على أن يولوا "موسى" السلطنة، فتظاهر "الناصر" بعدم الاكتراث، ثم أدار ظهره وقال: ومتى

حدثتك بذلك، أجابته: منذ قليل، فقد أفصح لها "موســى" ابــن أخيــك ليلــة أمــس بهــذا السـر، وباتت المسكينة ترتعد من الخوف عليك حتى أخبرتنى به لأحيطك به علمًا، وقد تركتها غــارقة في دموعها، تخشى أن يعرف أحد بإفشاء هذا السر فيضمر لها "موســى" الشر، قال السلطان: لله درك يا "مسكة".. لله درك من ناصحة أمينة، سأخرج إليهــا الآن، قالت "مسكة": لا يا مــولاي، فلتتركها تستريح بعض الوقت، فمازالت "مُلكان" في قلــقٍ شديدٍ وصدمة هزت كيانها، فقال: أجل يا "مسكة".. الحق معكِ.

في صباح اليوم التالي، دخل "الناصر" جناح الأميرة "مُلكان"، فنهضت مســرعةً مــن سريرها، وهَمَّت بالجلوس على حافته، وبَكَتْ، فضمها عمها "الناصر" لصدره وبدأت تقص عليه ما سمعته من "موسى"، لكنه قاطعها قائلاً: هوني عليكِ يا "مُلكان"، فلا حاجة لــي أن أسمع وقــد أخبرتني "مسكة" بما أفصحتِ به لها، فاطمئني، واستكينى، ولا تنزعجي، ثــم سألها: هل "موســى" آتٍ اليوم ذلك الغادر المغرور؟ قالت "مُلكان": لا أظن يا عماه، لكني فداؤك، رد "الناصر": أعرِف ذلك، وسأحفظ لكِ جميلك هذا، نهضت "مُلكان" وقالت: لــي كلمة أود أن أبــوح بها فقال لها: "بوحي بما شئت"، فقالت: "أما قد سعى إليــك "موســى" بطلب خطبتي ولم تبدِ موافقتك له؟" أجابها: نعم.. حدث ذلك، قالت: ولكني غيرت رأيــي في "موسى"، فلم يعد يصلح لي البتة، ضحــك "الناصر" وقال: اتركي لي هــذا الأمــر، واطمئنى، سأتركك تستريحين، وقبلها على جبينها وانصرف.

خرج "الناصر" من جناح "مُلكان" تدور برأسه الأفكار يود أن يفتك بهم جميعًا ولكــن الأمر يقتضي الحكمة والتدبر وهدوء الأعصاب فانطلق إلى جناح محبوبته "هادنساد" لينعم بالراحة والهدوء قبل الإقدام على وضع الخطة المناسبة لهم، والتي تتطلب منــه ترتيــب الأفكار وصفاء الذهن.

كشف المُتآمرين

ذهب "الناصر" لجناح الحريـم والتقى بمحظيته "هادنساد"، وما أن رآها وقـد ألهبـه الشوق إليها حتى قال: "حبيبتي.. كنت أبحث عنكِ في طوايا نفسي، وها أنا قد وجدتك، كم أنا مُشتاقٌ إليك.. وعندي من الأنباء ما يسرك"، أجابتـه "هادنساد" بدلال، ظنًا منها أنـه سيطلبها للزواج فقالت: "فليُعجل مولاي بما سينبئني به"، قال: "اسمعي يا "هادنسـاد"، لقـد فتَّحْتِ عيني بحديثك الأخير على أشياءٍ كثيرة، ولم يزدني هذا الحديث إلا تطلعًا للآفـاق، ورددتِ إلى نفسي سكينتها، وبلغت النفس المُنى، ولم يعد أمـامي الآن إلا حيـاةَ العـز والسلطان، لا حياة التآمر على العرش والذل، وهأنذا أجاهرك بالنبأ الذي جئتك من أجلـه لأبشرك يا حبيبتي بانتصاري على نفسي وعلى الأعداء".

ظلت "هادنساد" ساهمة، تنظر إليه، فقال لها: مالـي أراكِ سـاهمة هكـذا؟ أجابتـه: أتجهل ما يدعوني إلى الصمت؟ لقد أصبحت في حيرة من أمري، ولابد أن ألتمس لنفسـي القرار، فقاطعها "الناصر" غير مُبالٍ بحديثها وقال: دعينا من هذا الآن فإن عطر البنفسـج يملأ أنفي، عطرك يا حبيبتي الذي يسحرني، فامتعضت "هادنساد" وقالت: اليوم اسـتبدلته بالورد، أجابها "الناصر": العطور عندي سواء، تعالي واقتربي منـي، فقالت "هادنسـاد": سواءٌ مثل النساء، أليس كذلك؟ قال "الناصر": تمامًا مثل النساء، والنساء لا يختلفن إلا في الأسماء، ثم نظر إليها مُتعجبًا لحالها وقال: ماذا بكِ اليوم يا "هادنساد"؟ أراكِ علـى غيـر عادتـك معي، تعالي أضمك لصدري، فقالت: ألم أقل لمولاي لابـد وأن ألـتمس لنفسـي القرار، فقال لها: أي قرار؟ أهذا وقت قرارات؟ قالت: ألا يعلم مولاي أم يتظاهر بأنـه لا يعلم؟ فـرد عليها: أعلم ماذا؟ ما فهمتك، قالت: هل لي أن أسأل مـولاي سـؤالاً؟ قـال تفضلي بالسؤال، قالت: لماذا يخُصني مولاي دون غيري بالاهتمام الزائد؟ رد "الناصـر": لا لشئٍ غير أني قد أحسنت اختيارك، ولأني أحببتك وأنت تعلمين ذلك، قالت: أتشفق عليَّ بهذه الإجابة، أم تدفعني إلـى حيث تشاء الآن؟ قـال "الناصـر": أصـدقيني القـول يـا "هادنساد"، فأنا أُحبك، ولا أخفي عليكِ مشاعـري، ألا تشعرين بذلك؟ قالـت: نعـم .. أشعر بذلك ولكن...، فقاطعها قائلاً: ولكن ماذا؟ قالت: ولكن أريد أن أكون قريبةً من نفسك أكثر فأكثر، فأجابها: أنتِ قريبةٌ من نفسي وروحـي وفـؤادي، فتنهـدت وقـالـت: ولكنـي أطمع في المزيد، رد "الناصر": لا تتعجلي الأمور، واقتربي مني، تعالي وانظري

في عيني، سيحدثانك عما في قلبي لكِ، واصمتي وعي لما تقوله عيناي، واسألي نفسك وقولي لها يا أيتها النفس.. أجيبيني واصدقيني القول، ولا تكتمي، وأفصحي عن الحقيقة، وستعرفين منها الحقيقة، وبينما كان "الناصر" مُنتشيًا أبلغه حاجب الحجاب بقدوم البريد، وبأن "الفرنجة" بـ"جزيرة خيوس" وهي أحد جزر "بحر الأرخبيل" والتي كانت تعرف بـ "جزيرة المستكة"، وقد أسروا بعض رعاياه، فغادر الملك "الناصر" جناح الجواري على الفور، وأمر في الحال والي "الأسكندرية" ووالي "دمياط" بالتحوط على تجار "الفرنجة" الموجودين هناك واعتقالهم جميعًا، والتحفظ على جميع أموالهم، بينما حاول ملك "سيس" التدخل لحل النزاع، فقد بعث بمبلغ ستين ألف دينار ليفتدي هؤلاء الرعايا وليزداد قربًا من الملك "الناصر"، ولكن لم يتمكن من افتدائهم، بعد ذلك حضر إليه أحد التجار الجنويين واسمه "سكران"، كان له بالسلطان "الناصر" علاقة قديمة، فتوسط وتعهد له بإحضار رعاياه المصريين، وقد قبل السلطان وساطته ومكنه من السفر، وكلل الله مسعى هذا التاجر بالنجاح، وعاد بالرعايا المصريين إلى "مصر"، بعدها أطلق "الناصر" سراح تجار "الفرنجة" الموجودين بـ"مصر" ورد لهم أموالهم.

عاد السلطان من جديد بعد أن رتب أفكاره فيما يتعلق بالمتآمرين عليه، فجلس في نيابة السلطنة مع نائبه "بُكتمر"، وأمر بإلزام "كشدغدي البهادري" والي "القاهرة" بالنداء على الأمير "المظفر موسى بن الملك الصالح بن علي بن المنصور قلاوون" في كافة أنحاء البلاد، وأعلن عن مكافأة كبيرةٍ لمن يقبض عليه، وجعل المنادون يعلنون إذا كان القابض عليه من "المماليك" يُرَقَّى إلى رُتبة الإمارة، أما إذا كان من عامة الشعب فيُمنح ألف دينار، ثم التفت السلطان إلى "بُكتمر" نائبه وقال: ابعثوا في الحال في طلب الأمير "بتخاص المنصوري" المتآمر علينا مع "موسى بن علي"، ثم جلس يتحدث مع "بُكتمر" حتى أتى الأمير "بتخاص المنصوري" مُقيدًا من سجنه، وظل "بُكتمر" جالسًا مكانه لا يحرك ساكنًا، وقد أدرك أن سر المؤامرة قد انكشف لـ"الناصر"، وتأكد من هلاكه.

ظل "بُكتمر" يُناجي نفسه: هل "الناصر" يعلم أنني المُدبِّر لهذه المؤامرة؟ وإذا كان يعلم.. فلماذا يتجاهلني؟ لا أظن إنه يعلم .. فلو كان يعلم ما تركني هكذا..، ثم عاد يقول ربما يكون منتظرًا فرصة مناسبة تسمح له بالقضاء علي، وفيما هو كذلك.. قطع السلطان "الناصر" تفكيره وقال: ما بقي غير أن نرسل في القبض على الأمير "كراي المنصوري" نائب "الشام" "بدار السعادة" خُشداشك يا "بُكتمر"، وكذلك نقوم بالقبض على "بيبرس الجندار"، و"مقطلوبك المنصوري"، حتى نجمع شمل الأحبة كلهم في سجنٍ واحد.

ظل الأمير "بتخاص" واقفاً بلا حراك يتجاهله السلطان "الناصر" بالحديث تارة مع كاتبه وتارة أخرى مع نائبه دون أن يوجه إليه أي اتهام مما زاد قلق "بُكتمر الجوكندار"، ثم التفت "الناصر" إليه وقال: خذوه وألقوا به في السجن حتى يلحق به شركاؤه.

نعود إلى "نيابة دمشق"، فبعد أن تم القبض على الأمير "إسندمر كرجي" خاف "شمس الدين قراسنقر" نائب "دمشق" من غدر السلطان "الناصر" به، فأرسل إليه يطلب منه نقله من "نيابة دمشق" لـ"نيابة حلب"، فسأل السلطان نائبه "بُكتمر" فيما طلبه الأمير "شمس الدين قراسنقر"، فأجابه بأنه لا يعرف ما غرض "قراسنقر" من ذلك، فربما يكون عنده سببٌ وجيهٌ، فقال السلطان: ولكني أعرف تمامًا ما يرمي إليه "قراسنقر"، إنه يريد أن يكون في مأمنٍ ومنأى من يدي من ناحيةٍ ويكون قريبًا من الحدود الشرقية للسلطنة إذا حاول الفرار من ناحيةٍ أخرى، ولكني أرى أن أُلبي له طلبه رغم كل ذلك، ونبعث له بالأمير "سيف الدين أرغون" ومعه تقليد منًا بنقله إلى "نيابة حلب"، فقال "بُكتمر": أتُلبي طلبه ردًا على سابق دوره الفعَّال في إعاده مولاي للعرش.. ولإقناعه نواب "الشام" جميعًا بالوقوف ضد "بيبرس" وانضمامهم إليك؟ أجاب السلطان: أجل يا "بُكتمر".. وهذا إن دل فإنه يدل على قوة نفوذه، وشكيمته وتأثيره على نواب "الشام"، أتعلم ما يعني هذا؟ أجاب "بُكتمر": لا.. لا أعلم، قال السلطان: قد يلتف حوله أمراء "الشام"، ويتآمرون بدورهم وينقلبون علينا بتحريضٍ منه كما استجابوا له من قبل.. أليس كذلك؟ رد "بُكتمر": والله لم يخطر هذا ببالي قط، ولكن مولاي أعلم مني ببواطن الأمور، قال السلطان مُمازحًا: دعنا من "قراسنقر" الآن ومن نواب "الشام"، وأرسل في طلب بعض الشُعراء الليلة نستزيد منهم ونُرَفِّه قليلاً عن أنفسنا.

التطهير

نعود إلى "دمشق" الساحرة فقد ذهب الأمير "سيف الدين أرغون" دويدار "الناصر" ومعه التقليد بنقل "قراسنقر" إلى "نيابة حلب"، وخشي الأخير أن يكون ذلك مؤامرة ضده للقبض عليه، فأمر بعض أمرائه بملاقاة الأمير "أرغون" للحيلولة دون انفراده بأي أمير من الأمراء، وتوجه "قراسنقر" بنفسه إلى "ميدان الحصا" ظاهر مدينة "دمشق"، وأنزل الأمير "أرغون" بـ"دار السعادة"، ثم توجه "قراسنقر" إلى "نيابة حلب"، ورفض دخولها إلا بعد خروج "العسكر المصري" منها، وقال للأمير "أرغون": لا أدخل "حلب" وبها أحد من عسكر "مصر"، فأرسل الأخير إلى الأمير "سنقر الكمالي" يأمره بالخروج من "نيابة حلب"، فخرج طائعًا، فدخلها "قراسنقر" ووطد نفوذه، وصادق العربان، وهاداهم وخاصةً الأمير "حسام الدين مهنا".

كتب "قراسنقر" إلى صديقه "الأفرم" الذي أصبح نائبًا لـ "طرابلس" يكشف له ما يشعر به من كراهية السلطان له ويخشى أن يدبر له أمرًا يقضي به على حياته وحضر "الأفرم" إلى "شمس الدين قراسنقر" وكان كل منهما يعرف ما يدور في رأس "الناصر" حيالهما فقال "الأفرم": ماذا يعني "الناصر" بإرساله قوات عسكرية قرابة خمسة آلاف فارس بقيادة الأمير "حسام الدين قرالاجين"، والأمير "زيرياج" والأمير "عز الدين إيدمر الخطيري" إلى "بلاد الشام"؟ والله إن "الناصر محمد" لا يُباريه أحد في ذكائه ومكره وغدره بالأمراء، إنه يريد أن يقضي على كل من له نفوذ من كبار الأمراء وخاصة نواب "نيابات الشام" وعلى رأسهم أنت يا "قراسنقر" لما كان لك من تأثير علينا في إعادة "الناصر" إلى كرسي السلطنة، فقال "شمس الدين قراسنقر": أهذا هو الجزاء؟! لقد أدركت الآن ما يرمي إليه "الناصر" فقد أرسل بالقوات العسكرية ومهمتها في الظاهر حماية "بلاد الشام" ضد أية هجمات عدائية، وفي الباطن القبض عليَّ أنا الذي ساندته وأعدت إليه عرشه وعرش أبيه، فقال "الأفرم" نائب "طرابلس": والله يا "قراسنقر" إن وقعت في يدى "الناصر" لشوى لحمك، فارتعد "قراسنقر" وقال: سأفكر في الخروج من "بلاد الشام" بطريقة لن يشعر بها السلطان "الناصر"، فسأله "الأفرم": كيف .. والعيون مُسلطةٌ عليك في كل مكان؟ أجابه "قراسنقر": سأرسل له ابني بطلب الإذن لي لأداء

فريضة الحَج، وأنا على ثقة بأنه سيوافق، وبالفعل وافق السلطان "الناصر" لـ"قراسنقر" بأداء فريضة الحج ليتمكن من القبض عليه.

نعود إلى "قلعة الجبل" حيث يجلس "الناصر" مع نائبه "بُكتمر" في نيابة السلطنة، فيدخل الحاجب ويُبلغ السلطان بحضور الشيخ "ابن تيمية"، وما أن علم السلطان بوجود "ابن تيمية" حتى قال للحاجب: دعه يدخل على الفور، فـ"ابن تيمية" لا يُستأذن في الدخول.

دخل الشيخ، ووقف السلطان احترامًا وإجلالاً له، وبَشّ في وجهه وهو يقول: مرحبًا بشيخنا الجليل، وأشار إليه بالجلوس على مرتبة من منزلته، وقال له: لابد وأنك تُخفي وراء زيارتك لنا بعد هذه الغيبة الطويلة أمرًا خطيرًا، رد "ابن تيمية" عليه بعد أن أثنى على الله ثم قال: أجل يا مولاي.. فإن حضوري إليك اليوم لأتحدث ونتبادل الرأي والمشورة في أمور كثيرة تخص أحوال الرعية وكبار رجال الدولة، فقال السلطان: تفضل يا شيخنا بطرح آرائك، فقال الشيخ مُتسائلاً: هل يجوز تفشي الرشوة في البلاد وأنت قائمٌ عليها؟ أجاب "الناصر": لا.. لا يجوز.. ماذا تعني؟ قال "ابن تيمية": ألا تعلم يا مولاي ما الحكم فيمن يتولى عملاً من الأعمال الهامة وأهدى هديةً لواحد لينال ما لا يحق له، أجابه "الناصر": أعلم يا "ابن تيمية"، إن ذلك حرامٌ على المُهدي والمُهدى له، وهي من الرشوة التي قال فيها الرسول ﷺ: لعن الله الراشي والمرتشي، قال الشيخ: صحيحٌ هذا يا مولاي، وكذلك هو الحكم في الهدية للشفاعة، مثل أن يُشفع لرجل عند ولي أمر في أن يرفع عنه مظلمة أو يوصل إليه حقه أو يُوليه ولايةً يستحقها، فهذا أيضًا لا يجوز فيها قبول الهدية، هذا ماهو متفشٍ في أرجاء البلاء يا أمين هذه الأمة.

ظهر الوجوم على وجه "الناصر" وسأل الشيخ: هل لدى شيخنا واقعة مُعينة يستدل بها على قوله؟ رد الشيخ "تقي الدين": نعم.. فموظفٍ كبيرٍ بديوان سلطنتك يُزور المراسيم السلطانية ليحصل على المال بغير حق، وكذلك أحد الأمراء البارزين ممن يلتفوا حولك يرتشي، وكل الولاة في كافة الأقاليم يستهدون الناس الهدايا المختلفة في المناسبات.. هذا ما هو متفشٍ في أرجاء البلاد، ويعلم مولاي "الناصر" من أقصدهم بذلك، قال السلطان: سنبحث الأمر، ونقوم بضبط الموظف المُزور مُتلبسًا بفعلته، وسنُطبق عليه أقصى أنواع العقوبة بثمل عينيه، كما سنُحاسب كل الولاة ممن أقدموا على قبول الهدايا من الرعية، وسأخذ في الاعتبار كل ما بحثناه.. أيُرضيك هذا يا"ابن تيمية"؟ .. هل لك من مطلبٍ آخر؟ أجاب الشيخ: ما بقي لي إلا رجاءً واحدًا، وهو الاهتمام بالسجون والمساجين،

فمولاي لا يعلم بما يجري داخلها من أمورٍ لا يقرها الشرع ولا يقبلها العُرف، فـ"سجن الجُب" بالقلعة مُظلمٌ كئيبٌ، تنبعث منه الروائح الكريهة، وتعشش فيه الخفافيش والهوام، ويُقاسي فيه المساجين ماهو أشر من الموت، ناهيك عن ذلك يا مولاي، فالسجناء فيه يُسخرون بأعمالٍ تتنافى مع الإنسانية، فيُرهقونهم بأخذ أتاواتٍ تنوء بها كواهلهم، فلتخفف عنهم مُعاناتهم، ولتأمر بألا يؤخذ من كل مسجونٍ غير نصف درهمٍ، كما تُطلق سراح بعض الأشخاص الذين يُسخرون غصبًا في بعض الأعمال مما ذكرتها لك .. هذه هي كل مطالبي، قال السلطان: سنقوم إن شاء الله بالإصلاحات اللازمة، وسنُخفف عن السجناء، ونأمر بالإفراج عن بعضهم، وسننظر في أمر "سجن الجب"، فلقد طرقت عليَّ فكرة هدمه وبناء برجٍ فوقه قبل أن تُحدثني بشأنه.. اطمئن يا "ابن تيمية"، فلك كل ماتريد من إصلاحاتٍ للبلاد.. كل ما تريد.

بعد أن جاءت موافقة "الناصر" لـ"قراسنقر" بالسفر لأداء فريضة الحج، غادر "قراسنقر" "حلب" واتخذ طريقًا غير مألوف إذ سار بمحاذاة الحدود الشرقية لـ"نيابة حلب" حتى وصل إلى "بركة زيزا"، فوردت إليه الأخبار بأن "الناصر" قد أحكم الحصار عليه من كل ناحية، وأن القوات المصرية موجودة بـ"نيابة حلب"، كما أنه أرسل إلى "الحجاز" قوة من "المماليك السلطانية" للقبض عليه حتى ولو مُتعلقًا بأستار "الكعبة"، فاضطر "قراسنقر" للاستنجاد بالأمير "مهنا بن عيسى" أمير العرب، وقال له: حاصرنا "الناصر" من كل مكان، وأصدر أوامره إلى نائبي "دمشق" و"غزة" و"أعراب بني عقبة" بقطع الطريق علينا ومحاصرتنا، فلا أستطيع التقدم إلى "الحجاز"، ولا العودة إلى "حلب"، ولا المضي في الطريق الذي سرنا فيه عند خروجنا من "حلب"، لهذا وافق "الناصر" في طلبي للحج، حتى يتمكن من القبض عليَّ، فلا مفر لي إذن غير الالتجاء إليك والاستنجاد بك، لترسل له في طلب أموالي من الأمير "قرطاي" الذي استنبته في "حلب".

أمر "الناصر" جميع "نواب الشام" بتضييق الحصار على "قراسنقر" للقبض عليه وعدم السماح له بدخول "حلب" ثانية، وبالفعل رفض الأمير "قرطاي" السماح لـ"قراسنقر" بالعودة إلى "حلب"، كما منع إرسال الأموال له، مما ترتب عليه أن هدد الأمير "مهنا" الأمير "قرطاي" بهدم "حلب" إذا لم يرسل أموال "قراسنقر"، فأرسل "قرطاي" بعض الأموال ثم استنجد "قراسنقر" بأم الأمير "مهنا"، فأجارته، ثم بعث إلى السلطان "الناصر" يطلب منه الأمان.

بعد أن توسط الأمير "مهنا" في طلب "قراسنقر" لدى "الناصر" وافق "الناصـــر" علـــى طلبه، وخيره في الإقامة بأي بلدٍ يشاء، وأن يحصل على كل أمواله من "حلب"، كما أرسل "قراسنقر" كتابًا لـــ"الناصر" يرجوه بأن يرسل له تقليدًا بـــ"قلعة صرخد"، ولكن في واقـــع الأمر كان "قراسنقر" يسعى للهرب واللجوء إلى "المغول" فرارًا من بطش "الناصر"، وقـــد أرسل لـــ"الأفرم" نائب "طرابلس" وكشف له عما أحَسَّ به نحـــو "الناصر"، فبادله "الأفرم" نفس الشعور، وزيَّن له الهرب والالتجاء معه إلى "المغول"، وراقت الفكرة لـــــ"الأفـــرم"، واستجاب إلى إغراء صديقه فحضر إليه وصح عزمهما على الخروج، وعندما أخذا الأهبة لذلك بدا التردد على "الأفرم" وأخذ يبكي وتمثل بقول الشاعر:

سَيَذْكرني قومي إذا جَدَّ جَدَّهم وفي الليلة الظلماء يَفتقد البَـدر

ولكن سرعان ما أخرجه "قراسنقر" من تردده ورد عليه قائلاً: أتبكي عليهم وهـــم لا يبكون عليك! فرد "الأفرم": والله ما بي إلا فراق ابني "موسى".

اتفق الاثنان على أن يبعثا بولديهما وحريمهما إلى "الناصر"، وقد طلبا من الرســـول المرافق لأسرتيهما أن يبلغ السلطان أنه ما حملهما على دخول بلاد العدو إلا الخوف منـــه وإن الأولاد والحريم وديعةٌ عنده فليفعل بهم ما يليق به وبهم.

كانت سياسة "الناصر" تهدف إلى القضاء على ذوي النفوذ والقوة من كبـــار الأمـــراء وخاصةً نواب "نيابات الشام" وعلى رأسهم الأمير "قراسنقر" لما كان له من تـــأثير علـــى "نواب الشام" الذين أعادوا السلطان إلى كرسي السلطنة بـــــ"مصـــر"، وأدرك الســـلطان "الناصر" أنه لن يستقيم حكمه طالما كان أمثال "قراسنقر" أحرارًا بـــ"بلاد الشـــام"، ولكـــن "قراسنقر" بحنكته السياسية وخبرته في مجال العمل السياسي بـــ"بـــلاد الشـــام" و"مصـــر" أدرك ما يُخطط له "الناصر"، فقرر الخروج من "بلاد الشـــام"، وكـــان لقـــاء "قراســـنقر" بـــ"الأفرم" لقاءً مُدبرًا، وقد اتفقا بمن معهما على الدخول إلى "بلاد المغول"، وبذلك انتهت حركة "قراسنقر" بعد أن ضَيَّق "الناصر محمد" الخناق عليه.

أقطع "خربندا" "قراسنقر" إقطاع "مراغة" و"الأفرم" إقطاع "همذان"، ثم التفت "الناصر" بعد ذلك وأمر بالقبض على كل من "جمال الدين آقـــوش" و"ســـنقر الكمـــالي" و"لاجـــين الجاشنكير" و"مغلطاي المسعودي" وسجنهم جميعًا بـــ"قلعة الجبل" لمـــيلهم لـــــ"قراســـنقر" و"الأفرم"، ثم خلع على "تنكز الحسامي الناصري" "نيابة دمشق" فكان أول من رقَّـــاه إلـــى الرتب السنية، ثم استقر "سودي الجمدار" بـــ"نيابة حلب" واستقر "تمر الساقي المنصـــوري" في "نيابة طرابلس"، و"المؤيد عماد الدين إسماعيل" "نيابة حماه".

عودة لـ"القاهرة".. فتم القبض على "موسى بن علي" ببيت "استادار الفارقاني" في "حارة الوزيرية"، وحُمل إلى السجن مُقيدًا، كما تم القبض على باقي المتآمرين من الأمراء كالأمير "كراي" و"بيبرس الجاندار" و"مقطلبك المنصوري" وغيرهم، وأمر "الناصر" نائبه "بكتمر الجوكندار" بتنفيذ حكم الإعدام فيهم جميعًا يوم الجمعة القادمة بعد الصلاة حتى يكونوا عبرة لغيرهم، فرد "بُكتمر" متسائلاً: حتى الأمير "موسى بن علي"؟ أجابه السلطان: حتى الأمير "موسى بن علي".

في اليوم المحدد لتنفيذ عقوبة الإعدام حضر جمع غفير من أهالي المتآمرين وأصدقائهم، وما كاد المتآمرون يظهرون أمام الناس حتى أخذوا يولولون على مصير هؤلاء المساكين رغم جسامة جرمهم، وارتفع صوت البكاء، وكان السلطان "الناصر" يشرف من مكان عالٍ على الجميع، فسمع البكاء والنحيب ومست استغاثة المستغيثين قلبه، فتأثر غاية التأثر، ولم يتمالك نفسه، فأصدر أمره بالعفو عن المذنبين في آخر لحظة، فارتفعت أصوات الناس بالدعاء له، وزاد حب الرعية لـ"الناصر".

لم يبقَ من المُتآمرين غير "بُكتمر" الرأس المُدبِّر للمؤامرة، فقد أخذ "الناصر" يُفكر في طريقةٍ للقبض عليه، ويتحين له الفرصة المناسبة للقضاء عليه.

أما "سلسبيل" الزهرة اليانعة التي تفتح جمالها في قلعة المُلك بدأت تُخايل عقل "الناصر" وتراوده فكرة الزواج بها، وحدَّث "مسكة" في هذا الشأن، فقالت له: دعني يا مولاي أتدبر الأمر، وإن شاء الله سآتي بالخبر السعيد، وحدثت "مسكة" "سلسبيل"، فقالت لها الفتاة ودموعها تتساقط على وجنتيها: لقد غمرني مولاي بفضله بما لم يعد في إمكاني القيام بشكره، وإن ذلك أكثر مما أستحقه، ولم يخطر لي ببال، فقالت "مسكة" وهي تدنو منها: بل أنتِ أهلٌ لأكثر من ذلك، وما من شخص عرفكِ إلا أحبك، ولم أسمع أحد ذكركِ إلا وأعجب بكِ، وبكمالك وهيبتك وأخلاقك، وإن إعجاب مولاي بكِ لشديد، فقد أفصح عن رغبته بالزواج منكِ، فظلت "سلسبيل" مصغية إليها، وبدت عليها علامات الاضطراب، فتنهدت ثم هَمَّت بالكلام، ولكن الحياء أسكتها، فأدركت "مسكة" ما تخفيه، فقالت للفتاة: لا ينبغي لكِ أن تستحي مني، فأنتِ تدركين كم أحبك، قالت الفتاة: لا تظني يا ست "مسكة" أني جاهلة حقيقة قدرك وحبك لي، ولكن اسمحي لي أن أصرح بحقيقة أمري، فأنا أحب ابن عمي "صلاح الدين"، تجاهلت "مسكة" بلباقة تصريحها واسترسلت قائلة: إنه السلطان.. السلطان يا ابنتي، ما من فتاة تستطيع أن ترفض الزواج من سلطان

البلاد، ولا يمكن لي أن أصرح له بهذا الرفض مهما كانت الأسباب، ونهضت "مسكة" وقالت: سأتركك الآن، فكري جيدًا فيما قلته لكِ، ولا أريد منكِ الرد سريعًا، خذي وقتًا كافيًا حتى تقرري مصيرك.

أما "بكتمر" المخطط للمؤامرة فاتجه "الناصر" بعد ذلك إليه وأخذ يتحين الفرصة للقضاء عليه، وفي أحد الأيام .. وحيث المكان المخصص للطيور التي تُستخدم في الصيد، خرج "الناصر" بقصد تفقد أحوال الطيور ومشاهدتها وهي تقوم بتمريناتها على الصيد ووقف "الناصر" وفي صحبته "بُكتمر" وقال له: الآن يا عمي ما بقي في قلبي غل إلا للأميرين "سيف الدين" و"كريم الدين"، وخفض "الناصر" صوته حينما ذكر اسميهما، فرد "بُكتمر" عليه: يا خوند.. والله لا تخرج من هذا المكان إلا وتجدني قد أمسكت بهما، فقال السلطان: لا.. لا دعهما إلى يوم الجمعة بعد الصلاة، فرد "بُكتمر": السمع والطاعة لمولاي "الناصر".

ولما كان يوم الجمعة وقد وصل الأميران المعنيان إلى المسجد، والجمع حاضرون في الجامع للصلاة، قال "الناصر" لـ"بُكتمر": والله إني لأستحي أن أراهما، فعليك أنت أن تمسك بهما إذا ما انتهت الصلاة ودخلت أنا إلى داري، ثم تتوجه بهما إلى المكان الذي حددته وذكرته لك حيث تجد هناك أميرين في انتظارك وهما الأمير "قجماس" والأمير "منكلي بغار"، فتسلمهما لهما ثم تذهب أنت إلى حال سبيلك.

جاء يوم الجمعة.. وصلَّى الناس، وخرج السلطان مُغادرًا المسجد، وما أن خرج حتى تقدم "بُكتمر" وجنوده إلى الأميرين فقبض عليهما، وبسرعة توجه "بُكتمر" إلى حيث المكان الذي حدده "الناصر"، وهناك وجد "بكتمر" الأميرين المذكورين، فقال أحدهما له: عليك السمع والطاعة لمولانا السلطان، أعطني سيفك، فرد "بُكتمر": أخشى أن تكونا مخطئين، فلقد فارقت السلطان الساعة، وقد طلب إليَّ أن أمسك بهذين الأميرين وأحضرهما إليكما، فقال له الأمير "قجماس": نحن نعرف جيدًا ما نفعل، والمقصود بالقبض عليه هو أنت يا نائب السلطان، فأمسكاه وأطلقا سراح الأميرين الآخرين، وبهذا يكون "الناصر" قد حقق رغبته في القبض على "بُكتمر" بهذه الحيلة الماكرة.

سيق "بُكتمر" إلى "سجن القلعة"، ثم بعث السلطان في استدعائه، فمثل بين يديه، وقال السلطان له: أوكنت تظن أنني غافلٌ عما قمت بتخطيطه بالاتفاق مع الأمير "موسى بن علي" مُستعينًا بـ"المماليك المظفرية" وباستمالتك لأمراء "الشام"، وبإصدارك تعليمات لكل طائفة بالقبض على الأمراء الذين هم في خدمتهم في يوم عينته أنت لهم يا "بُكتمر" على

أن يُساق الأمراء جميعًا بعد القبض عليهم إلى قبة القصر خارج "القاهرة"، فيكون الأمير "المظفر موسى بن علي" قد سبقكم إلى هناك، أليس كذلك؟ لكن مؤامرتك لم يُكتب لها النجاح وباءت بالفشل، أتعلم لماذا؟ لأن "بيبرس الجاندار" وهو ممن اتفقت معهم قد أعلم خشداشه "قراقمر الخاصكي" بما عزمتم عليه، فوشى بكم جميعًا، وأبلغني بالمؤامرة الدنيئة التي خططتم لها بالاتفاق مع نواب "الشام" أمثال: "كراي المنصوري" نائب "الشام" خشداشك.. أليس كذلك؟ والأمير "بتخاص" والأمير "مقطلبك المنصوري" نائب صفد" وآخرين.. فما رأيك الآن بعد أن انكشفت مؤامرتك؟

ظل "بُكتمر" واقفًا لا ينطق ببنت شفة، مُطرقًا بنظره إلى الأرض من شدة خوفه وخجله، فقال "الناصر": خذوه.. وأعيدوه إلى محبسه حتى يلحق بشركائه الخونة ثم ننظر في أمرهم غدًا.

قام "الناصر" باستدعاء باقي الأمراء من "سجن الإسكندرية"، وألحقهم بـ"سجن القلعة"، وبذلك يكون "الناصر" قد نجح في القضاء على كل المتآمرين على ملكه، والخارجين عن طاعته، ولم يعد أمامه غير أن يأخذ قسطًا من الراحة والاستجمام، فعاودته فكرة الخروج للحج.

عادت "سلسبيل" تفكر فيما قالته لها "مسكة"، ولم تجد لها مرفئًا غير الأميرة "مُلكان" تشاورها في الأمر، فخرجت الفتاتان في نزهة للأهرامات، وأخرجت كل منهما ما يجيش في صدرها للأخرى، وحدثت "سلسبيل" "مُلكان" في طلب عمها "الناصر" للزواج بها، كما حدثت "مُلكان" "سلسبيل" بشأن انصرافها عن "موسى" ابن عمها، فلم تعد تحبه كما كانت، ولا تأمن على نفسها معه، وقالت "سلسبيل" لـ"مُلكان": لولا حاجتي إلى عونك لأخذ النصيحة لكتمت هذا السر عنكِ، فالسر إذا جاوز الاثنين شاع، ولكني لفرط ثقتي بكِ يا "مُلكان" لا أخفي عنكِ شيئًا، أنا في غاية الحيرة، ولم أذق ليلة أمس للنوم طعمًا، فانصحيني بربك ماذا أفعل وأنا أحب "صلاح الدين" ولا أرتضي عنه بديلاً؟ فابتدرتها "مُلكان" قائلة: إن الأمر غاية في الصعوبة، فلا أستطيع أن أسدي لكِ بنصيحة، فإن السلطان عمي لا ترفضه أي فتاة مهما بلغ شأنها، فما بالك وأنت ابنة رجل بسيط، فهل من المعقول أن ترفضي طلبًا كهذا؟ وما هي أسباب رفضك له، أتخبرينه بحبك لابن عمك؟ محالٌ.. فربما يجد في رفضك له سببًا في إيذاء "صلاح الدين"، تعقلي يا "سلسبيل" ولا ترفضي، ولكن خذي وقتًا كافيًا حتى تستبين لكِ الأمور وتتخذي القرار الصائب.

عادت الفتاتان إلى القلعة، فأسرعت "سلسبيل" إلى غرفتها، ونزعت ثيابها، واستلقت على الفراش للراحة والتأمل، وأجّلت القرار في أي شئ حتى ميعاد زيارة أهلها يوم الجمعة القادم.

وبعد عدة أيام من عفو السلطان عن ابن أخيه "المظفر موسى بن الصالح علي بن المنصور قلاوون"، استدعى "الناصر" "موسى"، فحضر إليه، وقبَّل الأرض بين يديه، ووقف أمامه وقفة المتأدب ونظره مُغضٍ إلى الأرض، فقال له السلطان: ماعفونا عنك إلا لصلة الرحم التي أوصى الله بها عباده، وقد كنت قبل اكتشافي لمؤامرتك على وشك الموافقة على زواجك من الأميرة "مُلكان"، لكن الأمر اختلف الآن، فما عادت الأميرة "مُلكان" ترتاح إلى الزواج منك لما اكتشفته فيك من خسة، وقد سعى في خطبتها العديد من الأمراء.. لا يقل شأن أحدهم عن الآخر.

امتقع وجه الأمير "موسى" وظل يقدم اعتذاره على ما بدر منه في حق عمه ويلقي باللوم على "بُكتمر" في تحريضه على ذلك وفرش بساطًا من الوعود له حتى استماله إلى مخططه، وأقسم بأنه تراجع في آخر لحظة حُبًّا لعمه، لكن من سوء حظه أن المؤامرة نما خبرها إلى "الناصر" فعلم بما دبره "بُكتمر" والأمراء، وظل "موسى" يُكرر الاعتذار، وحمد الله على قبول "الناصر" لتشفع الناس فيه، لكن السلطان لم يكترث بما يقوله، فقاطعه قائلاً: أمازلت ترغب في الزواج من "مُلكان"؟ أجاب "موسى": نعم يا عماه .. مازلت راغبًا في الزواج منها، وأشكر لها دورها الفعال في تراجعي عن تلك المؤامرة، لما تكنه من محبةٍ وإخلاصٍ ووفاءٍ لشخصك الكريم، فقال السلطان: لقد سامحناك وعفونا عنك، وسأحاول التوفيق بينكما، ويفعل الله ما يريد.

لكن "مُلكان" كانت واقفة من وراء الستر تسمع حديث عمها لـ"موسى"، وخافت أن يتفقا على الخطبة، وتنفست الصعداء حينما سمعت الحديث لآخره.

أما فيما يتعلق بالخليفة العباسي فظل السلطان "الناصر" يتلمس له الأخطاء حتى وصل إلى علمه أنه يكثر من اللهو ويتدخل في شئون الدولة فأمر باعتقاله في القلعة لمدة خمسة أشهر وبضعة أيام ثم أخرجه منها وأرسل به إلى "قوص".

البنَّاء العظيم

بعد أن انتهى "الناصر" من القضاء على المُتآمرين، واستقرت أحوال البلاد، وسكنت نفسه حتى التفت إلى بلده الذي يحبه، والذي ولد تحت سمائه، وترعرع في أحضانه، ذلك الحب الذي انعكس بأجلى صوره فيما قام به من تعمير حتى أن الناس جميعًا لم يبقَ أحد إلا ويعمر بيته، وكأنما نودي في الناس ألا يبقَ أحدًا حتى يعمر، فأمر ببناء القاعات السبع لأجل جواريه داخل القلعة، وكذلك بالقاعات السبع التي أنشأها خارج "قلعة الجبل" في منطقة "مناظر الكبش" قرب "مسجد ابن طولون" وقد خصصها لبناته لينزلن فيها لـ"الفرجة" على مواكب السلطان حين اتجاهها إلى الميدان الكبير، كما أمر بحفر عشرة آبار بعمق أربعين ذراعًا، وأمر بتركيب سواقي عليها حتى يرتفع الماء من النيل إلى القناطر، ويجري عليها إلى القلعة حتى تزيد كمية المياه داخل القلعة، حيث كانت القلعة مقر الحكم، وبها دواوين الدولة، وقصور الأمراء البارزين.

لم تقتصر فائدة هذا المشروع على شخص "الناصر" وأسرته فحسب، ولكنه كان منفعةً للجميع، كما أنشأ "الميدان العظيم" تحت "قلعة الجبل"، ووزع العمل به على الأمراء، فصارت جمالهم تنقل الطين إليه حتى امتلأ، وحفر فيه الآبار، ورُكِّبت عليها السواقي، وغُرس فيه النخيل والأشجار المختلفة، وأحاطه بسورٍ عظيمٍ من الحجر، وبنى خارجه حوض ماء للسبيل، وكان الأمراء يلعبون الكرة في "الميدان العظيم"، كما أنشأ فوق الميدان "القصر الأبلق"، وحرص على أن يجعله من أعظم أبنية عصره، فاستدعى له من "دمشق" مَهَرَة البنائين والمُزخرفين ليساهموا مع مهرة الصُناع في "مصر" على إبداعه، أما واجهته فمكونة من عدة اشرطة عريضة متوازية، لونها أسود وأصفر على التوالي، هذا النوع من العمارة ظهر لأول مرة في قصر "الظاهر بيبرس" بـ"دمشق"، أما في "مصر" فنراها في واجهة "مسجد الظاهر بيبرس".

كان "الناصر" كريم النفس، لا ينسى من وقف جانبه في المواقف الصعبة، فلم ينسَ الأمير "تِنكز" حينما عَرَّض حياته للخطر يوم تزعم حركة إرجاعه إلى عرشه بعد أن لجأ إلى الكرك في سلطنته الثانية، فأراد "الناصر" أن يكافئه، فأعطاه "نيابة الشام" بعد عودته الثالثة، وأعلى مكانته في تلك البلاد التي قام فيها، وكان "تِنكز" موضع ثقة للسلطان وموضع إجلال، فالكل يحترمه ويجله عن باقي الأمراء.

تزوج "الناصر" بابنة الأمير "تنكز" وتُدعى "خوندة مطلونبك"، وقد كانت من المقربات إلى السلطان بحكم الصلة الوثيقة التي كانت تربطه بوالدها، وهي تلك الصلة التي ظلت تقوى مع الأيام.

كان السلطان يومًا ما في رحلة صيدٍ بالصعيد مع أصحاب له ومعه الأمير "تنكز"، وما أن عاد إلى "قلعة الجبل" حتى نادت البشائر بوضع حمل الخوندة "مطلونبك"، فدخلت إحدى الجواري عليه تبشره، وكان "تنكز" معه، فسجد لله شكرًا، ثم قال: يا خوند.. كنت أتمنى أن يكون المولود بنتًا، وقد حقق الله أمنيتى، ولو أن ابنتي وضعت ولدًا لكنت أخشى من تمام السعادة، فإن السلطان قد تصدق علي بما غمرني به من سعادة فخشيت كمالها، والآن وبعد أن اطمأننت على ابنتي فليأذن لي مولاي بالعودة إلى "الشام" صباح غدٍ، فقال له السلطان: وهل بقي لك يا "تنكز" حاجة تريد أن أقضيها لك قبل سفرك؟ أجابه: والله يا خوند مابقي في نفسي شيئًا أطلبه إلا أن أموت في أيامك، فقال السلطان: لا .. إن شاء الله تعيش أنت وأكون أنا فداؤك أو أكون بعدك بقليل، ولم يترك السلطان "تنكز" يخرج بمفرده، بل اصطحبه حتى أوصله إلى الباب الخارجي للدور السلطانية، وظل يحادثه طوال الطريق تكريمًا له، وهذا ما لم يحظَ به أحدٌ من الأمراء.

في إحدى الجلسات .. أخبر "تنكز" السلطان عن رجلٍ يُدعى "يوسف الكيماوي" له قدرة عجيبة على تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، فاندهش السلطان مما قاله "تنكز" عن تحويل الرجل للمعادن الخسيسة إلى نفيسة، فسأله: من أي جهة بالتحديد هذا الرجل؟ أجابه "تنكز": من مدينة "الكرك"، ووفد إلى "دمشق" حيث قابلني، وأخبرني بما حباه الله له من قدرة خارقة يستطيع بها أن يُحوِّل المعادن إلى ذهب، فسأله السلطان: وهل أجرى أمامك تجربة؟ أجابه "تنكز": أجل .. وقد ذُهلت وازداد إيماني بصدق الرجل فيما يدَّعيه، فقد قال لي: إن الله أعطاه علمًا كما أعطى "قارون" من قبل، فاستغرب السلطان، وقال: ابعث في طلبه لأرى بعيني ما تحدثني به، فأجابه: حسنًا.. سأبعثه إليك، فقاطعه السلطان قائلاً: نسيت أن أسألك.. ما هي أدواته المستخدمة في عملية التحويل؟ رد "تنكز": والله ياخوند .. على ما أتذكر أنه أحضر بوتقةً ملأها بقطع النحاس والقصدير والفضة، ثم أوقد عليها النار لمدة ساعة حتى ذاب ما فيها من معادن، بعدها أضاف عليها بعض الأصباغ التي كانت معه، ثم أفرغ بعد ذلك كل ما في البوتقة في قالبٍ فإذا هي سبيكة ذهبٍ كأجود ما يكون الذهب، اندهش السلطان ثم وقال: لا أصدق ما تقول!! دعني أرى بعيني، فربما يكون مُحتالاً احتال عليك، وخدع بصرك بحيلته.

لم يغفل "الناصر" عن الاهتمام بالإصلاحات والتعديلات في البلاد بعد أن قاسى الناس من الإجحاف بهم، فكانت الضرائب ترهق التجار، وكثيرًا ما كان التجار يغلقون متاجرهم لعدم تمكنهم من دفع المكوس، وخوفًا من بطش رجال الدولة بعقابهم أمام العامة بالأسواق، وبحبسهم أيضًا.

وفي أحد الأيام.. دخل بعض موظفي الدولة في حملتهم لجمع الضرائب على متجر السيد "أبي منصور"، وكان يُصلي في ركنٍ من أركان متجره، وما أن فرغ من أداء صلاة الظهر حتى هَمَّ باستقبالهم مُرحبًا وهو يردد أهلاً وسهلاً ومرحبًا كنوعٍ من أنواع الاستلطاف، ولاستجلاب رضاهم، فأمر لهم بشراب اللوز، ولكنهم رفضوا تناول أي شئ، وقال كبيرهم: نحن جئنا في طلب ما عليك من حقٍ للدولة، فرد "أبو منصور" وقال: ونحن تحت أمر الدولة ورجالها، وأمر سلطانها حفظه الله وثبت مُلكه، فقال الجابي: أنت تعلم ما عليك من متأخرات، أجاب "أبو منصور": أعلم ذلك، وهل لي أن أقسط هذه المبالغ على دفعات، فصاح فيه الجابي: أمهلناك بما فيه الكفاية، وما عليك الآن غير دفع هذه المبالغ كاملة، وإلا سقناك إلى الوالي ليتصرف في أمرك، فقال "أبو منصور" وهو يرتعد من الخوف: حسنًا.. سأدفع، ولكن أريد مُهلة يوم واحد، أجمع فيه المبلغ المطلوب، فقال الجابي: لن نمنحك ساعة واحدة، والتفت مُحصل الضرائب إلى الجندي المُكلف بحمل الدفتر بأن يفتحه ويعيد النظر في متأخرات "أبي منصور" على وجه الدقة، وصاح الجابي في "أبي منصور" وقال له: أتعرف كم عليك من متأخرات للدولة.. وما يستوجب دفعه من أموال؟ فقال "أبو منصور": لقد سبق وأن أعلمتني، فرد عليه الجابي إذن فلا مفر أن تدفع الأموال الآن، وإلا جلدناك، وأوثقناك، وسُقناك إلى الوالي، فقال "أبو منصور": الأمر لله من قبل ومن بعد، افعلوا ما شئتم فلا حول لي ولا قوة، فأمر الجابي الجندي المُكلف بالضرب بأن يجلده أمام الناس، وقال الجابي بعد أن أشبعه الجندي ضربًا: كفى.. والآن سنمهلك للغد، أسمعت للغد، على أن تحضر لنا الأموال بنفسك.

وما أن رأى التجار هذا الظلم والتعسف حتى سارعوا بإغلاق متاجرهم خوفًا من أن يأتي الدور عليهم، ويحدث فيهم ما حدث لـ"أبي منصور"، وأخذ "أبو منصور" يبكي ويرفع يده إلى السماء تضرعًا إلى الله بأن يرفع عنه هذا الكرب العظيم، وعاد المجذوب من جديد يتجول في السوق وهو يردد:

هَوِّن عليك فلا هُناك ولا هنا　　صَبرًا جميلاً فالمغيث هنا هنا

عاد الرجل إلى داره مغمومًا، حزين النفس، كاسف البال، وما أن رأته زوجته على هذي الحال حتى لطمت خديها وقالت: وا مصيبتاه.. ماذا بك يا "أبا منصور"؟ فقصَّ عليها ما حدث، فقالت: خذ كل ما أملكه من مصاغٍ وادفعه لهم، وكذلك حجة بيت أبي الذي ورثته عنه، فنحن في غير حاجة إليه، وأسرعت "أم منصور" في إحضار صُرة المصاغ من صندوق خشبي عتيق، وكذلك حجة البيت وقدمتهما إلى "أبي منصور" وهي تقول: هون عليك يا رجل ولا تحزن، خذ وسدد ما عليك من ديون، وسيخلف الله علينا خيرًا منه، فقام " أبو منصور" يتوضأ ليصلي العشاء، وقامت "أم منصور" لتعد له العشاء.

عانى الناس من الضرائب التي كانت تُفرض عليهم وتشمل كل قطاعات الشعب، لا تترك قطاعًا إلا مسَّته، كالتجار والسماسرة وأصحاب السفن والمُسافرين فيها من الأغنياء والفقراء على السواء وأصحاب المعاصر وزراع القصب والأرامل اللائي كانت الدولة تُلزمهن بتربية الكتاكيت لها والمساجين الذين يحكم عليهم ولو ليومٍ واحدٍ و يؤخذ من كل سجين ستة دراهم عن كل يوم، وأولئك الذين يعملون في تنظيف المجاري، وممن يقيمون الأفراح، بل ومن البغايا وغيرهن، وتيقظ السلطان "الناصر" لذلك، وتأكد من صحة ما قاله "ابن تيمية"، فأعفى التجار مما كانوا يدفعونه للمشرفين على الأسواق، وعمل على إبطال معظم المكوس، وتخفيف القليل منها، مما كان له أبلغ الأثر في نفوس الناس وزيادة حبهم له، وبذلك يكون السلطان قد كسب جولة أخرى بعد أن حقق الانتصار على أعدائه.

المُصارحة

عادت تلح على "الناصر" فكرة الزواج من "سلسبيل"، وفيما هو كـذلك رأى السـيدة "مسكة" فعاجلها بسؤاله عن "سلسبيل": كيف حال "سلسبيل"؟ فلم أعد أراها منذ بضعة أيام، أجابته: على خيـر ما يُـرام يا مولاي، لا ينقصها سوى رؤياك، فقال: وأين هـي الآن؟ ردت: مع الأميرة "مُلكان" في جناحها، فهما لا يفترقان، قال "الناصـر": رتبـي موعـدًا لأحدثها في أمر الزواج، فقالت: السمع والطاعة لمولاي السلطان.. ومتى يُريد مولاي أن يراها.. اليوم أم غدًا؟ رد: اليوم.. فأنا لستُ مُنشـغلاً بمواعيـد، فقالـت "مسـكة": إذن.. سأذهب إليها وأحدثها في أمر هذا اللقاء، وربما عدت بها الآن.

استأذنت "مسكة" في الانصراف، وخرجت ثم عادت بعد قليل وبصحبتها "سلسـبيل"، ودخلت على "الناصر" وهي تبتسم قائلةً: ها هي "سلسبيل" قد أحضـرتها لمـولاي، فقـام "الناصر" من مقعده، وتقدم نحو الفتاة، وانحنت "سلسبيل" احترامًا له، وقبّلت الأرض بـين يديه، فقال "الناصر": أهلاً ومرحبًا بالعزيزة الغالية، ثم أشار بيده إليها بالجلوس، فجلست، وجلس "الناصر" جانبها، وأمر "مسك الختام" بالانصراف، فتراجعت "مسكة" للوراء حتـى وصلت إلى باب القاعة ثم خرجت.

التفت "الناصر" إلى الفتاة مُتسائلاً: أأنتِ سعيدة في الإقامة معنا؟ أجابته: نعم.. أنا في غاية السعادة يا مولاي، قال: أتحبين أن تبقي معنا الآن أم تُفضلي العـودة إلـى أبويـكِ؟ قالت: إنني تعودت الحياة هنا، وأصبحت لا أشعر بالغربة كما كنت أشعر بها من قبل، بل أنني أستأنس بالحياة معكم، وخاصةً بعد أن أصبحت صـديقةٌ حميمـة للأميـرة "مُلكـان" وأصبحنا كالأختين لانفترقا، وإن كنت أشتاق لأبي وأمي وابن عمي "صلاح الـدين" مـن وقتٍ لآخر، فسألها "الناصر" مُستنكرًا: وهل "صلاح الدين" ابن عمك مُقيمٌ معكم؟ أجابـت الفتاة: نعم مُقيمٌ معنا منذ أن كفله أبي بعد موت أبويه، وقد كان صغيرًا، وكبرنا معًا، ويكن كل منا للآخر المودة والحب، ونحن شبه مُرتبطين، فنهض "الناصر" من مجلسه وترجـل في القاعة، ثم دنا من "سلسبيل" وقد سكتت عن الكلام وهي تبتسم ابتسامةً زادتها إشـراقًا وجمالاً، فحدثته نفسه أن يُقبلها ويضمها لصدره ويُصارحها بحبه ورغبته في الزواج منها، لكنه تراجع وتمالك نفسه وقال: أتحبين أن تقضي هذه الليلة نتسـامر فـي عـدةِ أمـور؟ فأوجسـت "سلسبيل" خيفةً من طلبه، وحسبت لذلك ألف حساب، وقالت وهـي تتفـرس

وجهه: "السمع والطاعة لمولاي وقد بدا عليها الخوف، وحدثتها نفسها بأنــه يضــمر لهــا شيئًا، لكنها كانت قوية الإرادة فتجلدت.

نادى "الناصر" على الساقي ليملأ الأقداح بالشراب، وقدم "الناصر" الكأس لهــا وهــو يقــول: اشربي.. إنه عصير التفاح، أما هو فتناول كأسًا فيها شراب أبيض اللون وقــال: أما هذا فشراب اللوز، وشربه دُفعةً واحدة وهو يقول: هيا اشربي كأســك يــا "سلســبيل"، فتحيرت الفتاة ولم يكن لها عهدٌ بالشراب، وتناولت الكأس وضمته بين راحتيها، ثم أخذت تتلفت حولها تريد الخلاص منه، رغم أنه شراب غير مسكر كما كانت تظن الفتــاة، أمــا "الناصر" فما أن استقــر الشراب في جوفه حتى بدا عليه الانتشاء، وغلب عليه المرح فدنا من "سلسبيل" وقال لها: أتقبلينني زوجًا لك؟ أجابت الفتاة على اســتحياء: ومــن لا تقبــل السلطان "الناصر" زوجًا لها .. لكن يا "مولاي" أنا شبه مُرتبطة بابن عمي "صلاح الــدين" كما ذكرت لك، فانتفض "الناصر" من مجلسه وصاح بأعلى صوته: ومن يكــون "صــلاح الدين" هذا حتى تُفضلينه عليَّ.. أنا السلطان "الناصر"، فارتبكــت الفتــاة وقالــت: ومــن لايعرف السلطان "الناصر" شمس البلاد ونورها الســاطع، ورب نعمتنــا جميعًــا؟ فقــال "الناصر": اسمعي .. إن وافقتني طلبي وأطعتني عِشتِ سعيــدة مُكرمة مُعززة أنت وأهلك أما إذا... وسكت.. فصاحت الفتاة: يا رباه.. لا تكمل يا مــولاي، فقد تعاهــد أبــي مــع "صلاح الدين"، ولك أن تسأله في ذلك، ومسحت "سلسبيل" دموعها، وقد أدركت الفتاة مــا سوف يحدث لأسرتها ولابن عمها من جُراء هذا الرفض.

استشاط السلطان غضبًا ثم قال: سآمر باستدعاء أبيكِ لأحدثه في هذا الشــأن ليحــل عهده مع ابن عمك، والآن.. لكِ أن تنصرفي إذا رغبتِ فــي ذلــك، فانتفضــت الفتــاة، وانصرفت ودموعها على وجنتيها.

ارتاب "الناصر" في هذا الرفض، ولم يعتد أن يُرفض له طلبٌ، وأخذ يُفكر بجدية في استدعاء أبيها ليُناقشه في أمر الزواج بعد أن زاده رفضها إصرارًا.

يُوسُف الكِيمَاوي

بعث الأمير "تِنكز" نائب "دمشق" "يوسف الكيماوي" لـ"الناصر"، فأدخلـه الحاجـب بعـد أن استأذن "الناصر" على الفور، فدخل حاملاً خرجًا على كتفه مُرتديًا ملابس غيـر مألوفة، ووقف تأدبًا بعد أن ألقى السلام على السلطان، وقبل الأرض بـين يديـه، فـرد السلطان عليه السلام وأشار إليه بالجلوس، ثم قال: سمعنا أنك تزعم للناس بخارق قـدرتك على تحويل الخسيس من المعادن إلى ذهب، فقال "يوسف": إنني لا أزعم يا مولاي ولكنها الحقيقة، لقد حباني الله بهذه القدرة والله على كل شئ قدير، فقال السلطان: وكم تسـتغرق التجربة من وقت معك؟ أجاب "يوسف": ساعة فقط لاغير، فقال السلطان: فلتجـرِ أمـامي تجربة حتى أصدقك القول، فأومئ "يوسف" برأسه إشارة بالطاعة وقال: حسنًا يا مولاي.

بدأ "يوسف" يخرج من خرجه الأدوات المُستخدمة في التجربة، ثم أمسك ببوتقة أخـذ يملأها بقطع النحاس والقصدير والفضة وهو يقول: "هذا نحاس، وهذه قطعة قصدير، أمـا هذه فقطعة من الفضة" فاستوقفه السلطان وقال: دعني أرى هذه القطع، فأعطاهم "يوسف" له، فتأملهم السلطان جيدًا ثم ردهم إليه، فقال "يوسف": هل اطمأن مولاي وتأكد بنفسه بأنها معادن خسيسة؟ .. ثم قال: والآن.. فلينظر مولاي ويتابع التجربة، وأعاد "يوسف" المعادن إلى البوتقة، ثم أشعل النار عليها وقال: ساعة واحدة ويتم الأمر.

وقف بعض الأمراء وحاجب السلطان صامتين يتأملون التجربة غير مصدقين، بينمـا أخذ السلطان يتجول في أرجاء القاعة منتظرًا النتيجة.

انتهت الساعة التي حددها "يوسف"، فأخذ يلقي في البوتقة شيئًا من الأصباغ ثم أفـرغ ما بها في قالب فإذا هي سبيكة من الذهب، فانبهر الحاضرون وقال أحدهم: إنه لسـاحر، فضحك السلطان وقال لـ"يوسف": سأنعم عليك بهذه السبيكة، فضـحك الجميـع وشـكره "يوسف" على عطيته ودعا له، ثم عاد السلطان يقول: بإمكانك إذن أن تصبح مـن أغنـى الناس على الأرض، أجابه "يوسف": هذا صحيحٌ ولكني أوقفت هذه القدرة على فعل الخير وعلى المحتاجين من الناس.. لا لأكون من الأثرياء، التفت السلطان إلى نائبه "سيف الدين أرغون" ثم قال: سيبقى "يوسف" معنا.. أكرموا وفادته وأنزلوه إحدى قاعات القلعـة فهـو ضيفي، وأعطوه كل ما يسأل، ثم التفت إلى "يوسف" قائلاً: ستمضي معنا وقتـا طيبًـا إن شاء الله.

نعود إلى العجوز "زمزم" وقد استدعاه "الناصر" للحضور، فمثل بين يديه، وبش الملك "الناصر" في وجهه وأجلسه بجانبه وبادره بسؤال:إنني أحببت مصاهرتك فهل ترضاني لك صهرًا؟ فوقع ذلك الكلام على قلب "زمزم" وقوع الصاعقة ولم يعلم بماذا يجيبه ووقع في حيرة لا يدري ماذا يفعل وسكت هنيهة ثم تشجع وقال: لا.. لا أقبلك صهرًا لي، فاندهش "الناصر" من رده وقال: وما سبب رفضك لي؟! هل ابن أخيك "صلاح الدين" سببٌ في ذلك الرفض بعد أن عاهدته على الزواج من ابنتك، ولا تريد أن تنقض عهدك معه؟ قال "زمزم": لا والله .. ليس هذا هو السبب، وإنما أحتفظ بالسبب لنفسي، فغضب "الناصر" وقال: فما السبب إذن لرفضك يا رجل؟ صمت العجوز، ولم ينطق ببنت شفة، فاغتاظ السلطان من عدم إفصاحه عن سبب رفضه وقال مُهددًا إياه: سأحبس ابن أخيك "صلاح الدين"، وسأنزل به أشد العقاب، وسأحبسك معه حتى ترجع عن إصرارك بعدم الإفصاح عن سر رفضك طلبي، فأنا الآن لا أريد الزواج من ابنتك بقدر ما أريد أن أعرف سبب رفضك، بل وأُصر على معرفة السبب مهما كان الأمر.

استمر العجوز صامتًا، فقال السلطان سأمنحك فرصة يومين حتى ترجع ومعك تفسير لهذا الرفض الغريب وإلا أنزلت بك أشد أنواع العقاب، ثم أمر بحبسه في "سجن القلعة"، فبكى العجوز وقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 86].

اندهش "الناصر" من غموض الرجل، ومشى يُناجي نفسه: ترى ما وراء هذا العجوز من أسرار يريد إخفاءَها عني؟ وبدأ يفكر حتى أجهده التفكير، وفيماهو كذلك دخلت عليه "مسكة" وقالت: هَوِّن عليك يامولاي ولاتنزعج، سنعرف قريبًا سبب رفضه، فابنته هي الأخرى تريد أن تعرف تفسيرًا لهذا الرفض، بينما كانت في بادئ الأمر تظن كما ظننا بأن الرفض بسبب ما تعهد به لابن أخيه، ثم قالت مُستنكرة: لقد علمتُ يامولاي أن العجوز قال: أزوجها لأي أحدٍ في الدنيا إلا للسلطان "الناصر"، إذن.. فلابد وأن يكون وراء إصراره سببٌ قويٌ يخص مولاي تحديدًا مما دفعه لاتخاذ هذا الموقف الغريب.

بعد يومين عاد "زمزم" من حبسه، وسيق مُكبلاً بالأغلال، فأخذ "الناصر" في الاستلطاف معه بعد أن أمر بفك قيوده، وأجلسه على مرتبة من منزلته وقال: أنت يا "زمزم" تقوم على سقاية "قلعة الجبل" كلها كما كان أبوك من قبل، وقد وثق أبي "المنصور قلاوون" في أبيك، كما وثق فيك لأمانتكما وحرصكما على سلامة أرواحنا، ولم يبدُ منك أي شئ يجعلنا ننقلب عليك، وأنا ما أردت غير مصاهرتك من فرط إعجابي بابنتك، فما

خطبك إذن.. تحدث ولا تخف مهما كان الأمر عظيمًا، فعاد "زمزم" للبكاء وقال: إني متعب يا مولاي، اتركني يومًا أو بعض يوم، وسأخبرك بكل شئ، فعاد السلطان إلى ما كان عليه من غضب وقال: لقد أمهلناك يومين ولم تقدم لنا سببًا وجيهًا لرفضك، ولقد ضاق صدري ولم أعد أحتمل الانتظار، وصاح بالحاجب وقال: أعيدوه إلى سجنه، وامنعوا عنه الطعام والشراب، وقوموا بالقبض على ابن أخيه "صلاح الدين" ربما عرفنا منه الحقيقة.

تم القبض على "صلاح الدين" فمثل بين يدي السلطان، فسأله السلطان: أحقًا أنك تريد الزواج من ابنة عمك؟ فرد "صلاح الدين": إذا كانت لديها مثل ما لدي من رغبة للزواج بها، أما إذا أبت.. فلا سلطان لي عليها، فقال السلطان: وهل ستحزن إذا ما رفضتك؟ أجاب: كيف لا أحزن وقد أحببتها منذ نعومة أظافرنا، ولا أقوى على فراقها، فسأله "الناصر": وماذا لو قلت لك أنني أرغب في الزواج بها، فما قولك في ذلك؟ رد "صلاح الدين" بأدب وقال: والله إذا قبلتك زوجًا لها.. فلن يكون لي غير الانسحاب من حياتها لتنعم بالسعادة مع شريك حياتها الذي اختارته بكامل إرادتها، وأنا أتمنى لها التوفيق من قلبي، ولن أضمر لها في نفسي أي حقد بل سأكون سعيدًا بزواجها من سلطان البلاد وسأسعد لسعادتها بكل تأكيد، قال "الناصر": وماذا لو رفَضَتْ الزواج مني؟ رد "صلاح الدين": لها ما تشاء من رفض أو قبول، فنهض "الناصر" غاضبًا وقال: وإذا كنت مُصرًا على الزواج بها رغم رفضها .. فهل لك أن تقنعها بالعدول عن رفضها؟ أجابه: لا يا مولاي، أرجوك لا تحملني ما لا طاقة لي به، فلها أن تقبل من تشاء أو ترفض من تشاء دون تدخل من أحد، سكت "الناصر" ولم يجد الحجة التي تدفعه للزج به في السجن، وأمره بالانصراف وقد احترم فيه شجاعته وصراحته.

انصرف "صلاح الدين" وهو خائفٌ على عمه وابنته من المجهول الذي ينتظرهما، وفي أثناء سيره أخذ يحدث نفسه: لماذا يرفض عمي زواج "سلسبيل" من السلطان؟ لابد أن هناك سببًا لا أعرفه يخفيه عني، وربما تنبئني زوجة عمي به، سأحاول استدراجها حتى أعرف ما وراء رفض عمي للسلطان، وما أن دخل البيت حتى صاحت به زوجة "زمزم" قائلة: أين عمك يا "صلاح"؟ لماذا لم يرجع معك؟ فقال: لا أعرف، وكل ما أعرفه أن السلطان مازال يلح عليه لمعرفة سبب رفضه، وهذا يُحيرني أنا أيضًا، فلماذا يرفض عمي زواج ابنته من سلطان البلاد؟! ولا يمكن أن أكون أنا سببًا لهذا الرفض، أعتقد أن هناك شيئًا أجهله يخفيه عَمِّي عني وعن "سلسبيل"، أما فيما يتعلق برفض "سلسبيل" فأنا أعرف

لماذا.. فهو نابع من حبها لي، وقد تعاهدنا قبل أن تذهب إلى القلعة على الحب إلى الأبــد، ولن تغيرها هذه الحياة المترفة مهما كانت الأسباب، ولكن كل مـــا يشـــغلني الآن ويثيــر شكوكي وفضولي هو رفض عمي للسلطان، فقالت: لا تبحث يا ولدي فيما ليس لـــك بـــه علم، ولا تتدخل فيما لا يعنيك، فربما يكون سبب رفض عمك هو أنت، فعاجلها "صـــلاح الدين" وقال: لا يا زوجة عمي، هناك سبب آخر أجهله، ربما تعلمينه ولا تريدين الإفصاح عنه، فظهر الارتباك على المرأة وقالت: أنا لا أعرف شيئًا مثلك تمامًا يا ولدي، وغيَّـــرَت مجرى الحديث فقالت: أنا لن أترك "زمزم" هكذا يعاني بمفرده، لابد لي من طلوع القلعـــة لمقابلة السلطان ليفرج عنه في الحال، واستعجب "صلاح الدين" وقـــال: مـــاذا وراءك يـــا زوجة عمي.. أفصحي، أهناك سرٌ تريدين الإفصاح عنه للسلطان حتى يأمر بالإفراج عن عمي؟! قالت: لا.. فأنا لن أتركه في معاناته وهو رجلٌ مُسن، نبيل الأخلاق، كريم النفس، شهم الطبائع، لا يجرح أحد، ولا يتفوه إلا بكل خير مع الناس جميعًا، سأنطلق صباح الغد إلى السلطان "الناصر" أسترحمه ليفك سجنه فـــ"زمزم" لا يقوى على هذا البلاء، وهنا تأكد "صلاح الدين" من وجود سر استشفه من حديث زوجة عمه، لكنه لم يصـــل إلـــى شـــئ، فمازال الغموض يُحيره.

في مجلس نيابة السلطنة يعلن حاجب السلطان عن حضـــور رســـول مـــن "الأفـــرم" و"قراسنقر" ومعه حريمهما وأولادهما، فأدخلهم الحاجب، وسلم الرســـول الرســـالة إلـــى "الناصر"، ففتحها وقرأها فاستاء أشد الاستياء منهما، وقال: بئس ما فعلا، لكنـــي لا آخـــذ أولادًا ولا حريمًا بجريرة آبائهم، ياللعار .. إنها الخسة، واللامُبالاة، ونظر "الناصر" إلـــى نائبه "أرغون" وهو حزينٌ وقال: أكرِم وفادة العائلتين، وأنزلهم بإحـــدى قاعـــات القلعـــة، وألحق الولدين بالخدمة إلى أن نوفر لهما السكن المناسب، فرد "موسى بن الأفرم" شـــاكرًا السلطان: نحن في طاعة مولانا السلطان.. ولا ذنب لنا فيما حـــدث، كـــذلك قـــال "ابـــن قراسنقر"، فالتفت "الناصر" إلى "سيف الدين أرغون" وأمره بإرسال رسائل إلى جميع نوابه بـــ"الشام" يأمرهم بعدم الاتصال بـــ"الأفرم" و"قراسنقر"، وعـــدم الـــرد عليهمـــا فـــي أي استفسار، فقد أصبحا خونة لوطنهما وأعداءً لابد وأن نأمن شرهما.

ولما كان لـــ"نيابة حلب" من أهمية بالغة، فقد دقق "الناصر" الاختيار وعـــين الأميـــر "سيف الدين سودي الجمدار" عوضًا عن "شمس الدين قراسنقر".

أما زوجة "زمزم"، فترددت في الذهاب إلى السلطان خشية أن يغضـــب زوجهـــا إذا علم، وتركت له حرية الاعتراف بالسر المجهول حتى لا يؤنبها فيما بعد إذا ما ذهبت إلى

السلطان وأدلت بما لديها من معلومات تكشف عن سبب رفض زوجها لزواج ابنتـه مـن السلطان، واستغرب "صلاح الدين" لذلك فسألها: أما قلتِ يازوجة عمي أنكِ ستذهبين إلـى السلطان صباح اليوم ليفرج عن عمي، أم أنكِ تراجعتِ عن الذهاب؟ فقالـت: أخشـى أن يغضب عمك إذا علم، فعاد يقول: ولكني أراكِ غير قلقة عليه كما كنتِ من قبل، فما سـر هذه السكينة؟ فأجابت: لأن "زمزم" من رجاله المُخلصين، فلن يؤذيه أحد، فقـال "صـلاح الدين": ألا تخشي أن يلفقوا له تهمة مناسبة ليزجوا به في غياهب السجن مدى الحياة إذا لم يُبرر للسلطان سبب رفضه؟ فأخطأت المرأة، وزلّ لسانها، وقالـت: فـي هـذه الحالـة سيعترف تحت وطأة الظلم، فقال "صلاح الدين": وبمَ يعترف .. أهناك ما يخفيـه؟! ومـا الذي يجعله يُفضل السجن على الاعتراف؟ يبـدو أن الأمـر عظـيمٌ يـاعمتي ويتعلـق بـ"سلسبيل" نفسها، فقالت: "اتركني وشأني يا "صلاح الدين" ولا تدقق في كل كلمة أتفـوه بها".

مَرَّ اليومان.. وعاد "زمزم" للمثول بين يدي السلطان، فكان شاحبًا، مُجهدًا، لا يقـوى على الحراك، فرق السلطان لحاله، وقال: أمازلت على موقفك يا "زمزم" أم تراجعت؟ رد العجوز بإصرار: لن أزوجها لك مهما كانت الأهوال التي سألاقيها، ثم سكت هنيهة وقال: زوجها لأحد أبنائك أو لأحد أمرائك ممن تثق بهم، سأترك لك الاختيار، أما أنـت.. فـلا. لا..! فقال السلطان مُستنكرًا: أتقبل زواجها من أحد أبنائي أو أمرائي ولا تزوجها لي وأنا السلطان "الناصر"!.

سكت "زمزم"، فحار السلطان في أمره، وفيما هو كذلك دخلت "مسكة" على "الناصر" بناءً على استدعائه لها، فتقدمت من "زمزم" ثم نظرت إلى "الناصر" وقالت: هل يأذن لـي مولاي أن أنتحي جانبًا لأحدث "زمزم".. فربما يفتح لي قلبه وينطلق لسانه معـي، فقـال السلطان: لكِ هذا.

مشى "زمزم" يُجَرجر قدميه، بينما مشت "مسكة" أمامه حتى وصلا إلى نهاية القاعة، فجلست وأشارت له بالجلوس، ثم قالت: يا "زمزم" .. إننا عرفنا سبب رفض ابنتك وهـو حبها لابن عمها، ولكننا لا نعرف سبب رفضك أنت للسلطان، فقال: عندى من الأسباب ما يكفيني وما يمنعني من الإدلاء بأية معلومات قد تضر بمصالح ابنتي، فربما أفقـدها إلـى الأبد، فاستنكرت "مسكة" ما قاله وأردفت قائلة: لا تُكابر يا رجل.. أجُننـت.. فالسـلطان "الناصر" عنيد، وقد يكرهك على الزواج من ابنتك وأنفك راغم، فَهَـمَّ واقفًـا وصـاح: لا والله.. لن يكون أبدًا، ولن يستطع السلطان مهما بلغ شأنه أن يتزوج ابنتي رغمًـا عـن انفي، إن الزواج يا ست "مسكة" لـه شروط، وأول شروطه القبول، فـإذا حـدث ذلـك سيكون زواجهما باطل.

اندهشت "مسكة" وتظاهرت بالهدوء ثم قالت: إذن.. فما عليك غير إبداء أسباب رفضك، وأنا أعاهدك بأن "الناصر" سوف يلتمس لك العذر إذا ما عرف قوة دفوعك التي تستند إليها في رفضك له، فلا تخف.. فلن يفعل السلطان لك شيئًا ولن يؤذيك.

لم تصل "مسكة" لنتيجة مع الرجل، فتقدمت إلى السلطان وقالت: لم أصل لحل معه، ثم عادت تقول: لماذا لا نرسل في استدعاء زوجته فربما نجد عندها السر الذي يحتفظ به؟ فأعجب "الناصر" بفكرتها، وبعث في استدعائها، وجاءت زوجة "زمزم" إلى القلعة، واستقبلتها "مسكة"، وأخذت في محاورتها منتظرة أن يذل لسانها بما يخفيه زوجها، لكن المرأة كانت حصيفة، خافت أن تبوح بما كتمه زوجها عنهم، وخرجت "مسكة" من ذلك اللقاء صفرة اليدين، وطلبت زوجة "زمزم" رؤية ابنتها، فأجابت "مسكة" طلبها، وساقتها إلى جناح ابنتها، فما أن رأتها حتى ضمتها إلى صدرها، وأخذتا تبكيان، وتوقعت "مسكة" أن تنصح الأم ابنتها بالعدول عن رفضها، فتنفك بذلك العقدة، ولكن الأم ظلت تواسي ابنتها وتدعو بقرب زوال الغمة، بينما أخذت "سلسبيل" تبكي والأم تقول: دموعك تحرق قلبي وتمزق أحشائي، ولا أحتمل يا ابنتي أن أراكِ على هذا الحال، وقالت "سلسبيل" بعد أن كفكفت دموعها: لقد رفضت الزواج من مولاي لأني أحب "صلاح الدين"، ولكني بت أتشكك في أمر أبي وفي أمر نفسي، فأصبحت أريد أنا الأخرى معرفة سر غموض أبي، وإعراضه عن إعلان سبب رفضه، ثم عادت تسأل أمها: أهناك شئٌ تخفيانه عني يا أمي.. أوليس أبي بأبي؟ ردت الأم: لا تقولي هذا يا ابنتي.. إنك ابنته، فقالت: ولماذا لم يُحدثني قط عن أمي؟ فمن تكون أمي إذن؟ وأين هي؟ وهل ماتت؟ أم طلقها أبي؟ أم مازالت حية ترزق؟ خبريني يا أمي بالحقيقة وأريحي قلبي، وأريحيني من عناء التفكير الذي سيقتلني، ردت المرأة: لقد تزوجت أباكِ وكنت طفلة رضيعة، ولا أعلم يا ابنتي شيئًا عن أمك غير أنها ماتت أثناء ولادتك، هذا كل ما أعرفه عنها.

ظلت "مسكة" صامتة لا تتدخل في الحديث، بل تسمع باهتمام بالغ منتظرة أن تخرج من الحديث بنتيجة، وبعد انصراف زوجة "زمزم"، عادت "مسكة" تُفكر فيما قالته المرأة لابنتها، وخرجت من هذا الحديث بفكرة ماكرة، فذهبت من فورها إلى "الناصر" وقَصَّت له ما سمعته، فسألها: وهل وجدت الحل الذي سيكشف لنا النقاب عن هذا السر؟ أجابت: نعم .. نبعث بجواسيس لنا في الحي الذي يقطنه "زمزم" يستطلعون الأمر من جيرانه المُقربين، فربما يهدينا أحدٌ إلى الحقيقة، فوافق "الناصر" وبعث بجواسيسه، فعادوا بنتيجة أدهشتهما، فقد عرفا أن "زمزم" لم يتزوج بامرأة أخرى قبل هذه الزوجة التي معه، إذن .. فمن تكون "سلسبيل"؟ ومن أين أتى بها "زمزم".. هل تبناها؟ وإذا تبناها .. فلماذا ينكر هذه الحقيقة؟ إلا إذا كانت هذه الحقيقة يشوبها شئ، وما دخل السلطان إذا كانت ابنة شرعية له

أم تبناها؟ هذا لا يمنع "زمزم" من الإفصاح ويترك الأمر لــ"الناصر"، إلا إذا كــان وراء "سلسبيل" سرٌّ خطيرٌ له علاقة بالسلطان "الناصر"، وما هو ذلك السر؟ وما علاقة "سلسبيل" بـــ"الناصر"؟ لا علاقة لها به على الإطلاق، كل هذه التساؤلات دارت في ذهـــن الســـيدة "مسكة"، فحدثت نفسها: هناك حلقة مفقودة لابد من الوصول إليها ليحل اللغز.

وبينما كانت "مسكة" في حيرةٍ من أمر العجوز كان "الناصر" لا ينسى واجباته تجــاه سلطنته وتأمين أطرافها، فقرر إرسال جيشٍ من "مصر" للاستيلاء على "ملطيـــة" بقيــادة الأمير "سيف الدين آوول"، و"سيف الدين بُكتمر الأبي بكري" والأمير "سيف الدين قلي".

كانت "قلعة ملطية" من قلاع "الأرمن"، تمد يد العون لــ"المغول" وغيرهم ضد "نيابـــة حلب"، وتقع "ملطية" شمالي "حلب" وجنوب "سيواس" وغرب "كختا".

توجه هؤلاء الأمراء إلى "دمشق" حيث رأس الجيش كله الأمير "سيف الـــدين تِنكـــز" نائب "دمشق" ومعهم جيش "حماه" ونائبه، ثم توجت الجيوش إلى "حلب"، ومنها إلى "عـــين تاب" حتى وصلت "ملطية" فحاصروها، وعندئذٍ خرج إليهم حاكمها "جمال الدين الخضـــر" وهو من "السلاجقة"، ومعه قاضي "ملطية" وغيرهما من كبار الرجال، فطلبوا الأمان مـــن الأمير "تنكز" قائد "القواد المملوكية"، فأمنهم على أنفسهم، غير أن قادة "الجيش المملـــوكي" لم يتمكنوا من منع قواتهم من النهب والسلب، فنهبوا مـــا فيهـــا مـــن أمـــوال المســـلمين والنصارى على السواء، كما استرقوا النصارى بها، وأسروا الشيخ "مندو" صاحب "حصن أركني"، وأسَروا "كربغا المغولي"، وانتهى الأمر بأن خَرَّب "الجيش المملوكي" "ملطية"، إذ أحرقها، ودمرها، وأصبحت بعد ذلك تابعة لـــ"نيابة حلب"، وبالتالي تابعـــة لـــــ"الســـلطنة المملوكية"، ثم هاجم الجيش بعض القلاع المُجاورة لــ"ملطية" مثل: "قلعة عريقفة"، وقتلوا نائبها الذي كان يُساعد حاكم "ملطية" ضد "نيابة حلب".

في "نيابة السلطنة".. جلس السلطان في مع نائبه الأمير "سيف الدين أرغون"، ودخـــل عليهما حاجب الحُجاب يخبره بحضور الأمير "بكتوت" والي "الإسكندرية"، فأمر الســـلطان بدخوله، وكان الأمير "بكتوت" يتمتع بخفة ظلٍ وحب "الناصر" له، فدخل الأمير "بكتـــوت"، وألقى السلام على السلطان، فرد السلطان عليه التحية ثم قـــال: مـــا وراء هـــذه الزيـــارة المفاجئة؟ فرد الأمير "بكتوت" مُبتسمًا: كل خيرٍ إن شاء الله يا مـــولاي، قـــال "الناصـــر": اجلس وهات ما عندك، يبدو أنه شئٌ هامٌ، أجاب "بكتوت": أجل يا مـــولاي.. هـــامٌ جـــدًا وعاجل، وما جئتك إلا لأعرض عليك أمر إعادة حفر "خليج الإسكندرية" الذي قد حـــدثتك عنه من قبل، ويعلم مولاي مدى فائدة هذا الخليج بالنسبة لأهالي "الإسكندرية"، إذ ينقطـــع عنهم مورد الماء العذب الذي منه يشربون، كما نجم عن إهمال هذا الخليج حرمان الكثير

من الأراضي من المياه، الأمر الذي ترتب عليه خرابها، فلم تعد صالحة للاستفادة منهـا، فما رأي مولاي في أن نسارع في تطهير الخليج وإعادة حفره حتى يستمر الماء فيه جاريًا طوال العام، هز السلطان رأسه معجبًا بما سمع ثم قال: ألهـذا جئتني يا نائب "الإسكندرية"؟ يا ليت كل نواب السلطنة مثلك يحرصون على تقديم المساعدات والخدمات الصالحة للرعية، وتوفير وسائل الراحة لهم، رد "بكتوت" مُبتسمًا: هل يأذن لي مولاي بإضافة أخرى أعرضها عليه؟ قال السلطان: تفضل، فقال: بما أن تطهير وتوسيع هذا الخليج وإعادة حفره وتعميقه سيترتب عليه زيادة في مساحات الأراضي بما يزيد عن المائة ألف فدان، وما يستجد على ذلك من خلق قرى عديدة، وإنشاء مدينة جديدة بإذن الله وإني لأقترح على مولاي أن نُطلق عليها لقب مولاي ونُسميها بـ"الناصرية"، فهل يوافقني مولاي الرأي؟ أجاب السلطان: أجل.. أوافقك.. وسأصدر الأوامر للبدأ في تنفيذ العمل في الخليج لما سيعود علينا من نفعٍ لصالح البلاد، وسأكلف الأمير "محمد ابن كندغدي" (ابن الوزيري) بتقسيم العمل بين الولاه والأمراء لإخراج رجالهم جميعًا، ولتحديد ما يُكلف به كل فريق من حفر، وسيُشارك الجميع في حفر هذا الخليج لننتهي منه في أقرب وقت.

شكر الأمير "بكتوت" السلطان على سرعة استجابته، وعاد إلى "الإسكندرية" ومعه الموافقة على البدء في تنفيذ هذا المشروع العظيم.

كان "الناصر" مُشبعًا بحب التعمير والإنشاء، وكان يسارع في إجابة أي مطلب يتعلق بذلك من غير توقف، ويأمر بصرف المال اللازم للمشروع المطلوب من غير تردد، وقد كان يسعده دائمًا أن يرى أمراءَه ومماليكه ورجال دولته ينسجون على منواله في التعمير والإصلاح، كما كان "الناصر محمد" يستهوي استجلاب الخيول العربية الأصيلة من أعراب "آل مهنا" و"آل فضل" بينما يكره خيول "برقة" حتى أنه اشترى فرسه الشهير "بنت الكُرماء" بمائتي ألف درهم وكان "الناصر" أول من اتخذ من ملوك "مصر" ديوانًا للإسطبل السلطاني فجعل له ناظرًا وشهودًا وكُتابًا لضبط أسماء الخيل وأوقات وُرودها ومعرفة أثمانها وأصولها، وإذا كبر فرس بعث به مع أحد "الأوجاقية" إلى "الجشار" بعدما يحمل عليها حصانًا يختاره ثم يأمر بضبط تاريخه، وبذلك توالدت عنده خيول كثيرة أغنته عن الطلب، ولكنه كان يرغب دائمًا في الفرس المجلوب أكثر مما توالد عنده، وكان في جشاره ثلاثة آلاف فرس يُعرض عليه نتاجها كل سنة فيدفعها ويُسلمها للركابين من "العربان" لرياضتها وتمرينها، ثم يُفرق أكثرها على "الأمراء الخاصكية".

السِّـــرْ

خرجت السيدة "مسكة" بأفكارٍ عديدة وافتراضاتٍ وتوقعاتٍ لا حصر لها، تزاحمت في رأسها فأجهدها التفكير وذهبت إلى حيث يجلس "الناصر" وعرضت عليه فكرة أن يحضر "زمزم" ليعلمه بخبر إقدامه على الزواج من ابنته يوم الخميس المقبـل، وبـذلك تنكشف الحقيقة حين مفاجأته بغتةً.

راقت الفكرة للسلطان وسكنت نفسه قليلاً، ثم دخل لينام فأنَّبه ضميره على مـا فعلـه بالعجوز المسكين بعد أن أمر بإلقائه في السجن، فقرر أن يطلق صراحه، ولكن سـرعان ماحدثته نفسه فتراجع عن قراره بعدما تملكت منه الحيرة في حل هذا اللغز، وخرج مـن حيرته بفتح كتاب الله الكريم كما كانت عادته كلما حارَ في أمرٍ من الأمـور، وقـرأ أول ماوقعت عليه عيناه فكانت هذه الآية:﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾. [يوسف:33]، فوجم "الناصر" واندَهش وغاب عن الوعي للحظات، ثم أفاق ممـاهو فيـه فتذكر كلمات العجوز حينما قال في لقاءهما الأول: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. [يوسف:83]، فارتجف "الناصر" وخارت عزائمـه وتغيـرت ملامح وجهه وماج الدمع في عينيه فتنفس الصعداء ورفع وجهه إلى السماء يقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه لا إله إلا أنت سـبحانك إنـي كنـت مـن الظالمين.

ظل يردد دعاء الاستغفار حتى ثقلت جفونه وغلبه النعاس فنام فرأى في منامه رؤيـة أيقظته مفزوعًا مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم.

بعث السلطان في استدعاء "زمزم"، فحضر إليه، وما أن رآه حتى قال لـه: سـنفرج عنك.. على أن تحضر أنت وزوجتك وابن أخيك يوم الخميس المُقبل لتحضر عقد قـران "سلسبيل" ابنتك، فقال "العجوز": على من؟ رد السلطان: عليَّ أنا، فأغشي علـى الرجـل، وسقط مُمددًا على الأرض وغاب عن وعيه، فانزعج السلطان، وأخذ هو ومن معـه مـن الأمراء في إفاقته، وبعد أن استعاد الرجل توازنه جلس السلطان جانبه وقال له: ماذا بـك يا رجل، أإلى هذا الحد تبغضني؟ قال "زمزم": أنا لا أبغضك يامولاي، فأنت رب نعمتـي، ولكن الأمر أخطر مما تظن، سأفضي به إليك قبل أن تقع الكارثة، قال السلطان مندهشـا:

كارثة .. أية كارثة.. تحدث .. ولا تتحرَّج.. مهما كان الأمر عظيمًا، قال "زمزم": اخلني بك أيها السلطان، قال السلطان: لك هذا.

قبل أن يتحدث الرجل قفزت الرؤيا التي أفزعت "الناصر" برأسه حينما رأى "زمـــزم" في منامه مرتديًا ثيابًا ناصعة البياض يشع منها النور وترتسم على وجهه ابتسامة الرضـــا بينما رأى "الناصر" نفسه مُكبلاً بالأغلال وتجثم على صدره صخرة كبيرة فأخذ يســـتغيث ولا مُغيث له، فاقترب العجوز منه صامتًا بهدوء ورفع عنه الصخرة ثم قام بفــك أغلالـــه ومضى بعيدًا، فنادى عليه "الناصر" فلم يجبه ولم يلتفت إليه حتى غاب عن الأنظـــار، ثـــم أفاق "الناصر" من تذكر رؤياه، واصطحب الرجل إلـــى إحـــدى القاعـــات وأشـــار إليـــه بالجلوس، فجلس العجوز وبدأ في الحديث قائلاً: سأحكي لك السر الغامض الـــذي أخفيتـــه عنك طوال هذه الأعوام.. هل يتذكر مولاي إحدى جواري أخيه "الأشرف خليل" وتـــدعى "نورزاد"؟ أجاب "الناصر": لا.. لا أذكرها، وما شأن جارية أخي "الأشرف" بهـــذا؟ قـــال "زمزم": وهل يتذكر مولاي يوم جنازة السلطان "الأشرف"؟ فـــامتعض وجـــه "الناصـــر" وأجاب: نعم .. إنه يوم لا ينسى، وظهرت على وجهه علامات الحزن والأسى، فقال لـــه "زمزم": معذرة يا مولاي لقد قلبت عليك الذكريات الأليمة، فقال الناصر: لا عليك أكمـــل حديثك، فقال "زمزم": في هذا اليوم الحزين خَرَجَت جواري "الأشرف خليل" إلى الشوارع حاسرات الرأس يلطمن خدودهن حزنًا عليه، وكان من بينهن "نورزاد"، رأيتها فـــي ذلـــك اليوم وقد أعياها العويل والبكاء حتى كادت تسقط على الأرض، كنت قريبًا منها فوجـــدتها تناديني مستغيثة وتقول: أدركني يا "زمزم"، سيغشى علي، وكانت المسكينة تتصبب عرقًا، فأخرجتها من وسط الزحام، فما كادت تتنفس الهواء حتى قالت لي: يبدو أنني على وشـــك الوضع، فعرفت في تلك اللحظة أنها حامل، فقلت لها: سأصحبك يا سيدتي إلـــى القلعـــة، فأفزعها قولي وقالت: لا.. لا.. أنا لا أريد الذهاب إلى القلعة فلم يعد لي مكان فيها، ولـــم يعد لي فيها أحد، فاصحبني إلى دارك يرحمك الله.

كانت المروءة تقتضي مني أن أقف جانبها في مثل هذا الظرف الحرج، فاصـــطحبتها إلى بيتى، فقامت والدتي بمساعدتها حتى وضعت بسلام، وبعـــد ســـويعات قليلـــة نـــادت "نورزاد" عليَّ، فأسرعت إليها، فقالت: اسمع يا "زمزم" إنني أشعر بدنو أجلي، وأريـــد أن أوصيك بوصية، فقلت لها: تفضلي يا سيدتي، فقالت: لقـــد وَضَـــعَت "أردكـــين" زوجـــة "الأشرف" له بنتًا من قبل، واغتم لذلك، بعدها اكتشفت أنني حامل من "الأشـــرف"، وفـــي إحدى المرات دخل عليَّ "الأشرف" حزينًا فقلت له: مالي أرى مولاي حزينًا كاسف البـــال

هكذا وقد عاد منتصرًا على الأعداء، وسألته هل مولاي حزينٌ لأن الله لم يرزقه بولي العهد الذي كان يتمناه؟ فأجاب غاضبًا: بل مشغولٌ بأشياء أخرى غير ما في رأسك من ظنون، فحدثتني نفسي أن أبوح له بحملي، وما كدت أن أفعل حتى قاطعني قائلاً: لا أريد أن أسمع شيئًا، وأمرني بالانصراف، فانصرفت من أمامه دون أن يعرف الخبر السعيد، بعدها لم أره ثانية حتى يوم مقتله، وشاءت الأقدار أن تولد ابنته يوم تشييع جنازته، فسألتها: أويعلم أحد بأنك كنت حاملاً ؟ فقالت: لا يعلم أحد سوى صديقتي "بلاريب"، وقد طلبت منها كتمان ذلك السر حتى أُبَشِّر السلطان به، فقلت لها: ولما تكتمين سر حملك؟ قالت: كنت أخشى أن ألد بنتًا فيغضب السلطان، فتركت هذه المسألة للأقدار على أمل أن ألد له ولي العهد الذي يتمناه فتكون المفاجأة، وحينما طلبت منك اصطحابي إلى منزلك كان ذلك بدافع خوفي من المجهول، فربما يأتي الغلام، ويعرف "المماليك" الذين تآمروا على "الأشرف"، فيكيدون للوليد ويقتلونه وهو في مهده، وحمدت الله أن وجدتك في الزحام حينما داهمتني آلام الوضع .. ولكن اختلف الأمر الآن، فلم ألد الغلام، ولا محل للخوف على المولودة من "المماليك" الآن، وإنني أشعر بالموت أكاد أراه أمام عيني يقترب مني، فاسمعني يا "زمزم": ابق على ابنتي معك، ولا تبحْ بسرها لأحد، ولتتخذها ابنة لك، اجعلها تتنفس حياة الحرية لتنعم بالراحة والهدوء، أستحلفك بالله أن تحافظ عليها وتعاملها كابنة لك، ثم أخرجت لفافة اودعتها أمانة عندي على أن أعطي ما بها لابنتها حينما تكبر، وما أن أتمت حديثها حتى فاضت روحها الطاهرة إلى بارئها، رحمها الله.

هذا هو السبب يا مولاي، والآن فـ"سلسبيل" هي ابنة أخيك "الأشرف"، وأنت عَمها، فكيف تتزوجها؟!! هذا هو السر الذي أخفيته طوال هذه المدة عنك يا مولاي.

ظل "الناصر" واجمًا شاردًا لا ينطق بكلمة واحدة ولا يصدق ما سمعه، وبعد هنيهة قال: إن كنت صادقًا فما دليلك على صحة ما قلته؟ قال "زمزم": الأدلة كثيرة، فالجارية "بلاريب" مازالت حيةٌ تُرزق، ولك أن تسألها، وإن لم تقل الحق فعندي أدلة أخرى تبرهن على صدق ما حدثتك به، قال "الناصر": وما هو دليلك؟ أجابه: خاتمٌ، قال "الناصر" مُتعجبًا: خاتمٌ!! فرد العجوز: نعم.. خاتمٌ ثمينٌ أهدته الخوندة الكبيرة "آشلون" إلى "الأشرف" رحمه الله بعد اعتلائه العرش، وهناك شهود على هذه الواقعة، منهم السيدة "مسكة" التي تتمتع بذاكرة قوية، وقد أهداه "الأشرف" لمحبوبته "نورزاد"، وأعطته المسكينة لي قبل وفاتها مع أشياءٍ أخرى أحتفظ بها في بيتي، فعاجله "الناصر": وما هي هذه الأشياء؟ أجاب: عندي ما كانت تلبسه من مصاغٍ، وما كانت ترتديه من لباسٍ، وقد

أوصتني قبل رحيلها أن أعطي هذا الخاتم الثمين لابنتها عندما تبلغ سن الرشد، وهناك يـــا مولاي أدلة أخرى، فإن لم تكن "نورزاد" هي أم "سلسبيل" فأين اختفت بعد تشـــييع جنـــازة "الأشرف خليل"؟ فقد اختف في هذا اليوم، فليسأل مولاي وليتأكد مما أقول، وممـــا أثـــار شكي أنه لم يتم البحث عنها بعد اختفائها، والجارية "بلاريب" تعرف الحقيقة.

دارت الدنيا برأس "الناصر"، وظل واضعًا يداه على رأسه مغمضًا عينيه من هول ما سمع، ثم تمالك نفسه وقال لـــ"زمزم": إذن "سلسبيل" ابنة أخي "الأشرف" وأنا عمهـــا، يـــا لسخرية القدر، لو أني ركبت رأسي لوقعت في المُحرمات التي تغضب الله دون أن أشعر، ﴿الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ . [الأعراف:43].

عاد "زمزم" يقول: عندي الدليل الدامغ على صحة أقوالي، فقال "الناصر": لقد حيرتني يا رجل، وما هو دليلك؟ قال العجوز: كان لـــ"الأشرف" شامة على كتفـــه الأيمـــن، وقـــد ورثتها عنه ابنته "مُلكان"، كما ذكرت لي "نورزاد" رحمها الله حينمـــا رأت تلـــك الشـــامة المماثلة على كتف ابنتها الوليدة، ولك أن تتأكد يا مولاي مما أقول وبذلك أكون قد ألقيـــت هذا العبء الكبير الذي كان يؤرقني وينوء به كاهلي، فلم تغمض لي عـــين طـــوال هـــذه السنوات.

نهض "الناصر" من مجلسه وقال: إنك حقًا تستحق التقدير، الآن حصحص الحق وإنك لمن الصادقين، لقد عفونا عنك، فشكره العجوز، وأخذ يفتش في ملابسه و"الناصر" ينظـــر إليه صامتًا حتى أخرج من بين طيات ملابسه شيئًا وقـــال: لابـــد أن أرُد الأمانـــة إلـــى أصحابها، قال "الناصر": أية أمانة يا رجل؟ قال: خاتم أخيك "الأشرف"، وناوله للســـلطان، فتفحصه "الناصر"، ثم أعاده إلى "زمزم" قائلاً: هذه الأمانة تخص "سلسبيل"، ثـــم تراجـــع وقال: أعطني إياه وسوف أرده لك ثانية.

انتهى لقاء "الناصر" بـــ"زمزم"، وأفرج عنه، فذهب إلى السيدة "مسكة"، وظل طـــوال ليلة بأكملها يقص لها ما سمعه، فاندهشت "مسكة" بدورها مما سمعت، وأكدت لـــ"الناصر" صحة ما قاله الرجل بشأن الخاتم بعد أن رأته، كذلك صحة كلامه فيما يتعلق بالشامة التي على كتف "مُلكان"، وأكدت له أن أخاه "الأشرف" كان له نفس الشامة، فقال لها: ما علينـــا الآن غير أن نتأكد من وجود هذه الشامة على كتف "سلسبيل" كما زعم العجـــوز، قالـــت "مِسكة": دع هذا الأمر لي .. سأتصرف بمعرفتي دون أن أجرح حياء المسكينة.

انصرف السلطان إلى جناحه ليستريح من عناء هذا اليوم ومن مفاجـــآت الأحـــداث، ومضت "مسكة" إلى الفتاة تُرفه عنها، فقالت لها: أبشـــري ولا داعٍ للبكـــاء، فلقـــد عـــدل

السلطان عن رأيه وأفرج عن أبيك، فقامت الفتاة منتفضة تقبل "مِسكة" قائلة: أحقًا ما تقوليه! .. أنا لا أصدق ما سمعت!، قالت "مِسكة": أجل .. وماعليك الآن غير أن تتوجهي بالشكر إلى الله وتصلي ركعتين، استجابت الفتاة وقالت: سأفعل إن شاء الله، فخرجت "مِسكة" لاستدعاء الجواري ليقمن بإعداد حمام الفتاة لتستقبل يومًا جديدًا بالإشراق والفرح، بعد قليل.. عادت "مسكة" مع الجواري، وأخذت تلاطف "سلسبيل" حتى أعددن لها الحمام، وقامت الفتاة بينما ظلت "مسكة" في انتظارها.

بعد نصف ساعة أو ما يزيد أقبلت الفتاة وقد التفت بغطاء يسترها ومن حولها بعض الجواري يقمن بإعداد ملابسها، والبعض يصففن شعرها، وجلست "سلسبيل" على حافة السرير، فانزلق الغطاء عن كتفها فإذا بالشامة تظهر، وما أن رأتها "مسكة" حتى صاحت: ما أجمل هذه الشامة، قالت الفتاة: هل تصدقيني إذا قلت لك أن الأميرة "مُلكان" هي الأخرى لها نفس الشامة على كتفها الأيمن، ضحكت "مسكة" وقالت: أصدقك .. ولما لا.. فالناس تتشابه في أشياءٍ كثيرة، ثم نهضت، وخرجت لتوها إلى "الناصر" لتؤكد له ما رأته، وبهذا تكون قد اكتملت صحة أقوال "زمزم"، فالفتاة ابنة "الأشرف خليل" لا شك في ذلك، و"الناصر" عمها بلا جدال، ولكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد فلقد أصبح "الناصر محمد" وصيًا عليها بصفته عمها، ولم تعد "سلسبيل" لها الحق في التصرف في أي شئ إلا بالرجوع إليه، ولا تقدم على شئ إلا بعد موافقته.

ننتقل بالحديث إلى الأميرة "مُلكان" والأمير "موسى بن علي" بعد أن علم بعزوف "مُلكان" عن الارتباط به، فجاشت نفسه وسارع إليها ليتأكد مما سمعه من عمه "الناصر"، وفي المكان نفسه بحديقة القصر وتحت ذات الشجرة التي اعتادا أن يلتقيا عندها التقى "موسى" بـ"مُلكان"، وما أن رآها حتى قال: هل ما سمعته من عمي صحيحًا؟ أجابته: وماذا سمعت؟ قال: صارحته بحبي لكِ وبإصراري على إتمام الزواج منكِ، ووعدني بتدخله وإنهاء المسألة، ولكنه بعث في طلبي فأعلمني بعزوفك عن الرغبة في الارتباط بي، أجابت "مُلكان": أجل.. هو كذلك، قال: وأين ما كان بيننا من حب، أنسيته؟ قالت غير مبالية: ما من شئ في الدنيا يكتب له الدوام، فرد مُتسائلاً: ماذا تقصدين؟ أجابته: إن ما انتهى قد انتهى، وإن ما فات مات، فقال "موسى": أتقصدين أنكِ ما عدت تحبينني، أجابته إنه من العبث أن يحاول الناس بعث الموتى، قال: عن أي شئ تتحدثين؟ قالت: حُبك يا "موسى" مات في نفسي بعدما ظهرت أخلاقك على طبيعتها، فقال متوسلاً: ولكن يا "مُلكان" لابد لي من فرصة أثبت لك فيها حسن نواياي .. فلقد تغيرت، فأدارت ظهرها وقالت: أنا

أيضًا تغيرت، فقال مُستعطفًا: ولكني أعرف عنكِ طيبة قلبك وتسامحك، فأنت من أحسن الناس وخيرهم طوية، قالت: اسمع يا "موسى".. لقد خضعت لرغبة نفسك العاتية للسيطرة على حق الغير مُتعللاً بأشياءٍ بلهاء، وكنت تريد مني أن أسايرك وأن أميل إليك فيما يضمره قلبك المريض، وأنا عليٍ يقينٍ أن طيبة عمي "الناصر" بالعفو عنك لن تغير ما تضمره له من حقد، وما تكنه لأبي "الأشرف" من سيطرة فكرة قتله لأبيك كما يزعم الناس لك، فكيف بالله أرضى أن أكون زوجة لرجل يؤمن بأن أبي قاتل أبيه؟! لابد وأن نفترق، فهذا أفضل لي ولك.

خاتمةُ المُحتالْ

أحب السلطان "الناصر" "يوسف الكيماوي"، فجلس معه جلسة بعد جلسة، وسبك له "يوسف" سبيكة بعد سبيكة، وازدادت مكانته عند السلطان "الناصر"، فخاف الرجل أن يفتضح أمره، وأدرك أن حيلته قد تنكشف بعد أن استولى على أموال طائلة من خدم القصر ومن حاشية السلطان ليحول لهم أشياءً كثيرة إلى ذهب، وفي أحد الجلسات التمس "يوسف" من السلطان أن يأذن له بالسفر، فنظر إليه السلطان وقال: أتريد أن تفارقنا يا "يوسف" بعد أن اعتدنا مجالستك ليلاً نتجاذب أطراف الحديث.. فهل سئمت منا؟ أجابه: حاش وكلا يا مولاي.. ولكني أحتاج إلى بعض النباتات والأصباغ الضرورية للتجارب التي أقوم بها، فقد نفذت كل المواد الخام التي أحضرتها معي من "الشام"، ولابد لي من العودة لإحضار غيرها، فقال "الناصر": إذا كان الأمر كذلك فلا بأس، شريطة ألا تتأخر علينا، سأكتب إلى جميع نواب "الشام" وموظفيهم في "غزة" و"الكرك" و"دمشق" وآمرهم بأن يعطوك من الديوان الخاص كل ما تسأله، فشكره "يوسف" ولاذ بالفرار من أمامه بعد أن استأذن بالانصراف.

ما أن غادر "يوسف" المكان حتى دخل الحاجب على "الناصر" يعلمه بإيجاد رقعة ألقيت في جناح طائر بالإسطبل السلطاني، وأبرزها له فقرأها "الناصر" وكانت فيها عبارات تتضمن الإنكار على السلطان في تصرفاته ويتهمه من كتبها بالتفريط في مُلكه ومماليكه ويقول: أن "المماليك" قد تلفت وباع أولادهم الإقطاعات التي بأسمائهم، فصاروا يسألون الناس من الحاجة.

غضب السلطان غضبًا شديدًا وقال: إلى الجحيم يا "بيبرس" أنت و"سلار"، فقد أهدرتما حق صغار "المماليك"، وزدتما في إقطاعات جندكما من "المماليك" زيادة هائلة على حساب إقطاعات الجنود الآخرين، ذلك مما ترتب عليه ظلم فادح ناء تحت ثقله معظم صغار "المماليك"، والله لأعيدن النظر في الإقطاعات جميعًا تحقيقًا للعدالة، ولأعيدن مسح الأراضي الزراعية من جديد وتقسيمها تقسيمًا عادلاً بين الأمراء والجنود من "المماليك"، ثم نظر إلى نائبه "سيف الدين أرغون" وقال: ابعث في طلب كشف بأسماء من باع من "المماليك" إقطاعه ومن أصبح منهم من غير فرش، وانظر في أمرهم، ولينفى من يستحق منهم النفي إلى "الكرك".

بعد فترة.. أتى نائبه بكشف أسماء "المماليك"، وأطلعه عليه، فأمر "الناصر" بنفي نحو مائة مملوك إلى "الكرك".

أما عن فرحة "سلسبيل" بما أفصح به أبوها للسلطان، فقد كانت الفتاة في غاية السعادة لسببين أولهما: أن سلطان البلاد هو عمها، ثانيهما: لا شئ بعد ذلك يمنعها من الزواج من "صلاح الدين"، ولكن المسكينة لم تكن تعلم ما يخبئه لها القدر، فبعد أن أصبحت واحدة من أميرات بيت "آل قلاوون" وأن جدها كان سلطانًا له مكانة عظيمة، وكذلك كان أبوها "الأشرف"، كل هذا جعلها تنتمي إلى طبقة النبلاء من "المماليك" فلا يحق لها الزواج إلا من أحد الأمراء البارزين في الدولة أو من أحد أقاربها من الأمراء، لا لواحدٍ كـ"صلاح الدين" الذي ينتمي إلى طبقة العوام من الشعب.

بدأ "الناصر" بصفته وصيًا يفرض نوعية خاصة من الحياة عليها، فمنعها من الاختلاط بأي أحد من عامة الشعب وتحديدًا "زمزم" وعائلته حتى تستعيد الفتاة توازنها وحتى تتأقلم على المناخ السلطاني الجديد، لكن وفاء "سلسبيل" أبىَ عليها قبول ظلم عمها وتعسفه، فكيف تنفصل عنهم وهم بالنسبة لها أعظم شئ؟ .. هم أسرتها التي تنتمي إليها، والتي نمت في أحضانها، وتفتحت عيناها عليهم، فكيف تجحد بهم وتسقطهم من حياتها؟ وكيف تُحرم من أعز الناس عليها.. أبيها الذي رباها؟.

أحست الفتاة بغبنٍ من عمها "الناصر" في حق من رباها وأحسن رعايتها، ولم تكن تتوقع منه هذا الجحود ونكران الجميل، فناجت نفسها: هل هذا هو جزاء ذلك الرجل العظيم؟ وهل هذه هي المكافأة بأن يمنعني رؤيته ويمنعه رؤيتي! ورفضت الفتاة قبول ما فرضه عمها عليها، وباتت تفكر في طريقة تمكنها من الخروج من هذه الكارثة التي أحلت بها بأي وسيلة كانت رغمًا عن أنف عمها "الناصر"، فامتنعت عن الطعام والشراب كإحدى وسائل الضغط على عمها وظلت على هذه الحالة قرابة خمسة أيام على التوالي حتى شحب وجهها، وانحلت قواها، وخارت عزائمها، ولكن لم تفلح هذه الوسيلة مع عمها بل قال للسيدة "مِسكة": دعيها حتى تطلب الطعام والشراب بنفسها، ولم تستطع المسكينة المقاومة فطلبت الشراب بعدما أخذت تفكر في طريقة أخرى ترغم بها عمها على الاستجابة لها وهي طريقة اكتسبتها من عمها وهي سياسة الملاينة، فأخذت تتوسل إليه بشتى الطرق ليسمح لها بزيارتهم، وأخذت تستعطفه حتى رق لحالها، وقال: شرطَ أن تكوني بصحبة حارسين، وعلى رأسهما "مسك الختام"، فانتفضت "سلسبيل" فرحة من مكانها، وأخذت تُقبِّل عمها وتدعو له بطول العمر وثبات الملك، واستراحت بما وصلت إليه بالحيلة والمداهنة، فأخذت تستعد لزيارتهم، وحددت يوم الجمعة لذلك.

في اليوم المحدد ذهبت الفتاة البريئة لزيارتهم بصحبة الحارسين و"مسكة" كما أمر عمها، ولكن المفاجأة كانت أكبر مما تتوقع، فقد أمر السلطان الحارسين بألا يتركا الفتاة تجلس بمفردها معهم، حتى لا تتمكن من التحدث مع "صلاح الدين"، وأدركت "سلسبيل" نوايا عمها تجاه "صلاح الدين"، فما عادت زيارتها تأتي بثمار، وما عادت تتحدث مع أبويها كما كانت من قبل على سجيتها، بل أصبحت المسكينة تتحفظ في الحديث حتى لا يمنعها عمها "الناصر" من الذهاب إليهم، وأحس "زمزم" بذلك، فكان هو الآخر أشد حرصًا وحذرًا، أما "صلاح الدين" فلم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ بعد مصافحتها، وانتحى مكانًا بعيدًا متشاغلاً بالقراءة حتى انصرف الجميع، وخرجت المسكينة والألم يعتصر فؤادها، ولعنت اليوم الذي أدخلها أبوها فيه "قلعة الجبل"، وتمنت أن يرجع الزمان بها على ما كانت عليه من قبل.

غاب "يوسف الكيماوي" في "الكرك" أكثر مما كان متوقعًا، فأرسل "الناصر" إلى نائب "الكرك" ليستطلع أمره، وفي أحد الأيام جلس السلطان "الناصر" في نيابة السلطنة مع نائبه "سيف الدين أرغون" فخطر "يوسف الكيماوي" بباله، فسأل نائبه وقال: ألم يبعث إلينا نائب "الكرك" بأي معلومات عن "يوسف الكيماوي" كما طلبنا منه؟ أجابه: بلى.. لقد أطلعنا على أمره وبعث برسالة وصلت صباح اليوم وها هي يا مولاي، فأخذها السلطان وقرأها، وقد جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم: من نائب "الكرك" إلى السلطان "الناصر" -أطال الله عمره وأمد في بقائه- لقد استطلعنا أمر "يوسف الكيماوي" بناءً على طلب مولانا السلطان، وقد عرفنا عنه أكثر مما كان متوقعًا، فسرعان ما انكشف أمره، وظهر خداعه وكذبه واحتياله على الناس، فقبضنا عليه، وسنرسله إلى "القاهرة" مُقيدًا، ونُعلم مولانا السلطان أننا اعطيناه من الديوان الخاص كل ما سأله حتى تكشَّفَ لنا خداعه واحتياله.

بعد أن انتهى السلطان من قراءة الرسالة قال وقد خاب ظنه في الرجل: أسمعت يا "سيف الدين".. لقد خدعنا الرجل! والله لقد صدَّقته، ولم أرتبْ فيه لحظة واحدة.

حُمل "يوسف الكيماوي" من "الشام" إلى "القاهرة" مُقيدًا، وأودع بسجن القلعة، ثم تمكن من الهرب إلى مدينة "أخميم" بالصعيد، وخرج المنادي يذيع بين الناس خبر فراره، وأرسلت الأوامر إلى ولاة الأقاليم للقبض عليه حيثما كان، وتم القبض عليه، وحُمل مقيدًا إلى "القاهرة" مُجددًا، فمثل بين يدي السلطان، فسأله عن سر صنعته، فكان جوابه: كل ما كنت أفعله إنما هو خفة يد، فقال له السلطان: وكيف تتماثل السبيكة المغشوشة بسبيكة

الذهب الحقيقية تماثلاً تامًا، أجاب: بإضفاء اللون الذهبي إلى مصهور الحديد والنحاس والفضة والقصدير، وبإضافة الأكاسيد وبعض الأعشاب للتمويه، رد السلطان: إذن فأنت تغش الناس وتستخف بعقولهم وتبتز أموالهم، وأنت فيمن قال فيهم رسول الله ﷺ، "من غشنا فليس منا"، ثم أردف قائلاً: خذوه وأضربوه حتى الموت، ثم سمروه على نصبٍ من الخشب، وليطاف به في أرجاء "القاهرة" كي يكون عبرة لغيره.

أخذ "يوسف" يصرخ "السماح يا مولاي، العفو يا مولاي، لن أكرر ذلك أبدًا، الصفح يا مولاي".

ما كاد "يوسف الكيماوي" يخرج من أمام "الناصر" حتى دخل الحاجب على السلطان ليعلمه عن وصول رسل من دولة "بني قرمان" تلك الدولة التي قامت على أنقاض دول "سلاجقة الروم" في "آسيا الصغرى"، واستقبلهم "الناصر" بحفاوة بالغة، وقد كانوا يحملون معهم رسالة من ملكهم تشير إلى أنهم يخطبون للسلطان "الناصر" على منابرهم، وإن إحياء الخلافة العباسية في "مصر" زادت من نفوذ دولتهم، ثم أبرز الرسل لـ"الناصر" دراهم كانت معهم قد ضربت في بلادهم، وتحمل اسم "السلطان الناصر"، فسُر السلطان لذلك، وبعد انصرافهم جاء لـ"الناصر" بيان بوصول رسول بُعث من قِبل السلطان "محمد بن طوغلق" أمير مملكة "الهندستان"، ومعه رسالة للسلطان يطلب منحه تفويضًا يجعل حكمه شرعيًا في بلاده حتى يستطيع بذلك أن يقضي على الفتن الداخلية التي كانت تقوم ضده بين الحين والآخر.

خرج "الناصر" بنفسه لاستقبال رسول السلطان الهندي وأحسن لقائه، وأكرم وفادته، ثم أرسل "الناصر" للخليفة العباسي ليصدر التفويض المطلوب، وبعث به مع رسول خاص إلى السلطان "محمد بن طوغلق".

زواج السلام

أخذت "سلسبيل" تفكر في طريقةٍ ترى بها "صلاح الدين" بعد أن فشلت في محادثته في آخر زيارة لأسرتها، وعزت نفسها بأن قالت: لا أريد أن أسبب لـ"صلاح الدين" أي مكروه أو مشاكل من قبل عميَ "الناصر"، وخاصة أنه أوشك على الانتهاء من دراسته ويستعد لاجتياز المرحلة النهائية، وسألت نفسها .. هل تطلب من "مُلكان" مساعدتها للقاء "صلاح الدين" خلسة من عمها؟ أم أن "مُلكان" لن تحقق لها هي الأخرى مطلبها تأييدًا واحترامًا لرأي عمها الذي تجله؟ وسرعان ما تراجعت "سلسبيل" عن هذه الفكرة، فلم تجد أمامها غير الالتجاء إلى إحدى جواريها من اللائي أبدين تعاطفًا معها في هذا الأمر، ثم عادت تقول: هل ستقبل الجارية أن تلبيَ لي هذا المطلب؟ .. أم أنها هي الأخرى ستسعى إلى "مسكة" وتخبرها؟ فربما تكون مدسوسة عليها تستدرجها حتى تخرج لها فيض مشاعرها تجاه "صلاح الدين"، فأوجست خيفة في نفسها في بادئ الأمر خوفًا من أن الجارية من أتباع السيدة "مسكة" ومن ثَم سيفتضح أمرها أمام عمها، وقد يدبر المكائد لـ"صلاح الدين".

بعد أن أجهدها عناء التفكير لم تجد حلاً غير المُجازفة باستخدام الجارية لتحقيق رغبتها، وقد تنجح المحاولة هذه المرة، فعقدت العزم على الالتجاء إلى الجارية، وكانت تدعى "حلوة".

وبينما كانت تفكر في ذلك الأمر كان "الناصر" عمها تراوده فكرة الزواج من إحدى بنات بيت "جنكيزخان"، فسعى إلى "مسكة" ليشاورها الأمر، وما أن رأها حتى قال: ما جئتك يا "مسكة" إلا لأشاورك الرأي في موضوعٍ هام، قالت: فليتفضل مولاي وله مني كل النصح، قال السلطان: أنت تعلمين أن الملك "غازان" قد مات بحسرة هزيمته أمام جيوشنا، ولا يمحو أثر هذه المرارة إلا الصلح بيننا وبين "المغول"، أجابت "مسكة" هذا صحيحٌ يا مولاي، قال السلطان: ولقد تقدم "أبو سعيد" مبادرًا بالصلح بعد وفاة "أولجاتيو" الذي جلس على العرش بعد موت "غازان"، ولم تكن رغبتي أقل من رغبة "أبي سعيد" في الصلح، فقد كان يميل بطبعه إلى السلم، ويرغب أن يسود السلام جميع البلاد مما أظهر لي فكرة زواجي بإحدى أميرات "البيت المغولي"، أجابت "مسكة": والله يا مولاي الرأي رأيك، ولكن لي اعتراض قد تأخذ به وقد لا تأخذ، فقال السلطان: اعرضي ما عندك، قالت: إن

أرسلت إليهم في طلب عروس لك وأرسلوها مع من يرسلوهم معها فقد تعجب مولاي وقد لا تعجبه، قال: هذا صحيح، قالت: فإن لم تعجبك فستردها بطبيعة الحال إلى أهلهـا مـع الوفد المرافق لها، ومن هنا ستبدأ المشاكل مُجددًا بيننا وبين "المغول"، وسـيأخذون هـذا التصرف منك على كرامتهم، فلا تنسى يا مولاي أن "المغول" شعب فيه نعرة التعالي، ولن يقبلوا منك هذا، قال السلطان: ولكن ربما تعجبني ويمر الموضوع بسلام، قالت مستنكرة: رُبما.. هذا مجرد احتمال قد يحدث وقد لا يحدث، قال "الناصر" بثقة: سأبعث بالرسل إلى "أزبك" أمير "المغول" ليخطب لي إحدى بنات بيت "جنكيزخان"، وسـأنتظر الـرد مـنهم وسنرى، فأنا أريد أن أبدأ معهم صفحة جديدة أمحو بها معالم ما كان بينـي وبيـنهم مـن عداوة بعد أن ترك انتصارنا عليهم حسرة في نفوسهم ومات على أثرها "غـازان"، قالـت "مسكة": والله يا مولاي افعل ما تراه صالحًا، ولكن لي وقفة في الحـديث إذا سـمح لـي مولاي بالإفصاح عنها، فقال: تفضلي يا "مسك الختام"، قالت: زواجك الأول من الأميـرة "أرديكين" كان زواجًا لحفاظ كيان الأسرة، ولم يُكتب له النجاح، أليس كذلك؟ قال: بلى، أما هذا الزواج فزواجٌ سياسيٌّ لتبدأ معهم صفحة جديدة، كما يقول مولاي، فلا أتوقـع لـه أن يكلل بالنجاح، هذا ما أراه.. فلابد أن يختار مولاي من يراها بعينه ويعجب بهـا ويخفـق قلبه لها بغض النظر عن أية أهداف أو مصالح، قال "الناصر": والله صدقت يـا "مسـكة"، ولكن الأمور تتطلب مني ذلك، ثم عاد يقول مُمازحًا: ربما تعجبنـي العـروس المغوليـة فأحبها.

ما كاد يمضي على حجة "الناصر" الأولى ست سنوات حتى تحرك في نفسه الشـوق من جديد لزيارة "البلاد المُقدسة" وأداء فريضة الحج، فطلب من نـاظر خاصـته "كـريم الدين" إصدار الأوامر وتكليف "دار الطراز" بـ"الإسكندرية" لإعداد "كسوة الكعبـة" مـن الحرير الأطلس، وبأن يسارعوا في الاستعدادات اللازمة لـذلك، وبإذاعـة خبـر عـزم "الناصر" على الحج في كافة أنحاء البلاد.

جاءت الوفود من "الشام" تحمل الهدايا وفيها الخيل والهجن، أما الأمير "تنكـز" فقـد حمل من "دمشق" مايجل وصفه، خمسمائة حمل على الجمال ما بين حلوى وفواكه، وأوان لحفظ الحلوى ومائة وثمانين حمل لوز، ومن الأوز الذي كان يحبه "الناصر" ألف طـائر، ومن الدجاج ثلاثة آلاف طائر، وأخذ ناظر الخاصة "كريم الدين" في إعداد مـا يسـتخدم للسفر فأمر بصنع قدور من الذهب والفضة والنحاس لكي تُحمل ويُطـبخ فيهـا الطعـام للسلطان، وأحضر الخولة لعمل وورود ورياحين في أحواض من الخشب تُحمـل علـى الجمال فتسير مزروعة فيها، وتُسقى بالماء ويُصحن فيها ما تدعو الحاجة إليه أولاً بـأول

من البقول والكرات والكسبرة والنعناع، وأنواع المشمومات كالرياحين، وجهزت الأفـران وصناع "الكيماج"، وأُعدت مركبين للسير في البحر حتى "ينبع"، ومـركبين إلـى "جـدة"، ووصل الوفد إلى "مكة"، وما كاد "الناصر" يرى "الكعبة" حتى تجلت فـي محيـاه آيـات التواضع والخشوع، وقال لأحد مرافقيه من الأمراء بعد الانتهاء من شـعائر الحـج: والله لازلت أعظم نفسي إلى أن رأيت "الكعبة المُشرفة"، فتذكرت تقبيل النـاس الأرض لـي، فدخلت في قلبي مهابة عظيمة ما زالت عني حتى سجدت لله تعالى، وقد حَسَّن لـه أحـد القضاة المرافقين أن يطوف بالكعبة راكبًا كما فعل النبي ﷺ، فالتفت إليه "الناصر" وقـال في خشوع: ومن أنا حتى أتشبه بالنبي ﷺ، والله لا طفت إلا كما يطوف الناس، ثـم أمـر الحراس المحيطين بألا يمنعوا الناس من الطواف معه، فصـاروا يزاحمونـه ويـزاحمهم كواحدٍ منهم في طوافه وفي تقبيله للحجر الأسود، وقد غسل "الكعبة" بيده، وسار يأخذ أزر أحرامِ الحجاج ويغسلها لهم في داخل "البيت العتيق" بنفسه ثم يدفعها لهم، وقد كثر الـدعاء له لهذا التواضع وتلك التقوى.

التقى "الناصر" في هذه الحجة بأشراف العرب في "مكة" وأنعم عليهم كما أمر بإبطال سائر المكوس المفروضة على "الحرمين الشريفين"، وعوض أميـري "مكـة" و"المدينـة" عنهما بإقطاعات في "مصر" و"الشام" يحصلان على ريعها، وأكثر من الصـدقات وكـان شديد العطف مع أهل "الحجاز"، وانتهى من حجته وعاد السلطان بعد أن زار قبـر النبـي الكريم ﷺ، فاستقبلته وفود الشعب بالهتافات والصياح وبالغوا في إظهار الفرح والدعاء له بعد أن حسر اللثام عن وجهه، وسر السلطان كثيرًا بهذا الحب المنطلق من قلوب العامـة، ودخل القلعة وأقيمت الأفراح ثلاثة أيام.

أميرة المغول "دلبية"

عادت رسل "الناصر" إلى "مصر" وبصحبتهم رسل من قبل "أزبك" أمير "المغول"، فاستلم "الناصر" رسالة "أزبك" وقرأها، وبعد أن انتهى منها ضحك وقال لنائبه الأمير "سيف الدين أرغون"، متجاهلاً الرسل: مازالت في نفوس "المغول" نعرة التعالي القديمة، وظهرت فيهم حميتهم الكاذبة.. لقد صَدَقَت "مسك الختام"، وها هي رسالتهم تُفصح عن ذلك، اسمع ماذا يقول أميرهم "أزبك" ردًا على رسالتي: "من الأمير أزبك أمير المغول الى السلطان" الناصر محمد بن قلاوون" سلطان "مصر" و"الشام"، أما بعد: وصل كتابكم ولقد قبلنا رغبتكم في طلب الزواج من إحدى بنات بيت "جنكيزخان" تأكيداً منكم في طلب الصلح وتوثيقًا للروابط بيننا وبناءًا عليه وجب عليكم الالتزام بشروطنا لإتمام مراسم هذا الزواج وهذه شروطنا: مَهْر قدره ألف ألف دينار، وألف ألف فرس، وعدة كاملة للحرب، مع إكرام وفادة وفودنا من الأمراء ونسائهم الذين سيحضرون بصحبة العروس من بلادنا إلى بلادكم".

أمير المغول

أزبك

التفت "الناصر" إلى رسل "أزبك" بعد أن انتهى من قراءة الكتاب وقال لهم: سنرد على رسالتكم بإذن الله، وأمرهم بالانصراف، وبعد أن خرجوا أشار "الناصر" إلى كاتب سره وأخذ يملي عليه الآتي: "بسم الله الرحمن الرحيم: من الملك "الناصر محمد بن فلاوون" ملك "مصر" و"الشام" إلى ملك "المغول" "أزبك"، أما بعد: لقد وصلنا كتابكم ولم يسعدنا ماجاء فيه، وبناءً عليه فقد عَدَلنا عن فكرة الزواج من إحدى بنات بيت "جنكيزخان"، حيث أن شروطكم ما هي إلا دربًا من دروب الخيال، وإن دلت فإنها تدل على عدم رغبتكم في قبول طلبنا، وعلى أية حال..فقد كانت رغبتكم السابقة لا تقل عن رغبتنا في الدعوى إلى الصلح، ونحن بطبيعتنا نميل إلى السلم، ونرغب بأن يسود جميع البلاد، وما كانت فكرة الزواج هذه إلا تأكيدًا منا على توثيق الروابط بيننا.

الله أملي..

الناصر محمد بن قلاوون

التقى السلطان بعد خروجه من نيابة السلطنة بالسيدة "مسكة"، وما أن رأها حتى قال: تعالي يا "مسك الختام"، والله إنكِ على حق فيما قلته بشأن زواجي من الأميرة المغولية، وكأنكِ تقرئين صفحات الغيب، لقد جاءتني رسالة من "أزبك" يشرط علينا فيها شروطًا تكاد تكون تعجيزًا لنا، قالت "مسكة": يشرط عليك .. على من؟ على مولاي "الناصر"!.. خسئ.. ألا يعرف من أنت!.. وأية شروط هذه التي يشرطها عليك يا مولاي؟ قال "الناصر": يريد أن نرسل إليه بألف ألف دينار كَمَهر، وألف ألف فرس، وعدة كاملة للحرب، وعلى أن نقوم بإكرام وفادة أمراءهم ونساءهم الذين يصحبون العروس من بلادها إلى "مصر" وأن ننزلهم خير منزل، قالت "مسكة": هذه المطالب يا مولاي ليست مطالب عرس، وإنما هي معدات كاملة لمحاربتنا ودعوة منهم للحرب، فليبقوها عندهم، نحن لا نقبل شرطًا ولا قيدًا من أحد، قال السلطان: صدقت يا "مسكة".. صدقت.. والله إنك تملكين فراسة وبعد نظر لا يملكهما أحد سواك في "مصر" كلها.

جاء الأمير "تنكز" في زيارة لابنته "مطلونبك" بـ"قلعة الجبل"، وقابل السلطان، فجلسا يتجاذبان أطراف الحديث حول أحوال العباد وأحوال الفقهاء في "الشام"، وما أن جاءت سيرة "تقي الدين بن تيمية" حتى سارع الأمير "تِنكز" بالإدلاء بما لديه من أخبارٍ حول الشيخ، فقال: والله يا خوند.. قد سمعت أنه متفرغ لنشر العلم والتأليف والإفتاء، ولكنه يتكلم الآن في مسألة غريبة وهي الحلف بالطلاق، فاستنكر "الناصر" قول "تِنكز" وقال: الحلف بالطلاق!! مسألة جديدة يأتي بها "ابن تيمية" كعادته، وماذا يقول "ابن تيمية" في هذه المسألة الفقهية، أجاب "تنكز": لقد تفرد في هذه المسألة بالقول، فقال السلطان: ماذا يقول "ابن تيمية"؟ فأحس "تِنكز" بغضب "الناصر" فقال: يقول: إن الطلاق لا يقع بالحلف بدل الحلف بالله، لكن على الحالف إذا حنث في يمينه كفارة اليمين وهي معروفة في القرآن، فرد السلطان مُستنكرًا: ماذا تقول؟! لقد جُن الرجل! فقال "تِنكز": مهلاً يا خوند .. اسمع ما يقول أيضًا، فقال السلطان: ماذا يقول "ابن تيمية" أكثر مما سمعت؟! أجاب "تِنكز": يقول أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع به إلا طلقة واحدة رجعية، فقال السلطان غاضبًا: وما حكم فقهاء المذاهب الأربعة في تلك المسألة؟ رد "تِنكز": لقد وجد الفقهاء من المذاهب الأربعة أن الأمر خطيرٌ، وأن الحلف بالطلاق يقع به الطلاق عند الحنث، هذا هو رأيهم، فقال السلطان: يجب أن يكون لنا وقفة ترجعه، فلقد بالغ هذا الشيخ وبات يُفسر للناس وفق هواه لا على ماجاءت به المذاهب الأربعة، ورغم حبي واحترامي الشديدين له إلا وأنني مضطرٌ لإصدار مرسوم يمنعه من الفتوى، وليُعقد له مجلسًا، وينادى في البلاد ليكون الناس على بينة من أمورهم وخاصة في مسألة الحلف بالطلاق.

بعد صدور الأمر بمنعه، قال الشيخ لخصومه"جلال الدين القزوينى"–شافعي–، الشيخ "زين الدين بن مخلوف"– مالكي–، والشيخ "جمال الدين أبو المعالي"– حنفي–: لن يقضي هذا المرسوم على الجهر برأيي لكل من يستفتيني، ولا يسعني كتمان العلم، وسأستمر على ما أنا عليه، فبلغ "الناصر" معاندة الشيخ له، وإصراره على الجهر برأيه وتجاهله مرسوم الممانعة مما أغضب السلطان منه، فأمر بحبسه، وما كاد يخرج من سجنه بعد خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا حتى عاد إلى ما كان عليه، فأصدر السلطان "الناصر" كتابًا يمنعه من الفتوى في مسالة الحلف بالطلاق بالتكفير، وعقد لذلك مجلسًا بـ"دار السعادة" بـ"دمشق"، ومنع من تكرار ذلك، ونودي به في البلاد، ولكن الشيخ لم يبالِ، فعوقب على فتاويه بعد المنع بالحبس لأجل ذلك مرة أخرى، ومُنع من الإفتاء مُطلقًا، فأخذ يفتي بلسانه.

في اليوم التالي جلس السلطان مع نائبه "سيف الدين أرغون" فعرض عليه الأخير بعض الأوراق الهامة ومنها ورود كشوفات ونسخ جديدة لقياس ومسح البلاد بأكملها – إعادة روك البلاد– بعد أن نزل الموظفون إلى الجهات التي عُينوا بها، واستدعوا مشايخ القرى، وأحضروا سجلات كل بلدة حتى يعرف ما يتحصل منها ومقدار ما في زمامها من أفدنة، وما كان يحصل عليه الجنود من غلة ودجاج وأوز وخراف وبقول.. إلخ.. وبعد أن اطلع السلطان على النسخ قال مُبتهجًا: عظيم يا "سيف الدين"، فلأعد تقسيم البلاد تقسيمًا عادلاً بين الأمراء والجنود من "المماليك"، ولأعيدن النظر في كل الإقطاعات جميعًا تحقيقًا للعدالة، وسأخصص اليوم الواحد لتوزيع الإقطاعات على أميرين فقط وما لهما من مماليك، كل حسب ما يتلاءم مع حالته، بلا وساطة ولا محسوبية من الأمراء لمماليكهم، فقال "سيف الدين": ولكن ربما لا يرضى "المماليك" بالتوزيع الجديد للإقطاعات، أو ربما يطلبون إعادة النظر في إقطاعاتهم، فقال السلطان بحدة: سيرضون بما سيقسم الله لهم، وكل من يحتج أو يشكو أو يتضرر سيُقبض عليه ويُضرب ثم يُسجن ويؤخذ منه إقطاعه، فلا تستبق الأحداث يا "سيف الدين".

بعد فترة غياب دامت ثلاث سنوات من عدول "الناصر" عن الزواج من إحدى أميرات بيت "جنكيزخان"، أرسل أمير "المغول" "أزبك" من تلقاء نفسه ودون أن يطلب منه "الناصر" بفتاة من أحفاد "جنكيزخان" مع وفدٍ من الأمراء ومائة وخمسين رجلاً وستون جارية في خدمتها، وقد وصلت إلى "الإسكندرية" واستقبلها الرسل أحسن استقبال، وقام "كريم الدين" ناظر الخاصة بإكرام وفادتها، وقد نصبت لها الخيام الحريرية لكي تستريح من سفر البحر ثم حملت في مركبٍ فخمٍ يسير بها في النيل إلى "مصر" على أن تصل إلى

القلعة خلال خمسة أيام وقد أُعدت لها عربة موشاة بالذهب ومزينة بالطنافس الثمينة أشبه ما تكون بالقبة المغطاة بالديباج، وأخبر "الناصر" السيدة "مسكة" فقالت: لقد سبق لمولاي وأن أعلن لهم بعدوله عن الزواج بعدما جاءت رسالتهم، فماذا حدث إذن؟! على أية حال يا مولاي هذه هي طبائعهم الغريبة، ولكن ما موقف مولاتي "مطلونبك" من ذلك كله؟ فهي تحبك حبًا جمًا، وقريبة من قلبك لما تتمتع به من جمال في الخلقة والخلق، أجابها السلطان: صحيحٌ ما تقولين ولكن هذا الزواج زواجٌ من نوع آخر كما ذكرت لكِ من قبل يؤكد توثيق الروابط ولا أستطيع أن أرد هذه الأميرة عائدة إليهم و"مطلونبك" تقدر ذلك، فاستسلمت "مسكة" للأمر وقالت: فليبارك الله لمولاي زواجه، وليبارك عروسه الجديد.

وصلت العروس مع وفودها إلى "قلعة الجبل"، ومثل رسل "أزبك" بين يدي السلطان، وكان كبيرهم مقعدًا لا يقدر على القيام ولا المشي وقد حملوه على محفة، فسلم للسلطان "الناصر" كتابًا يحمله من مولاه "أزبك" ثم قال العجوز: لقد سبق للسلطان أن طلب إحدى بنات أسرة "جنكيزخان"، ولما لم يتحقق هذا الطلب حين ذاك تكدر خاطر السلطان ولذلك رأى مولاي "أزبك" أن يرسل له هذه العروس وهو يأمل أن تحوز إعجابك ورضاك، وإن لم تعجبك فاعمل بقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[النساء:58]، فقاطعه السلطان وقال: والله نحن ما نريد الحسن وإنما نريد كبر البيت والتقرب من أخي "أزبك" ونكون نحن وإياه شيئًا واحدًا، قال العجوز: إذن فعلى بركة الله، فقال السلطان: سيتولى قاضي القضاة عقد القران إن شاء الله على مهر قدره ثلاثون ألف دينار المعجل منها عشرون والمؤجل عشرة آلاف غدًا، وقد خلع السلطان بهذه المناسبة خلعًا كثيرة على المحيطين به، وبنى عليها في تلك الليلة ولكنها لم ترق له، فتركها في الصباح وخرج للصيد.

وبعد عودته من الصيد دخل "الناصر" على محظيته "هادنساد" يريد الترفيه عن نفسه بعض الشئ، وما أن رأته "هادنساد" حتى اندهشت وقالت: مالي أرى مولاي غير سعيد ولم يمضِ على دخوله بعروسه الجديدة غير بضع ساعات! أجابها "الناصر": إنها لم ترقني .. فتركتها في الصباح وخرجت للصيد، فقالت "هادنساد": وهل مولاي سيردها مع الوفد المغادر غدًا؟ أجابها: والله لا أردها أبدًا .. فلقد قلت لكبيرهم حينما ختم كلامه معي بقوله: "وإن لم تعجبك فاعمل بقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[النساء:58]، فقلت له نحن لا نريد الحسن وإنما نريد كبر البيت، فقالت "هادنساد": ولماذا لم تعجبك يا مولاي "دلبيه"؟ قال "الناصر": لعدم التواصل معها، وعدم التفاهم فهي

لا تتحدث العربية ولا التركية ولا تستطع أن تنقل إليَّ مشاعرها، ولم تحرك في ساكنًا رغم أن المشاعر والأحاسيس لا تحتاج إلى لغات، إنها مسكينة حقًا فربما العشرة تولد بيننا المشاعر والحب، ولكن ليس في الوقت الراهن، إنها تحتاج لوقت طويل لتعتاد على أشياء كثيرة، فقالت "هادنساد": هون عليك ولا بأس إن أسمعت "مولاي" آخر ما نظمت له من شعر، قال: هاتِ ما عندك يا "هادنساد"، والله لا أرتاح إلا معك، فأنشدت "هادنساد":

يا واحة تحوي القلوب محبة رحماك بعدك زادني أشواقا

فاستوقفها "الناصر" قائلاً: إنني أراكِ أكثر مما أرى زوجاتي، فكيف تقولي بُعدك زادني أشواقا؟! فأنا قريبٌ منكِ فلتقولي: قربك زادني أشواقا، لا بعدك زادني أشواقا، ثم قال لها: أكملي، فعادت تقول:

يا واحةً تحوي القلوبَ محبةً رُحماك قُربك زادني أشواقا

يسعى إليك القلب صَبًّا طائعًا لِيَرِق قلبك فارحم المُشتاقا

فقاطعها السلطان "الناصر" قائلاً: ألا تشتاقين إلى الآن؟ قالت: بلى.. أشتاق إليك يا مولاي، فقال: أكملي قصيدتك أولاً، فأكملت "هادنساد" القصيدة إلى آخرها، وأمضى "الناصر" معها وقتًا طيبًا ونسي ما كان من أمر عروسه الجديدة بعد أن علم كل من في القصر تجاهل "الناصر" لها وعدم رغبته فيها.

طوغاي

جاء "تنكز" لزيارة السلطان وأحضر معه جارية تركية تدعى "طوغاي" حينما رآهـا "الناصر" وقعت من نفسه موقعًا جميلاً وأعجب بها لما في عينيها من حياءٍ زاد سـحرها سحرًا فتقدم إليها، ووضع يده على كتفها فاستأنست الجارية به ووقفت مطرقة فأشار إليها بالجلوس فجلست على مقعدٍ من الأبنوس مكسو بالحرير وقال لـ"تنكز": من أين لك بهـا؟ أجاب "تنكز": اشتريتها من سيد لها في "دمشق" كان في حاجة إلى مال فباعها، وهـو الآن يشق عليه فراقها، وقد جاءني مرارًا طالبًا إعادتها له عارضًا دفع أكثر مما أخـذه فيهـا، وعندما رأيت ما فيها من أدب وذكاء وجمال لا يليق بأحدٍ سوى مولاي فجئت بها إليـك، فقال السلطان: إنها هدية نفيسة قبلناها منك، رد "تنكز": بـارك الله لـك فيهـا، وظلـت "طوغاي" صامتة وقد أدهشها ما رأته حولها من فخامة وأبهة، فنظر إليها السلطان سائلاً: ما اسمك؟ تبسمت وقالت: "طوغاي"، قال "الناصر": اسم جميل، صـفق، ونـادى علـى "مسكة" فأتت إليه مسرعة فسألها وهو ينظر إعجابًا بالفتاة: كيف ترين هذه الفتاة؟ نظـرت "مسكة" إلى "طوغاي" وقالت: ما شاء الله إنها جديرة بأن تكون في قصرك، قال السلطان: فإليك هي، أفردي لها غرفة خاصة لترتاح الآن، فأشارت "مسكة" إلى الفتـاة وانصـرفت "طوغاي" تتبعها حتى أدخلتها غرفة بها نافذة تشرف على "الميدان العظـيم"، فاستأنسـت "طوغاي" بالمناظر الطبيعية من نخيل وأشجار مختلفة وأعجبتها السواقي وصوت هـدير المياه، وفيما هي كذلك جاءت "مسكة" تتهادى في مشيتها وتشمخ بأنفها فلمـا دنـت مـن "طوغاي" وقفت الفتاة تأدبًا للسيدة "مسكة"، فقالت "مسكة": يبدو أنكِ وقعت من نفس مولاي موقعًا جميلاً لم توفق إليه غادة قبلك، ثم قالت لها مُمازحة: إن مولاي كلفني أن أصلح من شأنك وآخذك إليه لتتناولي العشاء معه، وأتت لها بثوبٍ من حريرٍ ملون وحولـه منطقـة مُذهبة، وأخذت في إصلاح شعر الفتاة، فضايق ذلك "طوغاي" وطلبـت مـن "مسـكة" أن تعفيها من هذا التصفيف، فقالت "مسكة": هكذا يريد مولاي، وأصرت "طوغاي" على طلبها قائلة: اسألي مولايِ عله يعفيني، فذهبت "مسكة" ثم عادت وهي تقول: هذا دليلٌ آخر على حب مولاي لكِ فإنه سمح أن تكوني كما تشائين شرط أن تسرعي في الذهاب إليـه فـإن المائدة قد أعدت.

استأذن "تنكز" بالانصراف ولم يجد بدًا من الجلوس مع السلطان لما رأى في عينيه من اهتمامٍ بجاريته الجديدة، وانصرف، ومشطت "طوغاي" شعرها بيدها وضفرته ضفيرتين أرسلتهما إلى الوراء إلا خصلاً صغيرة أرسلتها على صدغيها ورفضت الاكتحال ثم مشت في إثر "مسكة" في دهليزٍ يؤدى إلى قاعة واسعة قد نُصبت عليها المائدة، مفروشة بالطنافس والزرابي غير الأرائك والوسائد والمقاعد وكلها مُذهبة ومُطعمة بالعاج والأبنوس وقد أُرخيت السُتر على الجدران التي تكسوها.

دخلت "طوغاي" وعليها ذلك الثوب الجميل الذي زادها إشراقًا، فلم يتمالك "الناصر" نفسه عند دخولها ووسع لها مجلسًا على المقعد ودعاها إلى الجلوس بجانبه فجلست ورحَّب بها وقال: إن هدية "تنكز" اليوم قد كفرت عنه جميع سيئاته، وأمسك يدها وقد زادها الحياء جمالاً –والحياء أجمل ما تزدان به المرأة، بل هو أجمل أثواب زينتها الحقيقية– وأشار "السلطان" إلى خادمٍ بيده طبق من لحم الدجاج أن يضعه على المائدة وينصرف خارجًا، فتناول السلطان قطعة وناولها لـ"طوغاي" تشجيعًا لها، فأطاعته وتناولت من يده القطعة فلم تستلذ طعمها ولاحظ السلطان أنها لم تستطب طعمها فأمر بالحلوى فأتوا بعشرات من أشكالها، كذلك الفاكهة، وكان الخدم يقدمون باقات الأزهار طيبة الرائحة غير ما يرشونه في أرض القاعة من ماء الزهر والعطر وما يحرقونه في المباخر المنصوبة بين الأبواب من الند والعود.

انبهرت "طوغاي" من ذلك الرخاء وأمر "الناصر" برفع المائدة وأحبت "طوغاي" أن تتنقل بعد الانتهاء من الطعام إلى مقعد آخر فأمسكها وأقعدها بجانبه وأخذ يُحادثها وبدأ بالسؤال عن بلدها فقال: من أين أنت يا "طوغاي"؟ فأجابت: من "بلاد التُرك" يا مولاي، فوقع اسم التُرك وقعًا شديدًا على سمعه، وابتسم ثم قال: إن "بلاد الترك" واسعة، فمن أي بلد منها أنت؟ فقالت: لا يُطلب من الجواري معرفة أنسابهن لأنهن ينتسبن إلى مواليهن، فأنا الآن في قصر السلطان "الناصر"، وإنما أنتسب إليه وكفى، فاستحسن "الناصر" جوابها الدال على الذكاء، وفيما هما كذلك إذا بالحاجب يستأذن في الدخول ويقول للسلطان: ناظر الخاصة "كريم الدين" يريد مقابلة مولاي السلطان، فتأفف "الناصر" وقال: إنهم يقلقون راحتي بمقابلاتهم.. ماذا أصنع لهم؟! فأنا لا أستطيع مجالسة أحد غيرك الآن، وإني أرى أن أؤجل الاجتماع بناظر الخاصة لصباح الغد، فقالت "طوغاي": لكن يا مولاي لا أظن أنه يلح في طلب مقابلتك هذه الساعة إلا وهو في حاجة إليك، رد السلطان: ولكن وجودك يؤنسني، ولا تستغربي ما ترينه من إعجابي بكِ من أول مرة رأيتك فيها فإنني لم أر هذه

الأخلاق في واحدة من الجواري فأنت أميرة بأخلاقك، ثم قال للحاجب: إذا شـاء "كـريم الدين" مقابلتي فادخلوه إلى هنا وأشار بيده إلى الجناح الأيسر من القاعـة، وأمـر بعـض الخدم بإرخاء الستر فأصبحت القاعة قاعتين بينهما تلك السُتر التي كانـت مـن الـديباج المُطرز وبها ثقوب ترى "طوغاي" منها من تشاء من الجالسين ولا يرونها.

خرج "الناصر" لاستقبال "كريم الدين" وبقيت "طوغاي" جالسة تنظر من أحد الثقـوب، وفجأة سمعت "الناصر" يصرخ حين أبلغه ناظر الخاصة بأن موظفًا كبيـرًا فـي الـديوان السلطاني ضُبِط مُتلبسًا بالرشوة ليحصل على المال بغير حق، وظل يصرخ مُرددًا: هـذا هو الفساد، والفساد مبعث الظلم والتأخر، الرشوة والتزوير .. الرشوة والتزوير، ثم أردف يقول: فلننظر في أمره صباح غدٍ.

عاد "الناصر" لـ"طوغاي" وكان عابث الوجه –على غير ما كان عليه– فأحست الفتاة بخيفة في نفسها فاستأذنت مولاها في الانصراف فصفق "الناصر" وطلب فـي اسـتدعاء "مسكة" لتصطحب "طوغاي" إلى مقر إقامتها، وجاءت "مسكة" وأشارت إلـى "طوغـاي" لتتبعها فأمسك "الناصر" يدها وقال لها: أود أن أراكِ ثانيةً فلقد أفسد "كـريم الـدين" هـذا اللقاء، فردت عليه باستحياء: السمع والطاعة، فليس للجارية أن تُشار، وإنمـا عليهـا أن تطيع، فأثر كلامها في قلبه تأثير السهم، وسحبت يدها من يده واستأذنت فـي الانصـراف وانحنت تقبل يد السلطان، ثم خرجت من القاعة.

ظل "الناصر" شاخصًا ببصره إليها وهي تمشي خلف السيدة "مسكة" ناظرًا إلى قـدها المياس، فقد كانت بيضاء البشرة، واسعة العينين، مقوسة الحاجبين، مُتناسقة الملامـح، إذا نظرت إلى عينيها فكأنها تأمرك، فلم يتمالك "الناصر" نفسه من الإعجاب ولاسيما بعـد أن أجلسها معه ورأى فيها ما رآه من حسن خلق وخلقة، فتمناهـا أن تكـون لـه زوجـة لا جارية، وغلب شوق "الناصر" على "طوغاي" بعد أن تركته فأرسل لـ"مسكة" لتسـتدعيها له، وأظهر رضاه عليها، وفاتحها في أمر الزواج في غفلة عن الرقباء، فسكتت "طوغاي" وفي السكوت رضاء، ولكن الحياء يمنعها عن التصريح، فعمـد إلـى تجريبها وقـال: أتشعرين يا "طوغاي" بالسرور الذي أشعر به الآن؟ قالت: لا أعلم مقدار سرورك ولكنـي أعلم أنني مسرورة، ونظرت شاخصة إلى الأرض، فرفع "الناصر" وجهها فوقعت عينـه بعينها فخفق قلبها، وتصاعد الدم إلى وجهها، فحولـت نظرهـا عنـه، وأخـذت تغالـب عواطفها، ونهضت .. فأمسك "الناصر" بيدها وأجلسها ثم قال: لن تجدي سبيلاً إلى إخفاء عواطفك فلا تحولي نظرك عني، ولبثت صامتة واستأنست "طوغاي" بذلك الحنو فقال لها:

لمْ أسمع منك ردًا؟ أموافقة أنت على ما عرضته عليك؟ فهزت رأسها إشارة إلـى القبـول فضمها "الناصر" إليه وقبلها على جبينها وقال: اعلمي أن السر إذا جاوز الاثنـين شـاع، فقالت: أجل أعرف ذلك، فقال: لذلك أطلب منكِ أن تكتمي هذا الخبر عن جميع مـن فـي القصر، ولا تحدثي به أحد من الجواري حتى أعلن الخبر بنفسي، فقالت: السمع والطاعـة لمولاي، واستأذنت في الانصراف ولكنها شعرت عند المصافحة شعورًا جديدًا فأسـرعت بجذب يدها منه وأظهرت له أنه قد آن وقت انصرافها، فودَّعها، ومشت الفتاة منتشية مـن وقع ما سمعته من "الناصر"، وأحست بشيءٍ من الزهو والفرحة وبميلٍ إليه ورغبة فيه وهو ما لم تكن تشعر به من قبل، وحينئذٍ سارعت إلى غرفتها فدخلت وأقفلت البـاب وراءهـا وتوسدت الفراش وقضت تلك الليلة في حيرةٍ وقلقٍ وسعادة مفرطة، أما "الناصر" لما خـلا إلى نفسه أحس بغبطة وأخذ يفكر فيما دار بينهما من حديث ويؤول ما شـعر بـه بأنـه الحب .. أجل إنه الحب .. ولكنه مختلف تلك المرة، وهو ما كان يتمناه حقًا وقد أنعـم الله عليه به كما كانت تتمناه له "مسك الختام".

عودة الروح

نعود إلى "سلسبيل" وقد وافقت الجارية "حلوة" على أن تساعدها على قدر المستطاع بعد أن رقت لحالها، وكانت "حلوة" على علاقة وثيقة بأحد كبارِ "المماليك" ممن هم مكلفون بتوزيع الحراسة على القصور السلطانية، وقد تعاهدا على الارتباط ولا يرفض لها طلبًا، فذهبت إليه وقَصَّت عليه قصة "سلسبيل" وحُبها وشغفها بابن عمها "صلاح الدين"، وتعسف عمها "الناصر" ورفضه تزويجها له، فوافقها على أن تحدد له موعد الزيارة وما عليه غير اختيار الحارسين المناسبين لحراستها مُختلقًا لهما سببًا يصرفهما عن تشديد الحراسة عليها ولإبقائهما خارج الدار حتى تأخذ "سلسبيل" فرصة التحدث مع "صلاح الدين" على راحتها.

انتهزت "سلسبيل" فرصة مرض "مسكة" وطلبت من عمها الموافقة على زيارة أسرتها، ووافق السلطان بنفس الشروط السابقة، غير أن "سلسبيل" قالت له: لكن "مسك الختام" مريضة اليوم، فقال: اصحبي معكِ إحدى جواريكِ شرط أن يكون معكما الحارسان، ثم نصحها فقال: لا تتبسطي في الحديث مع هؤلاء الناس، فالأمر الآن مختلفٌ عما قبل، وتراودني فكرة تغيير اسمك واختيار اسمٌ جديد لكِ يتناسب مع أميرة من أميرات بيت "آل قلاوون"، فنظرت إليه الفتاة مطرقة.. ثم قالت: أأُغير اسمي!.. كيف ياعماه استبدل اسمي باسمٍ آخر؟! .. هذا مستحيل.. فأنا أحب هذا الاسم، ولا أرضى عنه بديلاً، وقد كبرت به فكيف أتخلص منه وهو جزء من كياني؟! أنا لست كالأفاعي يتخلصن من جلودهن فتنمو لهن جلودٌ جديدة.. أُفضل أن أموت على أن أغير اسمي، فقال "الناصر": ولكن هذا الاسم لا يُناسبك الآن، فردت: ولم لا يُناسبني؟! أهو حذاء أرتديه وقتما أريد وألقي به حينما لا أريده، إنه شيءٌ يلتصق بشخصي وكياني وأعيش به وأموت عليه، فكيف أتخلص من اسمي؟! فقال "الناصر": سنرى ذلك لاحقًا، أما الآن فاتركيني أُدبِّر لكِ أمر هذه الزيارة ثم عودي بعد قليل، واعلمي تمامًا أنني سأعرف كل شئ .. فما عليكِ غير أن تتعقلي ولا تجري وراء أهوائك، أسمعت يا "سلسبيل"؟ أقصد يا ابنتي، فقالت له: أرأيت يا عماه.. إنني على حق فيما قلته لك، لا يستطيع أحدًا أن يُغير اسمه وهاقد ناديتني سهوًا.. بيا "سلسبيل"، دون أن تشعر، فما بالك بي أنا.. فكيف أنساه؟.

أخذت "سلسبيل" موافقة عمها على زيارة أسرتها، واصطحبت معها جاريتها "حلوة" والحارسين المكلفين بحراستها وطارت إلى حيث منزل "زمزم" وهي لا تتمالك نفسها من

فرط السعادة، وما أن طرقت الباب حتى فتح لها "صلاح الدين"، فتسمرت في مكانها وظلت شاخصةً ببصرها إليه دون أن تنطق بكلمة واحدة، وشعرت بدوار أفقدها وعيها وببرودة دبَّت في أوصالها، فلم تقو المسكينة على الحراك بينما وقف "صلاح الدين" أمامها صامتًا حتى أفاقت من سكرة نشوتها ومدت يدها تصافحه وهي تقول: كيف حالك يا "صلاح الدين"؟ فرد عليها: الحمد لله.. وكيف حالك أنتِ؟ تفضلي وسحبت الفتاة يدها من يده، فدخلت تتلفت وتقول: أين أبي.. وأين أمي؟ أجابها: أُمك تطعم الطيور فوق سطح الدار وأباكِ بالداخل يُصلي، فنادت بأعلى صوتها ياأُماه.. ياأُماه.. أين أنت ياأُماه؟ وجلست "سلسبيل" بجوارها "حلوة" وبقي الحارسان خارج الدار كما أمرهما كبيرهما، أما "صلاح الدين" فاستأذن منها ليخبر أمها، فاستوقفته وقالت: بل سأصعد معك.. هيا يا"صلاح الدين".

مشت الفتاة و"صلاح الدين" في أثرها وما أن انفردت به حتى قالت: لقد اشتقت إليك يا"صلاح الدين"، وأكاد أموت من فراقك ولا بد أن نفعل شيئًا ولا نترك الأمور على حالها هكذا، فقال "صلاح الدين": لقد خرج الموضوع من يدي ولا أستطيع أن أفعل شيئًا وقد أصبح الأمر بين يديك ويدي عمك السلطان، وأنا ضعيفٌ أمام تحقيق هذه الرغبة لكِ، ولا أريد معاندة عمكِ فيكيد لي وربما يلفق لي تهمة ليزج بي في غياهب السجن، لابد من التريث والصبر والحكمة فلا تتعجلي وسوف ينظر الله في أمرنا، واعلمي أنني أشتاق إليكِ كما تشتاقين وربما أكثر ولكن الحكمة تقتضي منا الصبر على البلاء.. إنها الأقدار يا"سلسبيل". انتهى "زمزم" من صلاته وقد سمع صوت "سلسبيل" وهو يُصلى فنادى عليها: أين أنت يا ابنتي؟ أجابت: أنا بأعلى الدار يا أبي، سأنزل إليك على الفور، وسمعت الأُم صوت "سلسبيل" فصاحت من أعلى الدار قائلةً: من.. "سلسبيل" ابنتي! مرحبًا بالغالية كيف حالك يا ابنتي؟ وهرولت إليها أمها وضمتها لصدرها وأخذت تقبلها ودموع الفرحة تملأ عينيها، ونزل الجميع واستقبل "زمزم" ابنته بالترحاب، ولكن المسكين لم يتمالك أن يمنع دموعه، فبكت لبكاء أبيها، فقال "صلاح الدين": هكذا نحن نبكي من شدة الفرح والحزن، فمتى نضحك إذن؟ وكفكف "زمزم" دموعه واصطحب ابنته وأجلسها على الأريكة التي كانت طالما تجلس عليها بجواره يقص لها حكايات "المماليك" والسلاطين و"قلعة الجبل" بما فيها من مؤامرات وغيرها.

أمضت الفتاة مع أسرتها يومًا رائعًا، واستأنست بذلك الحب من أبويها وعادت وهي سعيدة برؤية أسرتها حزينة لفراقهم ولعودتها إلى سجنها بـ"قلعة الجبل" فاختلطت مشاعر

السعادة بالحزن لديها، فهربت من هذا الشعور المؤلم بالنوم ونامت تحلم بـــ"صلاح الدين" وعودة روحها إليها.

في أحد الأيام خرج السلطان "الناصر" للصيد في "قليوب" واصـــطحب معـــه بعـــض خاصته ليتبارى معهم في هوايته المفضلة، وكان معه أمراؤه ومماليكـــه وعلـــى رأســـهم الأمير "شرف الدين حسين" أعز أصدقائه ومن المقربين له وكان من أحســـن مـــن يجيـــد الرمي والنشاب في "مصر"، وقد أفرد له "الناصر" زاوية من الطيور وجعله "أمير شكار"، وكان له خفة ظل وحسن طالع مما حبب الناس فيه.

خرج كل أمير ومعه الطيور الجوارح التي تساعده علـــى الصـــيد مثـــل: الصـــقور والشواهين والسناقر وهي من مُستلزمات الصيد، إلى جانب كلاب الصيد، واستعد السلطان والأمراء لبدء الرحلة واستخرج البندقدار السهام للسلطان وامتطى السلطان "الناصر" فرسه الذي انطلق يجري وكلاب الصيد في إثره سعيًا لاقتناص الفرائس، وفجأة غاب الســـلطان عن الأمراء فقد وقع عن فرسه وهو يركض به وأغشي عليه في مكـــان بعيـــد فأخـــذت الكلاب تنبح في بادئ الأمر ثم جلست بجواره ساكنة.

ظل "الناصر" هكذا نحو أكثر من ساعة حتى بدأ الأمراء يقلقون لغيابه، فقال الأميـــر "شرف الدين حسين": لقد تأخر السلطان.. تُرى ما خطبه؟! هيا نبحث عنه، سأبحث أنا في هذه الجهة وأنت يا"بُكتمر" ابحث في تلك الجهة، أما أنت يا"سيف الدين" فلتبحث هناك، هيا أسرعوا .. فربما يكون قد أصابه مكروه.

بدأ الأمراء في البحث عنه وطالت رحلة البحث حتى وجده الأمير "حسين"، فصـــاح بالأمراء ليدركوه: ها هو مولاكم "الناصر" قد وجدته مغشـــيًا عليـــه.. تعـــالوا مســـرعين لنجدته.

التف الأمراء حول السلطان "الناصر" لإنقاذه فقد كان فاقدُ الوعي ولاينطـــق، وأدرك الأمير "حسين" بعد أن رفعه مع "الأمير سيف الدين" بأنه قد أُصيب بكســـرٍ فـــي ذراعـــه، فحملوه وعادوا به إلى القلعة.

جاء الأطباء والمُجبِّرين لعلاجه، فانبرى أحد المُجبِّرين وقال: هل يريـــد مـــولاي أن يشفى سريعًا؟ اسمع مني .. فقال السلطان في غضب: قل ما عندك.. رد الرجل: لا تـــدع أحدًا يداويك غيري وإلا فسدت يدك كما فسدت رجلك وقد سلمتها لـــ"ابن سيسي" فأفسدها، أما أنا فلن يمضي عليك شهرٌ حتى تركب وتلعب الكرة بيدك، لم ينطق الســـلطان بكلمـــة وسلمه يده في سكون وبدأ الرجل في علاجه.

بعد أن خرج الرجل .. أخذ السلطان يئن ويتوجع بعد أن كان متماسكًا من أثر الكسر، والأمراء يلتفون من حوله ويخففون عنه بكلماتٍ رقيقة، فشكرهم السلطان وقال: الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه.. قدَّر الله وما شاء فعل، لقد تعبتم معي.. أشكركم أيها الأمراء.

وما أن انصرف الأمراء حتى دخلت "مسكة" على السلطان ممسكة بيدها المبخرة تقرأ المعوذتين ثم انحنت تقبل يده وتقول: حمدًا لله على سلامة مولاي، فرد: أشكرك يا"مسك الختام"، فأخذت تحرك المبخرة بيدها وتردد: عين أمراء.. عين مماليك.

كان "الناصر" يؤمن بما كان يؤمن به أهل عصره لا يشذ عنهم فيه فكان يؤمن بالحسد ويحرص على استعمال البخور في يوم الجمعة كما كان يتشاءم ويتطير وإذا أقدم على عمل فتح المصحف ونظر في أول سطر يخرج له فإذا صادف آية تنطوي على العذاب والوعيد تخوف، وتشاءم من هذا المشروع وكان يؤمن بالسحر، وقد سُر السلطان سرورًا عظيمًا حينما رأى السيدة "مسكة" تقوم بإطلاق البخور وترقيه بالمعوذتين، وتقوم بوضع الأحجبة تحت وسادته ظنًا أنها ستحميه من الشرور وتصرف عنه أذى أعين الناس.

بعد أن علمت "سلسبيل" بما حدث لعمها نسيت له كل شئ، فأقبلت عليه وانحنت تقبله على جبينه وهي تقول: حمدًا لله على سلامتك ياعماه ليتني كنت فداك .. أفتديك بعمري، ورقرقت الدموع في عينيها، فقال "الناصر": أنا بخير والحمد لله، وأذن لها بالجلوس.

جاء يوم تقسيم الإقطاعات من جديد وإعادة توزيعها على الأمراء و"المماليك" توزيعًا عادلاً وهو ما يُسمى بـ"الروك الناصري"، وجلس السلطان ومعه نائبه "سيف الدين أرغون" وكانت يده مازالت مُجَبَّرة وقد خصص "الناصر" اليوم الواحد لتوزيع الإقطاعات على أميرين فقط وما لهما من مماليك، وجلس السلطان "الناصر" وافتتح جلسته قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم توكلنا على الله فالنبدأ بالجند أولاً وأشار إلى أحد الجنود من "المماليك" واستدعاه قائلاً تعالى ياهذا.. ما اسمك؟ فقال المملوك: اسمي "كوجك" ومن سيدك؟ فأجاب المملوك: سيدي الأمير "علي بن أرغون"، فنظر "الناصر" إلى ما بين يديه من نسخٍ حتى يختار له إقطاعه، ثم سكت هُنيهة وقال بعد أن أشار على الأوراق: هذا هو إقطاعك، وحدد له مكان ومساحة الإقطاع، وأحس "الناصر" بمدح الأمير "علي" لهذا الجندي أثناء مثوله بين يدي السلطان ليختار السلطان له إقطاعًا حسنًا، وفطن السلطان لذلك بعد أن مدح الأمير "بيبرس" مملوكه "إيدمر" فأدرك "الناصر" أن هذا المديح قد يكون غير خالصٍ

لوجه المصلحة العامة ويخفي أغراضًا خاصة، فقال السلطان: أنا لا أريد أن يتكلم أحدًا في المجلس، ومن يتكلم من الأمراء سيُمنح مملوكه عكس ما كان يتوقعه.

سكت الجميع عن الكلام ولم يتكلم أحدًا بعد ذلك إلا جوابًا للسلطان عما يسأل عنه، واستدعى السلطان مملوكًا آخر في وجهه ندبه تُشبه أثر ضربة سيف فأعجب السلطان به وأعطاه إقطاعًا جيدًا ثم سأله: في أي موقفٍ من مواقف الحرب وقع في وجهك هذا السيف؟ فرد المملوك: ياخوند هذا ماهو أثر سيفٍ وإنما وقعتُ من سلمٍ فسار في وجهي هذا الأثر، فابتسم السلطان لصراحته وصدقه وتركه ينصرف بإقطاعه الجيد ولكن أحد الأمراء علق على تصرف السلطان مُعترضًا وقال: ما بقى ياخوند يصح له هذا الإقطاع، فالتفت إليه "الناصر" وقال له: قد صدقني وقال الحق وقد أخذ رزقه فلو قال أُصبت في الواقعة "الفلانية" ما كان فيكم من يُكذبه، وارتاح الأمراء لهذا الرد ودعوا للسلطان وانصرف المملوك بإقطاعه، ثم تقدم رجلا دميم الخلقة كان له إقطاعًا عظيمًا يُدر عليه ثماني مائة دينار فأعطاه السلطان إقطاعًا آخر يُدر عليه نصف هذا المبلغ، فانصرف الرجل من أمام السلطان بإقطاعة الجديد وما لبث أن عاد إلى السلطان يُقبل الأرض بين يديه، فسأله السلطان: لماذا عُدت يا رجل؟ فقال له: الله يحفظ السلطان فإنه أخطأ في حقي، فإن إقطاعي القديم كانت غلته ثمانمائة دينار وهذا الإقطاع غلته أربعمائة دينار، فاستفز حديث الرجل السلطان فبادره قائلاً: بل الخطأ كان في إقطاعك الأول، فامضِ يارجل وارض بما قسم الله لك، كما دعى شيخًا مُسنًا فنظر إليه ورَقَّ لحاله وقال له يُخيره: أتُفضل إقطاعًا تحصل عليه أم راتبًا يجري عليك من الدولة؟ فسكت العجوز بُرهة وقال: أُفضل راتبًا يُعوضني عن إقطاعي، فأمر له السلطان بثمانمائة دينار في السنة، ثم دخل عليه شخصًا عاجزًا عن الحركة، وما أن رآه السلطان حتى قال: أما أنت فسنُرتب لك ما يُعوضك إقطاعك دون أن يسأله.

مروان وحِكمَة السلطان

كان "الناصر محمد" قد أمر بالجلوس بـ"دار العدل" في كل يوم اثنين وكذلك "دار النقباء" على القضاه بعد أن استقرت أوضاعه، وقد نودي في الناس بأن من له مظلمة فليدفعها إلى "دار العدل" لينظر فيها السلطان، وفي إحدى المرات تحايل رجلٌ يُدعى "مروان" للدخول ومُقابلة السلطان، فسأله الحاجب عن قصته ليدفعها إلى السلطان لينظر فيها، فقال الرجل: لم أكتب شيئًا وإنما أريد أن أرفع ظلامتي شفاهةً إليه، وسأنتظر حتى ينتهي مولانا من شكاوى المتظلمين، فرفع الحاجب ذلك إلى "الناصر"، فقال له: اجلسه حتى نفرغ له، فجلس "مروان" ينظر ويعجب من إجراء العدل والإنصاف حتى إذا فرغ "الناصر" من نظر شكاوى المتظلمين صاح بـ"مروان": ماهي ظلامتك يارجل؟ فوقف "مروان" وقال: لا أقولها إلا في خلوة، فلما سمع "الناصر" ذلك أشار إلى القاضي وجلس وحده، فتقدم "مروان" إليه ووقف بين يديه مُتأدبًا والسلطان ينتظر أن يسمع شكواه، ولم ينطق الرجل بكلمة، فاستبطأه السلطان وقال: ممن تتظلم يارجل؟ فقال الرجل: أقول ولابأسٌ عليَّ، فرد السلطان: قل .. إنك على بُساط السلطان ومهما يكن من ظلامتك فإنك تُنصف.. قل ممن تتظلم؟ فقال "مروان": من سلطان "مصر" و"الشام" ومن نائبك في "الشام"، فذُهش "الناصر" وقال: مني أنا تتظلم يارجل! فقال الرجل: نعم يامولاي .. فإذا كنت قد تجاوزت حدي بالتظلم منك فأنا بين يديك افعل بي ماتشاء، فرد "الناصر": لك أن تتظلم ممن شئت فما هو ذنبي لديك؟ قال الرجل: رُب ذنب لايعرفه صاحبه، فقال "الناصر": أفصح يارجل .. ماهي ظلامتك؟! فإني لاأعرفك ولا أذكر إني رأيتك من قبل، فأجاب الرجل: سأرفع مظلمتي وأمري إلى الله، وبدأ يتحدث: مررت بضائقة مادية وقد بعت جاريةً لي لنائبك في "الشام" الأمير "تنكز"، ولما فك الله أزمتي ذهبت إليه لأستردها منه فأخبرني بأنه أهداها لك ولقد شق عليَّ فُراقها وأريد أن أستردها منك، فنظر إليه السلطان وطيب خاطره وقال: أقدّر موقفك يارجل ولكنك لم تُودعها رهينةً وأو أمانة عنده فلقد تم بيعك لها وقبضت منه ثمن البيع فأصبح الأمير "تنكز" مالكًا لها وصاحب القرار فيها ولم يعد لك عنده شئٌ، فقال الرجل: لكن الأمير "تنكز" لم يكن في حاجةٍ إليها فدفعها بدوره إليك، فقاطعه "الناصر" وقال: لقد أهداها لي وقد قبلت منه الهدية والهدية لاتُرد ولا تُباع.

وقف الرجل عاجزًا عن الكلام.. فقد باعها حقًا وقبض ثمنها، فسكت هنيهة ثـم عـاد يقول: الأمر لله إذن، فسأله "الناصر": كم أعطاك الأمير "تنكـز" مقابـل بيعهـا؟ أجابـه: خمسمائة دينار، فقال "الناصر": سأدفع لك ألفي دينارًا تعويضًا لك، سكت الرجـل، فقـال "الناصر": أقبلت يارجل؟ قال الرجل: حسنًا يامولاي.. فالهدية لاتُبـاع ولاتُـرد، وخـرج "مروان" من حيث أتى فرحًا بالألفي دينار ونسى شغفه بـ"طوغاي" جاريته ومضى إلـى حال سبيله، فقرر "الناصر" بعد مُقابلة هذا الرجل بالتعجيل بزواجه من "طوغاي"، وأمـر السلطان "كريم الدين" ناظر الخاصة و"أقبغا" إستاداره بأن يبدآ في الإعداد لحفـل الـزواج بإرسال الدعوات وتوزيعها على كافة الأمراء والنواب في بلاد "الشام" و"مصر"، وبـدأت "القاهرة" تتلألأ بنصب الزينات إعلانًا بهذا الزواج المُبارك.

مشى المنادون ينادون في البلاد ويعلنون بقـرب زواج السـلطان، فـاكتوى قلـب "هادنساد" حينما علمت بذلك وهي التي تتفانى في إخراج لهيب مشاعرها لمولاها "الناصر" وقد فضل الجارية الجديدة عليها رغم ما بينهما من حب، وما تكنه له من مشاعر، ووقعت "هادنساد" مريضة، وظلت طريحة الفراش عدة أسابيع تقاسي مرارة الغدر وقسوة مولاهـا عليها، فقد طعنها في مقتلٍ دون شفقة ولا رحمة، لقد تزوج "الناصر" من قبل ولـم تهتـز مشاعرها كما اهتزت تلك المرة، فهذه الزيجة مختلفة عما قبلها، فهي جاريـة مثلهـا، ولا تختلف عنها كثيرًا، فما الأمر الذي دفع مولاها للارتباط بها.

علم "الناصر" بمرض "هادنساد" وحزن في نفسه على ما قد سببه لها من عناء وتعاسة فهو مازال يحبها ويرتاح إليها فهي المرفأ له وقت الأزمات، وهي الواحة الظليلـة وقـت المحن، وهي الصدر الحنون الذي يحتويه ويخفف عنه آلام قسوة الأيام والتآمر والحجـر عليه ولكن ماذا يفيد كل ذلك؟ وقد طعنت "هادنساد" في صميم مشاعرها، وباتـت تتأسـى على الأيام وظلمها لها، فلم ترزق من السلطان "الناصر" بولد كغيرها من أمهـات الأولاد من الجواري اللائي أنجبن له البنين والبنات، كانت تتمنى أن تكون واحدة مـنهن، وجـاء السلطان في زيارة لها على غير موعد، فما أن رأته حتى انتفض قلبها وكـاد يقفـز مـن صدرها واهتز كيانها فارتعشت شفتاها وفاضت عيناها بدمعات حارة تسيل على وجنتيهـا تكاد تحرقهما، وارتبكت "هادنساد" وما كاد يقترب منها "الناصر" حتـى أرخـت عينيهـا وأشاحت بوجهها عنه، تحملق بعيدًا في فراغ الحجرة، فجلس "الناصر" صامتًا على حافـة مخدعها، ثم قال لها بصوت يفيض حنانًا وعشقا: "هادنساد".. حبيبتي انظري إليَّ واسمعي جيدًا ما سأقوله، فقاطعته: وفر عليك حديثك يا مولاي فأنت حر تفعل مـا تشـاء لا إرادة

لأحد عليك غير إرادة الله، فلك الأمر وعلينا الطاعة وما يسعد مولاي يسعدنا جميعًا، فقال لها: الأمر ليس كما تظنين، فردت: إذن ماهو الأمر الذي دفعك للارتباط بتلك الجارية ولم تخالطها حتى تعرف مزاياها من عيوبها، فما أن جاءت حتى استقر رأيك بلا تردد فأعتقتها وأقدمت على الزواج بها، لقد سحرتك يامولاي، ومن المثير للعجب أن الذي أهداها لك هو صهرك الأمير "تنكز"، كيف بالله يكون هذا؟ وابنته "مطلونبك" زوجتك، وأين هي من ذلك كله؟ وما موقفها من أبيها؟ فقال السلطان: "مطلونبك".. لا تهتم بهذه الأمور فلا شاغل لها غير كثرة الإنجاب ورعاية أطفالها، ولم تعد تهتم بما سأقدم عليه أو أحجم، أنا ما جئتك إلا لأطمئن عليك وأطيب خاطرك، سأنصرف الآن وأعود إليكِ في المساء فأنا أحبك وسأظل أحبك ما حييت فلا تدعِ نيران الغيرة تأكل قلبك.

فيما هو كذلك تجمهر بعض "المماليك" عند باب القصر بسبب تأخر رواتبهم وكان "كريم الدين" هو ناظر المال، فصاح أحد "المماليك": نريد رواتبنا .. لنا أكثر من شهرين لم نحصل عليها، ولا نعرف السبب من القائمين عليها، إنهم يفرطون في واجبهم تجاهنا بالإهمال والتراخي وعدم إبداء الأسباب، ويرد عليه مملوكٌ آخر: هل خزائن الدولة خوت من الأموال؟ أم أن الأمراء بتبذيرهم وإسرافهم أتوا عليها ولم يعد لنا نصيب منها حتى نحصل على رواتبنا؟ أين حقوقنا ونحن قائمون على حراستكم وخدمتكم وراحتكم أيها الأمراء؟ فلما أُبلغَ أحد الأمراء "الناصر" بتجمهر "المماليك" واستحالة التفاهم معهم وخشي السلطان من أن يتطور الموقف إلى ثورة، فأمره بأن يرجع إليهم ويطمئنهم أن السلطان سيبعث إلى ناظر المال ويستدعيه ليستطلع منه الأمر ليحل مشاكلهم ويصرف رواتبهم.

انصرف الأمير تنفيذًا للأوامر وخرج إلى المتظاهرين وقال لهم ما أمره به السلطان، ولكنهم لم يسمعوا له ولم يلتفتوا إليه، فرجع الأمير إلى السلطان يُجرجر أذيال الفشل ويطلعه على نتيجة مقابلة الثائرين، فقال السلطان غاضبًا: سأخرج إليهم وأؤدبهم، فانزعج الأمير وقال: لا يامولاي .. لا تخرج إليهم إنهم ثائرون ولا يمكن الخروج إليهم وأنت أعزل من السلاح وهم مسلحون.

لم يعبأ السلطان فخرج إليهم وكان مُمسكًا بعصا صغيرة يلوح بها وقال للأمير: سأخرج إليهم مهما كان الأمر، وزاد حنق السلطان فتقدم في حزمٍ وثباتِ جأش، وصاح فيهم بلهجة الآمر: اطلعوا جميعًا إلى أماكنكم، أسمعتم ما قلته، ولم يستطيعوا إلا الخضوع، إذ لم يدر في خلدهم أن يخرج إليهم السلطان بنفسه، ويتقدم منهم وهو أعزل من السلاح وأخذ يضرب بعضهم بعصاته الصغيرة أثناء تراجعهم إلى أماكنهم وهو ينظر إليهم شذرًا،

ثم التفت إلى الأمير وهو عائد إلى جناحه وقال: أريد التحقيق فـورًا فيمـا حـدث، وأن يعرض عليَّ أمر هؤلاء الثائرين، ولما قُدِّم له كشفًا بأسمائهم بعث بعددٍ منهم إلـى "بـلاد الشام" وفرق عدد آخر بين أمراء "المماليك" في "مصر" وأمر بضرب بعضـهم بالمقـارع وعاقب بعضهم بتخفيف مرتباتهم، ثم بعد ذلك التفت إلى القائمين بأمر هـؤلاء "المماليـك" فعاقبهم لتفريطهم في واجبهم وإهمالهم في توجيههم.

الحازم

انتهى الإعداد لحفل الزواج، وزُفت "طوغاي" علـــى "الناصـــر" فتملكـــت مشـــاعره واستحوذت على قلبه وظلت مقيمة فيه إقامة دائمة، وتنعمت "طوغاي" بنعم لم يصل سواها لمثلها، ورأت من السعادة ما لم تره غيرها من نساء السلاطين فـــي "مصـــر" ولـــم يـــدم "الناصر" على محبة امرأة سواها، وبعد عام من زواجهما أنجبت "طوغاي" لـــــ"الناصـــر" ابنه "آنوك" وفرح "الناصر" به واغتبط بمجيئه رغم ما كان لـــ"الناصر" من أبنـــاء غيـــره وكانت عدتهم نحو ستة عشر ولدًا وهم: "أبو بكر" و"كوجك" و"أحمد" و"إسماعيل" "وشعبان" و"حاجي" و"الحسن" و"صالح" و"الحسين" و"رمضان" و"علي" و"يوسف" و"إبراهيم"، كما كان له من البنات سبع، ولكن كان لـــ"آنوك" منزلة خاصة لدى أبويه، أحبه "الناصر" حبًا شديدًا وميزه عن سائر أبنائه الذكور جميعًا، حتى أنه فكر جديًّا في جعله ولـــيًّا للعهد رغم وجود من يكبره من الأبناء.

كان "الناصر" عطوفًا مع أبنائه جميعًا فعليه واجب لهم لايقل عن واجبه كسلطان فهو زوج وأب كما هو سلطان للبلاد، وكان دائمًا يصحب أبنـــاءه للنزهـــة والاســـتجمام مـــع زوجاته وبناته إلى منطقة "الجيزة" و"الأهرامات"، لأنها أحب البقاع إليه فتخلى الطرقـــات لهن من المارة وقت مرور موكبهن، وكان "الناصر" عطوفًا ولكن عطفـــه كـــان مشـــوبًا بالحزم فلم يكن يسمح لأبنائه بأن يخرجوا عن الطريق السوي أو أن يستغلوا صلتهم به في انتهاك حرمات الآخرين، كان يطمع في أن يكونوا مثالاً يحتذى بهم في الأخلاق الحســـنة وقدوة لغيرهم في السلوك، وعلم السلطان "الناصر" ذات يوم عن طريق رجاله الذين كانوا منبثين في كل مكان بما يفعله ولده "أحمد" حين أساء السيرة والسمعة في "الكـــرك"، فلـــم يرضَ عن سلوكه ورأى فيه خروجًا عما ينبغي أن يكون عليه شباب الأسرة الحاكمة الذين يجب أن يكونوا قدوة طيبة لغيرهم من شباب الأمة وللأمراء فأرسل في اســـتدعائه حتـــى يعاقبه ويؤنبه، ولم يدع أحد من الأمراء يخرج لاستقباله كما جرت العـــادة لـــذلك، حتـــى يشعره بأنه مغضوب عليه، ولما دخل عليه في القصر، وقبل الأرض بين يديه ثم اعتـــدل في وقفته تركه "الناصر" واقفًا ما يقرب من ساعة، وهو يتشاغل عنه بـــأمور تافهـــة ولا يأذن له بالتقدم منه لتقبيل يده كما كان يفعل دائمًا، وأخيرًا انتبه له السلطان، ولم يسمح لـــه بتقبيل يده، فمضى الأمير "أحمد" إلى الدور السلطانية حزينًا، ومر عامان على هذه الواقعة

وإذا بالسلطان يغضب من جديد على الأمير "أحمد" للأسباب نفسها وهي استهتاره وشـربه للخمر ومعاشرة نساء السوء من الغواني، فأمر السلطان بتسفيره إلى "الكرك" وأصدر أمره لنائب "الكرك" بألا يسمح لولده "أحمد" بأي حديث في شئون الدولة، وألا يجعله حكمًا بـين اثنين، فكان "الناصر" حازمًا رغم عطفه الشديد على أبنائه وكان لاسمه وقعٌ يبعـث علـى الهيبة والاحترام في كل مكان وما يدل على ذلك ما وقع لركب "العراق" وهو في طريقـه لـ"مكة" للحج عندما مر بعرب البحرين وخرج عليهم ألف فارس يريدون الاستيلاء عليه، وظل رجال الركب يتوسلون ويرجون الفرسان أخذ مبلغ من المال من أمير الركب، فقبل الفرسان واتفقوا على أن يأخذوا من الأمير ثلاثة آلاف دينار نظير خفـارتهم لهـم عبـر الصحراء، وما أن علم الفرسان بأن الركب جاء من "العراق" بأمر من الملـك "الناصـر" صاحب "مصر" بناءً على كتابه لهم بالسير إلى "الحجاز" فأعاد الفرسان المال إليهم وقـالوا لهم: لأجل الملك "الناصر" نخفركم بغير شئ، ومكنوهم من السير، وعلم السلطان "الناصر" بهذه الواقعة فسر سرورًا عظيمًا وبالغ في الإنعام على العربان.

بدأ الملك "الناصر" الاستعداد لزواج ابنته "خوندتتر الحجازية" على الأمير "علي بـن أرغون"، وكان "الناصر" يحب أن يزوج بناته لأمرائه فكلف "كريم الـدين" نـاظر المـال بإعداد الترتيبات اللازمة لحفل الزواج، واستمر الحفل ثلاثة أيام وحضرت نساء الأمـراء بهداياهن واشتركت فرق "القاهرة" وعشرون جوقة من جواري السلطان والأمراء وخـص كل فرقة من فرق "القاهرة" بخمسمائة دينار ومائة وخمسين تفصيلة حرير، ولم يُحصر ما حصل عليه جواري السلطان والأمراء لكثرته وأنعم السلطان على الأمير "سـيف الـدين أرغون" بمنية بني خصيب زيادة في إقطاعه ومنح الأمراء الخلع المختلفة وفضـل مـن الشمع بعدما استعمل منه مدة الفرح ألف قنطار، وذُبحت آلاف من رؤوس الأغنام وآلاف من رؤوس البقر ومن الدجاج ما لا يحصى عدده، هذا بخلاف أعداد كبيرة من الأفـراس التي تقدم في ولائم الأعياد والأفراح، وقد استخدم من السكر برسم الحلوى كميات هائلـة ومدت الأسمطة بما لذ وطاب، وتجلت في هذا الفرح عظمة "مصر"، كما اعتنى "الناصر" بابنته وعَمَّر لها سكنًا فاخرًا في "مناظر الكبش" وقدم الأمير "تنكز" في ذلك اليـوم هـدايا تفوق الوصف وغنى "كُثيلة بن مرافعان" في الحفل وأطرب الجميع بصوته العذب.

أعلى السلطان "الناصر" مكانة الأمير "تنكز" بعد أن ولاه نيابة "الشام"، وكـان يحبـه حبًا جمًا ويثق به مما دفعه بعد ذلك بأن يكتب إلى نـواب "حلـب" و"حمـاة" و"حمـص" و"طرابلس" و"صفد" ألا يكاتبوه مباشرة وإنما يكاتبون الأمير "تنكز" أولاً، ويقـوم "تنكـز"

بدوره بمكاتبة السلطان في أمرهم، فشق ذلك على هؤلاء الأمراء واحتج والي "صفد" فعزله السلطان واستدعاه وسجنه في "قلعة الجبل"، وكانت ابنة "تنكز" زوجة "الناصر" تنعم بحب "الناصر" بحكم الصلة الوثيقة التي كانت تربطه بوالدها، تلك الصلة التي ظلت تقوى مع الأيام حتى أن السلطان "الناصر" من شدة حبه وإعزازه لـ"تنكز" في آخر زيارة للأمير "تنكز" لـ"مصر" عمق محبته له، وقد قدم "تنكز" في هذه الزيارة من الهدايا العظيمة ما يفوق الخيال والوصف، حيث أهداه الأواني البلورية والأقمشة المزركشة بخيوط الفضة والذهب والخيل والسروج المفضضة والجمال وغير ذلك مما لا يصدقه عقل، وبعد أن قدم "تنكز" هداياه اصطحبه السلطان إلى داخل الدور السلطانية حتى يرى ابنته "مطلونبك"، وما كادت ترى والدها حتى قامت إليه وقبلت يديه فأمر السلطان بخروج جميع بناته وطلب إليهن تقبيل يد "تنكز"، وكان يقول لكل واحدة بعد أخرى: "قبلي يد عمك"، وحينما انتهت زيارة "تنكز" للسلطان وصمم على الخروج لم يتركه "الناصر" يخرج بمفرده بل اصطحبه حتى أوصله إلى الباب الخارجي للدور السلطانية، وظل يحادثه طوال الطريق تكريمًا له ولم يحظَ بهذا التكريم أحد من الأمراء من قبل.

لم ينسَ "الناصر" أن يتجه إلى تنمية البلاد من حيث علاقاتها التجارية مع الدول الأفريقية البعيدة كبلاد "التكرور" إضافة إلى صلته القوية مع "السودان" بحكم الجوار، وقد استقبل "الناصر" "منسا موسى" سلطان بلاد "التكرور" استقبالاً رائعًا تجلت فيه حفاوة "الناصر" بضيفه الكريم، وكتب الاتفاقيات معه على التبادل التجاري بين البلدين، وأثناء مجالسة "الناصر" مع السلطان الأفريقي أبدى "منسا موسى" عدم رضاه عن تسميته باسم سلطان "تكرور"، لأن "تكرور" لم تكن إلا إقليمًا واحدًا من أقاليم مملكته، وقال لـ"الناصر": أفضل أن تكون المكاتبات بيننا باسم صاحب "مالي"، وبالفعل أقبل تجار "مالي" على التوافد على "مصر" وكذلك التجار المصريون يفدون إليهم فيلقون معاملة طيبة وكرم عظيم من الجانبين.

سيدة البر
وسيدة الدهاءْ

نعود إلى "طوغاي" زوجة "الناصر" المحبوبة وهي في جلسة ودٌ معه يتجاذبان أطراف الحديث ويضحكان وقد كان "الناصر" يحبها ويتبرك بها، أخذ ينظر إليها وتنظر إليه والعيون تتفاهم بما تقصر الألسنة، ثم قال: هأنذا قد جئتك.. فما هو الأمر الهام الذي أرسلتِ إليَّ في طلبي واستعجال حضوري؟ سكتت "طوغاي" ثم رفعت رأسها وقد بدا الجد في عينيها ثم قالت: إني أود أن أصرح لك بشيءٍ في خاطري، فأنا لا مطمع لي في الدنيا غير أن تلبي لي مطلبًا واحدًا عزيزًا، قال "الناصر": صرحي وأفصحي عما في خاطرك، أي طلب هذا الذي تريدين أن ألبيه لكِ؟ فقالت "طوغاي" بخشوعٍ شديد: أشتاق إلى حج بيت الله الحرام إكمالاً لديني وابتغاءً لمرضاة الله، فضحك "الناصر" وقبلها على جبينها وقال: على الرحب والسعة، فطلبكِ نافذ إن شاء الله، وسأعلن في البلاد بشرى نبأ سفرك للحج هذا العام، ثم عاد يسألها: لماذا لم تخبريني عندما رأيتك بالأمس؟ فقالت: لم تكن الرغبة عنديَ بعد، ولكني أُمرت بها ليلة أمس، فقال: أُمرتِ بها! .. ممن أُمرتِ؟ فقالت له: جاءني هاتفٌ في منامي وقال لي: إن رسول الله ﷺ يأمرك بحج البيت هذا العام، كما حثني على التزود بالصبر وكررها ثلاثًا، أما تقوى الله فأنت ممسكةٌ عليها.

بدأت "طوغاي" تستعد للسفر إلى "الحجاز" للحج، فتجلى مدى إعزاز "الناصر" لها فيما أمر بإعداده من أجل هذه الرحلة.

وبينما كان "الناصر" منشغلاً بشؤون الدولة تعددت زيارات "سلسبيل" لعائلة "زمزم"، فلم ترتح "مسكة" لتعدد هذه الزيارات، وارتابت في أمر الحراس المكلفين بحراستها وفي أمر الجارية "حلوة"، فأرادت أن تتأكد بنفسها من صدق شكوكها أو من عدمها، فدبرت لذلك حيلة بأن تداهم بغتة بيت "زمزم" يوم زيارة "سلسبيل" لهم، وحدث ما توقعته "مسكة" فلقد وجدت الحارسين واقفين خارج الباب ولم ينفذا التعليمات المشددة لهما، فارتبك الحارسان وعرفا مصيرهما، ولم تعبأ "مسكة" بذلك فطرقت الباب فإذا بـ"زمزم" يفتح لها، وما أن رآها حتى زاغت عيناه وتجمد الدم في عروقه واصطكت ركبتاه من الخوف وتسمر في مكانه، فعاجلته بقولها: ألن تسمح لي بالدخول؟ فأفاق "زمزم" من غفوته وقال:

أهلاً وسهلاً ومرحبًا بالست "مسكة"، تفضلي، ودخلت "مسكة" تتلفت في أرجاء الدار أمــلاً أن تقع عيناها على "سلسبيل" ولكن دون جدوى، فسألت العجوز: أين "سلسبيل" وجاريتها؟ فارتبك الرجل ولم يجد ردًا لسؤالها فسكت عن الكلام، وعــادت تســأله: ألــم تســمعني يا"زمزم"؟ أين "سلسبيل" وجاريتها؟ فأجابها: جاءت وخرجت للنزهة، فابتدرته قائلة: مــع من خرجت تتنزه؟ مع "صلاح الدين" ابن أخيك متجاهلة تعليمات عمها "الناصــر" ألــيس كذلك؟ ألم أقل لك من قبل احذر غضب السلطان يا"زمزم"؟ ما كان عليك غير أن تمنعهــا من الخروج، لا أن تسهله لها، على أية حال سأنصرف الآن وأبلغ "سلسبيل" بمجيئ.

أحس "زمزم" بما تضمر "مسكة"، فقال مُرتبكًا: أجلسي ياست "مسكة" ولا تغضبي، لقد خرجت "سلسبيل"، بصحبة أمها ولا ضرر في ذلك، أما "صــلاح الــدين" فلــيس معهــم، فقاطعته "مسكة" وقالت: وما أدراني مدى صدق كلامك، فأجابهــا: مــا عليــكِ غيــر أن تنتظري مجيئهم فتتأكدي من صحة ما أقول.

وافقت "مسكة" على الانتظار شرطَ أن يقوم بإدخال الحارسين إلى الدار إلى أن تعــود "سلسبيل" وحتى لا تُمكنهما من تنبيه "سلسبيل" بوجودها فتتدارك "سلسبيل" الموقف وتبعــد "صلاح الدين" من الدخول معها.

وافق الرجل وأدخل الحارسين وانتظرت "مسكة" حضورها بينما انتهت "سلسبيل" من نزهتها مع أمها وجاريتها و"صلاح الدين"، وما أن اقتربت من الدار حتى ارتابت في أمر اختفاء الحارسين، فأبطأت خطوتها وقالت لــ"صلاح الدين": امض أنت للمسجد ولا تدخل معنا فأنا أشك في وجود السيدة "مسكة" بدارنا، فأطاعها "صلاح الدين" وانصــرف علــى الفور حتى لا يسبب لها المشاكل، واقترب الجميع من باب الدار فطرقت "سلسبيل" البــاب وقام "زمزم" ليفتح لها، ولكن "مسكة" منعته وقالــت: سأفتح أنا لهم، واقتربت مــن البــاب وهي متأكدة تمامًا من وجود "صلاح الدين" معهم، ولكن المفاجأة خيبت ظنها فلــم تجــده معهم.

حضنت "سلسبيل" "مسكة" وهي تقول: "مسك الختام" عندنا يــا مرحبــا يــا مرحبــا، واغتاظت "مسكة" فلم يتحقق لها ما تريد، فاستأذنت في الانصراف ولكن "سلسبيل" منعتهــا وقالت: انتظري يا "مسك الختام" حتى نتناول الغذاء معًا فلقد أحضرنا وجبة ســمك شــهية ولا يحلو لنا الطعام إلا معك، ووافقت "مسكة" على مضض، وبذلك تكون "سلسبيل" فوتــت عليها اغتنام فرصة الوشاية بها لدى عمها "الناصر"، ولكن "مسكة" لم تدخل عليهــا هــذه الحيلة، ولم تضع يدها بعد على الدليل الدامغ الذي تقدمه لمولاها السلطان.

حين عادت "سلسبيل" إلى القلعة قابلت صدفة أختها الأميرة "مُلكان" بعد غيبة طويلـــة، فقد كانت الأخيرة في "الشام" عند خالتها في زيارة لها، وتعانقــت الأختـــان واصـــطحبت "سلسبيل" "مُلكان" معها إلى جناحها لتخبر كل منهما الأخرى بمجريات الأحداث، فـــأخبرت "سلسبيل" أختها بما فعلته "مسكة"، وحذرت "مُلكان" "سلسبيل" من "مسكة" قائلة: لا تظني أن حيلتك قد دخلت على "مسك الختام"، فإنها ليست بالمرأة الساذجة رغم أنها تـــوهم النـــاس دائمًا بحسن نيتها وطيبتها حتى تتصيد لهم الأخطاء فتنقض عليهم بفعلتهم كالنسر غـــارزة أظافرها ممسكة بالحقائق فلا يستطيعون مضيًا ولاهم يرجعون، فاحذريها يا أختاه حتى لا تكيد لكِ ولـــ"صلاح الدين"، فقالت "سلسبيل": ماذا أفعل يا أختاه؟ وقد خاب أملي والعمـــر يجري ولا أجد حلاً لمشكلتي، فقالت "مُلكان": لاتستبقي الأحداث فربما تتغير الأحوال مـــن حال إلى حال ويرق قلب عمك "الناصر" فهو رقيق المشاعر طيب القلب عطوفٌ على كل من يتصل به، ولكن احذري غضبه فهو رغم ذلك عنيدٌ لايقف أحد مهمـــا كانـــت قوتـــه وذكاؤه أمام معاندته.

بينما كانت الأختان تتحدثان كانت "مسكة" تحيك المؤامرات ضد "زمزم" فأقبلت علـــى السلطان لتطرح عليه فكرة إيقاف "زمزم" عن العمل بـــ"قلعة الجبل" فابتـــدرها "الناصـــر" قائلاً: ولكن ما سبب ذلك؟ فقالت: تحسبًا لأي شئ يا مولاي، فوافقها "الناصر" دون تـــردد ودون إبداء سبب له، وأوقف "زمزم" عن العمل، وعلمت "سلسبيل" بـــذلك فجـــن جنونهـــا وذهبت لعمها ترجوه العدول عن هذا القرار.

أما زوجة "الناصر" الخوندة "مطلونبك" فكانت هي الأخرى تعاني من عـــدم اهتمـــام "الناصر" بها بعد ظهور "طوغاي" في الأفق، وفي إحدى المرات دخـــل عليهـــا الســـلطان ليطمئن على حالها بعد أن علم أنها أوشكت على الوضع، وربما تلد غدًا أو بعد غد كمـــا أخبرتها الداية، فسألت "مطلونبك" "الناصر": هل يأمل مولاي أن يكـــون المولـــود بنتًـــا أم ولدًا؟ فحمد الله على كل عطاء وقال: لقد أعطانا الله البنات والبنين، فقالت له "مطلونبـــك": لماذا لم أعد أراك يامولاي؟ فإما خارجًا للصيد مع أبي وإما منشغلاً بـــأمور الســـلطنة، أو بمجالسة العلماء والفقهاء والشعراء، أو باللهث وراء المتآمرين عليك للقضاء عليهم، فـــلا مكان لي في قلبك، ولا وقت لي عندك مثلما توفره لـــ "طوغاي" المقربة منك، فأنـــت لـــم تعد تحب امرأة سواها، وأنعمت عليها بنعم لم يصل غيرها لمثلها، ورأت من السعادة مـــا لم يره غيرها من نساء القصر، فلماذا لا تهتم بي كاهتمامك بها؟ أنا زوجتك مثلها تمامًـــا، فأجاب السلطان: "مطلونبك" .. لا تقارني نفسك بأحد، لا بـــ"طوغاي" ولا بغيرها، فكلكـــن

عندي سواء، أما "طوغاي" فأجمل ما فيها أن النعمة والترف لم يطغها بل أكثرت من صدقاتها وحسناتها وبرها وفعل المعروف، وهذا سر جمالها، وعلى أية حال فهي لا تذكرك إلا بكل خير، وقد سألتني عنكِ اليوم لتطمئن على سلامة صحتك، فأجابت الخوندة: أراك لم تذكر حسنة واحدة من حسناتي كما عددت محاسن "طوغاي"، فتبسم "الناصر" لها وقال: ألم أقل أنكِ غيورة حمقاء.. لن أذكر لكِ شئ غير أنكِ حبيبتي الحمقاء وانحنى يقبلها ثم انصرف.

نعود إلى الخوندة الكبيرة "طوغاي" ساحرة قلب السلطان وقد خرجت في نزهة وركبت فرسًا وأمسك بزمام الفرس أمير من الأمراء كما كانت العادة، وسار حولها الخدم مشاة منذ تركها القلعة حتى وصولها إلى النيل، فكان بانتظارها على ضفاف النيل "حراقة" نزلت إليها وسارت بها حتى بر "الجيزة" لتلتقي بنساء الأمراء وزوجات المقربين ممن كانوا في انتظار قدومها ليقضين الوقت في الحديث فيما اعتادت النساء أن يتحدثن فيه، واستقبلنها الأميرات بالترحاب والسرور، وقالت لها الأميرة "فرح زاد": أشرقت الأنوار يا خوندة، بينما قالت لها الأميرة "مُناد": أهلاً وسهلاً بمولاتي، فأجابت "طوغاي": أهلاً بكن جميعًا يا أميرات، كيف أحوالكن؟ فأجبن عليها: الحمد لله .. بخير، وابتدرتها الأميرة "نسل شاه" قائلةً: سمعنا يا مولاتي أنكِ تستعدين للحج هذا العام، فأجابت الخوندة وقد بدا في وجهها علامات الخشوع: نعم.. إن شاء الله إن كان مكتوبًا لي أن أحج هذا العام، فقالت لها "نسل شاه": وهل تقبلني مولاتي أن أكون برفقتها كوصيفة لها؟ فأجابتها: بكل تأكيد ولما لا .. فأنت قريبة من قلبي، فردت إحدى الأميرات وقالت: وهل لي أنا أيضًا أن أكون في صحبة مولاتي؟ أجابت: أدعوكن جميعًا أيتها النسوة إلى حج بيت الله إذا كان لي باقٍ من العمر، وسأحدث مولاكن "الناصر" برغبتي في سفركن معي، فقالت "فرح زاد": إن شاء الله يا مولاتي يكتب لنا الحج معكِ .. أطال الله عمرك ومتعكِ بالصحة والعافية وبارك الله لنا فيكِ.

انتهى الحديث بشأن الحج وكانت "طوغاي" تريد أن تحدثهن بشأن موضوع آخر فقالت: أيتها الأميرات.. أنا ما جئت إليكن اليوم إلا لأعرض عليكن أمرًا هامًا، فقالت الأميرة "مُناد": خيرٌ إن شاء الله! فلتتفضل مولاتي، فاقتربت "طوغاي" من الأميرات وقالت: أريد أن تسمع كل واحدة منكن ما سأقوله جيدًا ولن أطيل عليكن الحديث، الأمر هو أنني أرغب في تحقيق شئ هامْ، وهو أن تتبرع كل واحدة منكن بما تقدر عليه من مال حتى نؤسس مصحة من جمع هذه التبرعات لمرضى الجُذام والمصابين بالبرص الذين

يعيشون وسط الأهالي وسكان "القاهرة" مما قد يترتب عليه انتشار العدوى وحرصًا على سلامة الناس ومعالجة هؤلاء المساكين، فقالت الأميرة "مُناد": فكرة رائعة يا مولاتي.. نوافقك الرأي وأنا أول المتبرعات، فقالت الخوندة: مهلاً يا "مُناد" لا تتعجلي الأمر قبل أن أنهي كلامي، فاعتذرت الأميرة "مُناد" لمقاطعة مولاتها واسترسلت الخوندة "طوغاي" في الحديث فقالت: أريد أن تسعى كل واحدة منكن جاهدة في جمع التبرعات ممن حولها من الأهل والأقارب والأصدقاء وحتى من الأمراء أزواجكن، فقالت "فرح زاد": سنفعل إن شاء الله ونجمع ما نستطيع جمعه من تبرعات، فقالت "طوغاي": بعدها.. نبعث بهذه الأموال إلى أولي الأمر لنؤسس لهؤلاء المرضى مصحة في "الفيوم" لمعالجتهم ورعايتهم صحيًا ونفسيًا وسنلتقي ان شاء الله الجمعة القادمة لنرى ما قد وصلنا إليه.

مر الأسبوع والتقت الخوندة الكبيرة بالأميرات عند "سفح الأهرامات" للاستجمام لترى ما وصلت إليه الأميرات من جمعٍ للتبرعات، وما أن رأتها الأميرات حتى قلن لها في صوت واحد: أبشري يامولاتي.. لقد جمعنا الكثير من المال، فانبرت الأميرة "فرح زاد" وقالت: لقد جمعت مايقرب من خمسة آلاف دينار بخلاف ما قد حصلت عليه من ذهب لبعض النساء المتبرعات، فابتسمت الخوندة وقالت: عظيمٌ يا "فرح زاد"، وأنت يا "مُناد".. كم جمعتِ؟ أجابت: جمعت أقل مما جمعته "فرح زاد" أربعة آلاف دينار وبعض المشغولات الذهبية من بعض الأهل والصديقات، وقبل أن تسأل الخوندة الأميرة "نسل شاه" سارعت الأميرة وقالت: لقد جمعت يا مولاتي ما يفوقهما معًا، خمسة عشر ألف دينار، فاندهشت "طوغاي" فلم تكن تتوقع أن يجمعن كل هذه التبرعات وقالت لهن: جازاكن الله خيرًا وجعلها الله في ميزان حسناتكن وميزان حسنات المتبرعات، والآن ما علينا غير أن نبعث بهذه الأموال إلى أولي الأمر حتى يشرعوا في وضع حجر الأساس إيذانا ببدء العمل، أما فائض المال فلنجعله لبناء دار للأيتام من الجنسين الذكور والإناث بعد أن أضيف أنا ماقمت بجمعه وما سأوقفه على هذه المشروعات، فلا تتوقفن عن فعل الخير، فكله من الله وإليه، ولوجه الله الكريم، فرددن عليها: إن شاء الله يا مولاتي لن نتوقف أبدًا عن عمل البر والإحسان، وما على مولاتي غير أن توجهنا إلى المشروعات الخيرية ولها منا كل السمع والطاعة، فقالت "طوغاي": ولكن من الله الأجر والثواب.

بدأت "طوغاي" تستعد للسفر للحج، فتجلى مدى إعزاز "الناصر" فيما أمر بعمله لها أثناء حجها، إذ حملت لها البقول في محاير من الطين على ظهور الجمال، وأخذت لها الأبقار الحلوب فسارت معها طوال الطريق لأجل اللبن اللازم للشرب وعمل الجبن، فكان

يقلى لها الجبن في الغذاء والعشاء، أما الأمراء المرافقون لها والعلماء كانوا يترجلون عند نزولها ويمشون بين يدي محفتها، ويقبلون الأرض لها كما يفعلون للسلطان، وعندما عادت من "الحجاز" خرج السلطان للقائها، ومد لها سماطًا عظيمًا بهذه المناسبة، وخلع على الأمراء وعلى كبار الموظفين وعلى نساء القصر، فكان يوم عودتها يومًا مشهودًا ولم يسمع بمثل تلك الحجة من كثرة خيراتها وسعة العطاء فيها وقد بلغت نفقاتها ما يقرب من ثمانين ألف دينار، وقد كان برفقتها زوجات كثير من الأمراء وصديقات مقربات لها مثل الأميرة "مُناد"، والأميرة "فرح زاد"، والأميرة "نسل شاه"، كما كانت برفقتها أيضًا "السيدة مسكة".

كان "الناصر محمد" يحب أن يستكثر من مماليكه ويعتني بهم عناية فائقة وينشئهم نشأة تضمن له ولاءهم فكان يُسَيِّر التجار إلى "بلاد المغول" و"الروم" لجلب "المماليك"، وكان "إسماعيل بن محمد" أحد تجار الرقيق يستحسن أفضلهم، ولا يبخل بدفع أغلى الأثمان فيهم، وكان "الناصر" محبًّا لاقتناء الجواري على اختلاف طبقاتهن للغناء والتسري والخدمة، وكذلك باقتناء الغلمان والخصيان ويدفع فيهم بسخاء، وذات مرة دخل "إسماعيل بن محمد" على "الناصر" ومعه فوجٌ من الرقيق، فاستحسن "الناصر" هذا الفوج بأكمله، واستحسن ملامح جميع الجواري، فكانت الجواري نافرات كالغزلان مشرقات البياض إشراقًا باهرًا، وكان "الناصر" قد أمر ببناء قاعات سبع داخل القلعة لأجل جواريه.

أشار "إسماعيل بن محمد" إلى إحدى الجواري فأتت تتهادى في مشيتها، فقال لـ"الناصر": انظر يامولاي ما على وجه هذه الفتاة من جمال وحسن لم تره من قبل، ثم قال لها: تقدمي يا "صفوة"، فتفرس "الناصر" في وجهها فرآها حقًا جميلة فافتتن بها وقال: ما شاء الله.. إنها حقًا جميلة، وسأل "إسماعيل بن محمد" عما تجيده هذه الفتاة؟ فأجابه: إنها تجيد الغناء والعزف على العود والرقص، بل وتجيد كل شيء، فعزم "الناصر" على ابتياعهن جميعًا كما عزم على سماع غناء هذه الفتاة غير أنه لم يكن ميالاً للهو في هذه الساعة، فنهض وهمَّ بالرحيل وقال لـ"إسماعيل": أحسنت الاختيار هذه المرة.. سأجزل لك العطاء فيهن جميعًا، فقال "إسماعيل": أطال الله بقاء مولاي، وثبت ملكه، وأعزه بعزته.

الوفود والعلماء

كان "الناصر" يحظى بمكانة عالية بالخارج منذ انتصاره العظيم على "المغول"، كما كان يتمتع بسمعة طيبة وصدى قوي في منطقة البحر المتوسط وأوربا، لذلك لجأت معظم الدول إلى اللين في مخاطبته، فجاء في وقت واحد أربعة وفود لمقابلته، وفدٌ من "بيزنطة" والثاني من "روما"، والثالث من "فرنسا"، والرابع من "الحبشة"، أما وفد إمبراطور "بيزنطة" فقد جاء يحمل الهدايا ورسالة يرجو فيها الإمبراطور معاملة المسيحيين بالعطف والرعاية، فأجابه "الناصر" إلى طلبه، وأُبرمت اتفاقية بين الفريقين وهي محالفة دفاعية لصد تيار الأتراك العثمانيين الذين كانوا يهددون إمبراطور "بيزنطة" في ملكه، وأما وفد روما فقد جاء من قبل "البابا يوحنا الثاني" وكان معه هدية ثمينة وكتاب من "البابا" يتضمن رجاء السلطان في حسن معاملة النصارى، وقد أجابه "الناصر" مطمئنًا إياه ولم يكن قد وصل إلى "مصر" أي رسل من قِبَل "بابا الفاتيكان" منذ عهد "الصالح نجم الدين أيوب"، وأما وفد "فرنسا" فقد جاء من قبل الملك "شارل الرابع" وكان يحمل رسالة ودية تنطوي على رجاء من السلطان بأن يشمل المسيحيين المقيمين في دولته بعين الرعاية والعدل، وقد جاء رد "الناصر" على ذلك ردًا جميلاً ووعد بتحقيق ما يطلبه الملك، وأما وفد "الحبشة" الذي جاء إلى "مصر" فكان يحمل كتابًا من ملك "الحبشة" يتضمن ضرورة إعادة تعمير ما تخرب من كنائس النصارى ومعاملتهم بالإكرام والاحترام ثم يهدد السلطان بأنه سوف يخرب ما عنده من مساجد، وسوف يسد النيل حتى لا يعبر إلى "مصر"، فسخر "الناصر" منه ورد رسله إلى بلادهم يحملون الخيبة والفشل.

في اليوم التالي من وصول وفد "الحبشة" دخل الحاجب على السلطان يعلمه بوجود الشعراء والندماء والعلماء بباب العامة منذ الصباح وكان ذلك يوم الجلوس لهم، فسأله الحاجب: هل يأذن مولاي في دخول أحدهم؟ وما سمع "الناصر" قوله حتى انتبه، وكان في حالة لا تسمح له بمجالسة الندماء والأمراء وإنما يفضل الخلوة، فسكت هنيهة ثم قال: من بالباب من هؤلاء؟ رد الحاجب: كثيرون يا مولاي، فيهم المقيمون بـ"مصر" والوافدون من "الشام"، فقال السلطان: أما الوافدون فنأذن لهم في وقت آخر، اصرفهم الآن، وقل لصاحب بيت المال أن يحسن جوائزهم، ويطيب خواطرهم، وعاد يسأل الحاجب: ومن بالباب من أهل الرواتب؟ فقال الحاجب: "شهاب الدين النويري"، و"جمال الدين بن

منظور"، و"الشهاب محمود"، فأشار "الناصر" بيده ولسان حاله يقول: دعنا من العلماء واذكر غيرهم، فقال الحاجب: أما الشعراء فمنهم "شهاب الدين بن فضل العمري"، و"الشهاب محمود" و"ابن المّرحّل"، فأشرق وجه السلطان وقال: وهل ببابنا أحد من الندماء والمغنيين؟ أجابه الحاجب: نعم يا مولاي "كُثيلة بن مرافعان" بالباب، فسر "الناصر" وقال: ولكن ذلك لا يحلو إلا بوجود "صفوة"، تلك الفتاة الحسناء التي أتى بها "إسماعيل بن محمد"، فأشار مطيعًا وصفق "الناصر" فأتاه "ياقوت" خادمه فقال له: إليَّ بصاحب الثياب، فأتى به، فقال له "الناصر": عزمت على مجلس منادمة فألبسني ثيابها، فخرج الرجل ثم عاد ومعه الوصفاء يحملون تلك الثياب وهي عمامة صغيرة موشاة بالذهب وإزار سلاري، وجاء غلمان آخرون بأيديهم المباخر فيها العود والند، فألبسه صاحب الثياب الغلالة بعد أن نزع ما على العمامة من حلي وعممه وناوله الإزار فاتشح به، ثم خرج "الناصر" من بابٍ يؤدى إلى جناح الجواري ومازال يتنقل من رواقٍ لآخر ومن دارٍ لأخرى حتى دخل دارًا مفروشة بالرخام، ثم انتهى إلى قاعة نصبوا له فيها سريرًا من الأبنوس المطعم بالعاج، وأرخوا في منتصف الغرفة سترًا موشاة عليها نقوش جميلة وتناثرت الوسائد في الغرفة هنا وهناك، فلما جلس "الناصر" ووقف الغلمان بين يديه تذكر أنه لم يتناول الطعام منذ الصباح، فأمر صاحب الطعام أن يأتيه ببعض الأطعمة فأمدوا له سماطًا فيه من كل شئ فأخذ يأكل وهو مسرور حتى إذا ما فرغ من الطعام سمع عودًا يضرب ضربًا مطربًا على نغم لم يسمعه من قبل فأطربه ذلك الصوت وعلم أنه آت من الرواق المجاور وظل يصغي وهو معجب لذلك النغم الغريب، وقد أدرك من نعومته أنه صوت الجارية الجديدة، فصاح: من يغنينا في الرواق.. جزاه الله خيرًا؟ فسمع الجواب من وراء الستر: إنها "صفوة"، فقال: غني يا "صفوة" .. فلقد طربت لصوتك، ثم جاء بعد ذلك صاحب الشراب بمائدة الشراب وما تحتاج إليها من أباريق وأقداح من البللور والذهب والفضة وعليها النقوش البديعة، وأما الأشربة فعصير العنب ومنقوع التمر وشراب اللوز والتفاح والمشمش، وأشربة من محلول العسل وشراب المصَّان (قصب السكر)، فلما انتظمت القيان للغناء دار الساقي بأباريق الشراب مبتدئاً بـ"الناصر" فشرب قليلاً وهو محجوبٌ عن القيان بستارة وعن الشعراء بستارة أخرى كلما غنت إحداهن عرفها وطرب لها وناداها باسمها، ثم صاح بالحاجب فأتى مسرعًا فقال: قل لـ"ابن المرحّل" ينشد ما عنده، فأنشد أبياتًا على عادة الشعراء في مجالسة الملوك فطرب لها "الناصر" وقال: وأنت يا "ابن فضل الله العمري"؟ فأجابه: لبيك يا مولاي .. وأخذ ينشد له قصيدة نظمها في مدحه، وبينما هو في ذلك دخل "كثيلة بن مرافعان" فلما رآه صاح: ويلك أين أنت؟ ..

ادخل لتكون قريبًا من القيان.. تعلمهن وتساعدهن، فقال "كثيلة": نحن عبيد مولانا، وإذا دعانا إلى خدمته فقد شرفنا ورفع منزلتنا، فقاطعه "الناصر" وقال: اسمع يا "كثيلة" هذا الغناء الجديد.. فأنت أستاذ المغنيين تحب سماع كل جديد، فصاحت إحدى الجواري: غنِّي يا "صفوة"، فابتسم "كثيلة" وقال: "صفوة" هنا، إنها نادرة في رخامة الصوت وإتقان الصنعة، وطالما كنت أتمنى دخولها في جملة قيان القصر، فرد عليه "الناصر": ها هي الآن في جملة الجواري البيض اللواتي تعلمن الغناء، ولكن لا أعرف على أيدى من أتقنت الصنعة! فضحك "كثيلة" وقال: على أيدى العبد لله، فقال "الناصر": لقد بعث لنا بها "إسماعيل بن محمد" أمس، وضحك، وأمر الساقي بصب قدح لـ"كثيلة" ثم أردف قائلاً: نسمع "صفوة" الآن، فأخذت تضرب على العود وحدها وتغني و"الناصر" يبالغ في استحسان صوتها، حتى حسدتها رفيقاتها، فسمع "الناصر" لغطاً وراء الستار أعقبه ضحك فقال: على أي شئ يضحكن؟ فقال صاحب الستار: تقول "فتنة" المغنية أن مولاي "الناصر" معجب بصوت "صفوة" وهي لا تحسن إلا صوتًا أو صوتين تعودتهما، فليأمر مولاي "الناصر" أحد الشعراء بنظم بيتين لتغنيهما ارتجالاً، فقال "الناصر": أحسنتِ يا "فتنة" وطلب من "الشهاب محمود" بنظم بيتين ارتجالاً لها، وفيما هو كذلك جاء الحاجب وهمس في أذن "الناصر"، فانزعج مما حدثه به، وانتفض من مكانه واقفًا، وقال للمدعوين: ابقوا كما أنتم عليه، فأنا مضطرٌ للانصراف الآن، فهمهم الجالسون ولكنهم فضلوا الانصراف.

في إحدى الأيام جلس "الناصر" يروح عن نفسه مع بعض الأمراء في "البستان الناصري" بما فيه من خضرة وأزهار وساقية ترفع الماء، فدخل عليه أحد مماليكه ويُدعى "عزيز"، وكان ممن يرفهون عن السلطان بالمزاح "مضحك الملك"، فأخذ يهزل كعادته أمام السلطان ولكنه اتخذ من "الروك الناصري" مادة لمزاحه وأخذ يُحاكي السلطان وقد جبَّر المُهرج ذراعه، فغضب السلطان، ولكن "عزيز" لم يفطن لذلك فتمادى في مُزاحه، فاشتد غضب السلطان وصاح في مماليكه: اخلعوا عنه ثيابه واربطوه في قواديس الساقية واضربوا الأبقار حتى تُسرع في الدوران.

نفذ "المماليك" ما طُلب منهم، وأخذ "عزيز" يُغمر تارة في الماء وتارة يظهر، يصرخ ويستغيث ولا مُغيث له حتى رأى الموت بعينه، بينما السلطان يجلس وهو عابس الوجه، والأمراء لا يجسرون على الشفاعة فيه، حتى مضت ساعتان وانقطع حسه، فتقدم الأمير "سيف الدين أرغون" نائب السلطان إلى "الناصر" قائلاً: ياخوند.. هذا المسكين لم يرد إلا أن يُضحكك ويُطيب خاطرك ولم يقصد غير ذلك، وظل يرجوه حتى أمر بفكه وبالإفراج عنه بعد أن أشرف على الهلاك، ثم أمر السلطان بنفيه خارج "مصر".

حضر الأمير "تنكز" في مُقابلة السلطان ليتحدث معه بشأن الشيخ "ابن تيمية"، وقــال لـــه: والله ياخونـــد إن الشيخ "ابن تيمية" لا تخضعه مراسيمك بمنعه عن الفتوى في مسألة "عدم وقوع الطـــلاق"، بـــل أن خصومه قد ظفروا بفتوى له في مسألة "شد الرحال"، فقال السلطان متسائلاً: وماهي فتواه في مسألة "شد الرحال"؟ أجاب "تنكز": لقد قال الشـــيخ: إن في "شد الرحال" معصية من أبشع المعاصي لقول الرسول: ﷺ "لا تشد الرحـــال إلا إلـــى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا"، وقال الشـــيخ إن الســـفر المشروع إلى مسجد النبي ﷺ أو إلى المسجد الأقصى إنما يكون للصلاة فقط الـــذي ورد الحديث في فضلها في إحداهما، وليس لأحد أن يفعل في ذلك ما هو من خصائص "البيـــت العتيق" كما يفعله بعض الضُّلال من الطوافِ بالصخرة أو "الحجرة النبوية"، أثارت هـــذه الفتوى خصوم الشيخ إذ رأوا فيها تنقصًا لمقامات الأنبياء والأوليـــاء الصـــالحين، ومـــن خصومه في هذه المسألة "جمال الإسلام كمال الدين أبو المعالي" و"جلال الدين القزوينـــي" و"عز الدين بن عبد العزيز بن جُماعة" و"زين الدين بن مخلوف"، ولذا فقد رفعـــوا الأمـــر إليك لتُصدر مرسومًا باعتقاله وحبسه، فقال السلطان: لقد اســـتفحل أمـــر "ابـــن تيميـــة".. سنكتب مرسومًا سُلطانيًا بحبسه وكذلك بحبس تلاميذه ممن يؤيـــدون أفكـــاره ومعتقداتـــه وخاصةً تلميذه الأشهر "شمس الدين بن قيم الجوزي"، واجعل يا "تنكـــز" قاضـــي قضـــاة الشافعية "جمال الإسلام كمال الدين أبو المعالي" يحكم في أمرهم بما توجبه الشريعة، فلقـــد رأفت بحال "ابن تيمية" أكثر من مرة، وطلبت منه ألا يتحدث في هذه المسائل، وما كنـــت أريد أبدًا للشيخ هذا، فأنا لا أنسى أفضاله الكثيرة ولكنه عنيدٌ لايخشى في الحق لومة لائم، ويؤثر حياة السجن عن كتمان رأيه.

عمل "جمال الإسلام أبو المعالي" بما توجبه الشريعة بمقتضـــى مرســـوم الســـلطان "الناصر"، فعذر بعض تلاميذ الشيخ، ثم أطلق سراح بعضهم ماعـــدا تلميـــذه "ابـــن القـــيم الجوزي" الذي حُبس بقلعة "دمشق".

أخذ "ابن تيمية" يرد على مُخالفيه في نفس المسألة التي حُبس من أجلها، ولم يُبالِ بـــل ظل مُتماسكًا قويًا.

رغم موقف السلطان "الناصر" المتعسف من "ابن تيمية" إلا أنه كان رقيق الشـــعور، مُحبًا للموسيقى والغناء والفن ومُجالسة العلماء والفقهاء حتى أنه في إحدى المـــرات كـــان يُجالسه "إسماعيل أبو الفدا"، وكان "الناصر" يجله ويقدره بل ويُخاطبه بلفظ "يا أخ"، ومـــن فرط إعجابه بـــ"أبي الفدا" فقد قلده ولاية "حماه"، وأنعم عليه بلقب "سلطان"، وألبسه شارات

المُلك، وهذا إن دل فإنما يدل على وثوق السلطان من نفسه من جهةٍ وعلى سمو مكانة العلماء في نظره من جهةٍ أخرى.

ازدهر عصر "الناصر" بالعلماء والشعراء والفقهاء، فظهرت الموسوعات المشهورة في عصره أمثال "نهاية الأرب لـ"شهاب الدين النويري"، وكانت من أول الموسوعات التي اقترنت بعصر "المماليك"، وكان "النويري" ذا حظوة عند الملك "الناصر"، فوكله في بعض أموره وباشر نظر الجيش في "طرابلس"، كذلك موسوعة "مسالك الإبصار في ممالك الأمصار" لـ" شهاب الدين بن فضل الله العمري"، وقد تجهم الزمان له أكثر من مرة إذ غضب عليه السلطان في مُناسباتٍ كثيرة وقطع يده في واحدةٍ منها وزج به في السجن، ونسيه "الناصر" مُدة طويلة حتى رفعت إليه قصته، فأفرج عنه، وعاد من جديد إلى خدمة السلطان، وكذلك موسوعة "لسان العرب" لـ"ابن منظور"، وقد خدم بديوان الإنشاء بـ"مصر" مدة طويلة وولي قضاء "طرابلس" مدة حتى مات سنة إحدى عشر وسبعمائة من الهجرة.

وتُعتبر هذه الموسوعات من أكبر المعارف الإنسانية وكان "الناصر" يُشجع العلماء بالجلوس إليهم وإمدادهم بما يحتاجونه، كما كان يعشق الفن والموسيقى والغناء ومُجالسة الشُعراء وكان من المُقربين له "كُثيلة بن مُرافعان"، وفي إحدى المرات اجتمع "الناصر" في مجلسٍ فيه بعض الأمراء المُقربين له وعلى رأسهم "تنكز" وصحبة من العلماء والمُفكرين والأدباء والشعراء، وجعل "كثيلة" يُغني لهم ليُطربهم وكانت هذه الجلسة من أجمل الجلسات التي أمضاها السلطان.

خليـج الدمـوع

بعد أربعة أعوام من زواج ابنة "الناصر" "خوند تتر الحجازية" بدأ الاستعداد لإقامة حفل زواج لابنة أخرى من بناته بزواجها من الأمير "قوصون"، فقد كان "الناصر محمد" يزوج بناته لمماليكه كـ"الأمير قوصون"، و"بشتاك"، و"الطنبغا المراداني" و"طغاي تمر" و"علي بن أرغون" وغيرهم، وكان جهاز العروس شيئًا عظيمًا حيث أقيمت الاحتفالات سبعة أيام على التوالي وذبحت فيها خمسة آلاف رأس من الغنم وما يزيد عنها من رؤوس الأبقار والفرس، واستُعمل في هذا الحفل من السكر برسم الحلوى والشربات كميات هائلة، وبلغ وزن الشمع الذي أحضره الأمراء ما يزيد عن الثلاثمائة قنطارًا وعمل برج بارود ونفط وحصلت المغنيات على نقوط بلغ مقداره عشرة آلاف دينار، وقدمت الهدايا بالآلاف من أمراء "مصر" و"الشام".

بعد انتهاء الاحتفالات.. جلس "الناصر" يمازح "كريم الدين" ناظر الخاصة ويقول: لقد كان زواج ابنتي من الأمير "قوصون" بعد فترة قصيرة من زواج أختها من الأمير "علي بن أرغون" مبعثًا لظنون الأمراء بأننا نصادر أموالهم بتقديمهم الهدايا الثمينة في وقت قصير، فضحك "كريم الدين" مؤيدًا كلام "الناصر" وقال: حقًا.. لقد بذل الأمراء كل العطاء في تقديم أثمن الهدايا وتقديم النقوط وما قصروا في ذلك.

في اليوم التالي.. عُقد قران "أحمد بن سيف الدين بكتمر الساقي" على ابنة الأمير "تنكز"، وقد عقد لهما الشيخ "الحريري".

في خضَم هذه الأحداث، علم السلطان "الناصر" بخطورة اندفاع النيل في الجهة المقابلة للجزيرة الوسطى مما أصبح يمثل خطرًا عظيمًا على "القاهرة" إذا ما جاء الفيضان، وخرج "الناصر" مع المهندسين إلى موقع اندفاع المياه ليرى الأمر على طبيعته، واستقر الرأي أن ينشئ في الجزيرة الوسطى خليجًا يدخل إليه الماء ثم يعمل جسر وسط النيل يكون بمثابة سد يمتد من "جزيرة الروضة" إلى "الجزيرة الوسطى"، فإذا ما جاء وقت الفيضان وارتفع النيل جرى الماء إلى الخليج من "الجزيرة الوسطى" وحال السد المقترح عمله دون اندفاع الماء إلى الجهة الأخرى، وبالتالي يتلافي تهديد "القاهرة" من الغرق بتحول المياه إلى الخليج، وحُفِر الخليج، وعُمِل السد، وقُطِّعت الأحجار وأُلقيت في النيل،

وكان السلطان حريصًا على إتمام هذا المشروع في أسرع وقت، فكان ينزل بنفسه إلى مكان العمل ويستنهض همم العمال ويستحثهم على السرعة حتى تم الانتهاء من العمل فيه في مدة شهر.

اتجه "الناصر" بعد ذلك إلى الريف ومنحه من عنايته نصيبًا وفيرًا، فلقد أمر بحفر "الخليج الناصري" ليمتد من "القاهرة" إلى مدينة "سرياقوس" مخترقًا في امتداده بعض أحياء "القاهرة"، فانتشر الجند في البلاد، وبدأ والي "القاهرة" يشن حملة شرسة على جمع الناس من الأسواق والطرقات لإلحاقهم بالعمل في حفر هذا الخليج، وبدأ الأهالي يتذمرون فأصبح في كل بيت مأتمٌ، واغتمت الناس، وبات الجند يأخذون الناس قسرًا لتسخيرهم في هذه الأعمال القاسية، وكان السيد "جمال الدين" وهو أحد التجار بالجمالية قد اشتهر بضخامة ثروته واتساع تجارته بين "مصر" و"الشام" كما اشتهر بالتقوى والورع والتواضع والاستقامة، وبينما كان يجلس في متجره ويرى بعينيه ما يفعله الجند بالشباب من ضربٍ وجلدٍ وسبٍّ فيوثقونهم ثم يسوقونهم كالبهائم إلى ديوان الوالي ليقوم بدوره بترحيلهم إلى موقع العمل.

حزن السيد "جمال الدين"، ولم يكن يملك أن يفعل شيئًا، وعاد إلى داره حزينًا كاسف البال، ثم جلس يتناول الطعام مع زوجته فسأل عن ولده "منصور" فأجابت زوجته: لم يعد حتى الآن، وما لبث أن سمع طرقًا شديدًا بالباب فأمر "مبروك" خادمه أن يطل من نافذة تشرف على الباب ليعرف من جاءهم في مثل هذا الوقت.

كان الطرق عنيفًا مما أوجس في نفس "جمال الدين" الخوف، ومرت لحظة رهيبة عليه علت بعدها ضجة المزدحمين بباب الدار فقال لـ"مبروك": من بالباب يا "مبروك"؟! أجابه: لم أستطع معرفة من بالباب لضعف ضوء المصباح المعلق بالباب، واستمر الطرق يشتد ثم صاح من بالخارج مهددًا متوعدًا أهل الدار: افتحوا الباب وإلا كسرته، ففُزع السيد "جمال الدين" ونهض مسرعًا واندفع نحو الباب ليفتحه فإذا برجال صاحب الشرطة وما أن رآهم حتى قال: "اللهم اجعله خيرًا"، فقال له الجند: أين "منصور" ولدك؟ فقال: لم يعد من الخارج بعد، وسأل "جمال الدين" عن سبب حضورهم وسؤالهم عن ابنه، فقال أحد الجند: جئنا لنقبض عليه ونسوقه إلى ديوان الوالي مثله كمثل سائر الشباب تمهيدًا لترحليهم مع عمال حفر "الخليج".

لطمت "أم منصور" خدها، وشقت ثيابها، وأخذت تصرخ وتبكي قائلة وامُصيبتاه، لو أخذوه لسوف يموت كغيره من شباب الحي الذين ماتوا في مثل هذه المشاريع من قبل.

وقف "جمال الدين" حائرًا والدموع تملأ عينيه، وشـاركت "أم منصـور" الجـواري والخدم البكاء، وعاد أحد الجند يقول: سننتظر خارج الدار حتى يعود، أخذت "أم منصور" تندب حظها وتقول: آه يا "منصور".. كيف نتركك تذهب إلى الموت وليس لنا في الحيـاة سواك، لمن نتظلم يا "أبا منصور"؟ فأجابها: لله سبحانه وتعالى، له الأمر من قبل ومن بعد وله الدوام، وأخذ الرجل يبكي ويقول: لن نشتكيَ إليهم وهم أنفسهم الذين كانوا لنا ظالمين، ليس أمامنا إلا الله وحده نشكو إليه حالنا، وهو القادر أن يكشف عنا هذا البلاء الذي غطى كل ما سبق من ويلات ونكبات، ثم رفع يديه ورأسه إلى السماء، وأخذ يتضرع إلـى الله: يارب السموات والأرض، يا علام الغيوب، ياقادر يامقتدر ياعظيم، نسألك اللهم أن تلطف بنا، وتنتقم لنا من الظالمين بجاه سيدنا رسول الله خاتم النبيين.

كان الوالي في تلك الحملة يجمع الشباب والرجال ولم يبقَ أحد من الشباب حتى أخذه يشارك في مشروعات العمران الجديدة.

ظل العسكر ينتظرون عودة "منصور"، ولكنهم يئسوا من عودته فارتابوا في أمـره، فربما يكون قد هرب، وانصرفوا وهم يتوعدون السيد "جمـال الـدين" بينمـا وقفـت "أم منصور" بباب الدار تندب وتبكي وتقول: أين أنت يا "منصور" يا ولدي؟ لم تعتد التـأخير حتى هذا الوقت من الليل، ماذا دهاك ياولدي، لن أطمئن حتى أراك.

عاد العسكر في صباح اليوم التالي وهم يسبون ويلعنون ويسألون عـن "منصـور"، وكانت إجابة "أبي منصور": لم يعد حتى الآن، فصاح به أحد الجند وقال: لقد جاء وهرب بعد أن أعلمتموه أنه مكلف كسائر الشباب في المشاركة في مشروع حفر "الخليج"، ألـيس كذلك؟ فقال السيد "جمال": لم نره، ولم يعد بعد، فقال الجند: الويل لكم إن كان قد هـرب، فلسوف يقبض عليه ويضرب حتى الموت.

أخيرًا.. قَبض الجند على "جمال الدين" وأوثقوه وساقوه إلى صاحب الشرطة، وما أن دخل حتى قال له صاحب الشرطة: أين ولدك منصور؟ رد "جمال الدين": والله لا أعـرف أين ذهب، فقد خرج صباح أمس ولم يعد، وربما يكون قـد عـاد الآن، فقـال صـاحب الشرطة: سنفرج عنك حتى غد، فإن لم يعد ولدك فسوف نقبض عليك ونسيئك أمام العامة ونسجنك، أسمعت ماذا قلت؟.

خرج "أبو منصور" وهو يرتعد، ودخل داره حزين النفس، وأمر خادمه "مبروك" بأن يحكم إغلاق الباب.

في الصباح عاد الجنود وساقوه إلى صاحب الشرطة الذي أنزل به أشد العقاب وأغلظ له في القول وقال: دعنا من ولدك الآن على أن تحل أنت محله حتى يظهر أو تقوم بـدفع مائتي دينار جزاء تخلف ولدك عن الحضور، فَهَمَّ "جمال الدين" بتقبيل يد الوالي، ثم سارع الوالي يقول: اذهب الآن لتعد عدتك وتأتي لنا بالمال المطلوب، وعاد "أبو منصـور" إلـى داره مسرعًا ففتح له "مبروك" الباب ودخل وألقى بجسده على وسادة بـالأرض وهـو لا ينطق ببنت شفه، فاقتربت منه "أم منصور" قائلة: لم يعد "منصور" حتى الآن، ألا تخـرج للبحث عنه لتقف على ما تم في أمره، إنني قلقة يا "أبا منصور"، فربما يكونون قد قبضوا عليه ورحّلوه، أنا أفتديه بعمري وكل ما أملك، فنظر إليها مطرقًا والدموع تملأ عينيه ثـم قال لها: اطمئني، فـ"منصور" بخير إن شاء الله، لقد عفوا عن ذهابه وسأحل أنا محله، ثم عادت تغتم لحلول زوجها محل ابنها، وبكت فهون عليها زوجها قائلاً: لا تغتمـي يـا "أم منصور"، فأنا سأتخلف عن الذهاب فقالت له: ولكن إذا جاءوا سيأخذون "منصـور" بـدلاً منك فقال لها: دعي "منصور" يهرب إلى "الشام" عند خالته ثم نرحـل بعـد ذلـك وراءه، فالسلطان "الناصر" يستحث الأمراء على الإنتهاء من العمل في أسرع وقت، وهم بدورهم يستحثون العامة بالضرب المبرح ويجعلونهم يعملون ليلاً ونهارًا من غير راحـة تحـت وطأة الشمس المحرقة، فيتساقط من الشباب الكثير لعجزه عن الإستمرار في العمل، ومـن يقع منهم يرمي أصحابه عليه التراب فيموت لوقته، هذا وفق التعليمات، إنها السخرة يا "أم منصور"، فقالت له: لقد خرجت أول أمس إلى السوق فوجدت الجند يأخذون الناس قسـرًا من المساجد والأسواق والطرقات، ولم أكن أعرف لماذا ولكنـي عرفـت الآن، فتـدخل "مبروك" في الحديث وقال: والله يا سيدى الأمر هين إذا انتهى عند حد السخرة، ولكننـي سمعت في المسجد أنهم أمروا بهدم أملاك كثيرة لحفر ما يسمى بـ"الخلـيج الناصـري"، وبانتزاعهم أملاك الناس بالقوة فيشردونهم، فقال "أبو منصور": نعم يا "مبـروك".. إنهـا السلطة وهي للقوي لا للضعيف، فالضعيف لا يملك إلا الخضوع لا فرق بـين السـخرة والرق، طالما هناك قوي وضعيف.

فجأة .. سمعت "أم منصور" طرقًا بالباب، فارتجفت وفتحت الباب فإذا بزميل ابنهـا "منصور"، فاستقبلته قائلة: من.. "محمود".. تفضل يا"محمود".. فقال لها: جئت لأطمـئن على "منصور"، فهل عاد من عند الوالي أم مازال هناك؟ فقالت: ماذا تقول: "منصور" عند الوالي؟! فقال "محمود": أجل.. ألا تعرفين يا خالة، لقد قبضوا عليه أمـس، وكنـت معـه وجاء أبي ودفع للوالي مبلغًا كبيرًا من المال ليفرج عني فأخرجوني، وكنت أعتقـد أنكـم

علمتم، لطمت "أم منصور" خدها وقالت: ولدي .. ولدي "منصور" .. لقد ضحك عليك الوالي يا "أبا منصور"، فقم واذهب إليهم وخذ معك المال المطلوب، إنه "منصور" إنه وحيدنا، ولا يقوى على مثل هذا العمل الشاق، إنهم يقتلون فلذات أكبادنا حتى ينعموا بفوائد تلك المشاريع.

ذهب السيد "جمال الدين" إلى الوالي وقال له: أما قلت لي بأنني سأحل بدلاً عن إبني وقد وافقتك، فأجابه الوالي: وأنا لم أغير رأيي، فهل جئت اليوم لتنضم إلى باقي الجمع؟ فأجابه الرجل: لقد علمت بأنكم أخذتم ابني أمس وهو عائد إلى البيت، فأجابه الوالي قائلاً: إذن .. فلتذهب أنت إلى بيتك وتستريح فقد انتهى الأمر بظهور ولدك، فأخذ السيد "جمال الدين" يستجديه ويقول: إن ولدي "منصور" ضعيف البنية لم يعتد على مثل هذه الأعمال الشاقة، إنه طالب علم وسيكون فقيهًا أو عالمًا يومًا ما، فكيف بالله يهان طالب العلم؟! فأجابه الوالي: إنها الخدمة الوطنية، وهل هناك حلٌ آخر؟ فقال الأب: أفتديه بعمري بكل ما أملك من مال، واتركوه، فاعتدل الوالي في جلسته وقال: أعلم أنك يا سيد "جمال الدين" تعيش حياة رغدة بينما نحن في شقاء دائم وتعب لا يطاق ونلقي بأنفسنا إلى الهلاك دفاعًا عنكم، ونعمل على راحتكم بحفظ الأمن في البلاد، فقاطعه السيد "جمال الدين" يستعطفه ليتقي غضبه ويقول: هذا صحيح.. أنا أعلم ذلك، وفطن التاجر لما يهدف إليه الوالي فقال: أنا تحت أمر الوالي، وأبدى استعداده لدفع ما يأمر به الوالي حتى يفرج عن ابنه، فقال الوالي: إذن.. فلتدفع ألف دينار ولا تطل الكلام وانصرف على الفور، فأجابه الرجل: بالسمع والطاعة وانطلق إلى داره وجاء بالمطلوب وسلمه للوالي، وتنهد بارتياح ووقف متأدبًا أمام الوالي ينتظر قوله فإذا بالوالي ينهض ويقول: سيكون ولدك في الدار بعد ساعة من لآن.

انتهزت "مسكة" هذا المشروع فأوعزت إلى "الناصر" بضرورة انضمام "صلاح الدين" إليه، فرحب "الناصر" بفكرتها، وأمر بالقبض عليه وترحيله إلى موقع العمل كغيره من الشباب، وقد كان المسكين "صلاح الدين" على وشك الانتهاء من آخر اختبار له أملاً في الحصول على شهادته النهائية.

ذهب الجند إلى بيت "زمزم" تنفيذًا للأوامر وساقوا "صلاح الدين" إلى الوالي، حتى يرحل مع من تم القبض عليهم للخدمة، وتضرع "زمزم" بالدعاء إلى الله ليرفع عنه هذه الغمة التي انهالت عليه فقد أوقفوه عن العمل ولم تستطع "سلسبيل" عمل أي شئ له واليوم يقبضون على "صلاح الدين"، وظل "صلاح الدين" يصرخ مستغيثًا في مقر الوالي حتى

أدخلوه عليه فقال: أمهلني حتى أفرغ غدًا من آخر اختبار لي، وأعدك بأنني سأتقدم بنفسي إليك لأنضم مع سائر العاملين بالمشروع، فلا تفوت عليَّ هذا الاختبار يرحمك الله.

لم يستجب الوالي لنداء "صلاح الدين" واستغاثته بل أشار إلى الجند بجره من أمامـــه، وضربه بالسياط وامتثل أخيرًا "صلاح الدين" للأوامر مفوضًا أمره إلى الله.

علمت "سلسبيل" بما حدث وحزنت حزنًا شديدًا على ما ألم به من ضـــرر مـــن قبـــل عمها "الناصر"، فذهبت تسترحم عمها بالعفو والإفراج عنه ولكن دون جدوى، وســـيطرت فكرة الهرب من القلعة على "سلسبيل" عائدة إلى بيت "زمزم" حيث راحة البال والســـكينة، ولكن كيف يتسنى لها الهرب والعيون مسلطة عليها.

أزمع القائم على العمال في إيذاء "صلاح الدين" عمدًا بضربه تحـــت وطـــأة حـــرارة الشمس المحرقة والعمل دون توقف، وما كان ليرى "صلاح الدين" يستريح لبرهـــة حتـــى ينهال عليه بأفظع أنواع السباب وأغلظها، ثم يعيد الكرة بضربه ضربًا مبرحًا من جديـــد، فقد سُخرت الناس في ذلك العمل مما أضطر بعضهم للفرار خارج "مصر" حتى أن الجنـــد كانوا يأخذون الناس قسرًا من أبواب المساجد عند خروجهم بعد أداء صلاة الفجـــر، وقـــد كانت العناية بالمسخرين قليلة أو إن صح القول معدومة، وكان "الناصر محمد" دائمًا يردد لأمرائه ويقول: أنا لم ألجأ إلى السخرة إلا عند الضرورة وعند الرغبة في الإســـراع فـــي تنفيذ المشروع ليعود بالخير على الجميع وفيه صالح للأمة وصالح للرعيـــة، وســـنعوض الأهالي فيما بعد عن هذا التكليف، ونعوض من لحق به الضرر ممن نُزعت ملكيـــة لـــه للصالح العام أو ممن هُدمت له دارًا أو أخذت أنقاضها تعويضًا مناسبًا، بهذا تكون ضاعت فرصة "صلاح الدين" في الحصول على شهادته التي عاش يحلم بها.

كان "الناصر" يهتم بالمشروعات العمرانية جنبًا إلى جنب مع اهتمامه بفـــن العمـــارة فهدم مسجدًا صغيرًا كان موجودًا وأنشأ مكانه مسجدًا كبيرًا جعله واسع الأطـــراف إلـــى جانب "القصر الأبلق" و "الإيوان" يتناسب مع عظمته وعظمة دولته كما جـــدد "الإيـــوان" فأنشأ به قبة جليلة وأقام فيها أعمدة حملت إليه من بعض معابد الصعيد ونُصب في صـــدر الإيوان سرير الملك من العاج والأبنوس، وأثثه بأفخر الستائر والبسط ورتب له من الخدم والحشم الكثير، وما من زائر أو وفد من الوفود إلا وانبهر عندما شاهد إيوان المُلك، كمـــا جعل أمام إيوان الملك رحبة فسيحة تزيد من جلاله، وباب مسبوك مـــن حديـــد صـــناعته بديعة، ليستقبل فيه الوفود في سائر أيام الأسبوع ماعدا الاثنين والخميس.

كان السلطان "الناصر" يسارع في إجابة أي طلب من غير تردد، ويأمر بصرف المال اللازم لأي مشروع من غير ملل، وكثيرًا ما كان يلقى الاعتراض من الأمراء على صرف المال فيقول لهم: إذن لما نجمع المال في بيت مال المسلمين؟ وما هي فائدته إن لم يكن لتحقيق مثل هذه الأغراض؟" وكان "الناصر" يحب في مماليكه كل من اقترح عليه الإصلاح في قرية يعيش فيها كإنشاء جسر أو تسهيل ري قرية فيرفع من شأنها وتزيد من دخلها وكان يحزنه أن يسمع عن تعذر وصول الماء إلى قرية من القرى، فكان يدبر طريقة لري أراضي تلك القرية، ولا يزال يبحث ويدقق حتى يتحقق غرضه بكل وسيلة ويفعل ذلك من تلقاء نفسه ودون أن يتقدم إليه أحد بالشكوى.

كان الأمراء يعترضون على سياسته ويقولون له: إن أحدًا لم يسألك المعاونة في ري أراضي تلك القرية فيجيبهم: هذه قريتي وأنا الملزم بها والمسئول عنها.

كان "الناصر" يفرح إذا ما وجد أحدًا قد أنشأ عمارة فينتهز الفرصة ليشكره أمام الناس بعناية التعمير ثم يسعى سرًا إلى مساعدته بالمال والآلات حتى يتم العمل الذي بدأه في غير ضيق، ولم تقتصر إصلاحات "الناصر" على العاصمة بل اتجه إلى الريف ومنحه نصيب من العناية، وقد حفر "الخليج الناصري" ليمتد من "القاهرة" إلى مدينة "سرياقوس"، وقَسَّم العمل فيه بين الأمراء، وعيَّن لكل أمير عدة أقسام يحفرها، واخترق هذا الخليج في امتداده بعض أحياء "القاهرة"، وأقيمت عليه القناطر الكثيرة، وقد ترتب على إنشاء هذا الخليج الذي عرف باسم "الخليج الناصري" أن عمرت جهات مختلفة في "مصر" و"القاهرة"، وقامت على جانبيه الدور والقصور والمساجد والأسواق والبساتين، وانقلبت أراض كانت تِلالاً إلى بقاع مسكونة لا ترى فيها قدر ذراع إلا وفيه بناء، ولم ينتشر العمار حول الخليج فحسب بل امتد إلى أحياء أخرى من المدينة، فالصحراء الممتدة بين "قلعة الجبل" و"تربة الملك الظاهر برقوق" قد مستها عصا "الناصر" السحرية فانقلبت إلى مدينة عظيمة، كما اتصلت العمارة من "باب زويلة" إلى "قنطرة السد".

أما خارج "القاهرة" فقد رُكبت على هذا الخليج السواقي الجديدة التي سهلت وصول الماء إلى أراض كانت ميتة فأحيتها وأصبح من الميسور زراعتها، وسارت المراكب بين "القاهرة" و"سرياقوس" تحمل خيرات الريف إلى المدينة، كما تحمل صناعة المدينة إلى الريف، وكان الغرض من مد هذا الخليج إلى ناحية "سرياقوس" هو حب "الناصر" لهذه البقعة حبًا عظيمًا فأنشأ فيها دارًا للصوفية "خانقاه"، وعَمَّر "الناصر" بجوارها القصور وأنشأ البساتين التي حملت الأشجار المختلفة من "دمشق" وغيرها من "بلاد الشام" فنمت

فيها فواكه "الشام"، وأنشأ فيها مائة خلوة لمائة صوفي يتفرغون فيها للعبادة، كما حـرص السلطان على أن يوفر لهم ما هم في حاجة إليه، وكل ما يعاونهم على تفرغهم للعبادة.

أقام "الناصر" إلى جانب الخانقاه مسجدًا عظيمًا تقام فيه الجمعة كما شيد بنـاءً برسـم ضيافة الوافدين لهذا المكان ملحقًا به حمام فيه الحلاقون والمدلكون وفيه مطبخ تعـد فيـه الأطعمة المطلوبة، واستغرق بناء "الخانقاه" وملحقاتها أربعين يومًا وقد مد عنـد افتتاحهـا سماطًا عظيمًا حضره القضاة ومشايخ الصوفية، كما عني عناية كبيرة بنـواحي الجيـزة، حتى أنه عمل في كل بلد جسر وقنطرة، وترتب على ذلك أن تحسنت أحوال الري في تلك المنطقة فكان لهذه المنطقة في نفسه مكانة ملحوظة وكثيرًا ما كان يخرج إليهـا للنزهـة والصيد، وكان لمنطقة الشرقية أيضًا نصيبٌ من الإصلاح فأمر بحفر الترع وأقيمت فيهـا القناطر كما أنشأ الجسور حتى انقلبت الأراضي البور إلى أراضي زراعية فزاد خراجهـا وعم الخير على سكانها.

وأد الفتن

نعود للشيخ الإمام "ابن تيمية"، وقد بلغ "الناصر" عنه أنه يرد على مخالفيه من محبسه في نفس المسألة التي حُبس من أجلها، وبأنه كتب ردًا على ابن الإخنائي المالكي وقد استجهله وبين له أنه قليل البضاعة -كما قال "ابن كثير"-، فأمر السلطان بحرمانه من الكتب وأدوات الكتابة فأخرجوا كل ما كان عنده من كتب وورق ودواة وقلم، بذلك منع "ابن تيمية" من الكتابة والمطالعة، وقد قال: إن إخراج الكتب من عندي من أعظم النقم، كما قال: ندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن، وقد نقل عنه تلميذه "ابن القيم الجوزي" أنه قال: إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة، كما قال: ماذا يصنع أعدائي بي؟ إن جنتي وبُستاني في صدري أينما رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله، وقال مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه، وحينما دخل القلعة في طريقه إلى محبسه وسار داخل سورها نظر إليه وقال: نضرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، وزاد إقباله على العبادة والتهجد حتى آتاه اليقين.

مات "ابن تيمية".. وارتاح من خصومه، وكانت وفاته في شهر ذي القعدة سنة 728 هـ وهو لا يزال في سجنه بقلعة "دمشق"، فكان مشهد تشييع جنازته مهيبًا عظيمًا تزاحمت الناس وعلت الأصوات بالبكاء والثناء عليه والدعاء له ولما قُضيت الصلاة عليه حُمل إلى مقبرة الصوفية وكان سجنه قدرًا مقدورًا عليه، وفيه خير كثير له.

قام السلطان في هذه الفترة بحركة تنقلات، فنقل نائبه المقر السيفي "أرغون الناصري" إلى نيابة "حلب" بعد أن عزل نائبها الأمير "الطومبغا الصالحي"، واستناب السلطان الأمير "بكتمر الساقي" عوضًا عن "سيف الدين أرغون".

جلس السلطان يومًا مع نائبه في نيابة السلطنة، فدخل الحاجب يخبره بحضور والي "القاهرة" في أمرٍ هام، وكان مع الوالي رجلان أحدهما مقيدًا، فأشار الوالي إلى الرجل الآخر وقال للسلطان: بلغنا من هذا الرجل أنه يشتبه في تصرفات وسلوك ذلك الرجل ويخشى أن يكون وراءه شرٌ مبيتٌ، فقبضنا على هذا الغريب وسقنا معه المُبلغ وجئت بهما ليمثلا بين يديك وليرى فيهما مولاي ما يراه.

نظر السلطان إلى الرجل الغير مقيد وقال: اقترب يا رجل، فاقترب الرجل وهو يرتعد من الخوف، فبادره السلطان قائلاً: ماذا رأيت من سلوك غريب لهذا الشخص مما دفعك للارتياب فيه والإبلاغ عنه.. أبينك وبينه خصومة؟ أجابه: لا والله مابيني وبينه خصومة ولا أعرفه، ولكني رأيته يجتمع كل يوم بعد صلاة العشاء مع أشخاص آخرين يأتون إليه فيتهامسون قرابة ساعة ثم ينصرفون عنه وهم يتلفتون خشية أن يراهم أحد أو يتقفى أثرهم ثم يتفرقون كل في ناحية، فارتبت في أمرهم وأبلغت عنهم، إضافة ياmولاي إنني رأيت المجذوب يطوف بالطرقات مُردداً: هناك ولا هناك هناك.. الفرد الصمد حي لا ينساك.. ولا يهذي هذا المجذوب بتلك الكلمات إلا وكان وراءها كارثة محققة، فتعجب السلطان ونظر الى الرجل المقيد وقال: وأنت يارجل ما قولك فيما سمعته، فقال: صحيح ما قاله عني، وكان معي أربعة أشخاص من جهة أمير في "بلاد المغول" يدعى "قراسنقر"، وقد بعث بهم لقتلك في صلاة الجمعة، فقال السلطان: وأين هم الآن ؟ فقال: لقد فروا هاربين حينما استشعروا اكتشاف أمرهم، فقال السلطان: وماذا جرأك على المشاركة في هذه الفعلة الآثمة؟ ولما لم تهرب معهم؟ أجاب الرجل: لقد غرروا بي يا مولاي قاتلهم الله، والله ما حملت ضغناً للسلطان، فقال السلطان غاضبًا: أبعدوا هذا الرجل عن وجهي وألقوا به في السجن، لا تمسوه بسوء حتى نأمر فيه بعد أن نقبض على شركائه وأعوانه الهاربين، أما هذا الرجل الشهم الكريم فكافأناه بألف دينار جزاء ما فعل، وأمر "الناصر" بأن ينادى على الهاربين حتى يُقبض عليهم فيُقتلوا ويُطاف بهم في البلاد، فنظر السلطان إلى نائبه قائلاً: أرأيت ما يفعله "شمس الدين قراسنقر"، إنه لم يقف عند حد الفرار واللجوء إلى الأعداء، بل يُقلبهم علينا ويرسل لنا من يقتلنا، وأمر السلطان نائبه بأن ينزل أمرًا بمنع العامة من الجلوس في الطرقات وبإلزامهم بغلق طاقات البيوت عند مرور موكبه، فأجابه بالسمع والطاعة.

بلغ "الناصر محمد" أن أحد المسلمين قتل نصرانيًا فانتفض من مجلسه وقال: أقبضتم على القاتل؟ فقيل له: لا.. لقد هرب القاتل واختفى، فرد غاضبًا: والله لن أبرح مكاني هذا حتى يقبض عليه وتضرب عنقه على باب القلعة، جزاءً وفاقًا لاعتدائه بغير حق على ذلك النصراني، ثم عاد وسأل وما سبب قتل الرجل للرجل، فقيل له أن القاتل رجل من أهل التصوف وقد رأى أثناء وجوده بمكان الواقعة شخصًا مسلمًا قد أقبل على نصرانيًا يقبل يده ويرجوه في أمر من الأمور ولاحظ هذا الصوفي أن النصراني منصرف عن المسلم فآلمه ذلك أشد الألم لتجاهله له، فتقدم الصوفي من النصراني وهو غاضب وضربه ضربة

كان فيها موته، واجتمع الناس حول القاتل والقتيل ثم اختفى القاتل وهرب، فقال "الناصر": لابد من القصاص لقتله الرجل بغير حق، وأنا أبعد ما أكون من هذا التعصب، فلا ينتصر المسلم ضد مسيحي لكونه مسلمًا، ولا مسيحي على مسلم لكونه مسيحيًا، بل يقام ميزان العدل بينهما بالقسطاس المستقيم، أما قال السيد المسيح ﷺ، على الأرض السلام وفي الناس المحبة، وقول الله تعالى في قرآنه الكريم: لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ. آيه 256 البقرة، إن الإسلام يبيح حرية الاعتقاد وسلامة الممارسة للشعائر الدينية، وقد عُرف عن الدين المسيحي السلام والمحبة والسماحة، نحن أبناء الوطن الواحد لا فرق بين مسلم ومسيحي، أين سماحة الأديان إذن ورسالتها الإنسانية؟ سأضرب على كل مثيري الثورات الدينية والمؤججين لنيرانها في نفوس العامة من الجانبين.

مات "زمزم" بحسرته على ابنته فلم يعد يراها، ومن نظرات الناس القاسية له، فمنهم من كان مُعتقدًا أنه باع ابنته لتكون ضمن جواري السلطان سعيًا وراء المال، ومنهم من رماه في ذهابه وإيابه بأفظع الكلمات وخاصةً بعد أن أُقعد عن العمل، لم يعد "زمزم" كما كان من قبل ذلك الرجل الذي يحترمه ويجله كل من حوله، بل أصبح يتعرض للمهانة حتى أغلق بابه عليه ليتلافى رؤية الناس له، ومرت السنين والأيام بـ"سلسبيل" وتقدم بها العمر ولم تلتق بـ"صلاح الدين" ورفضت الزواج من الأمراء الذين رشحهم لها عمها "الناصر"، واكتفت بأن تعيش على الذكريات الجميلة بينما تزوج "صلاح الدين" وأنجب ولدًا وبنتًا وأسمى ابنته "سلسبيل" وفاءً لهذا الملاك الطاهر.

ذاعت شهرة "صلاح الدين" بعد أن أصبح فقيهًا، يلتف من حوله التلاميذ لينهلوا من علمه، بينما اختارت "سلسبيل" حياة الذهد والورع، فجعلت لها زاوية، وعكفت على قراءة القرآن وتفسيره لنساء الأمراء والأسرة الحاكمة، وكان "الناصر محمد" كلما وقعت عيناه على ابنة أخيه انتابه شعور بالذنب فتلومه نفسه ويؤنبه ضميره فأراد أن يكفر عما فعله بها وبـ"صلاح الدين"، فأرسل أحد مماليكه يتقصى عن أحوال "صلاح الدين" ولكن بعد فوات الأوان، فقد علم "الناصر" بزواج "صلاح الدين" كما علم أنه أصبح من كبار المتفقهين في علم أصول الدين، فقرر أن يكافئه وأمر بتعيينه في "ديوان الإنشاء"، وأجله وبالغ في إكرامه، ومنحه إقطاعًا جيدًا، وأكثر من مجالسته والاستماع إليه، وحَدَّثَ "الناصر" "سلسبيل" بذلك، فقالت: الحمد لله .. إنه جديرٌ بذلك كله، ويستحق كل خير، وأحمد الله على كل شئ، فلقد قاسى "صلاح الدين" المزيد من المعاناة منذ طفولته المبكرة، وقد كافأه الله قبل أن تكافئه، فأحسن تأديبه وتجلى عليه بفيض من بركاته وأنواره، فقال لها "الناصر":

أنا ما ندمت على شئ في حياتي كلها كما ندمت على.. فقاطعته "سلسبيل" وقالت: لا تكمل يا عماه.. فإنها إرادة الله ومشيئته، فهو قدر مكتوب علينا ولا نملك من أمر أنفسنا شيئًا ومهما تعددت الأسباب فهو قدر مقدور فلا تثقل نفسك باللوم فالأمر كله بيد الله، فقال "الناصر": ولكن يا ابنتي يعز علي أن أراكِ على هذه الحال، فإما في خلوتك وإما في مجالس العلم، فتبسمت وقالت: وما أجمل أن أخلو بنفسي إلى من أحب، أو أجالس من أحبوا من أحب، فقد انقطعت على ذلك وعرفت طريقي.

الــرؤيــا

قامت "طوغاي" من نومها مفزوعة فقد روعتها رؤيا في نومها فرأت صــقرًا كبيــرًا يهوي على رأس زوجها "الناصر" ويخطف عمامته من فوق رأسه ثم حلَّق فــي الفضــاء ممسكًا بها، ثم سقطت العمامة من بين مخالبه، ولم يستطع الصقر جاهدًا اللحاق بها، فمــا أن رآه "الناصر" ينخفض وصولاً إلى العمامة حتى عاجله بضربة سهم فهوى جثة هامــدة وسقطت العمامة بين قدمي "الناصر" فأخذها ولبسها.

شعر "الناصر" بفزع "طوغاي"، فقام من نومه وسألها: ماذا بكِ، فقالت: أفزعتني رؤيا فصحوت من نومي، فقال: أللهم اجعله خير، قصِّي عليَّ رؤياك، فترددت "طوغاي"، ثــم عادت تقول: إنها أضغاث أحلام لا تنشغل بها، وحاولت أن تتظاهر باستســلامها للنــوم، ولكن "الناصر" ظل متيقظًا لتأكده أنها لم تنم كما تدعي، فنادى عليها فلم تجبه فقــال: والله إني أعلم أنكِ قلقة من هذه الرؤيا وإني لأسمع دقات قلبك تدق كالمطرقة، أجابته: أجــل .. وكيف عرفت؟ فقال وكيف لا أعرف، وأنا أرى دموعك على خــديك، وأحــس بســخونة أنفاسك تلفحني، قصِّي لي رؤياك يا طوغاي يرحمك الله، وإذا كانت لأمر يخصــني فأنــا أسلم أمري إلى الله وليفعل بي مايريد فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

بدأت "طوغاي" تقص عليه رؤياها، وهو ينظر متفرسًا في وجهها حتى أتمت رؤياها، فإذا بعلامات الذهول والدهشة تظهرعلى وجهه، فقالت: ماذا دهاك؟! ليتني مــا قصصــت عليك هذه الرؤيا، فقد تغيرت معالم وجهك وبدا عليك القلق، فقال لها: سأرسل في طلــب من يفسر لي هذه الرؤيا ونهض من مكانه وأخذ يخطر في أرجاء الغرفة ويداه معقودتــان خلف ظهره وقد تراكمت عليه الهواجس يمش ذهابًا وإيابًا ويناجي نفســه قــائلاً: خيانــة جديدة.. ممن؟ .. أيحاول "بكتمر الساقي" هذه المرة بعد أن أطلقت يده في شئون الدولــة، ولكن كيف يفكر في أن يفعل شيئًا كهذا ولا يخاف على حياتــه؟! لا يعقــل إلا أن يكــون مصابًا في عقله، أم لا يعلم بطش "الناصر" إذا غضب.

وما أن لاح الصباح حتى أرسل باستدعاء أحد مفسري الأحلام وقص عليــه رؤيــة زوجته، فتغير وجه الرجل وبدأ يفسر له فقال: إن الصقر يا مولاي هو عدو حاســد لــك قريب منك، والعمامة هي ملكك، وخطف الصقر للعمامة هو اغتصاب العدو لملكك، أمــا سقوط العمامة من بين مخالب الصقر فمعناه أنه لن يتمكن من غرضه والظفــر بملكــك،

وأما ضربك له بسهم ووقوعه ميتًا فهو انتصارك على عدوك وتمكنك منه، وسقوط العمامة بين قدميك واستحواذك عليها ولبسها هو ظفرك على العدو وحفاظ سلامة ملكك من أي سوء والله أعلم.

اغتبط "الناصر" من تفسير الرؤيا، وسُرَّ سرورًا عظيمًا، وأسبغ على المفسر المال الوفير، وأصبح بعد ذلك شديد الحذر على نفسه ممن حوله جميعًا وخاصة "بكتمر الساقي"، وبالغ في ذلك مبالغة شديدة، فصار يأخذ بالظنة، وصار يصدق كل وشاية ولا يثق في أحد مهما كانت مكانته عنده، فمنع المتفرجين على موكبه عند ركوبه إلى الميدان، كما منعهم الجلوس في الطرقات، وقرر أن يفتك بـ"بكتمر الساقي" قبل أن ينفذ مؤامرته، وبدأ في تدبير حيلة له لتحقيق أغراضه، فطلب ابنة "بكتمر" لتكون زوجة لـ"آنوك" ولده حتى يطمئن إليه نائبه، وتذكر السلطان تلك الكلمات التي ذكرها له الرجل حينما أرسل "شمس الدين قراسنقر" رجالاً لقتل "الناصر" من "بلاد المغول"، ***هناك ولا هناك هناك الفرد الصمد حي لا ينساك***، فطلب إحضار المجذوب ليسمع منه، فلربما يدله على شئ، فإن هؤلاء الناس مكشوف عنهم الأحجبة يعلمون مالا نعلم، وخرج الجند يبحثون عن الرجل المجذوب هنا وهناك دون جدوى، وفشل الجميع في الوصول إليه، وعادوا إلى "الناصر" بخيبة أمل، فأمرهم بإعادة البحث عنه في كل مكان حتى ولو ابتلعته الأرض، وأخيرًا وجدوا الرجل نائمًا في إحدى الخرائب، فحملوه إلى السلطان.

دخل الرجل على السلطان غير مبالٍ، فقال له "الناصر": اهدأ يا رجل واطمئن، أنا ما جئت بك إلا لتفسر لي ما تردده في الأسواق بقولك: "*هناك ولا هناك هناك.. الفرد الصمد حي لا ينساك*"؟! فلم يرد المجذوب عليه، أعاد السلطان عليه السؤال، فنظر إليه المجذوب نظرة بلهاء وقال: قد كان ما كان.. لمن تعطي الأمان، فقال له "الناصر": ماذا تقصد؟ فردد الرجل ما كان يقوله ولكن بعد أن عكس ما قاله فقال: **لمن تعطي الأمان فلقد كان ما كان**، فاستعجب "الناصر" وقال: ما فهمتك بعد، التفت المجذوب وقال: **كثرت الأفاعي.. والحي خير راعٍ**، ثم ظل يردد: **حي.. حي.. حي**، وانصرف من أمام "الناصر" بغير استئذان، فاستوقفه الحاجب بأمر من "الناصر"، ولكن الرجل مضى في طريقه وهو يردد ما كان يردده دون اكتراث بأحد، واندهش "الناصر" ولكنه سر وتفاءل وشعر بأن الله سيرعاه ويحبط كيد الكائدين.

عاد "الناصر" من جديد في التحرز على نفسه تساوره الشكوك فيمن حوله، ومن هنا كان يضطرب أشد الاضطراب فيقيم الدنيا ويقعدها إن جاءه خبر يشتم منه رائحة دسيسة

أو مؤامرة أو بعلو مكانة أي شخص، فقد وجد السلطان عند الأمراء ونساءهم من الملابس الفاخرة ما كان يستكثره عليهم، فكلما سأل أحدًا منهم عن مصدرها قيل له: أنها هدية من "كريم الدين" ناظر خاصته، وكان هذا الرد وحده يُشعر السلطان بأن مكانته قد صغرت لدى الأمراء لأنه لا يعطيهم مثل عطاء "كريم الدين"، وبات يشعر بأن مركز "كريم الدين" أصبح في نفوس الخاصة والعامة أعلى من مركزه لديهم، مما جعله يغضب على "كريم الدين" ويلزمه الإقامة في مدفنه بالقرافة، وعرف الناس بذلك فتوافدوا على "كريم الدين" يزورونه ويأنسون بحضرته، وبلغ "الناصر" ذلك، فأمر بنقله إلى "القدس" ثم إلى "مصر"، وعينه في "أسوان"، وبعد ذلك وجد "كريم الدين" مشنوقًا بعمامته، وأكد للجميع أن "كريم الدين" لم ينتحر بل مات مقتولاً، لقد أعطاه "الناصر" الدنيا والآخرة -كما كانت الناس تقول-، وسبحان الله فلقد كان "الناصر" يحب "كريم الدين" حبًّا جمًّا ويثق به أشد الثقة حتى أنه أدخله على حريمه، وهذا شئ لم يقع لأحد غيره من موظفي الدولة عدا صهره الأمير "تنكز".

ويحكى عنه أن السلطان قد طلبه ذات يوم لأمر من الأمور وكان السلطان في جناحه الخاص وكانت المسألة تتعلق بأشياء تريدها زوجة السلطان، ومكث "كريم الدين" عند السلطان يتلقى أوامر الزوجة عن طريق إحدى وصيفاتها وظلت الوصيفة تروح وتجئ مرات عديدة حاملة أوامر سيدتها ويظهر أن الأخذ والرد قد طال مما أضجر السلطان، فالتفت إلى "كريم الدين" وقال: ما الداعي لهذا التطويل، زوجتي بمثابة ابنتك لايحول بينك وبينها حجاب، ادخل إليها وابصر ماتريده وافعله لها، فدخل "كريم الدين" وعرف ما تريده ثم عاد إلى السلطان، وقد طلب السلطان منها أن تحيي "كريم الدين"، فهو ضيف عندهم وهو في منزلة أبيها، فقامت الزوجة وأمرت بإعداد الطعام له، وقام السلطان بنفسه إلى كرمة في بستان الدار وقطف عنبًا وأحضره بنفسه إلى "كريم الدين" وهو ينفخ التراب عنه ويقول له: كل من عنب دارنا، ولكن ماذا يفيد كل ذلك وقد وشى به الأمراء واتهموه بأنه يتلف مال السلطان بتفريقه بين الناس حتى يقال أنه كريم، فكان "كريم الدين" كريم النفس حقًا، تفانى في خدمة السلطان، وكان يعطي مالقيصر لقيصر وما للناس للناس.

كان أول من وشى بـ "كريم الدين" ولفت نظر "الناصر" هو "النشو شرف الدين" لصلته الوثيقة بـ"الناصر" عندما اختاره ليكون في خدمة ابنه "آنوك" فأتاح له هذا العمل الاتصال الدائم بالسلطان والتحدث معه في شئون الدولة، ولقد وجدت هذه الوشاية آذانًا صاغية لدى "الناصر" فصدقها وحمله على تصديقها ما رآه من كرم "كريم الدين"، وكثيرًا

ما كان "النشو" ينتقد ما كان يجرى في إدارات الحكومة، ويقترح على "الناصـــر" وســـائل لتحسين الخدمة، حتى أثر كلامه في السلطان، واعتقد "الناصر" أن "النشو" خير من يحافظ له على ماله ويعني بشئونه، وظل "النشو" يلمح إلى ما ينفقه "كـــريم الـــدين" مـــن أمـــوال وتفريقها بين الناس حتى يقال عنه أنه كريم، وهو بهذا يبدد أموال الخاصة.

زواج آنوك

بدأت البلاد تستعد لزواج الأمير "آنوك" من ابنة "سيف الدين بكتمر الساقي" "الأميـــرة فرخندة"، وتَحدد له موعدًا في شهر شعبان سنة 732 هـــ، وحمـــل المهـــر مـــن خـــزائن الخاصة إلى بيت الأمير "بكتمر الساقي" والد العروس، فكان عبـــارة عـــن عشـــرة آلاف دينار، ومائتين وخمسين تفصيلة حرير، ومائتي وعاء لحفظ المسك، ومائة مثقـــال عنبـــر خام، ومائة شمعة موكبية، وثلاثة خيول مسرجة ملجمة، وخمسة مماليك علـــى يـــد كـــل مملوك بقجة.

عُقد القران في القصر السلطاني على صداق قدره اثنتا عشر ألف دينار من الـــذهب المقبوض منها عشرة والمؤجل ألفان، وعَقَدَ العقد الشيخ "جمال الدين القزوينـــي"، وجلـــس العريس تجاه والده وأقبل الأمراء جميعًا يحمل كل أمير بنفسه شمعة وخلفه مماليكه تحمل الشموع وتقدموا على قدر مراتبهم إلى السلطان وقبلوا الأرض بين يديه واحداً تلو الآخر.

استمر الحفل طوال الليل، وفي آخره نهض السلطان وعبر إلى حيث مجتمع النســـاء وكن في أبهى حللهن وأفخر ثيابهن فقامت نساء الأمراء وقبلن الأرض بين يدي الســـلطان واحدة بعد أخرى، وقدمن له التحف والنقوط، وما كاد ينتهي ذلك حتى رسم السلطان بـــأن يرقصن كلهن عن آخرهن، فرقصن جميعًا والمغنيات تضربن الدفوف، وأنواع المال مـــن الذهب والفضة والشقوق الحريرية كانت تلقى على الفتيات، فحصل لهن ما يجل وصـــفه، وأخيرًا زفت العروس.

وفي بكرة الغد جلس السلطان وخلع على الأمراء والموظفين، ورسم لامرأة كل أمير من الأمراء بتعبية قماش على قدر منزلة زوجها في الدولة، وقد حُمل شـــوار العـــروس "جهازها" على ثمانمائة جمل والكثير من البغال، وبلغ الذهب فـــي المصـــاغ والملابـــس والزركش ثمانين قنطارًا ومع ذلك فقد استصغره "الناصر" عندما رآه وقال: إنه رأى شوار بنت "سلار" أحسن منه.

بذلك يكون قد اجتمع شمل الأحبة فابنة "تنكز" الكبرى زوجة لـــــ"الناصـــر" وابنتـــه الأخرى زوجة لــ"أحمد بن بكتمر الساقي"، وأخيرًا ابنة "بكتمر الساقي" زوجة لــ"آنـــوك" ابن الملك "الناصر".

ظلال الحُب

أما "صلاح الدين"، فقد عاش مع زوجته وأبنائه عيشة رغدة، فسكن القصور ورغم ذلك احتفظ ببيت عمه الذي ورثه عنه وأغلق باب الذكريات عليه، يتردد بين الحين والآخر ليجترها، فكل ركنٍ فيه يذكره بـ"سلسبيل" وهي تلهو وتضحك وتعاتب وتسخر وتتشاجر وتضجر وتلح وتتمرد، وبينما كان "صلاح الدين" في بيت الذكريات إذا به يسمع صوت "سلسبيل" يناديه فارتعدت فرائصه ووقع المصباح من بين يديه وخفق قلبه حتى كاد يقفز من بين ضلوعه فأخذ ينادي بأعلى صوته: "سلسبيل" أين أنت.. أين أنت يا "سلسبيل"؟ لكنها الهواجس تطارده وتصور له ما سمعه، فجلس محبطًا على الأريكة وفيما هو غارق في هواجسه شعر بأحد يجلس بجواره فلم يتمالك المسكين أعصابه لما غلب عليه من رهبة وخوف، فسمع صوتًا وكأنه هاتف من عالم الأرواح يهمس في أذنيه ويقول: كم أحب أن أبقى هنا لا أفارقك، لكني جئتك خلسة وينبغي علي أن أمضي سريعًا لئلا نجعل سبيلاً إلى الوشاية، لا تخف يا "صلاح الدين" سنجتمع قريبًا بإذن الله، الوداع.. الوداع.. يا "صلاح الدين"، فلم تطاوعه نفسه وداعها وظل يتحسس المكان بحثًا عنها، وأدرك أنها لم تكن إلا سراب وأطلق لعينيه عنان الدموع، ولكنه أخذ يعلل لنفسه بنيل المنى فتصور فوزه بقلب حبيبته واستيقظ المسكين من نومه فلم يجد إلا ظلالاً للحب.

عزم "الناصر" على الحج بعد ثلاثة عشر عامًا من حجته الثانية، لكنه أحس وهو يعد العدة أن الأمير "بكتمر الساقي" يتآمر مع عدد من الأمراء على قتله، فقرر أن يفتك به قبل أن تنجح مؤامرته، وتذكر رؤية "طوغاي"، وتفسير الرجل، وكلام المجذوب، فلجأ إلى حيلة، وخرج إلى الحج ومعه "بكتمر الساقي" وسبعون أميرًا وعددًا من الفقهاء والقضاة ورجال الدين والعلماء ومن بينهم "صلاح الدين" على عادة الملوك، وفي الطريق تمارض "الناصر" وقال لـ"بكتمر" وللأمراء: تعلمون جميعًا أنني منذ أن غادرت "مصر" والمرض يشتد علي وأنني أرغب في عدم الاستمرار في المضي والسير إلى الحج هذا العام، فوافقه الأمراء وقالوا له: الأمر والطاعة يا مولاي.. فإن أردت أن ترجع فلنرجع جميعًا، فانتحى "بكتمر" بـ"الناصر" جانبًا وهمس في أذنه قائلاً: إن عودة السلطان دون الحج ليس أمرًا مقبولاً يا مولاي، وحبذا إتمام الحج حتى تظل مكانة مولاي في نفوس الرعية عظيمة لا تشوبها شائبة، فرد "الناصر": إنك على حق يا "بكتمر".. سآخذ بوجهة نظرك ولنمضي في

طريقنا إلى الحج، فقال "بكتمر": خير ما يفعل مولاي إنه عين الصواب، فخرج "بكتمر" وصرَّح للأمراء وقال: سنستمر في السير إلى الحج إن شاء الله .. لقد قرر مولاكم ذلك، ومضت القافلة في طريقها إلى الحج ولكن "الناصر" كان شديد الحذر على نفسه بحيث كان يتنقل في الليلة الواحدة عدة مرات من مكان إلى آخر دون أن يعلم أحد موضع مبيته حتى المقربين منه، ولما وصل إلى "ينبع" واستقبله الأمراء استقبالاً حسنًا واصل السير إلى "مكة" وخلال ذلك فر من مماليكه ثلاثون مملوكًا واتجهوا إلى "العراق"، فأدرك "الناصر" أنهم كانوا من المتآمرين مع "بكتمر" على اغتياله، وأنهم قد أحسوا أن "الناصر" كشف أمرهم، فخافوا من فتكه بهم، فتكتم السلطان ولم يذع خبر فرارهم حتى دخل "مكة" واستقبله أمراؤها فأنعم عليهم، وبعد أن أدى مناسك الحج استعد للعودة، وعرج في طريقه إلى "المدينة المنورة" لزيارة قبر الرسول ﷺ، وفجأة .. قامت عاصفة هوجاء عند وصوله "المدينة"، وأظلم الجو، واشتد هبوب الرياح، فألقت بالخيام واضطرب الناس، وما كادت الشمس تشرق في الصباح حتى سكنت العواصف، فحضر أمير المدينة وقدم "المماليك" الذين فروا جهة "العراق" إذ قبض عليهم على الحدود، ففرح "الناصر" وهنأه على تيقظه وكافأه بما كان يحمله هؤلاء "المماليك" من مال ومتاع، وأمر بإرسالهم إلى "الكرك" مقبوضًا عليهم جميعًا، وبقي "بكتمر الساقي" المُدبِّر للمؤامرة، فأدرك بعد أن تم القبض على الفارين أنه هالك لامحالة، فمرض من شدة الخوف، وكان مرضه فرصة هائلة استغلها السلطان "الناصر" في القضاء عليه وعلى ابنه "أحمد" دون عناء، فقد أتت الرياح هذه المرة بما تشتهي نفس "الناصر"، وكانت فرصة ذهبية للخلاص منهما بدس السم لهما في ماء الشرب، وبذلك يكون "الناصر" قد استراح من "بكتمر" فقضى عليه قبل أن يُقضى عليه، أما الابن المسكين فقد ذهب ضحية تآمر أبيه على قتل السلطان.

نعود إلى "مصر" وقد انتشرت الإشاعات المختلفة قبل أن يعود السلطان، وبات الناس في الأسواق يُرددون الإشاعات و"نجم الدين المجذوب" يردد: ***هناك ولا هناك هناك .. الفرد الصمد حي لا ينساك..،*** وفريقٌ يقول أن السلطان قد ألم به مكروه، وفريق آخر يقول: أنه مات بالفعل، وآخر يقول: أنه لم يمت، والذي مات هو الأمير "بُكتمر الساقي" بعد أن دس السلطان له السم وتخلص منه لأنه دبر مع بعض "المماليك" مؤامرة لقتله، حتى نادى المنادي بعودة السلطان، فخرج الناس جميعًا للقائه، وترقبوا رؤيته بنفوس جزعة حتى إذا مر الموكب اطمأنت نفوسهم وساد الفرح، وكان لخبر موت"بُكتمر" وابنه وقع أليم على زوجته، فلم تتمالك نفسها واخترقت الصفوف وأخذت تصيح في وجه السلطان وتقول أمام الناس بصوت مرتفع مشوب بنبرات الحزن والأسى: ياظالم .. أين

تروح من الله.. ولدي وزوجي .. فزوجي كان مملوكك، أما ولدي.. فماذا كان بينك وبينه.. ياظالم.. من قتل يُقتل ولو بعد حين، وسينتقم الله منك في ولدك، ولم يصغ "الناصر" إليها وتجاهل ما تقول، فقد تم له ما تم وقضى على المؤامرات التي دُبرت لإقصائه عن العرش واغتياله.

لم يهدأ "الناصر" رغم هذا النجاح بل ظل لا ينتهي من التحقيقات والتحريات وبالغ مبالغة كبيرة فصار يأخذ بالظنة وصار يصدق كل وشاية، ولكن كلمات زوجة "بكتمر الساقي" كانت تلاحقه في كل لحظة ويصحو من نومه على تلك الكلمات التي قالتها له أثناء وصول موكبه. لم يكن مر على زواج ابنة "بكتمر" من "آنوك" ابن "الناصر" أكثر من عام، فساءت العلاقات بين الأمير "آنوك" وزوجته ابنة "بكتمر الساقي"، وبات "الناصر" يخاف على ابنه من غدرهم به، وبدأ "آنوك" في ظل هذه الأوضاع يلجأ إلى بنات الهوى من الراقصات والمغنيات حتى تعرف على إحداهن وتدعى "الزهرة" هربًا من هذه الحياة المتوترة فألقى بنفسه في أحضان هذه المرأة لينعم بشيءٍ من الراحة بعيدًا عن التوترات النفسية والضغوط العصبية.

وبينما كان السلطان يفكر في تنصيب ابنه "آنوك" لولاية العهد كانت النار تشتعل في قلب ابنه الأمير "أحمد" حسدًا وحقدًا بسبب تجاهل أبيه له، إلا أن "الناصر" كان يحب "آنوك" ويميزه عن سائر أولاده مما أثار حقدهم عليه، فسعى الأمير "أحمد" إلى "سيف الدين تنكز" نائب "دمشق" لما له من محبةٍ وتقدير لدى والده، وحدثه بما سمعه بشأن تنصيب "آنوك" لولاية العهد، وأخذ يحث الأمير "تنكز" على مراجعة السلطان في ذلك الأمر، فأبدى الأمير "تنكز" استياءه من تصرفات "الناصر" فيما يخص أمور الدولة، فما عاد يسمع لكبار رجال دولته، بل أصبح يرخي أذنيه للصبيان المتملقين والمنافقين الذين يثيرون غضبه حتى على أقرب الأمراء منه.

بعد مقتل الأمير "بكتمر الساقي" هو وولده "أحمد" في حجة الملك "الناصر" الأخيرة بات "تنكز" يتوقع الغدر به، وأصبح في قلب كل منهما خوف من صاحبه، وكلاهما خادعٌ ومخدوع.

كان "تنكز" يشفق على أسرة الأمير "بكتمر الساقي" ويهتم بهم ويرعاهم، بينما خاف "الناصر" على حياة ابنه "آنوك" في ظل زواجه من ابنة الأمير "بكتمر الساقي"، فما عاد أحد يأمن للآخر.

كانت عادة "الناصر" إذا غلبه التفكير في أمر ضاق به صدره لا يرى خيرًا من أن يخرج للصيد ليفرج كربه، فدعا ابنه "آنوك" للخروج معه للصيد وتأهب للخروج إلى

أرض "قليوب" فسبقه إلى الموقع "البيازة" وأصحاب الصقور والشواهين والكلاب وسائر أصحاب الصيد والقنص، فأُحيطت بعض جهات الموقع بسورٍ على هيئة نصف دائرة مبنٍ بأعمدةٍ من جذوع الشجر وقد شدت بعضها إلى بعض بالأسلاك على هيئة سور، فكان "الناصر" يطارد الحيوانات التي يريد صيدها إلى ذلك السور ثم يضربون حولها حلقة من الجهة المفتوحة بخيولهم وكلابهم ويطاردونهم والفرائس يفرون أمامهم بين الأعشاب، فلا يزالون يضايقونهم حتى يحصرونهم أمام السور فلا يجدون محلٍ ولا مجال لهم للهرب فيقبض الملك عليهم هو ومن معه من الخاصة فيقنصوا منهم ما شاءوا، ولكن "الناصر" في هذا اليوم خرج على جواده ومعه ابنه "آنوك" يتجولان في أرباص "قليوب" وأدغالها وضياعها، وجعل "الناصر" الخروج للصيد في ذلك اليوم وسيلة للتحدث مع ابنه "آنوك"، بينما كان "آنوك" مُضطربًا ويعلم ما سوف يفاتحه فيه أبوه.

لم يكن "آنوك" أقل خوفًا على نفسه من أبيه، فهو يعلم أن زوجته ابنة الأمير "بُكتمر" قد تدس له السم بتحريض من أمها فلم يعد يأمن على نفسه منها، وكان يهرع للمبيت في قصر أمه "طوغاي" تارة وفي بيته الصغير الذي ابتناه على "بركة الحبش" للترفيه والمُنادمة تارة أخرى، وتوقع "آنوك" ما يدور في خلد أبيه، ولكنه ظلَّ صامتًا حتى قطع "الناصر" صمته وقال: أسمعت ذلك البيت من الشعر الذي يقول:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضـة   على النفسِ من وقعِ الحسامِ المُهنَّدِ

قال "آنوك": ماسمعته من قبل، فقال "الناصر": لاعليك.. ولكنك تفهم ما أقصده، وتعلم إنني ما جئت بك اليوم إلا لآمرك بتطليق زوجتك وذلك عملاً بالحكمة القائلة "يؤتى الحذرْ من مأمنه"، فقال "آنوك": أجل.. كنت على وشك التصريح لك بهذا، وأن أستشيرك في هذا الأمر، لكنك سبقتني إليه وأوجدت لي الحل الذي أريده، فقال "الناصر": أما سمعت ما تشيعه أم زوجتك للناس من أقاويل كاذبة بشأن موت زوجها وابنها، إنها تردد في كل مكان على العامة والخاصة من الأمراء بأنني قد قتلتهما حتى أن بعض خاصة الأمير "تنكز" أبلغوني أنه هو الآخر يُصدق ما تشيعه عني، غير أن الحقيقة أكدت أن الأمير "بكتمر الساقي" كان يدبر لي مؤامرة للخلاص مني مع الأمير "تنكز" رغبة في الاستئثار بالملك، ثم عاد يقول: والآن.. ما عليك غير أن تتخلص من ابنة "بكتمر" حتى نسلم ممالا يُحمد عقباه، ألا تذكر قول أمها: سينتقم الله منك في ولدك؟ فقال "آنوك": أجل سمعت .. وسأفعل ما تريد، فقال "الناصر": أما "تنكز" فلي شأن آخر معه.

وبينما كان "الناصر" يُخطط لتطليق ابنة "بكتمر" من "آنوك" حرصًا على حياته كانت أرملة "بكتمر" تُدبر خطة محكمة للخلاص من "آنوك" حتى تحرق قلب "الناصر" عليه كما احترق قلبها على ولدها "أحمد"، فقامت بالتآمر مع إحدى جواريها وكانت لها أختٌ ضمن جواري "طوغاي" يميل إليها "آنوك"، فأوعزت إليها أرملة "بكتمر" بدس السم له في الشراب حين استيقاظه من نومه في الصباح على أن تجزل لها العطاء وتُحررها من الرق، ولكن السيدة "مسكة" ارتابت في زيارة الجارية لأختها على غير العادة في الصباح الباكر، فسارعت "مسكة" بإبلاغ "آنوك" وتحذيره بعدم تناول أي شراب أو طعام من يد تلك الجارية.

عمل "آنوك" بنصيحة "مسكة"، وما أن دخلت عليه الجارية مقدمة له الشراب حتى أمرها باحتسائه وهددها بالقتل إن لم تفعل، فلم تجد الجارية إلا الامتثال لما أُمرت به، فماتت من فورها، وشاء القدر وحده أن يمنع ما خططت له أرملة "بكتمر" ونجا "آنوك" من موتٍ محقق بفضل فراسة "مسكة" وذكاءها.

في ذات اليوم.. بعث "الناصر" في استدعاء قاضي القضاة الشيخ "جلال الدين القزويني"، وحضر كلاً من السلطان وابنه "آنوك" وكذلك الأميرين "بشتاك" و"قوصون"، وتم تطليق ابنة "بكتمر الساقي" في هدوءٍ تام، ثم خرجا الأميران "بشتاك" و"قوصون" ليخبراها بتطليق "آنوك" لها، وبأن تستعد للرحيل إلى بيت أبيها في صباح الغد.

كانت الخوندة الكبيرة "طوغاي" عطوفة على جواريها فزوجت منهن الكثيرات وجهزتهن جميعًا، فكانت ترسل لناظر الخاصة ليصرف لها الأموال فتخرج "مسكة" إلى الأسواق تنتقي لهن أحسن الثياب، بل وكانت "طوغاي" تطلب منها ألا تفرق بينهن في شراء "شوارهن"، بل كانت "طوغاي" تشرف بنفسها على كل شئ ولا تنسى أبدًا أن تمنحهن الهدايا الثمينة من ذهب وفضة، كما كانت تعمل لكل واحدة منهن قلادة كبيرة من العنبر يزدان بها صدرها، أما السيدة "مسكة" فتقوم بتنفيذ كل ما يُطلب منها، فتعرف الصياغ والتجار والصناع المهرة في "القاهرة" كلها، فتذهب إليهم وتتفق معهم وتحاسبهم وتحدد لهم مواعيد الاستلام، وكان الجميع يخشاها ويعمل لها كل حساب لكونها نائبة عن زوجة السلطان، ولما تتمتع به "مسكة" من نفوذٍ وقوةٍ في "الدور السلطانية"، فلا يجادلها أحد ولا يستهين بها أحد، وكانت "طوغاي" تطمئن إليها لما فيها من صفاتٍ عظيمة، ولأمانتها وحبها للأسرة التي تربت وترعرعت في أحضانها، يحبونها وتحبهم بإخلاصٍ شديد.

النَّشُّو

كانت "قناطر السباع" من المنشآت التي سبقت في وجودها عهد "الناصر"، فقد شـيدها "الظاهر بيبرس" فوق الخليج بين "مصر" و"القاهرة"، وجعل عليها سباعًا حجريـة ترمـز إليه، وقد كان السبع شعار هذا السلطان، فأمر "الناصر" بهدمها وإعادة بنائها.

في نفس الوقت مرض الأمير "الطمبغا الماراداني" "زوج إحدى بنات السلطان"، ونزل إلى "الميدان الناصري" فأقام به، وذهب "الناصر" إليه لمعاودته وقد بلغ الأمير "الطمبغا" ما يتحدث به العامة من أن السلطان لم يخرب "قناطر السباع" ويعيد بنائها إلا لإبقائها باسمه، وإنه رسم بكسر سباع الحجر ورميها في البحر، وبعد أن شفي "الطمبغا" وركب إلى القلعة ابتهج "الناصر" بلقائه إلى أن جاء ذكر القنطرة في حديثهما عما إذا كانت أعجبته، فأجابـه "الماراداني": والله ياخوند.. لم يُعمل مثلها ولكنها ما أُكملت بعد، فقال السـلطان: كيـف؟ أجابه: السباع التي كانت عليها لم توضع مكانها، والناس يتحدثون بأن السلطان له غرضٌ في إزالتها لكونها رنك "الظاهر بيبرس"، فامتعض "الناصر" وقال: والله أنا مـا قصـدت هدمها وإعادة بنائها إلا للملصلحة، فما مررت عليها نزولاً من "قلعة الجبل" ووصولاً إلى "الميدان الناصري" إلا وقد تضررت من علوها وكان ظهري يتألم، ولم أقصد من إعـادة بنائها لتبقى القنطرة منسوبة إليّ، وإنما أمرت بهدمها وعمارتها أوسع مما كانـت عليـه بعشرة أذرع وأقصر من ارتفاعها الأول فكيف بالله يقولون هذا؟! رد "الماراداني": ولكـن العامة يقولون أنك كرهت النظر إلى أثر غيرك من الملوك قبلك، ولذلك أمـرت بإزالـة السباع التي هي رنك الملك "الظاهر بيبرس"، فقال "الناصر": سآمر فـي الحـال بإعـادة السباع إلى ما كانت عليه حتى لايظن الناس بيَ الظنون، وسكت برهة ثم قـال: أمـازال حتى الآن الباب المدرج بالقلعة يحمل شعار "صلاح الدين" واللوحة التأسيسية التي تشـير إليه وإلى وزيره قراقوش؟! أما كان الأجدر بي أن أهدمه أو أعدل فيه ثـم أثبـت اسـمي عليه، كيف تثار هذه الإشاعات حولي وأنا المحب للإصلاح والتعمير؟! فقـال "الطمبغـا" مطيبًا خاطره: هوِّن عليك يامولاي ولا تغضب، فلا يخل عصر من العصور من أشخاص يسيئون الظن بأعمال غيرهم ويتصيدون الأسباب لإظهار أنهم من المطلعين على بـواطن الأمور، وينسجون من خيالهم قصصًا يفسرون بها أعمال الناس حسب هواهم.

استمر السلطان "الناصر" في سياسته العمرانية غير مبالٍ بكلام الناس، فأنشأ "ميدان المهار" بجوار "قناطر السباع"، وكان الدافع إلى إنشائه أن يجعل به جميع خيوله ، وقد نُقل الطين إليه وزُرع النخيل فيه ولعب الأمراء فيه الكرة، كما رتب فيه الحجرة "أُنثى الخيل" للنتاج وكان يتردد عليه كثيرًا، كما أنشأ "البستان الناصري" عند "باب اللوق"، وأحضر له سائر أصناف الزراعة، واستقدم له من "بلاد الشام" الخولة والمطعمين الذين يحذقون فن تطعيم الأشجار، فتعلم المصريين منهم هذا الفن، واعتنوا به عناية كبيرة بعد ذلك.

بعد أن تخلص "الناصر" من "كريم الدين" ناظر الخاصة رغم شهادة الناس له بالنزاهة والأمانة فعين عوضًا عنه الأمير "شمس الدين موسى"، ثم بعد ذلك ولى "النشو" نظر الخاصة، وكان "النشو شرف الدين" نصرانيًا خدم هو وأبوه وإخوته عند الأمير "بكتمر الحاجب"، ثم خدم عند الأمير "أيدغمش" أمير "آخور" ثم استسلمه الأمير "بكتمر الساقي" وسماه "عبد الوهاب" ولقبه "بشرف الدين" وسلم إليه ديوان سيدي "آنوك" إلى أن توفي "الناصر فخر الدين" ناظر الجيش، فقام السلطان بنقل "شمس الدين موسى" ناظر الخاصة إلى نظر الجيش، وولى "النشو" نظر الخاصة على ما بيده من ديوان سيدي "آنوك".

كان "النشو" شابًا طويل القامة حلو التقاطيع يعمل في خدمة الأمراء وقد أعجب به "الناصر" فعينه في بادئ الأمر في وظيفة صغيرة بإقليم "الجيزة" "استيفاء" حتى عهد إليه بعد ذلك نظر الخاصة التي كان يشغلها من قبل "كريم الدين"، وما كاد "النشو" يتربع على دست هذه الوظيفة حتى بدأت مصادراته تعم الجميع، وشروره تتسرب إلى كل قطاع من قطاعات الشعب، فكرهته العامة وضاقت به الخاصة، وكثرت الشكاية منه، لكن "الناصر" أصم أذنيه واعتبره يحكم تدبيره، واستولى "النشو" على عقل "الناصر" حتى أنه كان ينهر الأمراء ويغلظ لهم في القول كلما لفتوا نظره إلى ما يرتكبه "النشو" باسم السلطان من مضايقات في البلاد.

تفنن "النشو" في السيطرة على كل شئون البلاد بوسائل غير مسبوقة في عصره إذ كان له عجائز يتجسسن له في البيوت ويطلعنه على يدور بها من تعليقات على سياسة الحكومة، ثم يتصرف على أساس ما يصل إليه من هؤلاء العجائز، إضافة إلى أعداد من الأشرار يدلونه على كل ما يهمه من شئون الناس ثم يسعى بطريقته الخاصة إلى الحصول على ما يريده منهم بالتهديد، وكان يحاول أن يظهر دائمًا أمام "الناصر" بمظهر الفقير، حتى يزداد السلطان ثقة فيه ولا يسمع لوشاية الواشين به، ولكي يقنع السلطان بفقره كان يقترض من كبار موظفي الدولة الذين يتصلون عادة بالسلطان مبلغًا صغيرًا من المال بين حين وآخر ليوهمهم أنه لا يملك شيئًا.

في يوم من الأيام بعث "النشو" إلى رئيس الأطباء "شهاب الدين ابن هلال الصفدي" يطلب منه مائة درهم بحجة أن ضيفًا نزل فجأة عليه وليس لديه ما يكرمه به، ولكي تنطلي حيلته على السلطان انتهز فرصة وجود كبير الأطباء عند "الناصر" فشكا "النشو" للسلطان عسرته وفقره، وقد أمَّنَ رئيس الأطباء على هذا الادعاء بحكم ما وقع من قبل بينه وبين "النشو"، وكان "الناصر" محبًا لفعل الخير لكنه كان يعدل عن ذلك إذا ما وسوس له ذلك الشيطان المُسمى بـ"النشو"، فيجعله يرجع فيما وعد به.

في يوم من الأيام رسم السلطان بمسامحة الأمراء مما كان عليهم من ديون للخاصة، ولكن نفس "النشو" الشريرة لم تطاوعه على تنفيذ رغبة السلطان، فذهب إليه وعرفه أنه يضيع ماله سدى وأن الدواوين تسرق بحجة مسامحة الأمراء في ديونهم، فتأثر السلطان بكلامه وعدل عما سبق أن قرره وأطلق له يده في أن يفعل ما يراه صالحًا ولا يسامح أحدًا من الأمراء، فذهب الأمير "قوصون" إلى السلطان يرجوه العدول عن قراره، ولكن السلطان رفض التماسه ثم طيب خاطره ووعده بأن يعوضه فيما بعد عما سوف يخسره بهذا القرار.

استفحل أمر "النشو"، وسعى لدى السلطان لتعيين شخص يدعى "أيديكن" واليًا على "القاهرة" وصدر قرار السلطان بذلك، وأصبح "أيديكن" لا يرفض لـ"النشو" طلبًا مهما كان هذا الطلب فيه خروج عن جادة العدالة فهو صنيعته، وعُين بفضله في هذه الوظيفة، واستطاع "النشو" أن يحقق بفضل هذا الوالي الكثير من أغراضه، فكان لأحد التجار مالاً في ذمة الدولة وطالب به مرارًا ولكن دون جدوى، فتقدم إلى "النشو" يرجوه أن يعمل على دفع هذا المبلغ إليه لأنه في أمَس الحاجة له، فوعده خيرًا، ولكن "النشو" دبَّر مع والي "القاهرة" مكيدة لهذا الرجل، فأوعز إلى الوالي أن ينتهز فرصة شرب هذا التاجر للخمر "وكان سكيرًا مدمنًا للشراب" ويقبض عليه ويسجنه في دار الولاية ثم يستدعي بشهود يقرون عليه بأنه مخمور، وعلى ذلك يكون مستحقًا لتوقيع الحد عليه والتشهير به بين الناس، ونفذ الوالي ما أشار إليه "النشو" وقبض على التاجر وهو في مجلس شراب، وسيق إلى السجن، واستدعى الشهود وهنا أفاق التاجر من سكرته وأخذ يتوسل للإفراج عنه، ولكن الوالي اشترط لكي يفرج عنه أن يتنازل عن دينه لبيت المال، ففعل الرجل مكرهًا صيانة لنفسه من الفضيحة وفاحت رائحة الوالي وأسرف إسرافًا مبالغًا في أعماله السيئة حتى ضج الناس منه، وتقدم الأمير "قوصون" إلى السلطان يرجوه أن يعزله، ولكن السلطان غضب وصاح قائلاً: كلما عينت شخصًا ينفعني طلبتم إليَّ عزله، وإذا كان هذا الشخص من جهتكم أثنيتم عليه في كل وقت، ورفض طلب "قوصون".

أخذ "النشو" في تحريض السلطان ضد الأمير "أحمد"، فكان يرسل من يتجسس عليه ثم ينقل لأبيه أسوأ الأخبار عنه، وقد أعلمه ذات مرة عن سوء تصرفاته مع ربات المغاني ومصاحبتهن، لذلك بغضه السلطان أشد البغض وأبعده أكثر من مرة إلى قلعة "الكرك"، وظل الأمير "أحمد" يتسأل: لماذا يعاملني أبي تلك المعاملة الجافة، بينما يتمتع "آنوك" بكل شئ ويفعل أكثر مما أفعل ولا يكن له هذه الكراهية مثلما يكنها لي.

بدأ الأمير "أحمد" ينقل مشاعر الكراهية تجاه "آنوك" لباقي إخوانه ويحرضهم ضده غير أن الأمير "أبا بكر" لم يُجارهِ في ذلك.

كان "آنوك" هو الآخر يشعر بكراهية الأمير "أحمد" له، وكذلك بعض إخوانه، فكان يصرح لأمه بذلك فتلاطفه وتسكن من روعه قائلة: إن أباك يحبك أكثر من حبه لهم جميعًا .. ألا ترى ذلك؟ فلا تهتم بهم، كانت "طوغاي" تُدلل ابنها الوحيد وتحنو عليه ولا ترفض له طلبًا حتى أفسدته بغير قصد لفرط حبها له، وكان الأمير "أحمد" يعلم ذلك ويرى في "آنوك" عدم صلاحيته لولاية العهد لأسبابٍ عديدة أولها صغر سنه وعدم تحمله المسئولية، والأهم من ذلك كله أن الأمير "أحمد" هو أكبر أبناء السلطان وهو الأولى بولاية العهد، واستشعر "الناصر" كراهية أبنائه لـ"آنوك" فخاف عليه حتى لا يلحق به الضرر والأذى، فأرجأ فكرة تنصيبه لولاية العهد لوقتٍ لاحق.

وبينما كانت السيدة "مسكة" تجوب السوق لشراء بعض الأشياء استوقفها أحد الرجال وهو يبكي وقال: يعلم الناس جميعًا عنكِ ياسيدتي التقوى والبر والإحسان والورع وحب مساعدة الناس، وها أنا ألجأ إليكِ لتساعديني في رفع الظلم عني، وبأن تصل مظلمتي إلى مولاتك "طوغاي" حتى توصلها بدورها إلى السلطان "الناصر" ليعرف مايفعله "النشو" بنا نحن التجار، فسارعت "مسكة" وقالت: سأرتب لك موعدًا لتلتقي بمولاتي "طوغاي" لتعرض عليها مشكلتك، وأعطاها الرجل عنوانه وانصرف وهو يدعو لها قائلاً: اللهم أكثر من أمثالك ويبارك لنا فيكِ.

وفِّقت "مسكة" في أن يلتقي الرجل بزوجة السلطان الخوندة "طوغاي"، وأوضح الرجل للسيدتين أن "النشو" قد فرض عليه شراء كمية كبيرة من الأخشاب وحدد لها ثمنًا قدره ألفا دينار مع أنها لا تساوي ذلك، وأنصتت "طوغاي" باهتمامٍ شديد للشاكي، ثم انصرف بعد أن أكدت له برفع شكواه إلى السلطان "الناصر"، وحدثت "طوغاي" "الناصر" بشأن هذا الأمر، والتمست منه إنصاف الرجل، فأمر السلطان باستدعاء "النشو" وأنكر عليه ظلمه للناس وتصرفه الشائن، وأغلظ له في القول، فخرج "النشو" من عنده غاضبًا وأقسم أن

ينتقم من هذا التاجر بطريقة توحي إلى السلطان أنه برئ، وبأنه يرعى الله في كل أعماله، وأن هذا التاجر وأمثاله إنما يظلمونه أشد الظلم بشكايتهم الظالمة، وأخذ يفكر في طريقة حتى هداه شيطانه إلى أن يبعث إلى التاجر الشاكي برجلٍ من قِبَله يسأله أن يعطيه مبلغًا من المال على سبيل العارية المستردة، وبطبيعة الأمر اعتذر التاجر لضيق ذات يده وعدم استطاعته تدبير هذا المبلغ له لأنه مطالب بتسديد مبلغ كبير من المال لناظر الخاصة نظير كمية من الأخشاب فرضها عليه، فقال له الرجل: أنه في حاجة إلى الأخشاب، وطلب معاينته وادعى الإعجاب به ورغب في شرائه بربح عظيم، ولم يتردد التاجر في قبول هذه الصفقة في الحال، وكتب المبايعة على أن يكون تسديد الثمن في مدة غايتها شهر.

عاد الرجل إلى "النشو" وأخبره بكل ما جرى، وأعطاه المبايعة التي عقدها مع التاجر، وأسرع "النشو" في الذهاب إلى السلطان وقال له: عندما ذهبت لاسترداد الأخشاب من التاجر وجدته قد باعه بفائدة كبيرة، فلم يصدقه السلطان واستدعى التاجر فظن الرجل وهو في طريقه إلى السلطان أن وساطة السيدات قد أتت ثمارها، وأنه سوف يفوز على "النشو" فتنكشف مظالمه للسلطان، ومثل التاجر بين يدي السلطان الذي سأله عن موضوع شكواه، فانشرح صدره وقال: لقد ظلمني "النشو" وأعطاني أخشابًا بألفي دينار مع أنه لا يساوي هذا المبلغ، فسأله السلطان: وأين هذه الأخشاب الآن؟ فأجاب التاجر: لقد بعته بالدين، فقال "النشو" وكان حاضرًا: قُل الحق .. فهذا عقد بيعك معي، فأُسقط في يد التاجر واعترف بحقيقة ماتم، وغضب السلطان عليه وقال له: أتقيم علينا وأنت تبيع بضاعتنا بفائدة، وأمر السلطان "النشو" بضرب التاجر وأخذ الألفي دينار منه مع مثلها، وبطبيعة الحال ازدادت مكانة "النشو" بعد هذه الواقعة، وتأكد السلطان أن ما يحمل الناس على الشكوى منه إنما هو من قبيل الحسد.

دخل السلطان إلى أهل منزله وكشف لهن عن كذب التاجر لاتهامهن لـ"النشو" بغير حق، وخرج "النشو" من هذا الاتهام صادق برئ الساحة، وازدادت ثقة السلطان به عما كانت عليها، وفي يوم من الأيام ترصد لـ"النشو" أحد الفرسان واعترض طريقه وضربه ضربة كادت تذهب حياته، لكنها أسقطت عمامته وجرحت كتفه وأوقعته على الأرض، واختفى الفارس ولم يُقبض عليه، فغضب السلطان وبعث بالأطباء إلى ناظر خاصته، واستدعى والي "القاهرة"، وأمره بالبحث عن الجاني مهما كلفه الأمر، وبعد فترة شفي "النشو" من جراحه وطلع إلى القلعة حيث خلع عليه السلطان، وأمر بأن يمشي في ركابه عشرة من الرجال لحراسته، وظل "النشو" يسرف في سياسته الخاطئة، ويكنز الأموال

للسلطان ويستفيد هو من وراء ذلك ولا يعبأ بما ينزل بالناس جميعًا من ظلم، فقل الوارد من البضائع لأنه كان يشتريها بأبخس الأثمان وأحجم المصدرون في الخارج عن تصدير البضاعة وذهبت أموال التجار لأنه كان يطرح عليهم البضائع بأغلى الأثمان في نفس الوقت الذي زادت فيه طلبات السلطان زيادة كادت تترك الخزانة خاوية، فرأى "النشو" أن يعدل عن سياسته بترك ظلم العامة إلى ظلم الخاصة.

أما المُدلل "آنوك" فقد بنى بيتًا صغيرًا يلتقي فيه مع المغنيات والراقصات للهو على "بركة الحبش"، وكان يشغفه حب "الزهرة" لا يطيق فراقها، فعلم "الناصر" بسلوك "آنوك"، وقد وشى به زوج أخته الأمير "قوصون"، ورأى في تصرفه خروجًا عن تقاليد شباب الأسرة الحاكمة الذين يجب أن يكونوا قدوة طيبة لغيرهم من الشباب.

رتب "الناصر" سرًا مع أحد أمرائه أن يستدعي المغنيات والراقصات ويلفت نظرهن إلى أن عملهن ينبغي أن يكون مقصورًا على المناسبات العامة وحرم عليهن الحفلات الخاصة التي يقتصر حضورها على الشباب، وهددهن بتوقيع أقصى عقوبة، وبإلزامهن بدفع غرامة كبيرة إذا لم يستجبن إلى توجيهات السلطان، ونفذ الأمير الأوامر التي صدرت إليه، وأتت ثمارها فامتنعت "الزهرة" عن الذهاب إلى عش الغرام، وتردد عليها "آنوك" كثيرًا ليعرف ما سبب امتناعها عن الحضور، فلم يفلح، فشق عليه غيابها، وزهد الطعام والشراب، وباح لأمه بما يعانيه، وأخذت أمه تستوضح له السبب وهو صامتٌ، فبكى على صدر أمه، فطيبت خاطره، ووعدته بالسعي إلى تحقيق رغبته، ومكنته سرًا من رؤية حبيبته "الزهرة" إشفاقًا عليه مستخدمة السيدة "مسكة" في الوساطة بينه وبين "الزهرة"، ولكن "آنوك" خاف أن يفتضح أمره ففكر في طريقة تشغل أباه عنه وهداه شيطان الشباب إلى حيلة وأخذ يفكر متى يبدأ باستخدام تلك الحيلة؟.

بعث "أرنتا" نائب "بلاد الروم" رسولاً إلى "تنكز" يحمل كتابًا إلى "الناصر" ولم يكتب كتابًا لـ"تنكز"، فحنق "تنكز" لعدم مكاتبته ورد رسوله من "دمشق"، فكتب "أرنتا" يُعلم السلطان "الناصر" بذلك، وطلب منه ألا يُطلع "تنكز" على ما بينه وبين السلطان، ورماه بأمور أوجبت تغير السلطان على "تنكز"، ثم كتب "جوبان" أكبر مماليك "تنكز" إلى "قوصون" ليشفع له ولبعض المساجين في "الكرك" و"الشبك"، فكلم "قوصون" السلطان، وكلم السلطان بدوره "تنكز" للإفراج عن المساجين فلم يُجبه، فأرسل "الناصر" إليه ثانيًا وثالثًا ولم يُجبه، فاشتد غضب السلطان، وقال للأميرين "بشتاك" و"قوصون": ماذا تقولا في هذا الرجل .. هو يشفع عندي في قاتل أخي "الأشرف خليل"، فأقبل شفاعته في "طشتمر"

وأخرجه من السجن، وأسيره إليه، وأنا أشفع في مملوكه "جوبان" فلايقبل شفاعتي فيـــه؟! وكتب "الناصر" لنائب "الشُبك" بالإفراج عن "جوبان"، فأُفرِج عنه، وكـــان "النشـــو" ممـــن يثيرون القلق والشك والريبة في نفس "الناصر" من جهة "تنكز" ومن جهة الأمير "أحمد".

توسط الأمير "بشتاك" لدى "الناصر" في طلب الصلح بينه وبين الأمير "أحمـــد" ربمـــا تنصلح الأمور بينهما، وذهب إلى "الناصر" يخبره برغبة ابنه في ذلك، غير أن "الناصـــر" قام غاضبًا وقال: "لا أريد أن أراه ماحييت"، ولن أعفو عنه مهما حـــدث، فعـــاد "بشـــتاك" يخبر الأمير "أحمد" بعدم رغبة "الناصر" في مقابلته، فاغتم "أحمد" لذلك، ولم يجد بابًـــا إلا وطرقه ليظفر بالعفو السلطاني حتى أنه وسَّط الخوندة "طوغاي"، ولـــم تـــأتِ وســـاطتها بنجاح، وباءت محاولاتها بالفشل، وأغلظ السلطان لها في القول، وطلب منها عدم التـــدخل في الأمور التي تتعلق بأبنائه.

الأميرُ العاشِقْ

كان "آنوك" في جلسة مُنادمةٍ ومعه "الزهرة" حبيبته، وفيما هي جالسةً معه أظهـرت خوفها من بطش أبيه إذا ما نما إلى مسامعه أنها مازالت تُقابله، فطمأنها "آنوك" وهدّأ مـن روعها وقال لها: لا تنزعجي يا حبيبتي، فلقد رتَّبت كل شئٍ، ولن يهتم أبي بتلك الأمـور ثانيةً، ووجدت الحيلة التي لن تترك له مجالاً لترقب أفعالي، فقالت "الزهـرة": حقّـا يـا "آنوك".. وماهي؟ فأجابها: سوف تعرفين فيما بعد .. دعيني الآن أستمتع بالطرب والأُنس يا"زهرة"، أما عش الغرام فقد فُرش بالنمارق والطنافس وكان في صدر الرواق سريرٌ من الأبانوس المُطعم بالذهب يجلس عليه "آنوك" وبجانبه عدة مقاعد ووسائد كثيرة مُلقاه فـوق الطنافس وحول الجدران، ومائدةٌ كبيرةٌ مُستديرة تتوسط المكان عليها أباريق من البللـور والفضة فيها الأشربة والأنبذة والأقداح على اختلاف أشكالها وألوانها، ويتخلل ذلك أطباق الفاكهة، ولشدة انتشائه نزل "آنوك" عن سريره وجلس على إحدى الزرابي، فالتصقت بـه "الزهرة"، وكان الجو حارًا فجاءت الجواري بالمراوح، وملأ صاحب الشـراب الأقـداح والمُغنيات من حولهما جالسات مُنتظرات الإشارة من "الزهرة" وهن ممسـكات بالـدفوف والمزاهر والعيدان، فأخذت "الزهرة" العود من إحدى الفتيات وبدأت تعزف وتُنشـد هـذه الأبيات من الشعر:

كـــل مـــافي الكـــون مملـــوكٌ لنـــا	آدمٌ أنـــــت وحـــــواءٌ أنـــــا
أنجبتنـــا الأرضُ حتـــى نلتقـــي	والســـــماواتُ أرادت حُبنـــــا
ثـــم فـــاضَ الحـــبُّ بحـــرًا عاتيًـــا	عـــارمَ الأشـــواقِ جبـــارَ المُنـــى
وعـــلا في الأفـــقِ نجـــمًا بـــاهرًا	يخطـــفُ الأبصـــارَ يَســـبي الأعيُنـــا

راحت "الزهرة" تضرب العود ضربًا مُسكرًا، ثم قامت تُغني بصوتٍ رخيمٍ، فأقبل في إثرها أربع فتيات، ثلاث منهن يحملن العيدان ورابعتهن تحملُ مزهرًا، فظللـن يرقصـن ويتمايلن على أنغامها، وصاح "آنوك": إليَّ بصاحب الشراب، ولم يكن مُعتادًا للشراب قبل أن يعرف "الزهرة"، فأقبل الغلام وملأ القدح فشربه "آنوك" في لحظـات، بعـدها.. دارت الخمر برأسه فصاح: إليَّ بـ"ابن أبي الفضل العمري"، فقال رئـيس الخصـي: السـمع

والطاعة ياسيدي الأمير، وما لبث أن عاد الرجل مُعلنًا عن دخول "ابن أبي الفضل العمري"، وكان "شهاب الدين بن أبي الفضل العمري" جميل المظهر أرخى لحيته وقد خطها بعضٌ من الشيب، عيناه عسليتان فيهما خفة الظل والذكاء، وانحنى لـ"آنوك"، فأشار إليه بالجلوس جانب الجواري والمُغنيات ثم قال له: لاتقل شيئًا حتى تشرب، وأشار إلى الساقي، فملأ له قدحًا ودفعه إليه فشربه دفعةً واحدةً وأرجعه إلى الساقي ليملأه، اتكأ "آنوك" على إحدى الزرابي ومدد جسده على البُساط، ثم أمسك تُفاحةً بيده أخذ يأكلها وهو يقول: أطربنا يا "ابن أبي الفضل"، فقال له: أيريد سيدي الأمير أن يُطرب بالمدح أو بالطعن؟ فقال "آنوك": وهل يُطرب أحدًا بالطعن! لقّن يا رجل هؤلاء المُغنيات أبياتًا يغنينها، فأدنى "أبو الفضل" رأسه من إحدى المُغنيات وأسر إليها أبياتًا، فسكت الجميع، ثم غنّت:

لم أعُد أذكرُ إلا قُبلةً — كنت فيها مُولعًا بالشفتين
يوم كُنا ياحبيبي لهفةً — وعِناقًا تحتَ ظلَ الكرمتين
يوم عِشنا في سكونِ حالمٍ — فغرقنا في هوانا صامتين
إنني أُهديك وحيًا مُلهمًا — إنني أهديك أحلى قُبلتين
يا حبيبي إننا نحيا الحياةَ — مرةً واحدةً لا مرتين

ظل "آنوك" يهتف طربًا عند كل بيتٍ فصاح مُنتشيًا: لله درك يا "زهرة" ولافض فوك، واستمر المجلس على هذا الحال من الطرب والضحك والشراب حتى سمِع "آنوك" صوتَ كلابٍ تنبح، فأدرك أن غريبًا أتى، فظهرت الدهشة على وجهه وأشار إلى المُغنيات فسكتن، واستولى السكوت على الجميع، فسكتت الكلاب عن النباح، فانتفض "آنوك" ونهض من مجلسه وقد ذهب سكره من شدة ارتباكه وخوفه، فربُما يكون أحد الجواسيس ممن رتبهم "الناصر" لمراقبته.

أما "النشو" فقد جلس مع صهره وإخوته كعادته ومع من يثق فيهم للنظر فيما يُمكن أن يقترفوه من مظالم ليقترح كل واحدٍ منهم طريقة معينة لابتزاز الأموال وفي النهاية يتفقون على أمر يُعذبون به خلق الله، وكان آخر ما اتفقوا عليه من اقتراح أن يتقدم "النشو" إلى السلطان بأن يلزم مُتولي كل إقليم باستخراج التقاوي من أرضه وحملها إلى خزائن السلطان لتُباع بمعرفة الخاصة السلطانية، وبطبيعة الحال وافق السلطان، فانزعج الأمراء

من هذا القرار، وتحدثوا مع "الناصر"، فقال أحد الأمراء له: ياخوند.. والله إن "النشو" يضرك أكثر مما ينفعك، وتركت هذه العبارة القصيرة في نفس السلطان أثرًا عميقًا فأحس أن "النشو" أصبح مكروهًا من الجميع، واستعان السلطان بالأمير "الطمبغا المارداني" يستشيره في هذا الأمر فأخبره " الطمبغا " بأن "النشو" فقد محبة كل أهل الدولة، ولا يتمتع بعطف أحد، فرد السلطان قائلاً: ولكنه نافعٌ بالنسبة لي، فرد عليه الأمير "الطمبغا" مُؤكدًا سوء سيرة "النشو" وختم قوله "ورأي السلطان فيه الأعلى". كثُرت الأوراق التي كانت تُلقى إلى السلطان دون أن يعرف كاتبها ومن بين هذه الأوراق ما يأتي ذكره:

أمعنت في الظلم وأكثرته ويا نشو زدت على العالم

تُرى مَن الظالم فيكم لنا؟ فلعنة الله على الظالم

وحانت ساعة الخلاص من كابوس "النشو"، فعندما مرض الأمير "يلبغا" إستادار السلطان وله فيه ثقةٌ كبيرة ويتمتع بحبه وتقديره، ذهب "الناصر" ليطمئن على صحته، وخلال حديثهما جاءت سيرة "النشو"، فقال "يلبغا": ياخوند.. قد عظم إحسانك لي، ووجب عليَّ نُصحك، والمصلحة تقتضي بأن يقبض على "النشو"، فالأمراء جميعًا يكرهونه ويكرهونك لحبك إياه، وما من مملوكٍ من مماليكك إلا ويترقب غفلة منك ليقضي عليك انتقامًا منك لأنك تركت هذا "النشو" يعبث بمصالح الناس، وبكى "يلبغا"، فبكى "الناصر" لبكائه، وقام من عنده وهو مبلبل الأفكار، وفي النهاية اتخذ القرار وأصدر أمره بالقبض على "النشو".

كان "الناصر" حتى آخر لحظةٍ يشك في مُعظم ما وصل إليه من وشايات في حق "النشو"، ويعتقد عن إيمان عميق أنه أمينٌ بدليل أنه فقير ولا مال عنده، وبعد أن تم القبض عليه التفت "الناصر" إلى الأميرين "بشتاك" و"قوصون" وقال لهما: كثيرًا ما قُلتما في حق "النشو" أنه ينهب أموال الناس، وقد حانت الساعة التي تظهر فيها براءة "النشو" وكذب أقوالكما.

بعد تفتيش منزل "النشو" اكتشف "الناصر" أنه فاحش الثراء هو وجميع أقاربه، فأطرق السلطان خجلاً أمام الأمراء، وأمر بالنداء في "القاهرة" على الناس أن يبيعوا ويشتروا ويحمدوا الله على خلاصهم من "النشو"، فخرجت الناس كالجراد المنتشر يصيحون استبشارًا بهذا الخبر السعيد وأغلقت الأسواق وأشعلت العامة الشموع تحت القلعة، ورفعت المصاحف على رؤوس الناس.

تكاثرت العامة لرجم "النشو" بالحجارة ولكن الجند أبعدوهم عنه، وكان يسير أمام الناس والجنزير الحديد في عُنقه، وأُحصيت أمواله فكانت شيئًا عظيمًا من الأحجار الكريمة واللآلئ والذهب والأقمشة المُزركشة بخيوط الذهب والفضة والعديد من المشغولات الذهبية من خواتم وصلبان مُرصعة وكميات كبيرة من الأواني الصيني والبللور والتحف السنية وآلاف من الحياص المليئة بالذهب.

هكذا انتهت حياة "النشو"، فقد كان يُعطي قيصر كل شئ ويحرم الناس من كل شئ، ومع ذلك لم ينفعه قيصر ولم يشفع له الناس عنده، وأدرك "الناصر" أن "النشو" بأفعاله قد غير قلوب الخاصة والعامة عليه ونفَّرهم منه، فلم يتردد وهلةً في سجنه وقتله، ولم تأخذه رحمة فيه ولا شفقة وأمر بدفنه في مقابر اليهود بعد أن كفن بكفن لم تتجاوز قيمته أربعة دراهم.

أما الأمير "أحمد" فقد بدأ يسلك طريق الوشاية والدس بين الأمراء بعضهم البعض ويقلبهم على السلطان، وظل التواصل مستمرًا بينه وبين الأمير "بشتاك" زوج أخته، وكثيرًا ما كان يفصح الأمير "بشتاك" للأمير "أحمد" عن كراهيته للأمير "قوصون" الذي يرى فيه غلظة وقسوة، فكان "قوصون" يتملق السلطان لينال رضاه التام ويُحرضه على الأمير "بشتاك" بالوشاية الدائمة، وقد أخبره يومًا أن "بشتاك" خرج عن طاعته ولم يعد يهتم بما يقول أو يفعل بل ويردد أمام الأمراء أنه لا يهاب السلطان، فتحالف "بشتاك" مع "أحمد" ضد السلطان، واتفقا معًا على إعلان العصيان وعدم الطاعة، كلٌ يسعى بطريقته إلى كُرسي العرش، فالأمير "قوصون" بالتملق، و"بشتاك" بقوة الشخصية والنفوذ، و"أحمد" لأحقيته بولاية العهد، لكن "النشو" الملعون كان مختلفًا عنهم، لا غرض له من الوشاية إلا جمع الأموال بأي طريقة كانت غير طامع في الملك.

الفتنة

جاء خبر موت "شمس الدين قراسنقر المنصوري" المقيم ببلاد "مراغة"، وقد أعيا السلطان "الناصر" قتله، وقد أرسل أكثر من أربعة عشر ومائة فداويًا لقتله في "بلاد المغول"، ولكن "قراسنقر" تمكن منهم جميعًا وقتلهم، ولما بلغ السلطان موته قال: والله ما كنت أشتهي موته إلا من تحت سيفي وأكون قد قدرت عليه، ولكن الأجل حصين.

أما الأمير "تنكز" فقد استأذن "الناصر" بالسفر ناحية "جُعبُر" للاستجمام، فمنعه "الناصر" لما في تلك البلاد من غلاء، فألح "تنكز" في الطلب، وجواب "الناصر" بالرد عليه يمنعه حتى حنق "تنكز" من رفض "الناصر"، وأخطأ "تنكز" حين قال في حضرة بعض خاصته ومنهم الأمير "جركتمر": والله لقد تغير عقل أستاذنا وسار يسمع من الصبيان الذين حوله أمثال: "شرف الدين النشو" وغيره، والله لو سمع مني لكنت أشرت عليه بأن يُقيم أحدًا من أولاده سلطانًا وأقوم أنا بتدبير مُلكه ويبقى هو مُستريح.

كان تبسط "تنكز" في الحديث بما يراه صالحًا للبلاد مبعثًا لتفسير "الناصر" لهذا الكلام بأنه طامعٌ في المُلك يريد أن يغتصبه، من هنا بدأ "الناصر" يتوجس منه الخوف، وخاصةً بعد أن كتب "جركتمر" له هذا القول، وأحدث هذا الكلام هزةً عنيفةً في نفس "الناصر"، وتأثر من "تنكز" تأثرًا عميقًا، وكانت هذه هي القشة التي قسمت ظهر البعير، فباتت تُعاود "الناصر" الظنون من قبل "تنكز"، واعتقد أنه يُريد الاستئثار بملكه، وبطبيعة الحال أخذ السلطان يرصد عليه العيون ويهتم بحركاته وسكناته اهتمامًا عظيمًا، ولم يعد مقربًا عنده كما كان من قبل، وأخذ نجم "تنكز" في الأفول، فعلى قدر الصعود كان الهبوط، فبعد أن أعلى مكانته في "الشام" التي أقام فيها ثمانية وعشرين عامًا عمل "تنكز" خلالها على تعمير البلاد وإصلاحها، وعرَّض حياته للخطر يوم تزعم حركة إرجاع "الناصر" إلى عرشه بعد أن لجأ إلى "الكرك" في سلطنته الثانية، وللأسف.. لم يشفع كل هذا لـ"تنكز" لدى "الناصر"، وأخذ السلطان يفكر في طريقة للخلاص منه في أسرع وقت.

شعرت الخونده "مطلنبك" ابنة "تنكز" بما يُضمره "الناصر" لأبيها، وكانت خائفة من العاقبة، وأخذ الخوف منها مأخذًا عظيمًا، وفي إحدى المرات دخل عليها "الناصر" غاضبًا، فأدركت أن الأمر بلغ أشده لأن "الناصر" لا يأتيها بعد مُنتصف الليل إلا لأمرٍ عظيم،

فوقفت واجفةً تصطكُ رُكبتاها ببعضهما، ولكنها حاولت أن تتماسك وتذهب ما عليها من اضطراب، فسكنت قليلاً وبقيت مكانها ثم تجلدت، وبعد بُرهةٍ التقطت أنفاسها وقالت: لقد شرفني مولاي بزيارتي الليلة، فلم يرد عليها، وقد تملك الغضب من وجهه، فاحتدت ملامحه وقال: لقد ضاق صدري بأبيك ولم أعد أحتمل منه المزيد، فقالت "مطلونبك" تطيب خاطره: إن أبي لايخرج أبدًا عن طاعتك، فكيف بالله ينقلب هذا الحب منك وهذا التقدير إلى عداوة مريرة وكراهية شديدة؟ إنهم الوشاة رغبة في الوقيعة بينكما، فابتدرها "الناصر" قائلاً: وماذا تقولي فيما قاله أبوك أمام خاصته وتبسطه في الحديث معهم بأن أستريح أنا ويقوم هو بتدبير مُلكي؟ إنه طامعٌ في مُلكي ويُريد اغتصابه، فقالت "مطلونبك": كيف يطمع في مُلكك؟! أنسيت له مواقفه حين عرَّض حياته للخطر يوم تزعم حركة إرجاعك إلى عرشك بعد أن لجأت إلى "قلعة الكرك"؟ وهل بعدما أوليته بوافر العطف والعناية وأعليت مكانته في البلاد ينقلب حبه لك إلى عداءٍ وخيانة؟! لا والله.. لايكون هذا أبدًا، إنها الفتنة والوقيعة، لكن "الناصر" أصم أذنيه، وتجاهل قوة حُجتها، فلقد شب "الناصر" على إنفاذ كلمته، ولاسيما في حالة الغضب.

عادت المسكينة تستعطفه وتترجاه أن يرفق بأبيها وهي تبكي وتقول: اشفق يامولاي، وتذكر صلة الرحم، وإذا كنت تعد أبي خائنًا وخارج عن طاعتك فاقتلني أنا واستبقهِ هو، فوالله إنني أعلم إنه برئ، فقال لها: لقد خرج أبوكِ عن طاعتي، ومن يخرج عن طاعتي يستوجب قتله، وهمَّ بالخروج فاستوقفته وقالت: لقد تشفعت عندك في أبي ولم تَقبل شفاعتي فيه، وقد أسرفت بظلمك له إسرافًا شديدًا جعلك تفقد الثقة حتى في أقرب الأقربين وأعزهم وأحبهم إلى قلبك، ولم يعد كلامي معك يُجدي فافعل به ماشئت، واعلم أن الحي لايموت وجزاء أبي عند الله خير جزاء.

في "دمشق".. ظهر رجلٌ غريبٌ يرتدي زيًّا من جلدٍ ويحمل على كتفه زيرًا نحاسيًا أندلسيًا، يُدعى "سبيل الله"، يسقي الناس بغير جُعل، ففريقٌ من الناس اعتقده وفريقٌ آخر اتهمه بالجاسوسية وارتاب في أمره.

ظل "سبيل الله" يجوب أسواق "القاهرة"، وبعد فترة اختفاء دامت عدة سنوات رأه بعض التجار من المترددين على "الشام" مُقيمًا بها ويسقي الناس كما كان يفعل في أسواق "القاهرة" بغير جُعل، واكتُشف أمر هذا الرجل فيما بعد، وكان ذِمّيًا وله شُركاء كانوا يستعدون لفعل أعمال تخريبٍ في البلاد.

وفجأة .. وقع في "دمشق" حريقٌ مهول استمر قُرابة يومين بلياليهما ذهب ضحيته كثيرٌ من الأنفس والأموال، وعندما تحرى "تنكز" عن أسباب الحريق تبين أن بعض الذِّميين هم المُتسببون فيه، فأمر بمُصادرة أموالهم، وأجرى تحقيقًا مُوسعًا رفعه إلى السلطان جاء فيه: أن الرشيد سلامة كاتب الأمير "علم الدين سنجر البشمقدار" أُشهد عليه أنه حضر إليه "يوسف بن مجلي" كاتب الأمير "بهادر"، و"يوسف" عامل الجيش وبصُحبتهما راهبان أحدهما يدعى "هيلاني" والآخر "عازر" قدما من "القسطنطينية" ليُجاهدا في الملة الإسلامية، وعُرف عنهما إنهما حاذقان في صناعة النفط، فاجتمعوا في بُستان كاتب الأمير "بهادر" و"يوسف ابن مجلي"، وأحضر لهما ما يحتاجونه من النفط، فصنعا كعكاتٍ من خِرَقٍ مبلولة بزيتٍ وقُطران جعلا تأثيرها لا يظهر إلا بعد أربع ساعات فتشتعل، وقد تنكّرا في زيهما ونزلا إلى المدينة مع من معهم فتفرقوا في أنحاءها وابتاعوا منها قُماشًا دفعوا ثمنه لأصحابه ثم تركوا القُماش عند كل تاجرٍ كوديعة لبضعة ساعات حتى ينتهوا من أعمالٍ لهم بعد أن دسوا فيه تلك الكعكات المصنوعة، فوقع منها الحريق.

أنزل "تنكز" بالراهبين أشد العقاب وبغيرهم ممن ثُبت اشتراكهم معهما في هذه الجريمة الشنعاء، وكان من بينهم "سبيل الله"، وما أن وصل محضر التحقيق إلى السلطان حتى جاءته فرصة القبض على "تنكز" على طبقٍ من ذهب، فكتب إليه يستنكر قتله ومُصادرة أموال هؤلاء النصارى، ولفت نظره أن في هذا العمل إغراء لأهل "القسطنطينية" لكي يقتلوا من يرد إليهم من التجار المسلمين، ثم طلب "الناصر" من "تنكز" أن يحمل إليه ما صادره من أموال، وأن يُسارع في تجهيز ابنتيه اللائي عقد عليهن لأولاده، وجاء رد "تنكز" على السلطان باعتذاره عن تجهيزهما بما شغله من عمارة ما ضاع في الحريق وإصلاح ما تُلف، وأن المال المُصادر جعله لعمارة المسجد الأموي، فلم يعجب رد "تنكز" "الناصر"، وبذلك تكون قد اقتربت نهاية "تنكز".

أما الأمير "آنوك" فأصبح لا يأمن جواسيس والده، ويخشى افتضاح أمره وانكشاف سره، فاستدعى أحد أصدقائه واستكتبه ورقة يحذر فيها السلطان من الأميرين "بشتاك" و"أقبغا"، وألقى بالورقة في فراش السلطان، كانت هذه هي الحيلة التي توصل إليها والتي لن تترك مجالاً لدى السلطان ولا وقتًا لتعقب أفعاله، وبذلك ينصرف السلطان عنه بتحقيقاته وتحرياته فيستطيع هو أن ينعم برؤية حبيبته "الزهرة" التي حرمه منها، وحينما قرأ "الناصر" هذه الورقة استشاط غضبًا ولكن الأمير "أقبغا" كشف له حيلة "آنوك" التي أراد أن يدخلها على أبيه كما أطلعه على الدافع لكتابتها.

غضب السلطان غضبًا شديدًا وأمر ببيع عش الغرام، واستدعى ولده وأشبعه لومًا وتعنيفًا وهمَّ بقتله لولا أن حالت دون ذلك أمه وجواريها والسيدة "مسكة"، ودخل "آنوك" غرفته وهو يرتعد من الخوف ولزم فراشه أيامًا يُعاني من هذه الصدمة التي ترتب عليها مرض عضال تمكن منه ولم يُغادره إلا بعد بضعة أشهر عندما هَصَرَ الموت غصن شبابه.

دُفن "آنوك" في التربة الناصرية "بين القصرين"، وكان يوم موته مهولاً اشترك في جنازته كل الأمراء، وحزنت أمه عليه حُزنا شديدًا، فباعت ثيابه وتصدقت بثمنها على الفقراء، ورتبت القراء على قبره، وأوقفت أعيانًا كثيرة، وأقامت على قبره كل ليلة جمعه مجتمعًا يحضره القراء لقراءة القرآن، ومدت له الأسمطة، وكان موت "آنوك" ضربةً قاسمةً لظهر أبيه فهدت كيانه، ولم يعد "الناصر" مُقبلاً على الحياة بل ظل يؤنِّب نفسه على ما فعله بابنه "آنوك".

أما فيما يتعلق بالأمير "تنكز" فقد اعتبره "الناصر" خارجًا عن طاعته، فأصدر أمرًا بعزله من "نيابة الشام"، وبعث إليه من يقبض عليه، فأرسل له الأميرين "بيبرس السلاحدار" و"بشتاك"، فأتيا به مُقيدًا إلى "مصر" وقصد السلطان ضربه بالمقارع، فقام الأمير "قوصون" في شفاعته وأُجيب لذلك، واغتبط السلطان من القبض على "تنكز" فقد ذهب قلقه، وكان لا ينام الليل منذ أن وقعت الجفوة بينهما، فتركه في سجن "قلعة الجبل" إلى أن ينظر في أمره.

بدأت التحقيقات مع الأمير "تنكز" في محبسه، وكان رده على من جاؤوا يحققون معه أنه: "لامالَ عندي سوى ثلاثين ألف دينار هي وديعة لديَّ لأيتام الأمير "بُكتمر الساقي"، وأنكر خروجه عن طاعة السلطان، كما أنكر وجود أمراء متآمرين معه على اغتصاب العرش.

أخذ هؤلاء المحققون يرجون السلطان متشفعين أن يسمح لـ"تنكز" بقضاء ما قدر له من العمر في هدوء وسكينة بعيدًا عن الحكم، ولكن السلطان رفض وأصدر أمره بنفيه إلى "الإسكندرية".

أُخرج "تنكز" ليلاً مع المقدم "ابن صابر" وأمير "جاندار" في حراقة، وأذيق ألوان من العذاب ليعترف بأسماء شركائه في المؤامرة -حسب اعتقاد السلطان- وانتهى الأمر بإعدامه وإعدام أصدقائه من الأمراء وذلك في يوم الثلاثاء نصف المحرم من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة هجرية على يد المقدم "ابن صابر"، ثم وصل الأمير "بشتاك" إلى

"دمشق" وقَبض على الأميرين "صاروجا" و"الجيبغا العادلي" -مملوكي "تنكز"- وسلمهما إلى الأمير "برسبغا" فعاقبهما أشد العقوبة على المال وأوقع الحوطة على موجودهما، ثم وسط "بشتاك" الأمير "جنغاي" و"طغاي" مملوكي "تِنكز" وخواصه بسوق الخيل بـ"دمشق" وكان "جنغاي" يضاهي أستاذه "تِنكز" في موكبه فبرك "ساروجا" ثم أكحله، وتتبع أموال "تنكز" فوجد له ما يجل وصفه، وعُملت لبيع حواصله عدة حلق، وتولى البيع فيها الأمير "الطمبغا الصالحي" نائب "دمشق" والأمير "أرقطاي" وهما ألد أعداء "تِنكز".

والحق يُقال أن "تِنكز" كان أميرًا جليلاً محترمًا مهابًا عفيفًا عن أموال الرعية إلا أنه كان صعب المراس ذا سطوة عظيمة وحرمة وافرة على الأعيان من أرباب الدولة متواضعًا للفقراء وأهل الخير وقد أوقف عدة أوقاف على وجوه البر والصدقة.

بعد ذلك قام "الناصر" بتسليم "قلعة دارندة" للأمير "زين الدين قراجا بن دلغادر" على أن يقيم الدعاء والخطبة فيها له، ولم تتضح غاية "الناصر" في إعادتها إلى أبناء "دلغادر" مُجددًا، وقد سبق لأولاد "دلغادر" الاستيلاء على "قلعة دارندة" من "أبي سعيد المغولي"، فأرسل السلطان على الفور الأمير "علاء الدين بن صبح" ليتسلمها منهم، وشكرهم على حسن صنيعهم.

سكنت نفس "الناصر" بعد أن ظفر بالخلاص من أعدائه: "كريم الدين"، "بكتمر الساقي"، "النشو"، "شمس الدين قراسنقر"، وأخيرًا "تنكز"، كما فقد الكثير من الأحباء على رأسهم ولده "آنوك"، والأمير "سيف الدين حسين بن أبي بكر" المقرب إليه، وكان له حرمة وافرة بـ"القاهرة"، يحبه "الناصر" لخفة روحه ودوام بشره وكانت في عبارته عجمة فإذا قال الحكاية أو النادرة يظهر لكلامه حلاوة بالقلب والسمع، وما كان الأمير "حسين" في يوم من الأيام من المتآمرين على السلطان.

كذلك مات "بُكتمر الحُسامي" وقد تولى "نيابة غزة" ثم "نيابة صفد" ثم حجوبية الحجاب بديار "مصر" كان "الناصر" يحبه رغم ما عرف عنه من شح، كما توفي قاضي قضاة الشافعية "جلال الدين القزويني" وكذلك الأمير "سيف الدين منكلي بغا" أحد أمراء الطبلخانة في الديار المصرية، وتوفي الأمير "سيف الدين بهادر آص المنصوري"، وقد أنعم بإقطاعه على الأمير "سنجر البشمقدار" والي "طرابلس"، وتوفي كبير أطبائه "شهاب الدين بن يوسف الصفدي"، كما توفي الخليفة "المستكفي بالله أبي ربيع سليمان".

المُلك لله

عاش "الناصر" الشهور الثمانية التي قدر له أن يعيشها بعد موت "آنوك" وبعد أن فقد الأحباء وانتصر على الأعداء حزينًا مغمومًا زاهدًا للحياة، وكان الشعور بالذنب يُؤلمه باعتبار أنه المسؤول عن موت أعز أبنائه وهو في ربيع حياته، فألمت به وعكة صحية مصحوبة بإسهال ألزمته الفراش، فأخذ يراجع الذكريات وحياته التي حفلت بالكثير من الحوادث والأعمال والبطولات، فتذكر يوم أن أصدر أوامره لموظفي دولته باتخاذ العدة لجعل "آنوك" وليًا للعهد، فأخذوا يستعدون لذلك وتحدد يوم الاحتفال بتنصيب "آنوك" لولاية العهد، وفي آخر لحظة عدل السلطان عن تنصيبه ولاية العهد واكتفى بتأميره فقط، وكان ذلك بتأثيرِ من "النشو" عليه، فأخذ يتحسر على ما صدر منه في حق "آنوك"، وعلم أن الموت قد يفاجئه في أية ساعة، كما تذكر أيضًا أن الحسنات يذهبنْ السيئات، فأصدر أمرًا بالإفراج عن المساجين، وتصدق على الفقراء بالمال الجزيل.

التف أبناء "الناصر" من حوله، فنظر إليهم وقال: أين "سلسبيل"؟ أجابت "طوغاي": في خلوتها كعادتها، قال: ألم يخبرها أحد منكم بمرضي؟! ردت "طوغاي": والله يا خوند .. لا نستطيع أن نقتحم عليها خلوتها إلا إذا خرجت منها، وسنخبرها فور خروجها إن شاء الله، قال "الناصر": أريدها في أمرِ هام يا "طوغاي" فلا تنسي أن تبلغيها، فأومأت "طوغاي" برأسها إشارة بالاستجابة لطلبه، وما أن أنهى "الناصر" كلامه مع زوجته حتى وجد "سلسبيل" واقفة أمامه، فترامت على يديه تقبلهما، فأمر بخروج كل من في الغرفة وأبقى "سلسبيل" وحدها معه، ثم قال والدمع ينسال على خديه: اجلسي واستمعي إليَّ جيدًا.. لقد علمت من الأمير "أقبغا" أول أمس بوفاة زوجة "صلاح الدين" وولده، فقد شبَّت النيران في بيتهما وكان "صلاح الدين" بالخارج، وقام الأهالي بإنقاذ من في البيت، ولكن زوجته وابنه فارقا الحياة بعد إخراجهما من وسط النيران، وأراد الله أن تنقذ ابنته "سلسبيل"، وعلمت أيضًا أن "صلاح الدين" حزينٌ يحتاج إلى من يواسيه ويشد من أزره فالناس تقف بجوار بعضها البعض في المحن والشدائد فابقي جانبه، ولا تتركيه يقاسي الوحدة من جديد وابدئي معه حياة جديدة، فأنا أوشك على لقاء ربي وأريد أن يستريح ضميري من ناحيتك لأتوسَّد الثرى قرير العين وألقى وجه ربي باشًا مطمئنًا وأتلقى الموت بالترحاب، وسيشهد عليَّ تراب قبري بحسن نواياي... فقاطعته "سلسبيل": أسامحك يا عماه من كل قلبي ولا

أحمل لك إلا المحبة فالكره لا يعرف طريقًا إلى قلبي، وقد سبق وأن قلت لــك إنـــه قـــدر مقدور علينا، فلا تحمل نفسك ما لاطاقة لك به، استرح يا عمـــاه واســتكن ولا تجـــزع، فرحمة الله واسعة، والله يغفر الذنوب جميعًا ثم دعت له وخرجت والألم يعتصــرها، فقــد رأت الموت على وجه عمها، وعادت إلى خلوتها من جديد تستغفر وتدعو لـــه بالشـــفاء، وجاشت نفسها فأطلقت لعينيها عنان الدموع وودت أن تكون لــ"صـــلاح الـــدين" عونًـــا، وعادت تعلل لنفسها بنيل المنى والفوز بـــ"صلاح الدين"، ثم تراجعت واســتغفرت ربهـــا وحدثتها نفسها: إنها إرادة الله ولا دخل لها بما حدث لامرأة "صلاح الدين" وولده، وقالـــت والدمع ملء عينيها: آه يا عماه.. ليتك ما قلت لي ما حدث لــ"صـــلاح الـــدين"، ونامـــت مضطربة حزينة النفس، وزاد من همها ما انتابها من أحلام مفزعة أثناء نومها وهي التي انقطعت عن الدنيا بالزهد والعبادة وأخيرًا اتخذت القرار وذهبت لــ"صلاح الدين" لتواسيه وتقدم إليه تعازيها.

ذاع خبر مرض السلطان، فأخذ الناس يدعون له بالشفاء العاجل، فتماثل للشفاء ببركة دعاء "سلسبيل" وحب الرعية له، ونودي في "مصر" بـــزوال الخطـــر وأقـــاموا الـــولائم والأفراح اغتباطًا بشفاء السلطان، وجاء عربان الشرقية بخيولهم وجمـــالهم التـــي تحمـــل الهودج ولعبوا بالرماح تحت القلعة، وأطلقت الألعاب النارية في المساء وجلس الســـلطان يشاهدها، والشيخ "نجم الدين" يجوب الشوارع والأذقة مرددًا: ***هناك ولا هناك هناك.. الفرد الصمد حي لا ينساك.***

أمر "الناصر" زوجته "طوغاي" بعمل ألف قميص للتصدق على المحتاجين، ونزلـــت "مسكة" تجمع هي والخدم الخبز من المخابز لتوزيعه على الفقراء، وفي العيـــد .. خـــرج السلطان والأمراء استعدادًا للصلاة، ولم يكن "الناصر" قد استعاد صحته، فاختلفت الآراء.. هل يشهد صلاة العيد أم يبقى في القصر، حرصًا على صحته؟! وكان من رأي الأميـــرين "قوصون" و"بشتاك" زوجا ابنتيه أن يتحامل السلطان على نفسه وينزل للصـــلاة حتـــى لا تنزعج الرعية، وطلب "الناصر" من قاضي القضاة أن يوجز في خطبة العيد مراعاة لحالته الصحية، وما كاد "الناصر" يؤدى الصلاة حتى تحرك عليه المرض فقام لساعته وركـــب إلى القصر واستلقى على فراشه، وبينما كان يُصارع الموت كان أمراؤه يتصارعون على من يفوز بالسلطنة من بعده، وتنبأوا بما سوف يقع بعد موته مـــن فوضـــى واضـــطراب فأخذوا ينزلون أولادهم وحريمهم من القلعة إلى "القاهرة" بُعدًا عن مـــواطن الاضـــطراب، وأقبلوا على تخزين الماء في بيوتهم استعدادًا للأيام المقبلة، وأخـــذوا يشـــترون الأزيـــار والدقيق والقمح والشعير ليعيشوا عليها وقت الشدة.

بدأ "المماليك" يهجمون على المخابز والطواحين والحوانيت لنهب ما تصل إليه أيديهم، بينما بدأ الجفاء يظهر بوضوح بين الأميرين "بشتاك" و"قوصون" وأخذ كل منهما يحذر على نفسه ويبث العيون على غريمه حتى لا يؤخذ على غرة، وكان "بشتاك" سيئ السمعة "زير نساء" حتى أن مكانته لم تمنعه من ملاحقة نساء الفلاحين في إقطاعاته، كان زائد التيه بنفسه، يعرف العربية ولا يحب أن يتكلم بها، فكان عنده ترجمان يترجم عنه ما يريد، قربه "الناصر" إليه وأعلى مكانته حتى أنه أراد الفتك به يومًا ما فلم يستطع.

كان "بشتاك" جريئًا.. إذ دخل يومًا على السلطان وهو بين نفر قليل من مماليكه وقال له: علمت أنك تريد إمساكي فها أنا قد جئت إليك برقبتي، فدُهش "الناصر" لهذه الجرأة وتمالك غضبه، ثم طيب خاطره وأنكر أنه أراد إمساكه.

زاد نفوذ "بشتاك" حتى أن "الناصر" لم يجد من هو أقوى منه للسفر إلى "دمشق" للقبض على "تنكز" ومصادرة أملاكه، أما "قوصون" فقد تزوج السلطان بأخته وتزوج هو بابنة السلطان، وقد اشتراه "الناصر" لنفسه عندما رآه ذات يومٍ يبيع العصي للخدم الذين يعملون في الاسطبلات السلطانية، وأخذ يترقى حتى وصل إلى أعلى المراتب.

كان التنافس شديدًا بين الأميرين "بشتاك" و"قوصون" وقد أظهر كلاً منهما العداء للآخر، دخل "بشتاك" على السلطان وهو راقدٌ في فراش المرض وقال: إن "قوصون" جهز مماليكه للقضاء عليَّ، فأمر "الناصر" باستدعائهما وحاول أن يصلح بينهما، فأخذا يتعاتبان أمامه ويذكر كل منهما لصاحبه ما ارتكبه في حقه من إساءة، واشتد النقاش كما اشتد الألم على السلطان الذي غاب عن وعيه وعندما أفاق من إغمائه سأل عن الأميرين واستدعاهما مرة أخرى حتى يزيل ما علق بنفسيهما من جفاء، ورجا كل منهما أن يصفو لصاحبه، ووفق هذه المرة فتصالحا أمامه، واقترح الأمراء الحاضرون ومن بينهم "بشتاك" و"قوصون" أن يعهد السلطان إلى أحد أبنائه بالملك بعده، فاستجاب لهما وقرر أن يخلفه ولده "أبو بكر"، لكن "بشتاك" عارض في ذلك، واقترح على السلطان أن يختار ولده "أحمد" فرفض السلطان في غضب وحذر الأمراء من الأمير "أحمد" لأنه لم يكن يصلح للعرش، فسكت "بشتاك" ولم يعارض واستقر رأي الجميع على جعل "أبي بكر" وليًا للعهد، فاستدعاه السلطان وأوصاه أن يستمع إلى نصح الأمراء، كما أوصى الأمراء به خيرًا، وعين "بشتاك" و"قوصون" وصيين عليه وعهد إليهما بتدبير شؤون الدولة معه، وولى الأمير "طقزدمر الحموي" حمو الملك "المنصور أبي بكر" نيابة السلطنة لكونه من أكابر الأمراء وصهر السلطان، وجعل "قوصون" مديرًا للمملكة ورأي المشورة فيها، يشاركه الرأي

الأمير "بشتاك"، كما طلب السلطان من ولده "أبي بكر" الإفراج عن "بركة الحبش" التي أوقفها "النشو" وصادرها من الأشراف، وأمره أيضًا بالإفراج عن "صاروجا"، وبالنظر في أمر الخليفة "الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي ربيع" وإعادته إلى الخلافة.

بعد أيام .. أسلم "الناصر محمد بن قلاوون" الروح إلى بارئها، فبكاه الناس جميعًا، ومات "الناصر" عن سبعة وخمسين عامًا وأحد عشر شهرًا وخمسة أيام، وكان ذلك يوم الخميس الموافق الحادي والعشرين من شهر ذي الحجة عام واحد وأربعين وسبعمائة من الهجرة.

بدأت الفتنة بين "قوصون" و"بشتاك" وكان سببها أن تناسى الأمير "بشتاك" وصية السلطان بتولية "أبي بكر" وأصر على اختيار الأمير "أحمد" وذلك للتشابه الغريب بين أخلاق "بشتاك" وأخلاق الأمير "أحمد"، فكلاهما مسرف في إشباع شهواته فاضطر الأمير "قوصون" أمام هذه الفتنة التي أوشكت أن تندلع أن يَخرج إلى الساحة وينادي بأعلى صوته على الأمير "بشتاك"، ودارت بينهما مناقشة حادة كشف كل منهما لزميله عن أصله وفصله، فقال "قوصون": إن كلانا لا يصلح للجلوس على العرش، فالناس جميعًا يعرفون أننا كنا إلى وقتٍ قريب باعة متجولين، والأولى أن ننفذ مشيئة السلطان، أما إذا رأيت غير ذلك فلن أعارضك قط، وسأوافقك على كل ما تراه، ولو شئت أن تقيم كل يوم سلطانًا لوافقتك.

فَتَّحَت كلمات "قوصون" عيني "بشتاك" على نفسه وأخجلته من معارضته لرغبة السلطان الراحل، وأدرك أنه لن يقف أحدٌ من الأمراء جانبه إذا ما أصر على اختيار "أحمد" للسلطنة، فهذا الأمير لم يكن متمتعًا برضاء معظم الأمراء فسلَّم "بشتاك" بانتخاب "أبي بكر"، ثم تقدم من "قوصون" ودخلا معًا إلى حيث كان السلطان ممددًا في فراشه بعد أن فارق الحياة، فقبلا قدميه ثم نزل المنادي يُنادي في الناس بوفاة "الناصر" وبسلطنة "أبي بكر"، وأخذوا بعد ذلك في الاستعداد لمراسم دفن "الناصر" واستقبال السلطان الجديد، ودُفن "الناصر محمد" مع أبيه "المنصور قلاوون" تحت تلك القبة العظيمة التي شيدها.

استمرت عظمة "طوغاي" بعد موت "الناصر"، فأقبلت بحماسٍ شديدٍ على أعمال البِر والإحسان وأنشأت خانقاه وجعلت بها مساكن للصوفية وأوقفت على ذلك أوقافًا كثيرة، وجعلت الخبز يوزع على الفقراء يوميًا، وأقامت القراء على قبر ابنها بالمدرسة المنصورية.

أما السيدة "مِسكة" مُربية "الناصر" وصاحبة الفضل عليه في أخذ البيعة له من الأمراء بعد موت "الأشرف خليل"، فالكل يعلم أنها امرأة عظيمة عطوفة بطبيعتها مع كل الناس حتى مع خدم القصر تنصحهم وتساعدهم وتقدم لهم النصح والعون، لكنها كانت امرأة شديدة المراس إذا تطلب الأمر منها ذلك.

في يومٍ من الأيام.. كانت "مسكة" تتجول في أرجاء قصر "طوغاي" حينما أرخى الليل سدوله تستطلع الأحوال وتتفقد أمر الخدم وعيناها ساهرتان لا تغفلان عن أي شئ يحدث داخل جدران القصر مهما بلغت قدرة أي إنسان، وبعد أن قامت بمهمتها الاستطلاعية تذكرت حال نفسها وهي التي أمضت عمرها مع "آل قلاوون" قاسمتهم مرارة ظلم أمراء "المماليك"، وما عاناه السلطان "الناصر" في طفولته منهم، فكانت لا تغفو عنه لحظة، ترعاه بجوارحها، وتذكرت عطفه عليها ومعاملته الحسنة لها وعطاياه الزائدة التي باتت لا تعرف أين تنفقها، فقد تنعمت بكل شئٍ داخل القلعة، ولم ينقصها ما يبرر لها الإنفاق فيه، فأخذت تفكر بجدية أين تنفق هذه الأموال وماذا تفعل بها؟ والعمر قد اقترب من النهاية ولا وريث لها، فتمنت أن تخدم آخرتها بأن توجه تلك الأموال في أوجه الخير المختلفة بعمل الصدقات الجارية التي تنفع الناس، فتكون لها في ميزان حسناتها، وسرعان ما لاحت لها فكرةٌ فانتفضت واقفة وأخذت تخطو ذهابًا وإيابًا في تلك القاعة الكبيرة ترتب أفكارها لتعرف من أين تبدأ الطريق.

كانت "مسكة" لديها نزعة للتدين يدل عليها أداؤها لفرائض الدين وحرصها على حج البيت كلما سنحت لها الظروف لتغسل عن نفسها ما تكون قد تورطت فيه من ذنوب، ولعلها ممن يؤمنون بأن الحج يغسل ما تقدم من الذنب، فكانت تهرع إلى الصلاة بالاستغفار والدعاء إلى الله، ولا أحد ينكر عليها دورها الهام في الحياة الاجتماعية في "مصر".

أخيرًا .. هداها تفكيرها بإقامة جامعًا لتعليم الفقه الإسلامي للمذاهب الأربعة بمنطقة "السيدة زينب" على قطعة أرض مملوكة لها على أن يكون ملحقًا به ضريحًا لمثواها، ونامت في تلك الليلة تحلم ببناء هذا المسجد، وما أن أفاقت من نومها حتى سعت إلى أحد مهندسي البناء لتتفق معه على بنائه، وأخذت تصور له رؤيتها للمسجد، فقالت له: أريد صحن المسجد مستطيلاً ومكشوفًا ومُحاطًا بأربعة أروقة، رواق من كل جهة، وأن يكون مُلحقًا به من الركن الشمالي الغربي ضريحًا لي.

بُنيَ المسجد وأوقفت "مسكة" عليه أوقافًا كثيرة، وجعلت بجواره سبيلاً لسقاية المـــارة، وحوضًا لشرب البهائم، وارتاحت لهذا القرار، فما عادت تريد شيئًا من الدنيا ولكنها تريـــد حسن الخاتمة والفوز بالآخرة، فأكثرت من البر والصدقات إلى أن لاقت ربها فـــي ســـنة ستٍ وأربعين وسبعمائة من الهجرة بعد موت "الناصر" بخمسة أعوام، وكانت بحق مســـكًا للختام.

تمت

وظائف ومصطلحات مملوكية

حرص "قلاوون الألفي" كما حرص سلاطين "المماليك" الذين حكموا قبله على إرضاء زملائهم القدامى، وسعوا لاكتساب رضائهم، فكان "قلاوون" يعينهم في وظائف الدولة، بل وخلق لهم الكثير من الوظائف حتى يقتل في نفوسهم دواعي الحقد عليه بعد أن نجح دونهم في اغتصاب العرش من "العادل سلامش" ابن "الظاهر بيبرس" والتربع عليه، ومن هنا جاءت كثرة الوظائف وأهم هذه الوظائف:

الكلمة	**معناها**
الإستادار	هو المشرف العام على البيوت السلطانية وعلى الحاشية، وكان "أقبغا" إستادار الملك "الناصر".
الخازندار	هو الذي كان يحفظ ما يجلبه الإستادار من المؤن والأقمشة، ويصرف منها على قدر الحاجة، كما كان يشرف على الخزائن من النقد والأمتعة ويشترط فيه أن يكون أمينًا.
الداويدار	وظيفته تبليغ الرسائل عن السلطان، فيقدم له الأوراق للتوقيع عليه، ولا يدخل دار النيابة إلا راكبًا.
حاجب الحجاب	يقوم بالنظر في المخاصمات بين الأجناد وخلافاتهم في أمور الإقطاعات، وهو القائم مقام النائب في كثير من الأمور.
الجاندار	هو الذي يستأذن على دخول الأمراء على السلطان، ويدخل أمامهم إلى الديوان، و"جان" بمعنى "روح" و"دار" بمعنى "ممسك" فيكون المعنى الأمير الممسك بالروح.
الجوكندار	**هو الذي كان يحمل العصوين الذين يلعب بهما السلطان الكرة.**
البندقدار	هو الذي كان يحمل السهام للسلطان.
الجمدار	هو الذي كان يشرف على ملابس السلطان ويعاونه في لبسه، والمعنى الحرفي لها هو "حامل المرآة".
البشمقدار	هو الذي كان يتولى أمر أحذية السلطان.

الجاشنكير هو المشرف العام على إعداد الأسمطة، وعلى أشربة السلطان، ويشترك مع الاستادار في الترتيب والتنظيم.

المهمندار وظيفته استقبال الرسل الواردة على السلطان وكذا أمراء العربان ممن يفدون على المملكة، وينزلهم دار الضيافة.

الجمقدار هو الذي يحمل الدبوس أمام السلطان.

السلاحدار هو الذي كان يتولى أمر مخازن الأسلحة.

أمير شكار هو لقب الأمير المسؤول عن جوارح الطير وغيرها من وسائل الصيد.

الأوجاقي هو الذي يقوم بترويض خيول السلطان وتدريبها على العدو والقفز.

الجاولي وظيفته نظر الجوالي، واختصاصه النظر في أمور غير المسلمين ممن يقيمون في المملكة.

السنجقدار هو حامل السناجق ومعناها الرايات.

الزناندار/الزمامدار لقب على من يقفون بستارة السلطان من الخصيان و"زنان" معناها نساء.

الحاجب هو مبلغ الأخبار من الرعية للسلطان.

الوالي هو صاحب الشرطة، والمسؤول عن الأمن، وتوكل إليه أمر اللصوص والجرائم وما شابه ذلك.

المحتسب "المجتهد" هو قائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمتحدث في أمر المكاييل والموازين ونحوهما.

ناظر الجيش يقوم بالنظر في حال الجيش وتجنيد من يرى فيه الفائدة والقدرة على القتال وتجريد القوات طبقًا لاحتياجات السلطنة المملوكية.

ناظر الخاصة استحدث هذه الوظيفة السلطان "الناصر محمد بن قلاوون"، وموضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان وإدارته.

أتابك الجيش هو القائد العام لجيش "المماليك"، وهو من أرباب السيوف، ويُعيَّن بمرسوم سلطاني نظرًا لأهمية وظيفته.

الوزير	هو أعظم رجل في الدولة ويلي السلطان.
كاتب السر	هو الذي يقرأ الكتب الواردة على السلطان ويجيب عنها، كما يقرأ الشكاوى بدار العدل ويوقع عليها.
الأمير	هو رئيس الجيش أو الناحية، ونحو ذلك مما يوليه السلطان في إدارة شئون الجهة التي يرأسها.
قاضي القضاة	هو رئيس قضاة المذاهب الأربعة.
نقيب الأشراف	يتحدث باسم الأشراف، ولكن ليس من حقه الجلوس إلى السلطان كما يجلس غيره من أصحاب الوظائف الأخرى.
شيخ الشيوخ	هو الرئيس الأعلى للخانقاه التي أنشأها الملك "الناصر" بـ"سرياقوس"، وليس له أن يجلس مع السلطان.
ناظر الأموال المحبوسة	وينظر في أمور أرزاق الجوامع والمساجد والزوايا والمدارس والخوانق.
مفتي دار العدل	هو أقل من القضاة الأربعة.
وكيل بيت المال	ينوب عن السلطان في مبيعات بيت المال ومشترياته من أرض وعقار وغير ذلك.
رسوم الملك	هي التخت "السرير" والمقصورة التي يؤدي فيها الصلاة بجامعه في "قلعة الجبل".
القاشية	هي سرج من أديم مخرز بالذهب.
المظلة	هي قبة حرير أصفر مُزركش بالذهب بأعلاها طائر من الفضة.
الرقبة	يلبسها الفرس في العيدين مصنوعة من أطلس مزركش بالذهب.
الأعلام	رايات كبيرة من حرير أصفر مطرز بالذهب عليها اسم السلطان وألقابه.
السناجق	هي رايات صغيرة صفراء.
الكوسات	هي قطع دقيقة من النحاس يدق بإحداها على الأخرى بإيقاع خاص، ويدق بها مرتين بالقلعة في كل ليلة، أما إذا كان السلطان في سفر فيدار بها حول خيامه.

الخشداش	أي الزميل أو الرفيق.
وقتًا	حفلاً يُذكر فيه الله، ويقرأ فيه القرآن.
الروك الناصري	مسح أراضي الأقاليم وإعادة توزيع الإقطاعات على الأمراء.
الخانقاه	دار للصوفية فيها مائة خلوة لمائة صوفي يتفرغون فيها للعبادة.
الخاصكية	هم خواص وأتباع أمير أو سلطان ما.
أمير آخور	هو المشرف العام على الإسطبل السلطاني، ويقوم برعاية الخيل والاهتمام بها.

المحتويـات

- **أن تعيش لتحكي**
  السيرة الذاتية
  جابرييل جارثيا ماركيز
  ترجمة: د.طلعت شاهين
- **ذكريات**
  رواية
  تأليف: جابرييل جارثيا ماركيز
  ترجمة: د.طلعت شاهين
- **نضارة شمس**
  شعر
  عطية حسن
- **جماليات الرفض في مسرح أمريكا اللاتينية**
  دراسة
  د.طلعت شاهين
- **القرمية**
  رواية
  تأليف: سميحة خريس
- **طلسمات مصرية**
  محمد حسين يونس
- **رصيف يصلح لقضاء الليل**
  شعر
  سامي الغباشي

- **بين انكسار الحلم والأمل**

شعر

سيد جودة

- **من حلاوة الروح**

رواية

صفاء عبدالمنعم

- **قطرات الماء**

تأليف: ميدوروما شون

ترجمة: د. أحمد فتحي

- **كتاب العشق والدم**

شعر بالعربية والأسبانية

طلعت شاهين

- **قيامة البحر**

شعر

د. قرشي ندراوي

- **إلا .. تعال**

شعر

سهير الداوود

- **كائن العزلة**

رواية

محمود الغيطانى

- **الطائر الأزرق**

قصص من أمريكا اللاتينية

جابرييل جارثيا ماركيز

وأخرون

ترجمة: د. طعلت شاهين

والآن فى المكتبات

الطبعة الثانية



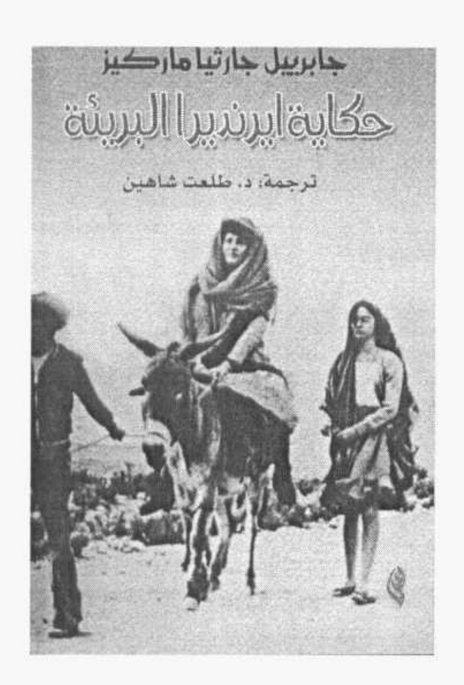
رجل عدن

للكاتبة الإسبانية: **كلارا خانيس**

ترجمة وتقديم: **د. طلعت شاهين**

والآن فى المكتبات

الطبعة الثانية



حكاية أيرانديرا البرئية

تأليف: **جابرييل جارثيا ماركيز**

ترجمة: **د.طلعت شاهين**